محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني

الإلهيات

على هدى الكتاب والسنة والعقل

الجزء الرابع

بقلم

الشيخ حسن محمد مكي العاملي

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام



الإلهيات

على هدى الكتاب والسنة والعقل

٤

سبحاني التبريزي، جعفر، ١٣٤٧ق. ـ
الإلهيات على هدى الكتاب والسنّة والعقل / محاضرات جعفر السبحاني؛ بقلم حسن محمد مكي العاملي. ـ
قم: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ١٤٣٠ ق = ١٣٨٨
٤ج
ISBN:٩٧٨-٩٦٤-٣٥٧-٣٨٤-٣ (ج.١)
ISBN:٩٧٨-٩٦٤-٣٥٧-٣٨٥-٠ (ج.٢)
ISBN:٩٧٨-٩٦٤-٣٥٧-٣٨٦-٧ (ج.٣)
ISBN:٩٧٨-٩٦٤-٣٥٧-٣٨٧-٤ (ج.٤)
ISBN:٩٧٨-٩٦٤-٣٥٧-٣٨٨-١ (دوره)
فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا
١. كلام شيعه اماميه ـ ـ قرن ١٤. الف. مكي العاملي، حسن ١٩٦٢ـ. ب. مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام. ج. عنوان.
BP/٢١١/٥ / ٢س ٨الف
٢٩٧/٤١٧٢

اسم الكتاب: .... الإلهيات على هدى الكتاب والسنّة والعقل، ج ٤
المحاضر: .... العلّامة الفقيه جعفر السبحاني
بقلم: .... الشيخ حسن محمّد مكي العاملي
الطبعة: .... السابعة
المطبعة: .... مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
التاريخ: ١٤٣٠/١٣٨٨ق
الكمية: .... ١٠٠٠ نسخة
الناشر: .... مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

مركز پخش
قم ـ ميدان شهدا، كتابفروشى توحيد
☎ ٧٧٤٥٤٥٧؛ ٠٩١٢١٥١٩٢٧١
http://www.imamsadiq.org
www.shia.ir

محاضرات

الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني



الإلهيات

على هدى الكتاب والسنة والعقل

بقلم

الشيخ حسن محمد مكي العاملي

الجزء الرابع



الفصل التّاسع

الإمامة والخلافة

* مقدّمات

١ ـ تعريف الإمامة .

٢ ـ هل الإمامة من الأصول أو الفروع ؟ .

٣ ـ ماهيةُ الإمامة عند أهل السُّنة .

٤ ـ مؤهلات الإمام عند أهل السُّنَّة .

٥ ـ بماذا تنعقد الإمامة عند أهل السُّنَّة ؟ .

٦ ـ ماهية الإمامةِ عند الشيعة الإمامية .

٧ ـ المصالحُ العامة وصيغةُ الحكومة بعد النبيّ .

٨ ـ هل الشورى أساسٌ للحكم والخلافة ؟ .

٩ ـ هل البَيْعة أساس للحكم والخلافة ؟ .

١٠ ـ تصوُّر النبيِّ الأكرم للقيادة بعدَه .

١١ ـ تصوُّرُ الصحابة للخلافة بعد النَّبي .

١٢ ـ صيغةُ القيادةِ في الشرائع السابقة .

* البحثُ الأول : السُّنَّة النبوية وتنصيبُ علي للإمامة .

* البحث الثاني : السُّنَّة النبويةُ والأئمة الإثنا عشر .

* البحث الثالث : عصمةُ الإمام في القرآن .

* البحث الرابع : الإمام المُنتظرُ في الكتاب والسُّنَّة .

ـ أسئلةٌ مهمةٌ حول المهدي عجَّل الله فرجه .

الفصــل التاســع

الإمــامـة والخِلافــة

المقصود من الإمامـة ، إمامـةُ الأُمّة جمعـاء . خلافـةً عن الرسـول الأكرم . صلى الله عليه وآله ، وقبل الخوض في أصل المقصود ، نقدّم أموراً :

الأمر الأول

في تعريف الإمامة

عُرّفت الإمامة بوجوه :

١ ـ الإمامة رئاسة عامّة في أُمور الدين والدنيا[1] .

٢ ـ الإمامة خلافة الرسول في إقامة الدين ، بحيث يجب اتّباعه على كافة الأُمة[2] .

٣ ـ الإمامة نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا[3] .

٤ ـ الإمامة خلافة عن الرسول في إقامة الدين وحفظ المِلّة بحيث يجب اتّباعه على كافة الأُمة[4] .

والتعريف الأول أَليَقَ على مذهب الإمامية ، والبقية ألصق بمذهب أهل السنّة في الإمام .

والأولى أن تُعَرَّف الإمامة بأنّها رئاسة عامة إلهية . وعلى كل تقدير ، فالمهم هو تحليل ماهية هذه الخلافة ، وتحديدها ، وأنّه ماذا يراد من الإمامة في مصطلح المتكلمين .

---

(١) المواقف ، ص ٣٤٥ ، وقال فيه : « ونُقِضَ بالنبوة » . وسيوافيك أنّ النقض غير وارد .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) مقدمة إبن خلدون ،ص ١٩١ .

(٤) دلائل الصدق ، ج٢ ، ص ٤ . والتعريف للفضل بن روزبهان الأشعري .

الأمر الثاني

هل الإمامة من الأصول أو الفروع ؟

اتّفقت كلمة أهل السنة ، أو أكثرهم ، على أنّ الإمامة من فروع الدين .

قال الغزالي : « إعلم أنّ النظر في الإمامة أيضاً ليس من المهمات ، وليس أيضاً من فنّ المعقولات ، بل من الفقهيات ، ثم إنّها مثار للتعصبات ، والمُعْرِض عن الخوض فيها ، أسلم من الخائض فيها ، وإن أصاب ، فكيف إذا أخطأ ؟ ولكن إذْ جرّ الرسم باختتام المعتقدات بها ، أردنا أن نسلك منهج المعتاد ، فإنّ فطام القلوب عن المنهج ، المخالف للمألوف[1] ، شديد النِّفار »[2] .

وقال الآمدي : « واعلم أنّ الكلام في الإمامة ليس من أُصول الديانات ، ولا من الأُمور اللابدِّيّات ، بحيث لا يسع المكلَّف الإعراض عنها والجهل بها ، بل لَعَمري إنّ المعرض عنها لأرجى من الواغل فيها ، فإنّها قلّما تنفك عن التعصّب ، والأهواء ، وإثارة الفتن والشحناء ، والرجم بالغيب في حق الأئمة والسَّلَف ، بالإزراء ، وهذا مع كون الخائض فيها سالكاً سبيل التحقيق ، فكَيف إذا كان خارجاً عن سواء الطريق . لكن لمّا جرت العادة بذكرها في أواخر كتب المتكلمين ، والإبانة عن تحقيقها في عامة مصنفات الأُصوليين ، لم نَرَ من الصواب

---

(١) كذا في المصدر ، والظاهر أنّ « المخالف » صفة « الفطام » ، أو أنّ « المخالف » زائد .

(٢) الإقتصاد في الإعتقاد ، ص ٢٣٤ .

خَرْق العادة بِتَرْك ذكرِها في هذا الكتاب »[١] .

وقـال الإيجي : « وهي عندنـا من الفروع ، وإنّمـا ذكرنـاها في علم الكـلام تأسياً بمن قبلنا »[٢] .

وقـال التفتازاني : « لا نـزاع في أنّ مباحث الإمـامة ، بعلم الفـروع أليق ، لرجوعها إلى أنّ القيام بالإمامة ، ونصب الإمام الموصوف بالصفات المخصـوصة ، من فـروض الكفايـات ، وهي أُمور كليّـة تتعلق بها مصـالح دينيـة أو دنيويـة ، لا ينتظم الأمر إلاّ بحصولها ، فيقصـد الشارع تحصيلهـا في الجملة من غير أن يقصـد حصـولهـا من كـلّ أحـد . ولا خفـاء في أنّ ذلـك من الأحكـام العمليـة دون الإعتقادية »[٣] .

هذا ما لدى أهل السُّنة ، وأمّا الشِّيعة ، فالإعتقاد بالإمامة عندهم أصل من أُصول الدين ، وسيظهر وجهه في الأبحاث التالية .

وها هنا سؤال يطرح نفسه ، وهو أنّه إذا كـانت الإمامـة من الفروع ، فـأي معنى لسـلّ السيف على هـذا الحكم الفرعي ، حتى قـال الشهرستـاني : « وأعظم خلاف بين الأُمة ، خلافُ الإمامة ، إذْ ما سُلّ سيف في الإسلام على قـاعدة دينيـة مثل ما سُلّ على الإمامة في كلّ زمان »[٤] .

فإذا كان الإعتقاد بإمـامة شخص ، تَـوَلّى الخلافـة بعد رسـول الله صلى الله عليه وآله ، من الأحكام الفرعيّة ، فإنّ المخـالفة فيـه لا تستلزم تكفير المخـالف أو تفسيقه ، إذا كان للمخالف حجة شرعية ، كمخالفة المجتهد للمجتهد .

مثـلاً : إنّ المسـح عـلى الخُفَّيْن ، أو جـواز العمل بـالقياس ، من مسـائـل الفروع الخلافية ، فهل ترى من نفسك تجويـز تكفير المخـالف ، أو تفسيقه ؟ ، أو

(١) غاية المرام في علم الكلام ، ص ٣٦٣ ، لسيف الدين الآمدي ، (ت ٥٥١ ـ م ٦٣١) .
(٢) المواقف ، ص ٣٩٥ .
(٣) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٧١ .
(٤) الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج ١ ، ص ٢٤ .

إنّ لكلٍّ حُجَّتَه ودليله ، وإنّ للمصيب أَجْرَيْن وللمخطيء أجراً واحداً ، فما هذه الدمدمة والهمهمة حول الإمامة ؟ .

وإذا كانت الإمامة ، بعامَّة أبحاثها من الفروع ، فما وجه إقحام ذلك في عِداد المسائل الأُصولية ، كما ارتكبه إمام الحنابلة ، وقال : « خير هذه الأمة بعد نبيّنا ، أبو بكر ، وخيرُهُم بعد أبي بكر ، عُمَرْ ، وخيرهم بعدَ عُمَر ، عُثْمان ؛ وخيرهم بعد عثمان ، عَليّ ؛ رضوان الله عليهم ، خلفاء راشدون مهديُّون »[1] .

ومثلُه ، أبو جعفر الطحاوي الحنفي في العقيدة الطحاوية ، المسماة بـ « بيان عقيدة السنّة والجماعة » ، حيث قال : « وتُثْبت الخلافة بعد النبي (صلى الله عليه وآله) لأبي بكر الصِّدِّيق ، تفضيلاً ، وتقديماً على جميع الأُمّة ، ثم لِعُمَرَ بن الخطاب ، ثم لعثمان بن عفّان ، ثم لعليّ بن أبي طالب »[2] .

وقد اقتفى أثرهما الشيخ أبو الحسن الأشعري ، عند بيان عقيدة أهل الحديث وأهل السُّنة ، والشيخ عبد القاهر البغدادي في بيان الأُصول التي اجتمع عليها أهل السنّة[3] .

وهذا الصراع بين القولين ، أراق الدماء الطاهرة ، وجرّ على الأُمّة الويلَ والثُبور ، وعظائم الأمور ، فما معنى إقحام الإعتقاد بالأحكام الفرعية في قائمة العقائد ؟ وإنْ هذا إلاّ زَلَّةٌ لا تُستقال .

نعم ، أوَّلُ من لبّس الأمر ، وجعل الإعتقاد بها من صميم الإيمان على

---

(١) كتاب السنة ص ٤٩ ، المطبوع ضمن رسائل بإشراف حامد محمد فقي . وهذا الكتاب أُلِّف لبيان مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر وأهل السُّنة ، وَوَصَفَ مَنْ خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طغى فيها أو عاب قائلها ، بأنّه مخالف مبتدع وخارج عن الجماعة ، زائل عن منهج السنّة وسبيل الحق .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، للشيخ عبد الغني الميداني الحنفي الدمشقي ، ص ٤٧١ ، وأخذنا العبارة من المتن . وتوفي الطحاوي عام ٣٢١ هجرية .

(٣) لاحظ « الإبانة عن أُصول الديانة » ، الباب ١٦ ، ص ١٩٠ و« الفَرْق بين الفِرَق » ص ٣٥٠ . ولاحظ « لُمَع الأدلة » للإمام الأشعري ، ص ١١٤ ، و« العقائد النَّسفية » ص ١٧٧ .

مسلك أهـل السنـة ، هـو عَمْـرو بن العـاص ، عنـدمـا اجتمـع مـــع أبي مـوسى الأشعري ، في دومة الجندل . وما جَعَلَ الإعتقاد بخـلافة الخليفتـين الأوَّلَيْن ، إلاّ للإزدراء بعليّ (عليه السلام) وشيعته[1] .

* * *

(١) لاحظ مروج الذهب للمسعـودي ، ج ٢ ، ص ٣٩٧ . ولاحظ «بحوث في الملل والنحل» ، لشيخنا الأستاذ ـ دام ظلّه ـ ج ١ ، ص ٢٦٥ ـ ٢٧٢ .

الأمـر الثالث

ماهية الإمامة عند أهل السنّة

إنّ اتّفاق مشايخ المتكلمين من أهل السنّة على كون الإمامة من الفـروع التي يبحث عنهـا في الكتب الفقهية ، واتّفـاق الشيعة الإمـامية عـلى أنّها من الأصول ، ينشآن من أصل آخر ، وهو أنّ حقيقـة الإمامـة تختلف عند السنّـة ، عمّا هي عنـد الشيعة ، فالسُّنة ينظرون إلى الإمام كرئيس دولة ، ينتخبه الشعب أو نوّاب الأُمّة ، أو يتسلّط عليها بانقلاب عسكري ، وما شابه ذلك ، فإنّ مثل هـذا لا يشترط فيـه سـوى بعض المـواصفـات المعـروفـة ، ومن المعلوم أنّ الإعتقـاد بـرئـاسـة رئيس جمهورية ، أو رئيس وُزَراء ، ليس من الأصول ، بحيث يُفَسَّق من لم يعتقد بإمامته ورئـاسته وولايتـه . وهذه هي البـلاد الإسلاميـة لّما تـزل يسيطر عليهـا رئيس بعد آخر ، رغبة أو رهبة ، ولم يَرَ أَحَدٌ الإعتقادَ بـإمامتـه من الأُصول ، ولم يَجْعَـلِ فِسْقَه موجباً لخَلْعِه ، وإلّا لما استقرّ حجر على حجر .

وأمّا الشيعة الإمامية ، فينظرون إلى الإمامة بأنّها استمرار لوظـائف الرسـالة (لا لنفس الرسالة ، فإنّ الرسالة والنبوة مختـومتان بـالتحاق النبي الأكـرم بالـرفيق الأعلى) ، ومن المعلوم أنّ ممارسة هذا المقام ، يتوقف على توفر صلاحيات عالية ، لا ينالها الفرد ، إلّا إذا وقع تحت عناية إلهيةّ ربّانية خاصة ، فيخلُف النبيَّ في علمه بـالأصول والفـروع ، وفي عدالتـه وعصمته ، وقيـادته الحكيمـة ، وغير ذلـك من الشؤون .

وممّا يعرب عن أنّ الإمامة عند أهل السنّة أشبه بسياسة وقتية زَمَنِيّة ، يشغلها

فرد من الأُمّة بأحد الطرق ، ما اشترطوه من الشروط ، وذكروه من الأوصاف في حق الإمام ، وستوافيك فيما يأتي . ولأجل إيقاف الباحث على صحّة هذا التحليل نشير إلى بعض كلماتهم .

قال الباقلاني : « لا ينخلع الإمام بفسقه وظُلْمِهِ بغصب الأموال ، وضَرْب الأبشار ، وتناول النفوس المحرمة ، وتضييع الحقوق ، وتعطيل الحدود ، ولا يجب الخروج عليه ، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في شيء ممّا يدعو إليه من معاصي الله »[1] .

وقال الطحاوي : « ولا نرى الخروج على أئمتنا ووُلاة أُمورنا ، وإن جاروا ، ولا ندعوا عليهم ، ولا ننزع يداً من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ، ما لم يأمروا بمعصية ، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة »[2] .

وقال : « والحج والجهاد ماضيان مع أُولي الأمر من المسلمين ، بِرِّهِم وفاجِرِهِم ، إلى قيام الساعة ، ولا يبطلهما شيء ولا يَنْقُضُهما »[3] .

قال التفتازاني : « ولا يَنْعَزِلُ الإمام بالفسق ، أو بالخروج عن طاعة الله تعالى ، والجور (أي الظلم على عباد الله) ، لأنّه قد ظهر الفسق ، وانتشر الجور من الأئمة والأمراء بعد الخلفاء الراشدين ، والسلف كانوا ينقادون لهم ، ويقيمون الجُمَع والأعياد بإذنهم ، ولا يرون الخروج عليهم » . ونَقَلَ عن كتب الشافعية أنّ القاضي ينعزل بالفسق بخلاف الإمام ، والفرق أن في انعزاله ووجوب نصب غيره إثارة الفتنة ، لما له من الشوكة ، بخلاف القاضي[4] .

إلى غير ذلك من الكلمات التي ذكروها في وجوب إطاعة السلطان الجائر ، وحرمة الخروج عليه[5] . فإنّ هذه الكلمات تبين لنا موقع منصب الإمامة عند أهل

---

(١) التمهيد ، للقاضي أبي بكر الباقلاني ، ص ١٨١ . توفي القاضي عام ٤٠٣ .

(٢) متن شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٧٩ ، ولاحظ ما ذكره في شرحه .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٨٧ .

(٤) شرح العقائد النسفيّة ، المتن لأبي حفص عمر بن محمد النَّسفي (م ٥٣٧) ، والشرح لسعد الدين التفتازاني (م ٧٩١) ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ، ط إسطنبول .

(٥) لاحظ مقالات الإسلاميين ، للأشعري ، ص ٣٢٣ ، وأصول الدين ، لمحمد بن عبد الكريم اليزدوي (إمام الماتريدية) ، ص ١٩٠ .

الحديث والأشاعـرة ، وكلّها تعـرب عن أنّهم ينظرون إلى الإمـامة كسيـاسة وقتيـة زمنية ، وإلى الإمام كسائس عاديّ يقود أُمّته في حياتهم الدنيوية . ولأجـل ذلك لا يكون الفسق والجور ، وهتك الأستار ، قـادحاً في إمـامتهم ، كما أنّ التسلط عـلى الرقاب بـالقهر والإستيـلاء ، والنار والحـرب ، أحد الـطُرق المسوغـة للتربع عـلى منصّة الإمامة .

فإذا كانت هذه هي حقيقة الإمامة ، وكان هذا هو الإمام ، فلا غرابة حينئذٍ في جعلها من الأحكام الفرعية .

* * *

الأمر الرابع

مؤهلات الإمام عند أهل السنّة

إنطلاقاً من البحث السابق في تبيين ماهية الإمامة ، عند أهل السنّة لم يشترطوا في الإمام سوى عدّة صلاحيات ، تشترط في عامة الرؤساء ، وإليك نصوصهم :

(١) ـ قال الباقلاني(م ٤٠٣) : « يشترط :

ـ أن يكون قُرَشِيّاً من صميم .

ـ وأن يكون في العلم بمنزلة من يصلح أن يكون قاضياً من قُضاة المسلمين .

ـ وأن يكون ذا بصيرة بأمر الحرب ، وتدبير الجيوش والسرايا ، وسدّ الثغور ، وحماية البيضة ، وحفظ الأمّة ، والإنتقام من ظالمها ، والأخذ لمظلومها »[1] .

(٢) ـ وقال عبد القاهر البغدادي(م ٤٢٩) : « قال أصحابنا إنّ الذي يصلح للإمامة ينبغي أن يكون فيه أربعة أوصاف :

ـ أحدها : العلم . وأقل ما يكفيه منه ، أن يبلغ فيه مبلغ المجتهدين في الحلال والحرام ، وفي سائر الأحكام .

---

(١) التمهيد ، ص ١٨١ .

ـ الثاني : العدالة والورع . وأقلّ ما يجب لـه من هذه الخصلة ، أن يكـون ممن يجوز قبول شهادته تَحَمُّلاً وأداءً .

ـ والثالث : الإهتداء إلى وجوه السياسة وحُسْنِ التدبير ، وأن يعرف مراتب الناس ، فيحفظهم عليهـا ، ولا يستعين عـلى الأعمال الكبـار ، بالعُـمَّال الصغار ، ويكون عارفاً بتدبير الحروب .

ـ الرابع : النَّسَب من قُرَيْش »[1] .

(٣) ـ وقال أبو الحسن البغـدادي الماوردي (م ٤٥٠) : « الشروط المعتـبرة في الإمامة سبعة :

أحدها : العدالة على شروطها الجامعة . الثاني : العلم المؤدّي إلى الإجتهاد في النوازل والأحكام . الثـالث : سلامـة الحواس من السمـع والبصر واللسان . الرابع : سلامةُ الأعضاء . الخامس : الـرأي المُفضي إلى سياسـة الرعيـة وتدبـير المصالح . السادس : الشجاعة والنجدة . السابع : النَّسب ، وهو أن يكون من قريش[2] .

(٤) ـ وقال ابن حزم (م ٤٥٦) : « يشترط فيه أمور :

١ ـ أن يكون صلبه من قـريش ، ٢ ـ أن يكون بـالغاً مميـزاً ، ٣ ـ أن يكون رجلاً ، ٤ ـ أن يكـون مسلماً ، ٥ ـ أن يكون متقدِّماً لأمـره ، ٦ ـ عالمـاً بما يلزمـه من فرائض الدين ، ٧ ـ متَّقياً لله بالجملة ، غـير معلنٍ الفساد في الأرض . ٨ ـ أن لا يكون مولّىً عليه »[3] .

(٥) ـ وقـال القاضي سراج الـدين الأرْمَوي (م ٦٨٩) : « صفـات الأئمة تسع :

١ ـ أن يكـون مجتهـداً في أُصـول الـدين وفـروعـه ، ٢ ـ أن يكـون ذا رأي

(١) أصول الدين ، لأبي منصور البغدادي ، م ٤٢٩ ، ص ٢٧٧ . ط دار الكتب العلمية ـ بيروت .
(٢) الأحكام السلطانية ، ص ٦ .
(٣) الفِصَل ، ج ٤ ، ص ١٨٦ .

وتدبير ، ٣ ـ أن يكون شجاعاً ، ٤ ـ أن يكون عدلاً ، ٥ ـ أن يكون عـاقلاً ، ٦ ـ أن يكـون بالغـاً ، ٧ ـ أن يكـون مُـذَكَّـراً ، ٨ ـ أن يكـون حُـرّاً ، ٩ ـ أن يكـون قُرَشيّاً »[1] .

(٦) ـ وقال التفتازاني (م ٧٩١) : « قـد ذكرنـا في كتبنا الفقهيـة أنّه لا بـدّ لـلأمّة من إمـام يحيي الشريعة ، ويُقيم السنّـة ، وينتصف للمظلومـين ، ويستوفي الحقـوق ، ويضعها مـواضعها ، ويشـترط أن يكون مكلَّفـاً ، مسلمـاً ، عـدلاً ، حُـرّاً ، ذَكَراً مجتهـداً ، شجاعـاً ، ذا رأي وكفايـة ، سميعـاً بصـيراً ، نـاطقـاً ، قريشياً ، فإن لم يوجد من قريش من يستجمع هذه الصفات المعتبرة ، وُلّي كِنانيّ ، فإن لم يوجد فَرَجلٌ من ولد اسماعيل ، فإن لم يوجد فَرَجُلٌ من العجم »[2] .

(٧) ـ وقـال الفضل بن روزبهـان : « وشروط الإمـام أن يكـون مجتهـداً في الأصـول والفروع ليقـوم بأمـر الدين ، ذا رأي وبصـارة بتدبـير الحرب ، وتـرتيب الجيوش ، شجاعاً ، قويَّ القلب لِيَقْوَى على الذَّبِّ عن الحوزة »[3] .

ويلاحظ على هذه الشـروط

أوّلاً : إنّ اختـلافهم في عـدد الشرائط قلّة وكـثرة ، نـاشيء من افتقـادهم النصّ الشرعي في مجال الإمامة واعتقادهم أنّ منصب الإمـامة ، ـ مـع عظمتـه ـ لم تَبس فيه النبي الأكرم ببنت شفة ، وإنّما المـوجود عنـدهم نصوص كليـة لا تتكفل لتعيين هذه الشروط ، ولا تتكفـل لتبيين صيغـة الحكومـة الإسلاميـة بعد النبي ، والمصـدر لهـذه الشروط عنـدهم هـو الإستحسـان ، والإعتبـارات العُقَـلائيـة ، وملاحظة الأهداف التي يمارسها الإمام والخليفة بعد النبي الأكرم .

وهـذا ممـا يقضي منـه العَجَب ، وهـو أنّ النبي كَيْفَ تـرك بيـان هـذا الأمـر

---

(١) مطالع الأنوار ، ص ٤٧٠ .

(٢) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٧١ .

(٣) دلائل الصدق ، ج ٢ ، ص ٤ .

المُهِمّ ، شرطاً وصفةً ، مع أنّه بَيِّنٌ أبسط الأشياء وأدناها ، من المكروهات والمستحبات .

وثانياً : إنّ اعتبار العدالة لا ينسجم مع ما ذهبوا إليه من أنّ الإمام لا ينخلع بفسقه وظلمه ، وغيره ممّا نقلناه عنهم .

كما أنّهم جعلوا القَهْرَ والإستيلاء ، أحد الأُمور التي تنعقد بها الإمامة ـ كما سيأتي ـ وتجعل المستولي والقاهر ولي أمرٍ ، يشمله قوله سبحانه : ﴿ يآ أَيُّها الَّذينَ آمَنوا ، أطيعوا الله وأَطيعوا الرَّسولَ وأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[1] . ومن المعلوم أنّ القاهر والمستولي بالحرب والنّار ، لا يهمه إلاّ السلطة وإعمال القدرة ، سواءٌ أُجْتَمَعَت فيه هذه الشروط أَوْ لا . أفهل يجب إطاعة مثل هذا ؟ :

وجوب طاعته لا ينسجم مع اعتبار هذه الشروط ؛ وعدم وجوب طاعته لا ينسجم مع كون القهر والغلبة من الأُمور التي تنعقد بها الإمامة .

وثالثاً : إنّ التاريخ الإسلامي يشهد بأنّ الخلَفاء بعد عليّ عليه السلام ، كانوا يفقدون أكثر هذه الصلاحيات ومع ذلك يمارسون الخلافة .

فهذه صحائف تاريخهم ، من لدن تَسَنُّمِ معاوية عرش الخلافة ، إلى آخر خلفاء بني مروان ، خضبوا وجه الأرض بدماء الأبرياء ، وقتلوا الصحابة والتابعين، ونهبوا الديار والأموال، وقد بلغ جورهم وظلمهم الذروة ، حتى ثارت عليهم الأُمّة ، وقتلت صغيرهم وكبيرهم ، فلم يبق منهم إلاّ مَنْ فرَّ إلى الأندلس . وبَعْدَهم تسلّط العباسيون ، باسم حماية أهل البيت ، ولكن حدث ما حدث ، ولم تكن سيرتهم أحسن حالاً من سيرة الأمويين ، حتى قال القائل :

يا لَيْتَ جَوْرَ بني مَرْوانَ دام لنا
وَلَيْتَ عَدْلَ بني العبّاسِ في النارِ

* * *

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

الأمر الخامس

بماذا تنعقد الإمامة عند أهل السنّة ؟

قد تعرّفت على عقيدة أهل السنّة في باب الإمامة ، وأنّها عندهم أشبه بسياسة وقتية زمنية ، يقودها الحاكم العادي مع كفاءات ومؤهلات ، تطابق شأنه .

وعلى ذلك يرجع تعيين الإمام إلى نفس الأُمّة ، لا إلى الله سبحانه ولا إلى رسوله ، وهم قد اختلفوا فيما تنعقد به الإمامة على أقوال شتّى نأتي ببعضها :

١ ـ قال الإسفرائيني : (ت ٣٤٤ ـ م ٤٠٦) في كتاب الجنايات : « وتنعقد الإمامة بالقهر والإستيلاء ، ولو كان فاسقاً أو جاهلاً أو عجمياً »[١] .

٢ ـ قال الماوردي (م ٤٥٠ هـ) : « إختلف العلماء في عدد من تنعقد به الإمامة منهم ، على مذاهب شتّى . فقالت طائفة : لا تنعقد إلّا بجمهور أهل العقد والحلّ من كل بلد ، ليكون الرضا به عامّاً ، والتسليم لإمامته إجماعاً ، وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبي بكر على الخلافة باختيار من حضرها ، ولم ينتظر ببيعته قدوم غائب عنها .

وقالت طائفة أخرى : أقلّ ما تنعقد به منهم الإمامة ، خمسة يجتمعون على عقدها ، أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة ، استدلالاً بأمرين : أحدهما : أنّ بَيْعة

(١) إحقاق الحق ، للسيد التُّسْتَري ، ج ٢ ، ص ٣١٧ .

أبي بكـر إنعقدت بخمسـة إجتمعوا عليهـا ثم تابعهم النـاس فيها ، وهم عمـر بن الخـطاب ، وأبو عُبَيـدة بن الجراح ، وأسيـد بن حضير ، وبشر بن سعـد ، وسـالم مولى أبي حُذيفة .

والثاني : أنّ عمر جعل الشورى في ستة ليعقد لأحدهم برضا الخمسة .

وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة .

وقـال آخرون من علماء الكـوفة : تنعقـد بثـلاثـة يتـولاهـا أحـدهم بـرضـا الإثنين ، ليكونوا حاكماً وشاهدَيْن ، كما يصحّ عقد النكاح بِوَلي وشاهدين .

وقالت طائفة أُخرى : تنعقد بواحـدٍ ، لأَنَّ العباس قـال لعلي : امـدُدْ يَدَكَ أُبايعك ، فيقـول النَّاس عمّ رسـول الله صلى الله عليـه وآله بـايعَ ابن عمّـه ، فلا يختلف عليك اثنان . ولأنّه حُكْمٌ ، وحكمُ واحدٍ نافذٌ »[1] .

٣ ـ قـال إمام الحـرمين الجـويني (م ٤٧٨هـ) : « إعلموا أنّـه لا يُشترط في عقـد الإمامـة الإجماع ، بـل تنعقد الإمـامة ، وإن لم تُجْمـع الأُمّة عـلى عَقْـدهـا . والدليل عليه أَنَّ الإمامة لَمّا عُقـدت لأبي بكر ، إبتـدر لإمضاء أحكـام المسلمين ولم يتأنّ لانتشار الأخبار إلى مَنْ نأى من الصحابة في الأقطار ، ولم يُنكـر عليـه مُنْكِر . فإذا لم يشترط الإجماع في عقد الإمامة لم يَثْبت عدد معدود ، ولا حدٌّ محدود ، فالوجه الحكم بأنّ الإمامة تنعقد بعقدِ واحدٍ من أهل الحَلّ والعقد »[2] .

٤ ـ قـال القُرْطُبي : (م٦٧١هـ) : « فـإنْ عَقَـدها واحدٌ من أهــل الحـلّ والعقد ، فذلك ثابت ، ويلزم الغير فعله ، خلافاً لبعض الناس ، حيث قال : لا تنعقد إلاّ بجماعة من أهل الحلّ والعقد ، ودليلنا : أنّ عُمَر عقد البيعة لأبي بكـر ، ولم ينكـر أحد من الصحـابة ذلـك[3] . ولأنّه عَقْـد ، فوجب أن لا يفتقـر إلى عدد

(١) الأحكام السلطانية ، ص ٦ ـ ٧ ، ط الحلبي بمصر .

(٢) الإرشاد ، ص ٤٢٤ .

(٣) ولعل القرطبي لم يقرأ مأساة السقيفة بين المهاجرين والأنصار ، وإلاّ فـالإعتراض والنـزاع كان قـائماً على قدم وساق ويكفي في ذلك مراجعة كتـاب الإمامـة والسياسـة لابن قتيبة ، وتـاريخ الـطبري ، =

يعقدونه كسائر العقود »[1] .

٥ ـ وقال القاضي عضد الدين الإيجي (م٧٥٧) : « المقصد الثالث فيما تثبت به الإمامة ، وأنها تثبت بالنّص من الرسول ، ومن الإمام السابق ، بالإجماع ، وتثبت ببَيْعَة أهل الحلّ والعقد. لنا ، ثبوت إمامة أبي بكر بالبَيْعة » .

وقال : « وإذا ثبت حصول الإمام بالإختيار والبَيْعة ، فاعلم أنّ ذلك لا يفتقر إلى الإجماع ، إذ لم يقم عليه دليل من العقل أو السمع ، بل الواحد والإثنان من أهل الحلّ والعقد ، كافٍ ، لعِلْمنا أنّ الصحابة ، مع صلابتهم في الدين ، اكتفوا بذلك ، كعقد عمر لأبي بكر ، وعَقْد عبد الرحمن بن عوف لعُثْمان ، ولم يشترطوا اجتماع مَنْ في المدينة ، فضلاً عن إجماعهم هذا ، ولم ينكر عليه أحد ، وعليه انطوت الأعصار إلى وقتنا هذا »[2] .

٥ ـ وعلى ذلك مضى شارح المواقف السيد شريف الجرجاني(٨١٦)[3] .

٦ ـ وقال التفتازاني (م ٧٩١) : « وتنعقد الإمامة بطرق :

أحدها : بيعة أهل الحلّ والعقد من العلماء والرؤساء ووجوه النّاس الذين يتيسر حضورهم من غير اشتراط عدد ، ولا اتّفاق مَنْ في سائر البلاد ، بل لو تعلّق الحَلُّ والعَقْدُ بواحد مطاع كفت بيعته .

الثاني : إستخلاف الإمام وعهده ، وجعله الأمر شورى بمنزلة الإستخلاف ، إلاّ أنّ المستخلَف عليه غير متعين فيتشاورون ، ويتفقون على أحدهم ، وإذا خَلَع الإمام نَفْسَه كان كموته ، فينتقل الأمر إلى ولي العهد .

الثالث : القَهْرُ والإستيلاء ، فإذا مات الإمام وتصدّى للإمامة من

= وسيرة إبن هشام ، وكتاب السقيفة لأبي بكر الجوهري المتوفّى عام ٢٨٠ . وفيما يأتي من المباحث نشير إلى بعض تلك الوقائع .

(١) تفسير القرطبي ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

(٢) المواقف ، صفحة ٣٩٩ ـ ٤٠٠ ، ط عالم الكتب .

(٣) شرح المواقف ، ج ٨ ، ص ٣٥١ ـ ٣٥٣ .

يستجمع شرائطها من غير بيعة واستخلاف ، وقَهَرَ الناس بشوكته ، انعقدت الخلافة له وكذا إذا كان فاسقاً أو جاهلاً على الأظهر »[1] .

يلاحظ على هذه الأقوال والنظريات

أولاً ـ إنّ موقف أصحاب هذه الأقوال في المسألة ، موقفُ من اعتقد بصحة خلافة الخلفاء ، فاستدلّ به على ما يرتئيه من الرأي ، من انعقادها بواحد أو اثنين ، أو اتّفاق من تيسّر حضوره ، دون النائين من الصحابة ، وغير ذلك .

وهذا النَّمَط من الإستدلال ، إستدلال بالمُدّعى على نفس المُدّعى ، وهو دور واضح . والعجب من هؤلاء الأعلام كيف سكتوا عن الإعتراضات الهائلة التي توجهت من نفس الصحابة من الأنصار والمهاجرين على خلافة الخلفاء ، الذين تمّت بَيْعتهم ، بِبَيْعة الخمسة في السقيفة ، أو بَيْعة أبي بكر لعمر ، أو بشورى السِّتَّة ، فإنّ من كان مُلِمّاً بالتاريخ ومهتماً به ، يرى كيف كانت عقيرة كثير من الصحابة مرتفعة بالإعتراض . حتى أنّ الزُبير وقف في السقيفة أمام المبايعين ، وقد اخترط سيفه ، وهو يقول : « لا أُغمده حتى يبايَعَ عليٌّ » . فقال عمر : « عليكم الكلب »! . فأخذ سيفه من يده ، وضرب به الحجر ، وكُسِرَ[2] .

ويكفي في ذلك قول الطبري أنّه قام الحباب بن المنذر ـ وانتضى سيفه ـ وقال : « أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ ، وعُذَيْقُها المُرَجَّب ، أنا أبو شبل ، في عرينة الأسد ، يعزى إليّ الأسد ، فحامله عمر ، فضرب يده ، فندر السيف ، فأخذه ، ثم وثب على سعد (بن عبادة) ووثبوا على سعده وتتابع القوم على البيعة ، وبايع سعد ، وكانت فلتة كفلتات الجاهلية ، قام أبو بكر دونها ، وقال قائل حين أُوطِئ سعد : قتلتم سعداً . فقال عمر : قتله الله ، إنّه منافق . واعترض عمر بالسيف صخرة فقطعه[3] .

---

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، ط اسطنبول .

(٢) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ١١ .

(٣) تاريخ الطبري ، حوادث عام١١ ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ . وفي رواية أخرى للطبري أنّ عمر قام على

هـذه نبذة يسـيرة من الأصـوات المُدَوِّيـة التي عـارضت الخـلافـة والخليفـة المنتخـب ، وكم لها من نظير في السقيفة والشورى وغيرهما ضربنا عنه صفحاً .

أفيصح بعد ذلـك قول القـرطبي : « ولم ينكر أحـد من الصحابـة ذلك » ، وكأن الحباب ، وسعداً ، وابنه قيس ، وعامة الخزرجين ، وبني هاشم ، والزبير ، لم يكونوا من الصحابة ؟ ! .

وثـانياً ـ إنّ هـذا الإختلاف الفـاحش في كيفية عقـد الإمامـة ، يعـرب عن بـطلان نفس الأصل لأنّـه إذا كانت الإمـامة مفـوضة إلى الأُمّـة ، كـان عـلى النبي الأكرم بيان تفاصيلها وخصوصياتها وخطوطها العريضة ، وأنّه هل تنعقد بواحد أو إثنين من الصحابة ؟ أو تنعقد بأهل الحلّ والعقد منهم ؟ أو بالصحابة الحضور عند رحلة النبي أو رحلة الإمـام السـابق ؟ أو بـاتّفـاق جميـع المسلمـين بـأنفسهم ، أو بممثليهم ؟ .

وليس عقد الإمامة لرجل ، أقلّ من عقـد النكاح بـين الزوجـين الذي اهتمّ القـرآن والسنّـة ببيـانـه وتحـديـده ، كـما اهتمت السنّـة عـلى الخصـوص بشؤونـه وأحكامه .

والعجب أنّ عقـد الإمامـة الـذي تتـوقف عليـه حيـاة الأُمّـة ، لم يـطرح في النصوص ، لا كتاباً ولا سنّة ـ على زعم القوم ـ ولم تُبَيِّن حدوده ولا شرائـطه ، ولا سائر مسائله التي كان يواجهها المسلمون بعد وفاة النبي الأكرم مباشرة !! .

رأس سعد ، وقال : لقد هممت أن أطأك حتى تنـدر عضوك . فـأخذ سعـد بلحية عمـر ، وقال : والله لـو حصحصت منه شعـرة ما رَجِعْتَ وفيـك واضحة ، أمـا والله لو أنّ بي قـوة مـا أقـوى عـلى النهوض لسمعت مني في أقطارها وسككها زئـيراً يُجْحِرك وأصحـابك (أي يلزمهم دخـول الجحر ، وهو كناية عن شدّة التضييق) ، أما والله ، إذاً لألحقنّك بقوم كُنْتَ فيهم تابعاً غير متبوع ، احملوني من هذا المكان » . فحملوه ، فأدخلوه في داره . وتُرِك أياماً ، ثم بعث إليه أن أقْبِل ، فبايِع ، فقـد بايع الناس ، وبايَـعَ قومُـك . فقال : أمـا والله حتى أرميكم بما في كنـانتي من نبلي وأُخَضِّب سنـان رمحي ، وأضربكم بسيفي مـا مَلِكَتْهُ يـدي ، وأُقاتلكم بـأهـل بيتي ومن أطـاعني من قـومي ، فـلا أفعل . وأيْمُ الله ، لو أنّ الجنّ اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أُعْرَضَ عـلى ربّي ، وأعلم ما حسابي » . فكـان سعد لا يصـلّي بصلاتهم ولا يُجْمِـع معهم ، ولا يفيض معهم إفاضتهم ، فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر . (المصدر نفسه) . وسعد بن عبادة سيد الخزجيين .

وجملة القـول ، إنّ اختـلافهم في شرائط الإمـام وطـرق تنصيبـه ، جعـل الخلافة وبالاً على المسلمين، حتى أخذت لنفسهـا شكلاً يختلف كـلّ الإختلاف عن الشكـل الـذي ينبغي أن تكـون عليـه . فقـد أصبحت الخـلافـة الإسـلاميـة ، إمبراطورية ، وملكاً عضوضاً ، يتنـاقلها رجـال العَيْث والفساد ، من يـد فاسق ، إلى آخر فاجر غارق في الهـوى ، إلى ثالث سفّـاك متعصّب . وقد أعـانهم في تسنم ذروة تلك العـروش ، مـرتـزقـة من رجـال متـظاهـرين بـاسم الـدين ، فـبرروا أفعالهم ، ووجّهوا أعمالهم توجيهاً ملائماً للظروف السائدة ، وصحّحوا إتجـاهاتهم السياسية الخاصة ، فخلقوا في ذلك أحاديث وسنن مفتعلة على صاحب الرسـالة ، واصطنعوا لهـذا وذاك فضائـل ، لتدعيم مـراكزهم السيـاسية ، ويكفيـك النموذج التالي ، لتقف على حقيقة تلك الأحاديث المفتراة .

رووا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّه قال : « يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهُدايَ ، ولا يَسْتَنّون بسُنّتي وسيقوم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس . قال الراوي : قلت : كيف أصنع يا رسـول الله إن أدركت ذلك ؟ قـال : تسمع وتطيع للأمير ، وإن ضَرَبَ ظهرَك ، وأُخَذَ مالَك ، فاسمع وأطع »[1] .

* * *

---

(١) صحيح مسلم ، ج ٦ ، بـاب الأمـر بلزوم الجماعـة ، وبـاب حكم من فَـرَّق أمـر المسلمـين ، ص ٢٠ ـ ٢٤ ، وفي البابين نظائر كثيرة لهذا الحديث .

الأمر السادس

الإمامة عند الشيعة الإمامية

قد تعرفت على حقيقة الإمـامة لـدى أهل السنّـة والجماعـة ، وعرفت أنّ مـا يتبنونه لا يقتضي أزيـد من الشرائط المتوفـرة في رؤساء الـدول غير أنّ الإمـامة عنـد الشيعة تختلف في حقيقتها عمّا لدى إخوانهم ، فهي إمرة إلهية ، واستمرار لـوظائف النبوة كلّها سوى تحمّل الوحي الإلهي . ومقتضى هذا ، إتصـاف الإمام بـالشروط المُشْتَرَطة في النبي ، سوى كونه طرفاً للوحي .

توضيح ذلك : إنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، كان يمـلأ فراغـاً كبيراً وعظيماً في حياة الأُمّة الإسلامية ، ولم تكن مسؤوليـاته وأعـماله مقتصرة عـلى تلقّي الوحي الإلهي ، وتبليغه إلى الناس فحسب ، بل كان يقوم بالأُمور التالية :

١ ـ يُفَسِّر الكتـاب العزيـز ، ويشرح مقاصـده وأهدافـه ، ويكشف رمـوزه وأسراره .

٢ ـ يُبَيِّن أحكام الموضوعات التي كانت تَحْدُثُ في زمن دعوته .

٣ ـ يَرُدّ على الحملات التشكيكية ، والتسـاؤلات العويصـة المريبـة التي كان يثيرها أعداء الإسلام من يهود ونصارى .

٤ ـ يصون الدين من التحريف والدسّ ، ويـراقب ما أخـذه عنه المسلمـون من أُصول وفروع ، حتى لا تَزِلّ فيه أقدامهم .

وهذه الأُمور الأربعة كان النبي يمارسها ويملأ بشخصيته الرسالية ثغراتها. ولأجل جلاء الموقف نوضح كل واحد من هذه الأُمور.

أمّا الأمر الأول : فيكفي فيه قوله سبحانه : ﴿ **وَأَنْزَلنا إليكَ الذِّكرَ لِتُبَيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِمْ** ﴾[1] . فقد وُصف النبي في هذه الآية بأنّه مبيّن لما في الكتاب ، لا مجرّد تال له فقط .

وقوله سبحانه : ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وقُرآنَهُ * فَإذا قرأناهُ فاتَّبِعْ قُرآنَهُ * ثُمَّ إنَّ علينا بَيانَهُ** ﴾[2] فكان النبي يتولى بيان مُجْمَلِهِ ومُطْلَقِهِ ومُقَيَّدِهِ ، بقدر ما تتطلبه ظروفه .

والقرآن الكريم ليس كتاباً عادياً ، على نسق واحد ، حتى يستغني عن بيان النبي ، بل فيه المُحْكَم والمتشابِه ، والعام والخاص ، والمُطْلَق والمُقَيَّد ، والمنسوخ والناسِخ ، يقول الإمام علي عليه السلام : « وخلّف (النبي صلى الله عليه وآله) فيكم ما خلّفت الأنبياءُ في أُممِها : كتاب ربّكم فيكم ، مبيِّناً حلالَه وحرامَه ، وفرائضَه وفضائلَه ، وناسخَه ومنسوخَه ، ورُخَصَه وعزائمه ، وخاصّه وعامّه ، وعِبَره وأمثاله ، ومُرسَله ومحدوده ، ومُحكَمه ومتشابهه ، مفسراً مُجمله ، ومبيِّناً غوامضه »[3] .

وأمّا الأمر الثاني : فهو بغنىً عن التوضيح ، فإنّ الأحكام الشرعية وصلت إلى الأمّة عن طريق النبي ، سواء أكانت من جانب الكتاب أو من طريق السنّة .

وأمّا الأمر الثالث : فبيانه أنّ الإسلام قد تعرض ، منذ ظهوره ، لأعنف الحملات التشكيكية ، وكانت تتناول توحيده ورسالته وإمكان المعاد ، وحشر الإنسان ، وغير ذلك . وهذا هو النبي الأكرم ، عندما قدم عليه جماعة من كبار النصارى لمناظرته ، استدلّوا لاعتقادهم بنبوة المسيح ، بتولده من غير أب ، فأجاب النبي بوحي من الله سبحانه ، بأنّ أمر المسيح ليس أغرب من أمر آدم

---

(١) سورة النحل : الآية ٤٤ .

(٢) سورة القيامة : الآيات ١٦ ـ ١٩ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١ .

حيث ولد من غير أب ولا أمّ قال سبحانه : ﴿ **إنّ مَثَلَ عيسى عند الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَه مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فيكُونُ** ﴾[1] .

وأنت إذا سبرت تفاسير القرآن الكريم ، تقف على أنّ قسماً من الآيات نزلت في الإجابة عن التشكيكات المتوجهة إلى الإسلام من جانب أعدائه من مشركين ويهود ونصارى وسيوافيك في مباحث المعاد جملة كثيرة من الشبهات التي كانوا يعترضون بها على عقيدة المعاد ، وجواب القرآن عليها .

وأمّا الأمر الرابع : فواضح لمن لاحظ سيرة النبي الأكرم ، فقد كان هو القول الفصل وفصل الخطاب ، إليه يفيء الغالي ، ويلحق التالي ، فلم يُرَ أبّان حياته مذهب في الأصول والعقائد ، ولا في التفسير والأحكام . وكان ـ بقيادته الحكيمة ـ يرفع الخصومات والإختلافات ، سواء فيما يرجع إلى السياسة أو غيرها[2] .

هذه هي الأمور التي مارسها النبي الأكرم أيام حياته . ومن المعلوم أنّ رحلته وغيابه صلوات الله عليه ، يخلّف فراغاً هائلاً ومفزعاً في هذه المجالات الأربعة ، فيكون التشريع الإسلامي حينئذٍ أمام محتملات ثلاثة :

الأول ـ أن لا يبدي الشارع إهتماماً بِسَدِّ هذه الفراغات الهائلة التي ستحدث بعد الرسول ، ورأى تَرْكَ الأمور لتجري على عَواهِنِها .

الثاني ـ أن تكون الأمّة ، قد بلغت بفضل جهود صاحب الدعوة في إعدادها ، حداً تقدر معه بنفسها على سدّ ذلك الفراغ .

الثالث ـ أن يستودع صاحب الدعوة ، كلّ ما تلقاه من المعارف والأحكام

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٥٩ . ولاحظ سورة الزخرف : الآيات ٥٧ ـ ٦١ .

(٢) يكفي في ذلك ملاحظة غزوة الحديبية ، وكيف تغلّب بقيادته الحكيمة على الإختلاف الناجم ، من عقد الصلح مع المشركين وما نجم في غزوة بني المصطلق من تمزيق وحدة الكلمة ، أو ما ورد في حجة الوداع ، حيث أمر من لم يَسُقْ هدياً . بالإحلال ، ونجم الخلاف من بعض أصحابه ، فحسمه بفصله القاطع .

بالوحي ، وكلّ ما ستحتاج إليه الأُمّة بعده ، يستودعه شخصية مثالية ، لها كفاءة تَقَبُّلِ هذه المعارف والأحكام وَتَحَمُّلِها ، فتقوم هي بسد هذا الفراغ بعد رحلته صلوات الله عليه .

أمّا الإحتمال الأول ـ فساقط جداً ، لا يحتاج إلى البحث ، فإنّه لا ينسجم مع غرض البعثة ، فإنّ في ترك سدّ هذه الفراغات ضياعاً للدين والشريعة ، وبالتالي قطع الطريق أمام رُقيّ الأُمّة وتكاملها .

فبقي الإحتمالان الأخيران ، فلا بد لتعيين واحد منهما ، دراستهما في ضوء العقل والتاريخ .

هل كانت الأُمّة مؤهلة لسدّ تلك الفراغات ؟

هذه هي النقطة الحساسة في تاريخ التشريع الإسلامي ومهمّته ، فلَعَلَّ هناك من يزعم أنّ الأُمّة كانت قادرة على مليء هذه الفراغات . غير أنّ التاريخ والمحاسبات الإجتماعية يبطلان هذه النظرة ، ويضادّانها ، ويثبتان أنّه لم يُقَدَّر للأُمّة بلوغ تلك الذروة ، لتقوم بسدّ هذه الثغرات التي خلّفها غياب النبي الأكرم ، لا في جانب التفسير ، ولا في جانب التشريع ، ولا في جانب ردّ التشكيكات الهدّامة ، ولا في جانب صيانة الدين عن الإنحراف ، وإليك فيما يلي بيان فشل الأُمّة في سدّ هذه الثغرات ، من دون أن نثبت للأُمّة تقصيراً ، بل المقصود إستكشاف الحقيقة .

أمّا في جانب التفسير ، فيكفي وجود الإختلاف الفاحش في تفسير آيات الذكر الحكيم ، وقبل كل شيء نضع أمامك كتب التفسير ، فلا ترى آية ـ إلاّ ما شذّ ـ اتّفق في تفسيرها قول الأُمّة ، حتى أنّ الآيات التي يرجع مفادها إلى عمل المسلمين يوماً وليلاً لم تُصَن عن الإختلاف ، وإليك النماذج التالية .

أ ـ قال سبحانه : ﴿ فَاغْسِلوا وُجوهَكُم وأَيْدِيَكُمْ إلى المَرافِقِ وامْسَحوا بِرءُوسِكُمْ وأَرْجُلَكُمْ إلى الكَعْبَيْنِ ﴾[1] .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦ .

فقد تضاربت الآراء في فهم الآية ، فمن قائل يعطف الرِّجْلِ على الرؤوس ، ومن قائل يعطفه على الأيدي ، فتمسح على الأوّل ، وتُغْسَلُ على الثاني . فأيُّ الرأيين هو الصحيح ؟ وأيُّ التفسيرين هو مراده سبحانه ؟ .

ب ـ قال سبحانه : ﴿والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعوا أَيْدِيَهما ﴾[1] .

فاختلفت الأُمّة في موضع القطع ، فمن قائل بأنّ القطع من أُصول الأصابع ، وعليه الإمامية ، ومن قائل بأنّ القطع من المفصل ، بين الكفّ والذراع ، وعليه الأئمة الثلاثة ، أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي . ومن قائل بأنّ القطع من المنكب ، كما عليه الخوارج[2] .

ج ـ قال سبحانه : ﴿ وإنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كلالَةً أوِ آمرأةٌ وَلَهُ أَخٌ أو أُخْتٌ ، فَلِكُلِّ واحدٍ منهما السُّدُسُ ﴾[3] .

وفي آية أُخرى يحكم سبحانه بإعطاء الكلالة ، النصف أو الثُّلُثَيْن ، كما قال : ﴿ إنِ آمْرُؤٌا هَلَكَ لَيس لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فلها نِصْفُ ما تَرَكَ ، وهو يَرِثُها إنْ لَمْ يَكُنْ لها وَلَدٌ ، فإنْ كانتا اثْنَتَيْنِ فَلَهُما الثُّلُثانِ مّما تَرَكَ ﴾[4]

فما هو الحل ، وكيف الجمع بين هاتين الآيتين ؟ .

وأمّا الآيات المحتاجة إلى التفسير في مجال المعارف ، فحدّث عنها ولا حرج ، ويكفيك ملاحظة اختلاف الأُمّة في الصفات الخبرية ، والعَدْل ، والجَبْر والإختيار ، والهداية والضلالة . . .

وكم ، وكم من آياتٍ في القرآن الكريم تضاربت الأفكار في تفسيرها ، من غير فرق بين آيات الأحكام وغيرها .

وأمّا في مجال الإجابة على الموضوعات المستجدة ، فيكفي في ذلك الوقوف

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣٨ .

(٢) الخلاف ، كتاب السرقة ، ج ٣ ، المسألة ٣١ ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٢ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٧٦ .

على أنّ التشريع الإسلامي كان يشق طريقه نحو التكامل بصورة تدريجية ، لأنّ حدوث الوقائع والحاجات الإجتماعية ، في عهد الرسول الأكرم ، كان يثير أسئلة ويتطلب حلولاً ، ومن المعلوم أنّ هذا النمط من الحاجة كان مستمراً بعد الرسول . غير أنّ ما ورثه المسلمون من النبي الأكرم لم يكن كافياً للإجابة عن جميع تلك الأسئلة .

أمّا الآيات القرآنية في مجال الأحكام ، فهي لا تتجاوز ثلاثمائة آية . وأمّا الأحاديث - في هذا المجال - فالذي ورثته الأُمّة لا يتجاوز الخمسمائة حديث .

وهذا القَدْر من الأدلة غير وافٍ بالإجابة على جميع الموضوعات المستجدة إجابة توافق حكم الله الواقعي ، ولأجل إيقاف الباحث على نماذج من هذه القصورات ، نذكر بعضها :

أ - رفع رجل إلى أبي بكر وَقَدْ شرب الخمر ، فأراد أن يقيم عليه الحدّ ، فادّعى أنّه نشأ بين قوم يستحلّونها ، ولم يعلم بتحريمها إلى الآن ، فتحيّر أبو بكر في حكمه[1] .

ب - مسألة العول شغلت بال الصحابة فترة من الزمن ، وكانت من المسائل المستجدة التي واجهت جهاز الحكم بعد الرسول ، وقد طرحت هذه المسألة أيام خلافة عمر بن الخطاب ، فتحيّر ، فأدخل النقص على الجميع استحساناً ، وقال : « والله ما أدري أيّكم قدّم الله ولا أيّكم أخّر ، ما أجد شيئاً أوسع لي من أنْ أُقسّم المال عليكم بالحصص ، وأُدخل على ذي حقّ ما أُدخل عليه من عول الفريضة »[2] .

ج - سئل عمر بن الخطاب عن رجل طلّق امرأته في الجاهلية ، تطليقتين ،

---

(١) الكافي ، ج ٧ ، كتاب الحدود ، ص ٢٤٩ ، الحديث ٤ . الإرشاد للمفيد ، ص ١٠٦ ، مناقب ابن شهر آشوب ، ص ٤٨٩ .

(٢) أحكام القرآن ، للجصاص ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ، ومستدرك الحاكم ، ج ٤ ، ص ٣٤٠ . راجع في توضيح حقيقة العول المصدرين المذكورين والكتب الفقهية في الميراث .

وفي الإسلام تطليقة ، فهل تضم التطليقتان إلى الثالثة ، أو لا ؟ فقال للسائل « لا آمرك ولا أنهاك »[1] .

هذا ، ولا نعني من ذلك أنّ الشريعة الإسلامية ، ناقصة في إيفاء أغراضها التشريعية ، وشمول المواضيع المستجدة ، أو المعاصرة لعهد الرسول ، بل التشريع الإسلامي كان وافياً بالجميع ببيان سوف نشير إليه[2] .

والذي يكشف عمّا ذكرنا ، أنّه اضطرّ صحابة النبي منذ الأيام الأُولى من وفاته صلوات الله عليه وآله ، إلى إعمال الرأي والإجتهاد في المسائل المستحدثة ، وليس اللجوء إلى الإجتهاد بهذا الشكل ، إلّا تعبيراً واضحاً عن عدم استيعاب الكتاب والسنّة النبوية للوقائع المستحدثة ، بالحكم والتشريع ، ولا مجال للإجتهاد وإعمال الرأي فيما يشمله نصٌّ من الكتاب أو السنّة بحكم ، ولذلك أحدثوا مقاييس للرأي ، واصطنعوا معايير جديدة للإستنباط ، وألواناً من الإجتهاد ، منه الصحيح المتّفق عليه ، يصيب الواقع حيناً ، ويخطئه أحياناً ، ومنه المُريب المختلف فيه . وكان القياس أوّل هذه المقاييس وأكثرها نصيباً من الخلاف ، والمراد منه إلحاق أمر بآخر ، في الحكم الثابت للمقيس عليه ، لاشتراكهما في مناط الحكم المستنبط . وكان القياس بهذا المعنى (دون منصوص العلة) مثاراً للخلاف بين الصحابة ، والعلماء ، فقد تبنّته جماعة من الصحابة والتابعين ، وأنكرته جماعة أُخرى ، وعارضوا الأخذ به ، منهم الإمام علي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وأئمة أهل البيت ، ثم اصطنعوا بعد ذلك معايير أخرى ، منها المصالح المرسلة ، وهي المصالح التي لم يُشَرّع الشارع حكماً بتحقيقها ، ولم يدلّ دليل شرعي على اعتبارها أو إلغائها .

وهناك مقاييس أخرى ، كسدّ الذرائع ، والإستحسان ، وقاعدة شَرْع من

---

(١) كنز العمال ، ج ٥ ، ص ١١٦ .

(٢) حاصله أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلّم كان يراعي في إبلاغ الحكم حاجة الناس ، ومقتضيات الظروف الزمنية ، فلا بد ـ في إيفاء غرض التشريع ـ أن يستودع أحكام الشريعة من يخلفه ، ويقوم مقامه ، لإيفاء أغراضه التي لم يقدّر له تحقيقها في حياته الكريمة .

قبلنا ، وما إلى ذلك من القوانين والأُصول الفقهية ، التي اضطرّ الفقهاء إلى اصطناعها عندما طرأ على المجتمع الإسلامي ألوان جديدة من الحياة لم يألفوها ، ولم تكن النصوص الشرعية من الكتاب والسنّة لتشمل تلك المظاهر الإجتماعية المستحدثة بحكم ، ولم يجد الفقهاء بدّاً من الإلتجاء إلى إعمال الرأي والإجتهاد في مثل هذه المسائل مّما لا نصّ فيه من كتاب أو سنّة ، وتشعبت بذلك مدارس الفقه الإسلامي ، وبَعُدَت الشُّقة بينها ، وتبلورت تلك المعاني إثر التضارب الفكري الذي حصل بين هذه المدارس ، وصيغت الأفكار في صيغ علمية محددة ، بعدما كان يغلب عليها طابع التذبذب والإرتباك .

وذلك كلّه يدلّ على عدم وفاء نصوص الكتاب والسنّة ، بما استجدّ للمسلمين بعد عصر الرسالة ، من مسائل ، أو ما جدّ لهم من حاجة .

وهناك نكتة تاريخية توقفنا على سرّ عدم إيفاء الكتاب والسنّة بمهمة التشريع ، وهي أنّ مدّة دعوته صلى الله عليه وآله لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين عاماً ، قضى منهاثلاث عشرةسنة في مكة يدعو المشركين فيها . ولكن عنادهم جعل نتائج الدعوة قليلة . فلأجل ذلك لم يتوفق لبيان حكم شرعي فرعي إلاّ ما ندر . ومن هنا نجد أنّ الآيات التي نزلت في مكة تدور في الأغلب حول قضايا التوحيد والمعاد ، وإبطال الشرك ومقارعة الوثنية ، وغيرها من القضايا الإعتقادية ، حتى صار أكثر المفسّرين يميّزون الآيات المكيّة عن المدنية بهذا المعيار .

ولما انتهت دعوته إلى محاولة اغتياله ، هاجر إلى يثرب ، وأقام فيها العشرة المتبقية من دعوته تمكّن فيها من بيان قسم من الأحكام الشرعية لا كلّها ، وذلك لوجوه :

١ ـ إنّ تلك الفترة كانت مليئة بالحوادث والحروب ، لتآمر المشركين والكفّار ، المتواصل على الإسلام وصاحب رسالته والمؤمنين به . فقد اشترك النبي في سبع عشرة غزوة كان بعضها يستغرق قرابة شهر ، وبعث خمساً وخمسين سرية لقمع المؤمرات وإبطالها ، وصدّ التحركات العُدْوانية .

٢ ـ كانت إلى جانب هذه المشاكل ، مشكلة داخلية يثيرها المنافقون الذين

كانوا بمنزلة الطابور الخامس ، وكان لهم دور كبير في إثارة البلبلة في صفوف المسلمين ، وخلق المتاعب للقيادة من الداخل . وكانوا بذلك يفوّتون الكثير من وقت النبي الذي كان يمكن أن يصرف في تربية المسلمين وإعدادهم وتعليمهم على حلّ ما قد يطرأ على حياتهم ، أو يستجد في مستقبل الأيام .

٣ ـ إنّ مشكلة أهل الكتاب ، خصوصاً اليهود ، كانت مشكلة داخلية ثانية ، بعد مشكلة المنافقين ، فقد فوّتوا من وقته الكثير ، بالمجادلات والمناظرات ، وقد تعرّض الذكر الحكيم لناحية منها ، وذُكر قسمٌ آخر منها في السيرة النبوية[١] .

٤ ـ إنّ من الوظائف المهمة للنبي عقد الإتّفاقيات السياسية والمواثيق العسكرية الهامة التي يزخر بها تاريخ الدعوة الإسلامية[٢] .

إنّ هذه الأمور ونظائرها ، عاقت النبي عن استيفاء مهمة التشْريع .

على أنّه لو فرضنا تمكن النبي من بيان أحكام الموضوعات المستجدة ، غير أنّ التحدّث عن الموضوعات التي لم يعرف المسلمون شيئاً من ماهياتها وتفاصيلها في عهد الرسول ، وإنّما كانت تحدث بصورة طبيعية شيئاً فشيئاً ، أمر صعب للغاية ، ولم يكن في وسع المسلمين أن يدركوا معناه .

فحاصل هذه الوجوه توقفنا على أمر محقق ، وهو أنّه لم يقدر للنبي استيفاء مهمة التشريع ،ولم يتسنّ للمسلمين أن يتعرّفوا على كل الأحكام الشرعية المتعلقة بالحوادث والموضوعات المستجدة .

وأمّا في مجال ردّ الشبهات والتشكيكات وإجابة التساؤلات ، فقد حصل فراغ هائل بعد رحلة النبي من هذه الناحية ، فجاءت اليهود والنصارى تترى ، يطرحون الأسئلة ، ويشوّشون بها أفكار الأُمّة ، ليخربوا عقائدها ومبادئها ، ونذكر من ذلك :

---

(١) لاحظ السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ١ ، ص ٥٣٠ ـ ٥٨٨ ، ط الحلبي ـ مصر ـ ١٣٧٥ .

(٢) لاحظ كتاب الوثائق السياسية لمحمد حميد الله ، و« مكاتيب الرسول » .

وفود أسقف نجران على عمر ، وطرح بعض الأسئلة عليه[1] .

وفود جماعة من اليهود على عمر ، وطرح بعض الشبهات[2] .

وفود جماعة من اليهود على عمر ، وطرح بعض الأسئلة عليه[3] .

سؤال عويص ورد من الروم على معاوية يلتمس الجواب عنه[4] .

أسئلة وردت من جانب البلاط الروماني إلى معاوية[5] .

وغير ذلك من الوفود والأسئلة التي لم يكن هدفها إلّا التشكيك في الدين وإيجاد التزلزل في عقيدة المسلمين .

وأمّا في جانب صيانة المسلمين عن التفرقة والإختلاف، والدين عن الإنحراف ، فقد كانت الأُمّة الإسلامية في أشدّ الحاجة بعد النبي إلى من يصون دينها عن التحريف ، وأبناءها عن الإختلاف ، فإنّ التاريخ يشهد دخول جماعات عديدة من أحبار اليهود ورهبان النصارى ومُؤْبدي المجوس ، ككعب الأحبار ، وتميم الدّاري ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن سلام ، وبعدهم الزنادقة ، والملاحدة ، والشعوبيون ، فراحوا يدسّون الأحاديث الإسرائيلية ، والأساطير النصرانية ، والخرافات المجوسية بينهم ، وقد ظلّت هذه الأحاديث المدسوسة ، تُخيّم على أفكار المسلمين ردحاً طويلاً من الزمن ، وتؤثّر في حياتهم العلمية ، حتى نشأت فِرَق وطوائف في ظِلّ هذه الأحاديث .

وممّا يوضح عدم تمكّن الأمّة من صيانة الدين الحنيف عن التحريف وأبنائها عن التشتت ، وجود الروايات الموضوعة والمجعولات الهائلة . ويكفي في ذلك أنّ يذكر الإنسان ما كابده البخاري من مشاقّ وأسفار في مختلف أقطار الدولة

---

(١) تذكرة الخواص ، لابن الجوزي ، المتوفى عام ٦٥٦ ، ص ١٤٤ .

(٢) قضاء أمير المؤمنين ، ص ٦٤ .

(٣) علي والخلفاء ، ص ٣١٣ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) قضاء أمير المؤمنين ، ص ٧٨ و ١١٤ .

الإسلامية ، وما رواه بعد ذلك . فإنّه ألفى الأحاديث المتداولة بين المحدثين في الأقطار الإسلامية ، تربو على ستمائة ألف حديث ، لم يصحّ لديه منها أكثر من أربعة آلاف ، ومعنى هذا أنّه لم يصحّ لديه من كل مائة وخمسين حديثاً إلاّ حديث واحد ، وأمّا أبو داود فلم يصحّ لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة ، وكذلك كان شأن سائر الذين جمعوا الحديث . وكثير من هذه الأحاديث التي صحّت عندهم ، كانت موضع نقد وتمحيص عند غيرهم[١] .

قال العلامة المتتبع الأميني : ويُعرب عن كثرة الموضوعات اختيار أئمة الحديث أخبار تآليفهم ـ الصحاح والمسانيد ـ من أحاديث كثيرة هائلة ، والصفح عن ذلك الهوش الهائش ، فقد أتى أبو داود في سننه بأربعة آلاف وثمانمائة حديث ، وقال انتخبته من خمسمائة ألف حديث[٢] . ويحتوي صحيح البخاري من الخالص بلا تكرار ، ألفي حديث وسبعمائة وواحد وستين حديثاً ، إختاره من زهاء ستمائة ألف حديث[٣] . وفي صحيح مسلم أربعة آلاف حديث أُصول دون المكررات ، صنفه من ثلاثمائة ألف[٤] . وذكر أحمد بن حنبل في مسنده ثلاثين ألف حديث ، وقد انتخبه من أكثر من سبعمائة وخمسين ألف حديث ، وكان يحفظ ألف ألف حديث[٥] . وكتب أحمد بن فرات ، المتوفى عام ٢٥٨ ، ألف ألف وخمسمائة ألف حديث ، فأخذ من ذلك ثلاثمائة ألف في التفسير والأحكام والفوائد وغيرها[٦] .

فهذه الموضوعات على لسان الوحي ، تقلع الشريعة من رأس وتقلب

---

(١) لاحظ حياة محمد ، لمحمد حسين هيكل ، ص ٤٩ ـ ٥٠ ، الطبعة الثالثة عشر .

(٢) طبقات الحفاظ ، للذهبي ، ج ٢ ، ص ١٥٤ . تاريخ بغداد ، ج ٢ ص ٥٧ . المنتظم لابن الجوزي ، ج ٥ ، ص ٩٧ .

(٣) إرشاد الساري ، ج ١ ، ص ٢٨ . صفة الصفوة ، ج ٤ ، ص ١٤٣ .

(٤) المنتظم ، لابن الجوزي ، ج ٥ ، ص ٣٢ . طبقات الحفاظ ، للذهبي ، ج ٢ ، ص ١٥١ . شرح صحيح مسلم للنووي ، ج ١ ، ص ٣٦ .

(٥) ترجمة أحمد ، المنقولة من طبقات إبن السبكي ، المطبوعة في آخر الجزء الأول من مسنده ، طبقات الذهبي ، ج ٢ ، ص ١٧ .

(٦) خلاصة التهذيب ، ص ٩ . نقلناه برمّته متناً وهامشاً من الغدير ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ .

الأُصول ، وتتلاعب بالأحكام ، وتشوش التاريخ . أوَ ليس هذا دليلاً على عدم وفاء الأُمّة بصيانة دينها عن التشويش والتحريف ؟ .

* * *

هذا البحث الضافي يثبت حقيقة ناصعة ، وهي عدم تمكّن الأُمّة ، مع ما لها من الفضل ، من القيام بسدّ الفراغات الهائلة التي خلّفتها رحلة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا مناص من تعيُّن الإحتمال الثالث ، وهو سدّ تلك الثغرات بفرد مثالي يمارس وظائف النبي في المجالات السابقة ، بعلمه المستودع فيه ، ويكون له من المؤهلات ما للنبي الأكرم ، سوى النبوّة ، وسوى كونه طرفاً للوحي .

إنّ الغرض من إرسال الأنبياء هي الهداية الإلهية لبني البشر ، إلى الكمال في الجانبين المادي والروحي . ومن المعلوم أنّ هذه الغاية لا يحصل عليها الإنسان إلّا بالدين المكتمل أُصولاً وفروعاً ، المصون من التحريف والدسّ . وما دام النبي حيّاً ، بين ظهرانيّ الأُمّة ، تتحقق تلك الغاية بنفسه الشريفة ، وأمّا بعده فيلزم أن يخلفه إنسان مثله في الكفاءات والمؤهّلات ، ليواصل دفع عجلة المجتمع الديني في طريق الكمال ، ويحفظه من الإنقلاب على الأعقاب ، والتقهقر إلى الوراء . ووجود إنسان مثالي ، كالنبي في المؤهلات ، عارف بالشريعة ومعارف الدين ، ضمان لتكامل المجتمع ، وخطوة ضرورية في سبيل ارتقائه الروحي والمعنوي . فهل يسوغ على الله سبحانه أن يهمل هذا العامل البنّاء ، الهادي للبشرية إلى ذَرْوَة الكمال .

إنّ الله سبحانه جهّز الإنسان بأجهزة ضرورية ، وأجهزة كمالية . حتى أنّه قد زوّده بالشعر على أشفار عينيه وحاجبيه ، وقَعْر أُخمص قدميه ، كل ذلك لتكون حياته سهلة لذيذة غير متعبة ، فهل ترى أنّ حاجته إلى هذه الأُمور أشدّ من حاجته إلى خَلَف حامل لعلوم النبوة ، قائم بوظائف الرسالة .

وما أجمل ما قاله أئمة أهل البيت في فلسفة وجودهذا الخلف ، ومدى تأثيره في تكامل الأُمّة :

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « اللهم بلى ، لا تخلو الأرض من قائم لله : بحجة ، إمّا ظاهراً مشهوراً ، وإمّا خائفاً مغموراً ، لِئلّا تَبْطُلَ حُجَجُ الله وبيِّناتُه »[1] .

وقال الإمام الباقر عليه السلام : « إنّ الله لم يدع الأرض بغير عالِم ، ولولا ذلك لما يعرف الحق من الباطل »[2] .

وقال الإمام الصادق عليه السلام : « إنّ الأرض لا تخلو وفيها إمام ، كيما زاد المؤمنون شيئاً ردَّهُم ، وإذا نَقَصوا شيئاً أَتَمَّه لَهُم »[3] .

هذه المأثورات من أئمة أهل البيت ، تُعرب عن أنّ الغرض الداعي إلى بعثة النبي ، داعٍ إلى وجود إمام يخلف النبي ، في عامة سماته ، سوى ما دلّ القرآن على انحصاره به ، ككونه نبيّاً رسولاً وصاحب شريعة .

نعم ، إنّ كثيراً ممّن ليست لهم أقدام راسخة في أبواب المعارف ، يصعب عليهم تصوُّر إنسان مثالي يحمل علوم النبوة ، وليس بنبي ؛ ويقوم بوظائفها الرسالية ، وليس برسول ؛ يحيط بمعارف الشريعة وأحكامها ، وليس طرفاً للوحي ؛ ويصون الشريعة من التحريف والدسّ ، ويردّ تشكيكات المبطلين ، وليس له صلة بسماء الوحي . ولأجل ذلك يثيرون في وجهه إشكالين ، لا بُدَّ من ذكرهما ، والإجابة عنهما .

الإشكال الأول

إنّ الفرد الجامع لهذه الخصائص ، لا يفترق عن النبي ، فتصبح الإمامة عندئذٍ ، مرادفة للنبوّة ، مع أنّ أدلّة الخاتمية قطعت طريق هذا الإحتمال[4] .

---

(١) نهج البلاغة ، قسم الحِكَمْ ، الرقم ١٤٧ .

(٢) الكافي ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٣) الكافي ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٤) وقد عرفت عن صاحب المواقف أنّه اعترض على تعريف الإمامة بأنّها رئاسة عامة في أُمور الدين والدنيا ، بالنقض بالنبوة ، ص ٣٤٥ .

الجـــواب

إنّ الفرق بين النبوّة ، واحتضان علوم النبي الأكرم ، واضح ، لا يحتاج إلى البيـان ، فإنّ مقـوم النبوّة عبـارة عن كون النبي طـرفاً للوحي ، يسمـع كـلام الله تعالى ، ويرى رسـوله ، ويكـون صاحب شريعـة مستقلة ، أو مروجـاً لشريعة مَنْ قبله .

وأمّا الإمام فهو الخازن لعلوم النبوة في كل ما تحتاج إليـه الأُمّة ، من دون أن يكون طرفاً للوحي ، أو سامعاً كلامه سبحانه ، أو رائياً المَلَك الحامل له .

نعم ، المهم هو الوقوف على أنّ في وسعه سبحانه أنْ يربي للأُمّة ، في حضن النبي الأكرم ، رجلاً مثالياً يـأخذ علوم النبي بتعليم غيبي يفي بـوظائف الـرسالـة بعد رحلته ، حتى يسدّ الفراغات العلمية الحاصلة برحلته .

وبمـا أنّ المستشكل ، ومن تبعـه ، بـريئـون من هـذه المعـارف ، ويخصّـون التعليم ، بـالوسـائل العـادية ، يتعجبـون من بلوغ إنسان ذلـك الحـدّ من الكـمال والعلم ، من دون أن يدخُلَ مدرسةً ، أو يخضع أمام شيخ ، إلاّ أنْ يكون نبيّاً .

وإنّ القرآن الكريم يحدّثنا عن أُناس مثاليـين نالـوا الذروة من العلوم بتعليم غيبي ، مـع أنّهم لم يكونـوا أنبياء ، **كمصـاحبِ موسى** عليـه السلام الـذي يقول سبحانه في شأنه : ﴿ **فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا ، آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ، وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً** ﴾[1] .

ولم يكن المصاحب نبيّاً ، بل كان وليّـاً من أولياء الله سبحـانه ، بلغ الـذَّروة من العلم ، حتى قال له موسى ـ وهو نبي مبعوث بشريعة : ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عـلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً** ﴾ ؟[2] .

وجليس سليمان عليه السلام ، الَّذي يقول سبحانه في شأنه : ﴿ **قالَ الَّـذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتاب أنـا آتِيكَ بِـهِ قَبْلَ أَنْ يَـرْتَدَّ إِلَيْـكَ طَرْفُـكَ ، فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرّاً**

---

(١) سورة الكهف : الآية ٦٥ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٦٦ .

عِنْدَهُ قَالَ هَذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي . . . ﴾[1] .

وهـذا الجليس لم يكن نبيّـاً ، ولكن كـان صـاحب علم من الكتـاب ، ومن المعلوم أنّ هـذا العلم لم يحصل لـه من الـطرق العـاديـة التي يـدرج عليهـا الأولاد والشبّـان في الكتاتيب والمـدارس ، وإنّما هـو علم إلهي احتضنه بليـاقته وكفـاءته ، ولأجل ذلك يَنْسِبُ علمَه إلى فَضْل ربّه ويقول : **﴿ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾** .

والشـاهدِ عـلى رسالـة النبي ، إلى جانب شهـادته سبحـانه ، الـذي يقـول سبحانه في شأنه : **﴿ وَيَقولُ الذينَ كَفَروا لَسْتَ مُرْسلاً ، قُلْ كفىٰ بالله شَهيداً بَيْني وبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ ﴾**[2] .

والسورة مكية على ما يدلّ عليه سيـاق آياتهـا ، ونقل عن الكلبي أنّـه قال : « إنّها مكية إلّا هذه الآية » ، ويدفعه أنّها مختتم السورة ، قوبل بها ما في مفتتحها ، أعني قوله سبحانه : **﴿ المر ، تِلْكَ آياتُ الكِتـابِ ، والَّذي أُنْـزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّـكَ الحَقُّ ، ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنـونَ ﴾**[3] ، فيبعد جـداً أن يفرق بـين المتقابلين بأعوام .

فعندئذٍ يجب الإمعان في هذا الشاهد الذي عطفه سبحانه على نفسه ، وعدَّه شاهداً على رسالة النبي كشهادة نفسه سبحانه . أفيصحّ أن يقال إنّ المراد ، القـوم الذين أسلموا في المدينة ، كعبد الله بن سلام ، وتميم الداري ، وسلمان الفارسي ، مع أنّ الآية نزلت في مكّة ؟ .

على أنّ عطف هؤلاء في الشهـادة ، على الله سبحـانه ، لا يخلو من غمـوض وإبهام . فلا بدّ أن يكون المـراد من الشاهـد هنا إنسـاناً مثـالياً ، كـان موجـوداً في مكة ، وهو أعلم الناس بالكتاب ، حتى يصحّ أن يجعل عِدلاً آخـر للشهادة ، ولا يكون هذا الإنسان إلّا من تربّى في حجر النبوة وحِضْنها ، وتَحَمَّل علومَهـا ، بتعليم غيبي إلهي ، لا بتعليم بشري عادي .

---

(١) سورة النمل : الآية ٤٠ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٤٣ .

(٣) سورة الرعد : الآية ١ .

هذا وذاك ، وغيرهما مّما لم نذكره ، وجاء في الحديث والتاريخ ، يعرب عن أنّ التعليم الغيبي لا يختصّ بالأنبياء ، وأنّ هناك رجالاً صالحين ، يحملون علوم النبوة ويحتضنونها بفضل من الله سبحانه ، لغايةٍ قدسيةٍ هي إبلاغ الأُمّة الغايةُ من الكمال ، وإيصاد الثغرات الهائلة التي تخلفها رحلة النبي .

الإشـــكال الثاني

إذا شهد التاريخ ، والمحاسبات الإجتماعية ، بعدم استيفاء النبي لمهمة التشريع ، فما معنى قوله سبحانه : ﴿ **اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلاَمَ ديناً** ﴾[1] ؟ .

الجـــواب

إنّ السؤال مبني على تفسير الدين بالأحكام الشرعية ، وحمل الإكمال على بيانها . وذلك غير صحيح لوجوه :

الأول ـ إنّ كثيراً من المفسّرين ، فسّروا اليومَ ، ببيوم عَرَفة ، مِنْ عام حجة الوَداع[2] . ومن المعلوم أنّ هناك روايات كثيرة لا يُستهان بها عدداً تدلّ على نُزولِ أحكام وفرائض بعد ذلك اليوم ، منها أحكام الكلالة ، المذكورة في آخر سورة النساء[3] ، ومنها آيات الربا[4] ، حتى روي عن عمر أنّه قال في خطبة خطبها : « من آخر القرآن نزولاً آية الربا ، وإنّه مات رسولُ الله ولم يبيّنه لنا ، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم »[5] . وروى البخاري في الصحيح ، عن ابن عباس ،

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣ .

(٢) لاحظ تفسير الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٤ ، تفسير الرازي ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٧٦ .

(٤) سورة البقرة : الآيات ٢٧٥ ـ ٢٧٨ .

(٥) الدر المنثور ، للسيوطي ، ج ١ ، ص ٣٦٥ . ولاحظ تفسير الرازي ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ ، ط مصر في ثمانية أجزاء .

قال : « آخر آية أنزلها الله على رسوله ، آية الربا »[1] . وغير ذلك من الروايات .

الثاني - إنّ تفسير الدين بالأحكام ، وإكمالها بالبيان وأنّه تحقق في يوم عرفة من عام حجّ الوداع ، لا ينسجم مع سائر فقرات الآية ، فإنّ الآية تخبر عن يوم تحققت فيه أمور ثلاثة : يأس الكفار من دين المسلمين ، وإكمال الدين وإتمام النعمة .

توضيح ذلك إنّه إن أراد من الكفار ، كفار العرب ، القاطنين في الجزيرة ، فالإسلام كان قد عمّهم يوم ذاك ، ولم يكن فيهم من يتظاهر بغير الإسلام ، فمَنْ هؤلاء الكفار اليائسون ؟ فإنّ سورة البراءة ، وتلاوتها يوم عيد الأضحى ، في العام التاسع للهجرة ، صارت سبباً لنفوذ الإسلام في كل أصقاع الجزيرة ، ورفض الشرك ونبذ عبادة الأوثان ، رغبةً أو رهبة ، ولم يبق مشرك إلّا وقد كَسَرَ صنمه ، ولا عابد وثن إلّا وقد تحوّل إلى عبادة الله تعالى طمعاً أو خوفاً ، فلم يبق هناك كافر يئس من دين المسامين .

وإن أراد سائر الكفار من الأُمم ، من العرب وغيرهم ، فلم يكونوا يائسين يومئذٍ من الظهور على المسلمين .

فعلينا أن نتفحص عن يوم تتحقق فيه هذه الأُمور الثلاثة ، كما سيبين .

الثالث - إنّ ما ذكر لا ينسجم مع ما رواه عدّة من المحدثين من نزولها يوم الثامن عشر من ذي الحجة، في السنة العاشرة للهجرة ، عندما نصب النبي عليّاً للولاية ، وقال : « من كنت مولاه فهذا علي مولاه »[2] .

ويعرب عن صحة ذلك ما ذكره الرازي ، قال : « قال أصحاب الآثار إنّه

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ، ج ١ ، ص ٣٦٥ .

(٢) لاحظ في الوقوف على مصادر نزول الآية يوم الغدير ، كتاب الغدير ، ج ١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٨ ، وقد رواه عن ستة عشر محدثاً ، منهم أبو جعفر الطبري ، وابن مردويه الأصفهاني ، وأبو نعيم الأصفهاني ، والخطيب البغدادي ، وأبو سعيد السجستاني ، وأبو الحسن المغازلي ، وأبو القاسم الحسكاني ، وابن عساكر الدمشقي ، وأخطب الخطباء الخوارزمي ، وغيرهم من أعاظم المحدثين .

لَمّا نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وآله ، لم يعمّر بعد نزولها إلاّ أحداً وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين يوماً ، ولم يحصل بعدها زيادة ولا نسخ وتبديل البتة . وكان ذلك جارياً مجرى إخبار النبي عن قرب وفاته ، وذلك إخبار عن الغيب فيكون معجزاً »[1] .

وما ذكره يؤيّد كون النزول يوم الغدير ، أعني يوم الثامن عشر من ذي الحجة ، لأنّه لو فرض كون الشهور الثلاثة (ذي الحجة ، ومحرم ، وصفر) ناقصة ، لكانت وفاته صلى الله عليه وآله بعد واحد وثمانين يوماً ، ولو كان الشهران (محرم وصفر) ناقصان ، لانطبق على الإثنين والثمانين ، كل ذلك بملاحظة ما اتّفقت عليه كلمة الجمهور من أنّ النبي توفي يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول .

والعجب أنّ الرازي غفل عن هذه الملازمة ، وأنّه لا يجتمع مع نزولها يوم عرفة .

فعلى ذلك لا يصحّ تفسير الدين بالأحكام ، ولا الإكمال بالبيان . وفي ضوء ذلك يمكن أن يقال إنّ المراد من الدين هو أصوله ، والمراد من الإكمال ، تثبيت أركانه ، وترسيخ قواعده ، وذلك أنّ الكفار ، خصوصاً المستسلمين منهم ، كانوا يتربصون بالنبي الدوائر ، فإنّهم كانوا ينظرون إلى دعوته بأنّها مُلْكٌ في صورة النبوة ، وسلطنة في ثوب الرسالة ، فإنْ مات أو قُتِلَ ، ينقطع أثره ويموت ذكره ، كما هو المشهور عادة ، من حال السلاطين ، وكان الكفار يعيشون هذه الأحلام والأماني التي تعطيهم الرجاء في إطفاء نور الدين ، وعفّ آثاره عبر الأيام .

غير أنّ ظهور الإسلام ، تدريجياً ، وغلبته على الكفار والمشركين ، بدّد أحلامهم بالخيبة ، فيئسوا من التغلّب على النبي ودعوته ، فلم يبق لهم إلاّ حلم واحد ، وهو أنّه لا عقب له يخلفه في أمره ، فيموت دينه بموته . وكان هذا الحلم يتغلغل في أنفسهم ، إلاّ أنّ الخيبة عمّتهم لما شاهدوا خروج الدين عن مرحلة

---

(١) تفسير الرازي ، ج ٣ ، ص ٣٦٩ .

القيام بشخص النبي الأكرم إلى مرحلة القيام بشخص آخر مثالي يقوم مقامه ، فعند ذلك تحققت الامور الثلاثة : يئسوا من زوال الدين ، بعد موته ، وكَمُل الدين بتنصيب مَنْ يحمل وظائف النبي ، وَتَمَّتْ نعمة الهداية إلى أهداف الرسالة بالوصي القائم مقامه .

فالمراد من إكمال الدين ، تحوّله من وصف الحدوث إلى وصف البقاء ، وكان ذلك العمل ، ردّاً لما يحكيه سبحانه عن الكفار بقوله : ﴿ ودَّ كثير منْ أهلِ الكتابِ لو يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفّاراً ، حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ ، فاعْفُوا واصْفَحُوا حتّىٰ يأتِيَ الله بأَمْرِهِ إنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ ﴾[1] . ولعلّ المراد من قوله : ﴿ يأتِيَ الله بأَمْرِهِ ﴾ ، هو ما حدث في ذلك اليوم .

وعلى ذلك ، فتنسجم الجمل الثلاث ، ويرتبط بعضها ببعض ، فالدين الذي أكمله الله اليوم ، والنعمة التي أتمّها الله اليوم ، أمرٌ واحدٌ بحسب الحقيقة ، وهو الذي كان يطمع فيه الكفار ، ويخشاهم فيه المؤمنون ، فآيسهم الله منه ، وأكمله وأتمّه ، ونهاهم عن الخشية منهم ، وقال : ﴿ فلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾[2] .

* * *

هذه هي حقيقة الإمامة ، والإمام عند الشيعة ، وبذلك يعلم اختلاف ما يتبنونه مع ما هو المعروف عند أهل السنّة ، ومن المعلوم أنّ كُلّاً من المعنيين يستدعي لنفسه شروطاً خاصّة ، والشروط عند الشيعة الإمامية أكثر ممّا اتّفقت عليه كلمة أهل السنّة ، أهمها إحاطته بأصول الشريعة وفروعها ، والمعرفة التامّة بكتاب الله ، وسنّة نبيّه ، وقدرته على دفع الشبهات ، وصيانة الدين ، يكون كلامه هو القول الفصل بين الأُمّة ، ولا تفترق هذه الشروط عن كونه معصوماً ، لا يضلّ في تعليم الأُمّة .

قال الشيخ الرئيس ابن سينا في لزوم نصب الإمام من جانب النبي : « ثم إنّ هذا الشخص الذي هو النبي ، ليس ممّا يتكرر وجود مثله في كل وقت ، فإنّ

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٩

(٢) سورة المائدة : الآية ٣ .

المادة التي تقبل كمال مثله ، تقع في قليل من الأمزجة ، فيجب لا محالة أن يكون النبي قد دَبّر لبقاء ما يَسُنُّه ويُشَرِّعُه في أمور المصالح الإنسانية ، تدبيراً عظيماً »[1] .

* * *

(١) الشفاء ، ج ٢ ، الفن الثالث عشر في الإلهيات ، المقالة العاشرة ، الفصل الثالث ، ص ٥٥٨ .

الأمر السابع

المصالح العامة ، وصيغة الحكومة بعد النبي

يسود بين المسلمين ، في صيغة الحكومة وقيادة الأُمّة بعد النبي ، رأيان واتجاهان :

الأول : أنّ صيغة الحكومة صيغة التنصيب ، وأنّ الإمام بعد النبي يعين عن طريق الرسول بأمر من الله سبحانه .

الثاني : تفويض الأمر إلى اختيار الأُمّة ، وانتخابها بشكل من الأشكال التي ستوافيك .

والبحث في المقام : يرجع إلى محاسبة مصالح الأُمّة الإسلامية آنذاك ، فهل كانت تقتضي تحقيق النظرية الأُولى ، وهي نظرية النصّ على شخص أو أشخاص معينين ، أو تقتضي ترك مسألة الخلافة إلى رأي الأُمّة ؟ .

والحقُّ أنّ هنا أُموراً تدلّ على أنّ مصلحة الأُمّة آنذاك ، كانت تتطلب تنصيب الإمام والقائد الذي يخلف النبي ، وتعيينه بلسانه في حياته ، وكان في ترك هذا رمي للأُمّة أمام أكبر المخاطر ، وإليك بيان تلك الأُمور :

الأول : الأُمة الإسلامية والخطر الثلاثي

إنّ الدولة الإسلامية ، التي أسسها النبي الأكرم صلوات الله عليه ، كانت

محاصرة حال وفاة النبي من جهتي الشمال والشرق ، بأكبر امبراطوريتين عرفهما تاريخ تلك الفترة ، وكانتا على جانب كبير من القوة والبأس ، وهما الروم وإيران ؛ هذا من الخارج .

وأمّا من الداخل ، فقد كان الإسلام والمسلمون يعانون من وطأة مؤامرات المنافقين الذين كانوا يشكّلون جبهة عدّوانية داخلية ، أشبه بما يسمّى بالطابور الخامس .

ويكفي في خطورة إمبراطورية إيران أنّه كتب ملكها إلى عامله باليمن ـ بعدما وصلت إليه رسالة النبي تدعوه إلى الإسلام والتسليم ، ومزّقها ـ : « إبعث إلى هذا الرجل بالحجاز ، رجلين من عندك ، جَلِدين ، فليأتياني به »[1] .

وكفى في خطورة موقف الإمبراطورية البيزنطية ، أنّه وقعت إشتباكات عديدة بينها وبين المسلمين في السنة الثامنة للهجرة ، منها غزوة مؤتة التي قتل فيها قادة الجيش الإسلامي وهم جعفر بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحه ، ورجع الجيش الإسلامي من تلك الواقعة منهزماً ، وقد أثارت هزيمتهم في هذه المعركة ، واستشهاد القادة الثلاثة ، نقمة شديدة في نفوس المسلمين تجاه الروم ، ولأجل ذلك توجّه الرسول الأكرم بنفسه على رأس الجيش الإسلامي إلى تبوك في السنة التاسعة لمقابلة الجيوش البيزنطية ولكنه لم يلق أحداً ، فأقام في تبوك أياماً ثم رجع إلى المدينة ، ولم يكتف بهذا بل جَهّزَ جيشاً في أُخريات أيّامه بقيادة أسامَة بن زيد ، لمواجهة جيوش الروم .

وأمّا خطر المنافقين ، فحدّث عنه ولا حرج ، هؤلاء أسلموا بألسنتهم دون قلوبهم ، وأضمروا للمسلمين كلّ سوء ، وكانوا يتحينون الفرص لإضعاف الدولة الإسلامية ، بإثارة الفتن الداخلية ، كما كانوا يتربصون الدوائر لاغتيال النبي وقتله[2] .

---

(١) الكامل ، للجزري ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

(٢) لاحظ التفاسير ، في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ =

ولقد انبرى القرآن الكريم لفضح المنافقين والتشهير بخططهم ضدّ الدين والنبي ، في العديد من السور القرآنية مثل البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والعنكبوت ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والمجادلة ، والحديد ، والحشر ، وقد نزلت في حقّهم سورة خاصة باسم المنافقين .

إنّ اهتمام القرآن بالتعرّض للمنافقين المعاصرين للنبي ، المتواجدين بين الصحابة ، أدلّ دليل على أنّهم كانوا قوّة كبيرة ويشكون جماعة وافرة ، ويلعبون دوراً خبيثاً ، خطيراً في تعكير الصف ، وإفساح المجال لأعداء الإسلام ، بحيث لولا قيادة النبي الحكيمة ، لقضوا على كيان الدين ، وأطاحوا بصرحه .

ويكفي في ذلك قوله سبحانه : ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبوا لَكَ الأُمورَ ، حتّى جاءَ الحَقُّ ، وَظَهَرَ أَمْرُ الله وَهُمْ كارِهونَ ﴾[1] .

وقد كان محتملاً ومترقَّباً أنْ يتحد هذا المثلث الخطير(الفُرسُ ، الروم ، المنافقون) ، لاكتساح الإسلام واجتثاث جذوره ، بعد وفاة النبي .

فمع هذا الخطر المحيق الداهم ، ما هي وظيفة القائد الحكيم الذي أرسى قواعد دينه على تضحيات عظيمة ، فهل المصلحة كانت تقتضي تنصيب قائد حكيم عارف بأحكام القيادة ووظائفها حتى يجتمع المسلمون تحت رايته ، ويكونوا صفاً واحداً في مقابل ذاك الخطر ، أو أنّ المصلحة العامة تقتضي تفويض الأمر إلى الأُمّة ، حتى يختاروا لأنفسهم أميراً ، مع أنّ من المعلوم أن ترك الأمر إلى الأُمّة في ذلك الوقت الحرج ، يلازم الشغب والإختلاف والتنافس الذي لم يكن لصالح الإسلام والمسلمين ، في الوقت الذي يعانون فيه من وفاة النبي ؟ .

فأقضِ ما أنت قاض .

= (سورة التوبة : الآية ٦٥) ، وكان المنافقون قد حاولوا اغتيال النبي الأكرم في العقبة ، عند عودته من تبوك .

(١) سورة التوبة : الآية ٤٨ .

الثاني ـ الحياة القَبَلية تمنع من الإتفاق على قائد

من أبرز ما كان يتميز بـه المجتمع العـربي في حياة النبي الأكـرم ، هو حيـاة النظام القبلي ، والتقسيمات العشائرية التي كانت تحتل ـ في ذلـك المجتمع ـ مكـانة كبرى .

وقد كان للقبيلة أكـبر الدور في الحيـاة العربيـة قبل الإسـلام وبعده ، وعلى أساسها كانت تدور المفاخرات ، وتُنْشد القصائـد ، وتُبنى الأمجاد ، كـما كانت هي منشأ أكثر الحروب وأغلب المنازعات .

إنّ التاريخ يشهد لنا كيف كاد التنازع القبلي في قضية بناء الكعبة المُشرَّفـة ، ووضـع الحجـر الأسـود في مـوضعـه أيـام الجـاهليـة ، أن يؤدي إلى الإختـلاف ، فالصراع الدموي ، والإقتتال المرير ، لولا تدخل النبي الأكرم[1] .

وقـد سعى النبي الأكـرم ، سعيـاً حثيثـاً ، لمحـو الـروح القبليـة ، وإذابـة الفوارق العشائرية ، وجمع تلك المتشتتات في بوتقة الإيمـان الموحَّـد ، ولكن لم يكن من الممكن أن ينقلب النـظام القبلي في مـدة ثلاث وعشرين عـاماً إلى نـظام موحـد إسلامي ، لا يرى للإنتساب إلى القبيلة فخراً ، سوى التعرّف والتعريف[2] .

والشواهد على تغلغل العصبيات القبلية في نفوس أكثر الصحـابة ، كثـيرة ، ويكفي في ذلـك مـا ورد في غـزوة بني المصـطلق ، حيث تنـازع مهـاجـريٌ مـع أنصاريٍّ ، فصرخ الأنصاري : « يا معشر الأنصار » ، وصرخ الآخر : « يا معشر المهاجرين » . ولمّا سمع النبي هذه الكلمات قال : « دعـوها فـإنّها دعوىً ميتـة » . ولـولا قيادتـه الحكيمـة ، لخُضِّب وجـه الأرض بـدمـاء المسلمـين من المهـاجـرين والأنصار[3] .

ومـا نقله ابن هشام من أن شعث بن قيس ، وكـان شيخاً من اليهـود ، مـرّ

---

(١) قد ذكرنا هذه القضية فيما تقدم .

(٢) إشارة إلى قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْناكُمْ شُعوباً وقبائلَ لِتعارَفوا ﴾ (سورة الحجرات : الآية ١٣)

(٣) صحيح البخاري ، ج ٥ ، ص ١١٩ ، باب غزوة بني المصطلق .

ذات يوم على نفرٍ من أصحاب الرسول ، من الأوس والخزرج ، فرآهم يتحدثون ، فغاظه ما رأى من أُلفتهم وجماعتهم ، فأمر فتى شاباً من اليهود ، كان معهم ، فقال له : إعمد إليهم ، فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بُعاث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل الشاب ذلك ، فأثّر كيد ذلك اليهودي الماكر في نفوس الأُخوة من المسلمين ، فغضب الفريقان ، وانتضوا أسلحتهم للقتال ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين ، وقال : « يا معشر المسلمين ، الله ، الله ، أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر » ؟[1] .

ومن ذلك الذي يدلّ على تعمّق رواسب القبلية في النفوس ، ما ذكره الشيخ البخاري في صحيحه ، في قصة الإفك ، قال : « قال النبي وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي ، والله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً ، وما يدخل على أهلي إلاّ معي » .

قالت عائشة : فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال : أنا يا رسول الله أعذرك ، فإن كان من الأُوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا .

قالت عائشة : فقام رجل من الخزرج ، وهو سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج ـ قالت عائشة ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية ـ فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر والله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل .

فقال أُسيد بن حضير ، وهو ابن عمّ سعد بن معاذ ، لسعد بن عبادة : كذبت لعمر والله ، لتقتلنّه ، فإنّك منافق تجادل عن المنافقين .

---

(١) السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٥٥٥ .

قالت عائشة : فصار الحيّان (الأوس والخزرج) حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله صلى الله عليه وآله ، قائم على المنبر ، ولم يزل رسول الله ، يخفضهم (أي يهدئهم) حتى سكتوا »[1] .

ولا يقل شاهداً على وجود هذه الرواسب في نفوس الكثيرين منهم ، ما ظهر منهم في يوم السقيفة من روح القبلية ، ونزعة التعصّب ، وتبودل بينهم من الشتم والضرب ، وإليك نقل القصة عن لسان عُمَر ، قال : « فقال ممثل الأنصار (سعد بن عبادة) :

أما بعد فنحن أنصار الله ، وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين ، رهط منا ، وقد دفت دافة من قومكم (أي جاء جماعة ببطء) وإذا هم يريدون أن يختارونا (يدفعونا) من أصلنا ، ويغصبونا الأمر .

فقال أبو بكر[2] : أمّا ما ذكرتم فيكم من خير ، فأنتم له أصل ولن تعرف العرب هذا الأمر ، إلاّ لهذا الحي من قريش ، هم أوسط العرب نسباً وداراً .

ثم قال قائل من الأنصار : « أنا جذيلها المحكَّك ، وعُذَيْقُها المُرَجّب ، منّا أمير ومنكم أمير ، يا معشر قريش» . قال عمر : فكثر اللغط وارتفعت الأصوات ، حتى تخوفت الإختلاف ، فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته ، ثم بايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار ونزونا على سعد بن عبادة ، فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عبادة ، قال : فقلت : قَتَل الله سعد بن عبادة »[3] .

ولم يقتصر إختلاف الأُمّة على ما جرى في السقيفة ، بل جرت بين الأنصار والمهاجرين مشاجرات كلامية وشعرية وهجائية ، هاجم كلٌّ الفريق الآخر ، بأنواع الهجاء ، نقلها المؤرخون ولا يعجبني نقل كلمهم[4] .

---

(١) صحيح البخاري ، ج ٥ ، ص ١١٩ ، باب غزوة بني المصطلق .

(٢) لم يكن يوم السقيفة من المهاجرين إلاّ خمسة أشخاص ، ولأجل ذلك لم نصف القائل بممثل المهاجرين .

(٣) السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٦٥٩ ـ ٦٦٠ . وإنّما بايعه الأوس من الأنصار ، وأما الخزرجيون ، فقد خرجوا غير مبايعين لأحد .

(٤) لاحظ شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد ، ج ٦ ، ص ١٧ ـ ٣٨ ط مصر .

وما ذكرناه غيض من فيض ممّا جرى بين الصحابة من المنازعات والخلافات الناشئة من روح القبلية ، والتعصّب العشائري .

أفهل يجوز في منطق العقل ترك هذا المجتمع ، الغارق في نزاعاته العصبية ، دون نصب قائد ، يكون نصبه قاطعاً لدابر الإختلاف ، ومانعاً من مأساة التمزّق والتفرق ؟ فاقض ما أنت قاض .

وها هنا محاسبة ثالثة لا تقلّ عن العاملين السابقين في استلزامها كون المصلحة تقتضي نصب القائد ، لا تفويض الأمر إلى المسلمين أنفسهم ، وهي ما يلي :

الثالث ـ الصحابة ومدى الوعي الديني

إنّ الأُمّة الإسلامية ـ كما يدلّ عليه التاريخ ـ لم تبلغ في القدرة على تدبير أمورها . وإدارة شؤونها حدّ الإكتفاء الذاتي الذي لا تحتاج معه إلى نصب قائد لها من جانب الله سبحانه . وقد كان عدم بلوغهم هذا الحدّ أمراً طبيعياً لأنّه من غير الممكن تربية أُمّة كانت متوغلة في العادات الوحشية ، والعلاقات الجاهلية ، والنهوض بها إلى حدٍّ تصير أُمّة كاملة تدفع عن نفسها تلك الرواسب ، وتستغني عن نصب القائد المحنّك ، والرئيس المدبّر ، بل هي تقدر على تشخيص مصالحها في هذا المجال .

إنّ إعداد مثل هذه الجماعة ، ومثل هذه الأُمّة ، لا تتم في العادة إلاّ بعد انقضاء جيل أو جيلين ، وبعد مرور زمن طويل يكفي لتغلغل التربية الإسلامية إلى أعماق تلك الأُمّة ، بحيث تختلط مفاهيم الدين بدمها وعروقها ، وتتمكن منها العقيدة إلى درجة تحفظها من التذبذب والتراجع إلى الوراء .

ويكفيك شاهداً على هذا ، معركة أُحُد ، فقد هَرَبَ المسلمون ـ إلاّ قليل ـ من ساحة المعركة عندما أُذيع نبأ قتل النبي من جانب الأعداء ، ولاذ بعضهم بالجبل ، بل فكّر بعضهم بالتفاوض مع المشركين ، حتى أتاهم أحد المقاتلين ووبّخهم على فرارهم وتخاذلهم وترددهم قائلاً : « إن كان محمد قد مات ، فَرَبُّ

محمد حي ، قوموا ودافعوا عن دينه »[1] وفي هذا نزل قوله سبحانه : ﴿ **وما مُحَمَّـدٌ إلَّا رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أفئن ماتَ أوْ قُتِلَ انقلَبْتُمْ على أعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾[2] .

ويقول سبحانه في شأن من ذهبوا يفتشون عن ملجـأ لهم فراراً من المـوت : ﴿ **وطائِفَـةٌ قد أهَمَّتْهُمْ أنْفُسُهُمْ ، يَظُنُّونَ باللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّـةِ ، يقولـونَ : هَلْ لنا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾[3] .

ولم تكن واقعة أُحُد وحيدة في نسجها ، بل كانت غزوة حُنَيْن على منوالهـا في التقهقر والفرار عن ساحة الحرب ، يقول ابن هشام عن جابر :

استقبَلْنا وادي حُنين ، وانحـدرنا في وادٍ من أوْدِيَـة تهامـة ، وكان العـدو قد سبقونا إلى الوادي وكمنوا لنا في شعابه واحنائه ، ومضائقه ، وقد شدّوا علينا شـدّة رجل واحد ، وانهزم الناس راجعين لا يلوي أحـد على أحـد . وانحاز رسـول الله ذات اليمين وهو يقول : أين ، أيها الناس ؟ هلموا إليّ ، أنا رسول الله . فـانطلق الناس ، إلّا أنّه بقي مع رسول الله نفر من المهاجرين والأنصار ، فلما انهزم النـاس ورأى من كان مع رسول الله من جفاة أهـل مكة الهـزيمة ، تكلّم رجـال منهم بما في أنفسهم من الضغن ، فقـال أبـو سفيـان بن حـرب : « لا تنتهي هـزيمتهم دون البحـر » ، وإنّ الأزلام لمعـه في كنـانتـه . وصرخ جبلة بن الحنبـل : « ألا لَبَـطَل السِّحْر »[4] .

وغـير ذلك من الأحـداث والوقـائـع التي كشفت عن عـدم تغلغـل الإيمـان والعقيدة في قلوب الأكثرية منهم .

نعم كـان بينهم رجـال صـالحـون ، يضحـون في سبيـل العقيـدة ، بـأنفس النفـائس ، وأثمن الأموال ، غـير أنّ البحث مـركـز عـلى دراسـة وضـع المجتمـع

---

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٨٣ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٤ .

(٤) سيرة ابن هشام : ج ٢ ، ص ٤٤٨ .

الإسلامي ككل ، لا من حيث اشتماله على أفراد لا يدرك شأوهم في الفضيلة والصلاح .

ولعلّ الباحث يتخيل أنّهم انقلبوا بعد رحلة الرسول إلى مجتمع ديني لا يتخطون سبيل الدين قيد أنملة ، ولكن ما ورد في الصحاح والمسانيد من ارتداد أمّة كبيرة من الصحابة ، يؤيّد ما ذكرناه من عدم رسوخ العقيدة والإيمان في قلوبهم ، ولا مجال لذكر جميع الروايات ، إنّما نكتفي بواحدة منها ونحيل البقية إلى الباحث الكريم :

روى البخاري في تفسير قوله سبحانه : ﴿ **وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ** ﴾[1] قال : خطب رسول الله فقال : ألا وإنّه يجاء برجال من أمّتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب أصحابي ، فيقول : إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ **وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمّا تَوَفَّيتني كُنْتَ أنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ** ﴾ فيقال إنّ هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم ما فارقتهم[2] .

إنّ دراسة هذه الأمور الثلاثة ، يرشدنا إلى أنّ القائد الحكيم ، الذي مرّت عليه هذه الأوضاع والأحوال وعاينها عن كثب ، عليه أن يستخلف قائداً للأمّة لما في هذا التنصيب من مصلحة ، وقطع لدابر الإختلاف ، وجمع لشمل الأمّة . وهذا بخلاف ما لو ترك الأمر إلى المسلمين أنفسهم ، ففيه من الأخطار ما صوّرناه .

إنّ القائد الحكيم هو من يعتني بالأوضاع الإجتماعية لأمّته ، ويلاحظ

---

(١) سورة المائدة : الآية ١١٧ .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٣ ، ص ٨٥ . وصحيح مسلم ، كتاب الجنة ونعيمها ، ومسند الإمام أحمد ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

إنّ الروايات الدالّة على ارتداد الصحابة بعد رحلة النبي الأكرم ، كثيرة جداً ، لا يمكن حملها على نفر أو اثنين منهم ، بل لا يصحّ في تفسيرها إلاّ حملها على أمة كبيرة منهم ، فلاحظ ما ورد في هذا المجال : جامع الأصول لابن الأثير ، ج ١١ ، كتاب الحوض ، الفرع الثاني في ورود الناس عليه ، الأحاديث ٧٩٦٩ ـ ٧٩٨٠ .

الظروف المحيطة بها ، ويرسم على ضوئها ما يراه صالحاً لمستقبلها ، وقد عرفت أنّ مقتضى هذه الظروف هو تعيين القائد والمدبّر ، لا دفع الأمر إلى الأُمّة .

وإلى ما ذكرنا ينظر قول حكيم الإسلام الشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا في حقّ الإمام :

« والإستخلاف بالنصّ أصوب ، فإن ذلك لا يؤدّي إلى التشعب والتشاغب والإختلاف »[1] .

* * *

وحصيلة الكلام أنّ النظر إلى لزوم مليء الفراغات الهائلة التي تخلفها رحلة النبي الأكرم ومحاسبة مصالح الأمّة آنذاك ، لا يدع شكّاً في أنّ صيغة الحكومة بعد النبي ، إنّما هي صيغة التنصيب ،لا ترك الأمر إلى الأُمّة واختيار الإمام بطريق من الطرق التي سنشير إليها .

هذا ، مع قطع النظر عن النصوص التي تعينّ النظرية الأُولى بوضوح ، وأنّه صلى الله عليه وآله ، قد قام بنصب الوصيّ خضوعاً لأمر الله أوّلاً ، ورعاية للمصالح التشريعية ثانياً ، واهتماماً بمصالح الإسلام والمسلمين ثالثاً ، فإلى الملتقى في مورد هذه النصوص .

* * *

(١) الشفاء ، الفن الثالث عشر في الإلهيات ، المقالة العاشرة ، الفصل الخامس ، ص ٥٦٤ .

الأمر الثامن

هل الشورى أساس الحكم والخلافة ؟

قد تعرفت على الكلمات السابقة التي تعرب عمّا تنعقد به الإمامة عند أهل السنّة ، كما تعرفت على كيفية خلافة الخلفاء ، وأنّ الأول منهم فاز بخمسة أصوات[1] ، وأنّ الثاني أخذ بزمام الحكم بتعيين الخليفة الأول ، وأنّ الثالث استتب له الأمر بشورى سداسية عيّنها نفس الخليفة الثاني . هذا هو واقع الأمر ، ولم يكن في انتخاب هؤلاء ما يقتضيه طبع التشاور من عرض الموضوع على أهل المشورة ، ومناقشة الآراء ، وانتخاب واحد في ضوء الموازين العقلية والإجتماعية والشرعية . وأحسن كلمة تعبّر عن حقيقة هذا النوع من الانتخاب ما ذكره الخليفة الثاني بقوله : « إنّما كانت بَيْعة أبي بكر فَلْتة وتَمَّت ، ألا وإنّها قد كانت كذلك ولكن الله وقّى شرّها ، وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر ، من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين ، فلا يبايَع هو ، ولا الذي بايعه ، تغرّة أن يقتلا »[2] .

وقد حاول المتجددون من متكلمي أهل السنّة ، صبّ صيغة الحكومة الإسلامية على أساس المشورة بجعله بمنزلة الإستفتاء الشعبي ، بملاحظة أنّه لم يكن

---

(١) لاحظ ما نقلناه من كلام الماوردي .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٨ ، رجم الحبلى من الزنا إذا احصنت ، ص ١٦٨ ، وطالع بقية كلامه . ولاحظ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ١ ، ص ١٢٣ . وج ٢ ، ص ١٩ .

من الممكن بعد وفاة النبي مراجعة كل الأفكار واستعلام جميع الآراء في الوطن الإسلامي ، لقلّة وسائل المواصلات ، وفقدان سبل الإتصال المتعارفة اليوم . ولذلك يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب : إنّ الذين بايعوا أوّل خليفة للمسلمين لم يتجاوزوا أهل المدينة ، وربما كان بعض أهل مكة ، وأمّا المسلمون ـ جميعاً ـ في الجزيرة العربية ، فلم يشاركوا هذه البيعة ، ولم يشهدوها ، ولم يروا رأيهم ، وإنّما ورد عليهم الخبر بموت النبي مع الخبر باستخلاف أبي بكر[1] .

ثم إنّ من مظاهر الإختلاف الواقع في مسألة الشورى ، أنّ القائلين بها اختلفوا على قولين : فمنهم من قال بأنّ انتخاب أهل الشورى مُلْزِم للأُمّة ، وهو خبرة الأكثرية ، ومنهم من قال إنّه لا يزيد عن ترشيحٍ له لمنصب الأُمّة ، وللأُمّة اختياره أو رفضه[2] .

وعلى كل تقدير ، فما دليل هذه النظرية ، أي كون الشورى أساس الحكم ، سواء في الفترة التي تلت رحلة النبي أو في زماننا الحاضر .

إستدلوا بآيتين :

الآية الأُولى : قوله سبحانه : **﴿ وَشاوِرْهُمْ في الأمرِ ، فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على الله ﴾**[3] فالله سبحانه يأمر نبيّه بالمشاورة ، تعليماً للأُمّة ، حتى يتشاوروا في مهام الأُمور ، ومنها الخلافة .

يلاحظ عليه : أوّلاً ـ إنّ الخطاب في الآية متوجّه إلى الحاكم الذي استقرّت حكومته ، فيأمره سبحانه أنْ ينتفع من آراء رعيّته ، فأقصى ما يمكن التجاوز به عن الآية ، هو أنّ من وظائف كلّ الحكام التشاور مع الأُمّة ، وأمّا أنّ الخلافة بنفس الشورى ، فلا يمكن الإستدلال عليه بهذه الآية .

والآية نظير قول علي عليه السلام : « من استبدّ برأيه هلك ، ومن

(١) الإمامة والخلافة ، ص ٢٤١ .

(٢) الشخصية الدولية ، لمحمد كامل ياقوت ، ص ٤٦٣ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

شاور الرجال في أمورها ، شاركها في عقولها »[1] .

وثانياً ـ إنّ المتبادر من الآية هو أنّ التشاور لا يوجب حكماً للحاكم ، ولا يلزمه بشيء ، بل هو يقلب وجوه الرأي ويستعرض الأفكار المختلفة ، ثم يأخذ بما هو المفيد في نظره ، وذلك لقوله سبحانه في نفس الآية : ﴿ **فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على الله** ﴾ ، المعرب عن أنّ العزم والتصميم والإستنتاج من الآراء والأخذ بما هو الأصلح راجع إلى نفس المشير ، وهذا يتحقق في ظرف يكون هناك مسؤول تام الإختيار في استحصال الأفكار والعمل بالنافع منها ، حتى يخاطب بقوله : ﴿ **فإذا عَزَمْتَ** ﴾ ، وأمّا إذا لم يكن ثمة رئيس ، فلا تنطبق عليه الآية ، إذ ليس في انتخاب الخليفة بين المشيرين من يقوم بدعوة الأفراد للمشورة ، لغاية استعراض آرائهم ، ثم تمحيص أفكارهم ، والأخذ بالنافع منها ، ثم العزم القاطع عليه .

وكل ذلك يعرب عن أنّ الآية ترجع إلى غير مسألة الحكومة وما شابهها . ولأجل ذلك لم نر أحداً من الحاضرين في السقيفة احتجّ بهذه الآية .

الآية الثانية : قوله سبحانه : ﴿ **والَّذينَ اسْتجابُوا لِرَبِّهِمْ وأَقاموا الصَّلاةَ وأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقونَ** ﴾[2] .

ببيان أنّ المصدر (أمْر) أضيف إلى الضمير (هُمْ) ، وهو يفيد العموم والشمول لكل أمر ، ومنه الخلافة ، فيعود معنى الآية أنّ شأن المؤمنين في كل موردٍ ، شورى بينهم .

يلاحظ عليه : إنّ الآية تأمر بالمشورة في الأمور المضافة إلى المؤمنين ، وأمّا أنّ تعيين الخليفة من الأمور المضافة إليهم ، فهو أول الكلام ، والتمسك بالآية في هذا المجال ، تَمَسُّكٌ بالحكم في إثبات موضوعه .

وبعبارة أُخرى : إنّ الآية حثّت على الشورى فيما يمتّ إلى شؤون المؤمنين بصلة ، لا فيما هو خارج عن حوزة أُمورهم ، أمّا كون تعيين الإمام داخلاً في

---

(١) نهج البلاغة ، قسم الحكم ، الرقم ١٦١ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

أمورهم ، فهو أول الكلام ، إذ لا ندري هل هو من شؤونهم أو من شؤون الله سبحانه ، ولا ندري ، هل هي إمرة وولاية إلهية تتم بنصبه سبحانه وتعيينه ، أو إمرة وولاية شعبية ، يجوز للناس التدخّل فيها . ومع هذا الترديد لا يصحّ التمسّك بالآية .

إجابة عن سؤال

لو لم تكن الشورى أساس الحكم ، فلماذا استدلّ الإمام علي عليه السلام ، على المخالف ، بمبدأ الشورى ، وقال : ـ مخاطباً معاوية ـ : « إنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليهم ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يَرُدّ ، وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإن اجتمعوا على رجل وسمّوه إماماً ، كان ذلك لله رضىً »[1] .

والجواب : إنّ ابن أبي الحديد المعتزلي هو أوّل من احتجّ بهذه الخطبة على أنّ صيغة الحكومة بعد وفاة النبي مستندة إلى الإختيار ونظام الشورى ، وتبعه من تبعه ، ولكنه غفل عن صدر الرسالة التي تعرب عن أنّ الإستدلال بالشورى من باب الجدل ، خضوعاً لقوله سبحانه : ﴿ وجادِلْهُمْ بالَّتي هيَ أَحْسَنُ ﴾[2] ، فإنّ الإمام عليه السلام بدأ رسالته بقوله : « أمّا بعد ، فإنّ بَيْعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنّه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر . . . » ، ثم ختمها بقوله : « وإنّ طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بَيْعتي ،وكان نقضهما كردّهما ، فجاهدتُهما على ذلك حتى جاء الحق ، وظَهَر أمر الله وهم كارهون ، فادْخُل فيما دخل فيه المسلمون »[3] .

فالإبتداء بالكلام بخلافة الشيخين يعرب عن أنّه في مقام إسكات معاوية

---

(١) نهج البلاغة : قسم الكتب ، الرقم ٦ .

(٢) سورة النحل : الايه ١٢٥ .

(٣) لاحظ وقعة صفين لنصر بن مزاحم (م ٢١٢) ، ص ٢٩ ، ط مصر . وقد حذف الرضي في نهج البلاغة من الرسالة ما لا يهمه ، فإنّ عنايته كانت بالبلاغة فحسب .

الذي يعتبر البَيْعة وجهاً شرعياً للخلافة ، ولولا هذا لما كان وجه لذكر خلافة الشيخين ، بل لاستدلّ بنفس الشورى .

ولأجل ذلك يُتمّ كلامه بقوله : « فإن اجتمعوا على رجل . . » ، احتجاجاً بمعتقد معاوية ، عليه .

* * *

أسئلة حول مبدئية الشورى

من خلال التحليل المتقدم يمكن استخلاص أسئلة حول مبدئية الشورى للحكم ، تزعزع كونها مبدء له ، وهي :

١ ـ لو كان أساس الحكم هو الشورى ، لوجب على الرسول الأكرم التصريح به ، أوّلاً ، وبيان حدوده وخصوصياته ، ثانياً . بأن يبيّن مَنْ هُمُ الذين يشتركون في الشورى ، هل هم القراء وحدهم ، أو السياسيون ، أو القادة العسكريون ، أو الجميع ، وما هي شرائط المنتخب ، وأنّه لو حصل هناك اختلاف في الشورى ، فما هو المرجّح ، هل هو كمية الآراء وكثرتها ، أو الرجحان بالكيفية ، وخصوصيات المرشحين وملكاتهم النفسية والمعنوية .

فهل يصحّ سكوت النبي عن الإجابة على هذه الأسئلة التي تتصل بجوهر مسألة الشورى ، وقد جعل الشورى طريقاً إلى تعيين الحاكم ؟! .

٢ ـ إنّ القوم يعبّرون عن أعضاء الشورى ، بأهل الحلّ والعقد ، ولا يفسّرونه بما يرفع إجماله ، فَمَنْ هُمْ أهل الحلّ والعقد ؟ وماذا يحلّون وماذا يعقدون ؟ أهم أصحاب الفقه والرأي الذين يرجع إليهم الناس في أحكام دينهم ؟ وهل يشترط حينئذٍ درجة معينة من الفقه والعلم ؟ وما هي تلك الدرجة ؟ وبأي ميزان توزن ؟ ومن إليه يرجع الأمر في تقديرها ؟ أم غيرهم ؟ . فمن هم ؟ .

وربما تجد من يبدل كلمة أهل الحلّ والعقد ، بـ« الأفراد المسؤولين » ، وما هو إلاّ وضع كلمة مجملة مكان كلمة مثلها .

٣ ـ وعلى فرض كون الشورى أساس الحكم ، فهل يكون انتخاب أعضاء

الشـوري ملزِماً لـلأُمّة ، ليس لهم التخلّف عنـه ؟ أو يكون بمنـزلة الـترشيح ، حتى تعطي الأُمّة رأيها فيه ؟ وما هو دليل كل منهما ؟ .

هـذه الأسئلة كلُّهـا ، لا تجـد لهـا جـوابـاً في الكتـاب والسنّـة ولا في كتب المتكلمين ، ولو كانت مبدءً للحكم لما كان السكوت عنها سـائغاً ، بـل لكان عـلى عاتق التشريع الإسلامي الإجابة عليها ، وإضاءة طرقها[1] .

* * *

---

(١) يقول طه حسين : « ولو قد كان للمسلمين هذا النظام المكتوب (نـظام الشورى) لعَـرِف المسلمون في أيام عثمان ما يأتـون من ذلك ومـا يدعـون ، دون أن تكون بينهم فـرقة أو اختـلاف » (الخلافـة والإمامة : ص ٢٧١) .

ويقول الشيخ عبد الكريم الخطيب : « ينظر البعض إليه على أنّ تعيين الإمام بالشورى نواة صالحـة لأول تجربة ، وأنّ الأيام كفيلة بأن تنميها ، وتستكمل مـا يبدو فيهـا من نقص ، فلم تكن الأحوال التي تمّت فيها هذه التجربة تسمح بأكثر ممّا حدث .

وينظر بعض آخر إلى هذا الأُسلوب بأنّـه أُسلوب بدائي عـالَج أهمّ مشكلةٍ في الحيـاة ، وقدكـان لهذا الأُسلوب أثره في تعطيـل القوى المفكـرة للبحث عن أُسلوب آخر من أسـاليب الحكم التي جربتهـا الأمم » . (الخلافة والإمامة : ص ٢٧٢) .

ومعنى ما ذكره الخطيب ، أنّ قضية الشورى كانت مجرد تجربة ، ولم تكن قانـوناً إسـلامياً أُخـذ به ، وكانت في هذه القضية نقائص وعيوب ، تركت آثاراً سيئة على الفكر الإسلامي .

وفي المقـام شبهة ، يتشـدق بها بعض المتعصبين ، نذكـرها ونجيب عليهـا في ملحق خـاص آخـر الكتاب ، لاحظ الملحق رقم (١) .

الأمر التاسـع

هل البيعة أساس الحكم ؟

البَيْعة مصدرُ بايَعَ ، لأنّ المبايع يجعل حياته وأمواله . بالبَيْعـة ، تحت اختيار من يبايعه ، ويتعهد المبايَع (بالفتح) ـ في المقابل ـ على أن يسعى في إصـلاح حال المبايِع (بالكسر) وتدبير شؤونه بصورة صحيحة ، وكأنّهما يقومان بعملية تجارية ، إذ يتعهد كل واحـد منهما تجاه الآخر بعمـل شيء للآخـر ، قال ابن خلدون : « إنّ البَيْعة هي العهد على الطاعة ، كأنّ البـايع يعـاهد أمـيره على أن يسلم لـه النظر في أمـوره وأمور المسلمـين ، ويطيعـه فيما يكلفـه ، وكانـوا إذا بايعـوا الأمير ، جعلوا أيديهم في يده تأكيداً ، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري .

البيعة قبل الإسلام وبعده

كانت البيعة من تقاليد العرب قبل الإسلام وسننهم ، وليس من مبتكراته ، بـل أمضاهـا وجعلها من العقـود اللازمـة التي يجب العمل بهـا ، ويحرم نقضهـا . فقـدبايـع أهل المـدينة النبي الأكـرم صلى الله عليـه وآله في السنـة الحاديـة عشر ، والثانية عشر من البعثة ، في العقبة ، بمنى[1] ، بايعوه على عادتهم قبـل الإسلام ، حيث كانوا يبايعون زعماءهم .

---

(١) لاحظ سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٤٣١ و ٤٣٨ .

وأمّا بعد الهجرة ، فمرّة بـايعه الصحـابة في غـزوة الحُدَيْبيـة ، وسميت بَيْعة الـرضوان ، لقـوله سبحـانه : ﴿ لَقَـدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤْمنـينَ إذْ يُبـايِعـونَـكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ ما في قُلوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكينَةَ عَلَيْهِمْ وأَثابَهُمْ فتحاً قريباً ﴾[1] .

وأخرى بايعته الصحابيات في مكة المكـرمة بعـد فتحها ، وعنـه يحكي قولـه سبحانه : ﴿ إذا جاءَكَ ٱلْمُؤْمناتُ يُبـايِعْنَكَ على أَنْلا يُشْرِكنَ باللهِ شيْئاً ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزْنينَ . . . ﴾[2] .

إذا عرفت ذلك فلنعطف نظر الباحث إلى نكات :

الأولى ـ إنّ بيعة المسلمين للنبي الأكرم صلى الله عليـه وآله وسلّم ، لم تَعْنِ الإعتراف بزعامة الرسول ورئاسته ، فضلاً عن نصبه وتعيينـه ، بل إنّ المبـايعين ، بعد أن آمنوا بنبوة النبي واعترفوا بقيادته وزعامته ، أرادوا أن يصبّوا ما يلازم ذلـك الإيمـان ، من الإلتزام بـأوامر الـرسول ، في قـالب البيعة ، فكـانت البيعة صـورة عملية للإلتزام النفسي بأوامر النبي ، بعد الإقرار بنبوتـه ، وزعامتـه . فكأنّ النبي الأكرم يقول : « فإن آمنتم بي فبايعـوني على أن تـطيعوني ، وتُصَلّوا وتُـزَكّوا ، وأن تدفعوا عني العدو حتى الموت ، ولا تفروا من الحرب » .

والهدف عندئـذٍ من البيعة لم يكن هـو الإعتراف بمنصب المبـايع ، وانتخـابه وتعيينه لمقام الحكومة والولاية ، بل كانت لأجل التأكيد العملي عـلى الإلتزام بلوازم الإيمان السابق عليه ، وهذا بارز في البيعة الثانية للأنصار في منى ، وبيعة الصحابة في غزوة الحديبية .

الثـانية ـ إنّ البيعـة ميثاق بـين شخصين ، تنـدرج تحت قـولـه سبحـانـه : ﴿ وأَوْفوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كان مَسْئُولاً ﴾[3] .

وعقد بين المبايعين ، فتنـدرج تحت قولـه سبحانـه : ﴿ يا أَيُّهـا الَّذينَ آمَنـوا

---

(١) سورة الفتح : الآية ١٨ .
(٢) سورة الممتحنة : الآية ١٢ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ٣٤ .

أوْفوا بالعُقودِ ﴾[1] .

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، من الحث على البيعة : « وأمّا حقي عليكم ، فالوفاء بالبيعة ، والنصيحة في المشهد ، والمَغيب ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم »[2] .

الثالثة ـ إنّه ليس هناك دليل شرعي على أنّ مجرّد البيعة ، بغضّ النظر عن المواصفات والضوابط الآتية ، طريق إلى تعيين الخليفة والإمام ، وإنّما يتعيّن بها ، إذا كان المبايَع ، واجداً للصفات اللازمة في الإمام .

الرابعة ـ الظاهر أنّ البيعة ليست طريقاً لتعيين الحاكم وانتخاب القائد ، وإنّما يتعين الحاكم بالمقاولة وتصويت الجماعة الحاضرين ، ثم يُصَبُّ ذلك الإنتخاب في قالب الحسّ بالبيعة والصفق ، وكأنّ البيعة تأكيد لما التزموا ، وتجسيد لما أضمروه أو تقاولوه . وعلى فرض كونها طريقاً لتعيين الحاكم ، فهي إحدى الطرق لا الطريق الوحيد ، فلو علم رضا الأُمّة بحكومة فرد وزعامة شخص عن غير طريق البيعة ، وأُبرزت رضاها بطريق من الطرق ، لكفى ذلك في كونه قائداً لازم الطاعة ، لأنّه أشبه بالعقد والعهد .

الخامسة ـ إنّ التصويت الشعبي أو بيعة الجماعة الحاضرين إنّما يعدّ طريقاً لتعيين الحاكم إذا لم يكن هناك نصّ من الرسول على تنصيب شخص للزعامة ، وإلّا تكون البيعة رفضاً للنصّ ، واجتهاداً في مقابلة .

السادسة ـ إنّ البَيْعة الكاملة من الصحابة الحاضرين في المدينة ، لم تتحقق في واحد من الخلفاء الأربعة ، إلّا في علي ، فقد بايعه المهاجرون والأنصار ، إلّا نفر قليل لا يتجاوز خمسة أشخاص ، هم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وحسّان بن ثابت ، وأُسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة ، والباقون أصفقوا

---

(١) سورة المائدة : الآية الأولى .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ٣٤ .

على يده بـالبيعة والـطاعة ، وإن نكث من نكث ، ونقض من نقض ، فيـما بعد ، وشقَّ عصا الأُمّة .

هـذا وإنّ البيعة تحتـاج إلى دراسة مبسـوطة ، مـوضـوعـاً وحكمـاً في ضـوء الكتاب والسنّة ، ومنهج الكتاب لا يقتضي التوسّع أزيد ممّا ذكرنا[1] .

* * *

(١) لاحظ للتبسط : بحـار الأنـوار ، ج ٢ ، كتـاب العلم ، البـاب ٣٣ . وأيضـاً : ج ٢٧ ، كتـاب الإمامة ، الباب ٣ .

الأمر العاشـــر

تصوّر النبي الأكرم للقيادة بعده

إنّ الكلمات المأثورة عن الرسول الأكرم ، تدلّ على أنّه صلى الله عليه وآله كان يعتبر أمر القيادة بعده ، مسألة إلهية ، وحقاً خاصّاً لله جلّ جلاله ، فالله سبحانه هو الذي له أن يعين القائد ، وينصب خليفة الرسول ، ولا نجد في كل ما نقل عن النبي ما يدلّ على إرجاء الأمر إلى تشاور الأُمّة ، أو اختيار أهل الحلّ والعقد ، أو بيعة الصحابة الحاضرين ، أو غير ذلك ، ويكفي في ذلك الشاهدين التاليين :

١ ـ لما دعا الرسول الأكرم بني عامر إلى الإسلام وقد جاؤوا في موسم الحج إلى مكة ، قال رئيسهم : « أرأيت إنْ نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك » ؟ .

فقال النبي صلى الله عليه وآله : « الأمر إلى الله ، يضعه حيث يشاء »[١] .

فلو كان أمر الخلافة بيد الأُمّة ، لكان على النبي صلى الله عليه وآله أن يقول : الأمر إلى الأُمّة ، أو إلى أهل الحلّ والعقد ، أو ما يشابه ذلك . فتفويض الأمر إلى الله سبحانه ، ظاهر في كونها كالنبوة ، يضعها سبحانه حيث يشاء ، قال تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ﴾[٢] . فاللّسان في الموردين واحدٌ .

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٤٢٤ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٢٤ .

٢ ـ بعث النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلّم) سليط بن عمرو العامري ، إلى ملك اليمامة ، « هوزه بن علي الحنفي » ، الذي كان نصرانياً ، يدعوه إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً ، فقدم على ملك اليمامة ، فأنزله وحباه ، وكتب إلى النبي ، يقول : « ما أحسن ما تدعو إليه ، وأجمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم ، والعرب تهاب مكاني ، فاجعل لي بعض الأمر ، أتّبعك » . فقدم سليط على النبي بكتابه ، فلما قرأ عليه قال صلى الله عليه وآله : « لو سألني سيابة من الأرض ما فعلته . بادَ ، وبادَ ما في يده »[١] . وفي نقل آخر : « أرسل هوزة إلى النبي وفداً يقول له ، إنْ جَعَلَ له الأمر من بعده ، أسْلَمَ ، وصار إليه ، ونصره ، وإلّا قصد حربه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا ، ولا كرامة ، اللهم إكفنيه »[٢] .

فلو كانت القيادة بعد النبي ، قيادة دستورية انتخابية ، وكان للشعب الإسلامي منه حظ ، لكان على النبي إجابة السائل بشكل آخر ، وهو أنّ الأمر من بعدي ، يرجع إلى أُمّتي ، والمؤمنين بي ، ولكنك ترى أنّه وقف في وجهه بقسوة وشدّة كما هو ظاهر .

* * *

(١) الطبقات الكبرى ، لابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .

(٢) الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ، ص ١٤٦ .

الأمر الحادي عشر

تصوّر الصحابة للخلافة بعد النبي

إنّ المتتبع في تاريخ الخلفاء الذين تعاقبوا على مسند الحكومة ، يرى بوضوح أنّهم كانوا يتّبعون الطريقة الإنتصابية لا الإنتخابية ، بالتشاور أو البيعة ، أو غير ذلك من المفاهيم التي حدثت في أيام خلافة الإمام أمير المؤمنين ، وإليك الشواهد .

١ ـ إنّ خلافة عمر تمّت بتعيين من أبي بكر ، وليس هذا خافياً على أحد . روى ابن قُتَيْبة الدينوري ، أنّ أبا بكر دعا عثمان بن عفان ، فقال : أُكتُب عهدي ، فكتب عثمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عَهِدَ به أبو بكر بن أبي قُحافة ، آخر عهده في الدنيا ، نازحاً عنها . . . إنّي أستخلف عليكم عُمَر بن الخطاب ، فإن تروه عَدَلَ فيكم ، ظنّي به ورجائي فيه ، وإن بَدّلَ وغَيّر ، فالخير أردت . . » ثم ختم الكتاب ودفعه ، ودخل عليه المهاجرون والأنصار حين بلغهم أنّه استخلف عُمَر[١] .

---

(١) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ١٨ . ورواه ابن سعد في طبقاته الكبرى ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ ، وابن الأثير في تاريخه « الكامل » ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ باختلاف يسير وقد نقل موضوع استخلاف أبي بكر لعمر ، عدّة من أعلام التاريخ والحديث ، والكل يتحد جوهراً ، وأنّ التنصيب صدر من الخليفة الأول .

٢ ـ إنّ استخلاف عثمان تَمَّ عن طريق شورى عين أعضاءها عمر بن الخطاب ، يقول التاريخ : دعا عمر عليّاً ، وعثمان وسعداً ، وعبد الرحمن ، والزبير ، وطلحة ، فقال : « إنّي نظرت فوجدتكم رؤساء الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذنها ، واختاروا منكم رجلًا ، فإذا متّ فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصلب الناس صهيباً ، ولا يأتي اليوم الرابع إلّا وعليكم أمير »[1] .

فلو كانت صيغة الحكومة هي انتخاب القائد عن طريق المشورة باجتماع الأُمّة ، أو بالبَيْعة ، فما معنى انتخاب الخليفتين بهذين الطريقين ؟ .

٣ ـ لما اغتيل عمر بن الخطاب . وأحسّ بالموت ، أرسل ابنه عبد الله إلى عائشة ، واستأذن منها أن يدفن في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر ، فأتاها عبد الله ، فأعلمها ، فقالت : نَعَم ، وكرامة . ثم قالت : يا بُني ، أبلغ عُمَرَ سلامي وقل له ، لا تدع أُمّة محمد بلا راع ، استخلف عليهم ، ولا تدعهم بعدك هملا ، فإنّي أخشى عليهم الفتنة ، فأتاه ، فأعلمه »[2] .

٤ ـ إنّ عبد الله بن عمر دخل على أبيه قبيل وفاته ، فقال : « إنّي سمعت الناس يقولون مقالة ، فآليت أن أقولها لك ، وزعموا أنّك غير مستخلف ، وأنّه لو كان لك راعي إبل أو غنم ثم جاءَك وتركها ، لرأيت أنْ قد ضيّع ، فرعاية الناس أشد »[3] .

٥ ـ قدم معاوية المدينة لأخذ البَيْعة من أهلها لابنه يزيد ، فاجتمع مع عدّة من الصحابة ، وأرسل إلى عبد الله بن عمر ، فأتاه ، وخلا به ، وكلّمه بكلام ، وقال : إنّي كرهت أن أَدَع أُمّة محمد بعدي كالضأن لا راعي لها »[4] .

هذه النصوص التي حفظها التاريخ ، صدفة ـ وكم لها من نظائر ـ تدلّ على أنّ انتخاب الخليفة عن طريق أهل الحلّ والعقد ، والأنصار والمهاجرين ، وأخيراً

---

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٣٥ ، أُنظر باقي الواقعة .

(٢) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٣) حلية الأولياء ، ج ١ ، ص ٤٤ .

(٤) الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

الإستفتاء الشعبي ، لم يكن له أصل في منطق الصحابة ، وإنّما اخترعت هذه الألفاظ في فترة خاصة ، في مقابل خلافة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام .

ثم إنّ ها هنا أمراً بديعاً يجب إلفات نظر الباحث إليه وهو إنّه إذا كان ترك الأُمّة بلا راع ، أمراً غير صحيح في منطق العقل ، أو كان ترك تعيين القائد كترك الضأن بلا راع لها ، فكيف يجوز لهؤلاء أن ينسبوا إلى النبي أنّه ترك الأُمّة بلا راع ، وودعهم بعده هملا ، يخشى عليهم الفتنة . فكأنّ هؤلاء كانوا أعطف على الأُمّة من النبي الأكرم ،وأحنّ على مصالحها منه ؟ إنّ هذا ممّا يقضي منه العجب .

غير أنّ كُلّ مَنْ كَتَب في الإمامة ، وواجه هذا التاريخ المسلّم ، حاول تصحيح هذه التنصيبات بأنّ تعيين القائد السابق ، الإمامَ اللاحق ، أحد طرق انعقاد الإمامة ، ولكن هؤلاء قد جمعوا بين المختلفين ، فتارة يعترفون بالتنصيب ، وأُخرى بالإنتخاب ، وبعبارة أُخرى : يعترفون بكفاية رأي واحد من الأُمّة تارة ، ويشترطون تصويت الشعب ، أو الصحابة ، ثانياً .

* * *

الأمر الثاني عشر

صيغة القيادة في الشرائع السابقة

المتبع بين الأنبياء السالفين هو تسليم أمرِ مَنْ قاموا بهدايتهم ، إلى خلفاء صالحين لائقين ، ليتسنى لتلك الأمم في ظل الرعاية والتربية الصحيحة ، التي يتولاها الأوصياء ، أن يستمروا في طريق التكامل والرشد .

نعم ، كان كثير من الأوصياء أنبياء ، ولكن بعضاً منهم كانوا أوصياء خاصين ، وهذا يعرب عن أنّ مسألة القيادة والزعامة كانت من الأهمية والخطورة ، إلى حدّ لم يُترك أمرها إلى اختيار الناس ونظرهم ، بل كانت تُعهد على مدى التاريخ إلى رجال أكفاء، يُعَيَّنون بالإسم والشخص ، لأنّ تركه يؤدّي إلى الإختلاف والفرقة والفتنة ، وكانت القيادة يتوارثها ، في الغالب أفراد من سلالة الأنبياء والرسل ، خلَفاً عن سلف ، وإليك بعض الآيات المشعرة بذلك .

قال سبحانه مخاطباً إبراهيم عليه السلام : ﴿ **إنّي جاعِلُكَ للنَّاسِ إماماً ، قال وَمِنْ ذُرِّيَّتي ، قال لا يَنالُ عَهْدي الظَّالِمين** ﴾[1] وليس المراد من الإمامة هنا النبوة ، كما زعمه بعض المفسّرين ، لأنّه إنّما جعله إماماً بعدما كان نبيّاً ورسولاً ، بشهادة أنّه يطلب هذا المقام لذرّيته ، وإنّما صار ذا ذرّية ، بعدما كبر وهرم ، قال : ﴿ **الحَمْدُ لله الّذي وَهَبَ لِي على الكِبَرِ إسْماعِيلَ وإسْحاقَ** ﴾[2] . وقد كان نبيّاً قبل

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٣٩ .

أن يرزق ولداً ، بشـهادة نزول الملائكة عليه[1] . بل المراد هو الإمـامة المتمثلة في الحاكمية والقيـادة ، فدعـا إبراهيم أن يجعـل الله تعالى هـذا المقام في ذرّيتـه ، على النحو الذي جعله فيـه (بالتنصيب) ، ولم يَـرُدَّه سبحانـه ، وما أنكـره عليه ، بـل أخبره بأنها لا تنال الظالمين منهم .

قال سبحانـه ـ حاكيـاً عن موسى عليـه السلام ـ : ﴿ **واجْعَـل لِي وَزيراً مِنْ أَهْـلي*هارونَ أَخي** ﴾[2]. فـطلب مـوسى عليـه السـلام أن يكـون أخـاه هـارون مسـاعداً ومعينـاً له في القيـادة ، فقبله سبحانـه ، وأعـطاه مضـافـاً إلى الـوزارة ، النبوة . ويؤيّد ذلك تاريـخ الأنبياء ، فقـد كانـوا ينصّون عـلى الخلفاء من بعـدهم بصورة الوصاية ، وقد ذكر المؤرخون قائمة أوصيائهم ، فراجع[3] .

هذه هي الطريقـة المألـوفة في الشرائـع السابقـة ، ولا دليل عـلى الإنحراف عنها ، ولا صارف عن الأخذ بها ، بل نجد في السنّة ما يدلّ على أنّ كـل ما جـرى على الأمم السابقة ، يجري على هذه الأُمّة إلّا ما استُثني[4] .

ويدلّ على ذلك بصراحة لا تقبل جدلاً ، مـا رُوي عن رسول الله صـلى الله عليه وآله أنّه قال :

« كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنّـه لا نبي بعدي ، وسيكون بعدي خلفاء يكثرون »[5] .

وظـاهر الحـديث أنّ استخلاف الخلفـاء في الأُمّة الإسـلامية ، كـاستخلاف

---

(١) لاحظ سورة الحِجْر : الآيات ٥١ ـ ٦٠ .

(٢) سورة طه : الآيتان ٢٩ و ٣٠ .

(٣) لاحظ إثبات الوصية ، للمسعودي ، مؤلّف مروج الذهب (م٣٤٥) .

(٤) روى أحمد في مسنده ، ج ٣ ، ص ٨٤ ، عن أبي سعيد الخدري ، أنّ رسول الله (ص) قال : « لتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ الذين مِنْ قَبْلِكُم ، شِبْراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لتبعتموهم » . ورواه غيره من أصحاب الصحاح والسنن .

(٥) جامع الأُصول لابن أثير الجزري ، الفصل الثاني ، فيمن تصح إمامته وإمارته ، ص ٤٤٣ ، أخرجه البخاري ومسلم .

الأنبياء في الأمم السالفة ، ومن المعلوم أنّ الإستخلاف كان هناك بالتنصيص ، فيجب أن يكون هنا بالتنصيص كذلك .

* * *

إذا تعرفت على هذه الأُمور الإثني عشر ، فاعلم أنّ هذه المقدمات تعرب عن كون صيغة الحكومة بعد النبي هي صيغة التنصيص ، والتنصيب ، لا غير ، لا بالطرق التي تقدمت عند البحث عمّا تنعقد به الإمامة عند أهل السنّة ، وإليك البيان :

١ ـ قد عرفت أنّ رحلة النبي الأكرم تترك فراغات هائلة في الأُمّة ، لا مناص عن سدّها بواحد من أبناء الأُمّة ، وأنّ هذه الفراغات لا تسدّ بفرد عادي ، له من المؤهلات والكفاءات العلمية ، ما لا يتجاوز عن حدود ما لغيره من أفراد الأُمّة ، بل يجب أن يكون له كفاءة وصلاحية توازن كفاءات النبي ومؤهلاته ، ويكون مستودعاً لعلوم النبي ، واقعاً تحت عناية الله تبارك وتعالى وكفالته .

ومن المعلوم أنّ التعرّف على هذا الفرد ليس ميسّراً من طريق الإنتخاب بالشورى أو بالبيعة ، بل يُعرف بتعيينٍ من الله سبحانه عن طريق النبي الأكرم ، نظير أوصياء سائر الأنبياء .

٢ ـ كما عرفت أنّ الدولة الإسلامية الفتية كانت مهددة في أُخريات أيام النبي ، حال وفاته ، بأعداء داخليين وخارجيين . أمّا الداخليون ، فهم المنافقون الذين كانوا يتربصون بها الدوائر ، وأمّا الخارجيون ، فدولتا الروم والفرس ، فمقتضى المصلحة العامة في تلك الظروف الحرجة ، تعيين الإمام والخليفة بعده ، لئلا تترك الدولة بعد وفاته عرضة للإختلاف ، وبالتالي تمكّن أعدائها منها ، خصوصاً إذا لاحظنا أنّ حياة العرب حينذاك في عاصمة الإسلام وخارجها ، كانت حياة قَبَلية ، والتعصبات العشائرية لا تزال متغلغلة في نفوسهم ، وتَرْكُ الأمر إلى مجتمع هذا حالة ، يؤدّي إلى التشاغب والإختلاف وبالتالي إلى القتل والدمار .

أضف إلى ذلك أنّ الوعي الديني لم يكن راسخاً في قلوب أكثر الصحابة ، وإن كان القليل منهم قد بلغ القمة ، وصاروا مثلاً عليا للفضل والفضيلة ، وقد

عرفت دليل قلّة الوعي الديني ، بفرارهم في بعض الغزوات .

٣ ـ كما عرفت أنّه لو كان أساس الحكم على غير وجه التنصيب ، لكان على النبي الأكرم بيان أُسسه وأُصوله وفُروعه ، وشرائط الإمام ، وما تنعقد به الإمامة ، مع أنّ النبي سكت عن ذلك ولم ينبس منه بكلمة ، فليس في الصحاح والمسانيد أحاديث أو حديث عن النبي حول أساس الحكم ، أفيصحّ لنا أن نتهم النبي بأنّه بَلّغ أبسط الأمور وأيسرها ، التي تقع في الدرجة الأخيرة من الأهمية في حياة الإنسان ، وسكت عن عظائم الأمور ومهمّاتها التي تتوقف عليها حياة الأمّة .

كل ذلك يعرب عن أنّ سكوته لأجل أنّ أساس الحكم هو التنصيب ، ونصب الإمام يغني عن البحث حول أساس الحكم وشروطه ، لأنّ الإمام المنصوب يكون ميزاناً للحق ، ومعياراً للتعرّف على أساس الحكم وشروطه ؛ « وكُلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفِراء »[1] .

٤ ـ كما عرفت أنّ تصوّر النبي للخلافة في عصره ، هو إيكالها إلى الله سبحانه ، وأنّه تعامل معها معاملة الرسالة ، وأنّه عَرّفها بنفس ما عرّف به الله سبحانه الرسالة ، « يَضَعُها حَيْثُ شَاءَ » .

٥ ـ كما عرفت أنّ تصوّر الصحابة ، وسيرتهم في الخلافة هي سيرة التنصيب ، وقد كان ترك التنصيب ، في نظرهم ، إهمالاً لأمر الأُمّة ، وتركاً لها بلا راع فريسة للذئاب ، والأعداء ، وبذلك استتبّ الأمر لعُمَرُ بيد أبي بكر ، ولعُثْمان بيد عُمَر ، وهكذا توالت السيرة في الأُمويين من الخلفاء ، وشذّت عنها خلافة علي حيث استتبت له ببيعة المهاجرين والأنصار .

٦ ـ كما عرفت أنّ صيغة القيادة في الشرائع السابقة كانت هي التنصيب ، وكان الأوصياء يُنْصَبون من طريق الأنبياء .

٧ ـ كما أنّك عرفت أنّه لا دليل على كون أساس الحكم هو الشورى أو البيعة بألوانها المختلفة .

---

(١) مَثَل يُضرب .

كـل ذلك يعـرب عن أنّ القائـد الحكيم ، بـأمـر من الله سبحـانـه ، سلك مسلكاً ، ونهج منهجاً ، يطابق هذه الأُصول والمقدمات ، وما خالفها قدر شعرة ، وعيّن القائد بعده في حياته ، وأعلنه للأُمّة في موسم أو مواسم .

هـذا مـا يـوصلنـا إليـه السـبر والتقسيم والمحـاسبـة في الأُمـور الإجتـماعيـة والسياسية ، فيجب علينا عندئذٍ الرجوع إلى الكتاب والسنّة ، لنقف ونتعرّف عـلى ذلك القائد المنصوب ، ونذعن ـ بالتالي ـ بأنّ عمل النبي كان موافقاً لهـذه الأُصول العقلائية التي تقدمت ، وهذا ما يوافيك في البُحوث التالية .

* * *

البحـــث الأول :

السنّة النبوية وتنصيب علي للإمامة

إنّ من أحاط علماً بسيرة النبي في تأسيس دولة الإسلام ، وتشريع أحكامها وتمهيد قواعدها ، يجد علي بن أبي طـالب وزيـر رسـول الله في أمره ، وظهـيره على عدوه ، وعيبة علمه ، ووارثَ حُكْمِه ، ووليَّ عهـده ، وصاحبَ الأمـر من بعده . ومَنْ وقف على أقوال النبي وأفعاله في حِلّه وترحاله ، يجد نصوصه في ذلك متواتـرة متوالية ، من مبدأ أمره إلى منتهى عمره ، صلى الله عليه وآله ، وإليك البيان .

أ ـ حديث بدء الدعوة

أخرج الطبري وغيره ، بسنده ، عن علي بن أبي طالب ، أنّـه لما نـزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ﴿ وأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبينَ ﴾[1] دعاني رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال لي : يا عليّ ، إنّ الله أمرني أن أُنـذر عشيرتي الأقربين ، فضقت بذلك ذرعاً ، وعرفت أنّي متى أُباديهم بهذا الأمر ، أرى منهم ما أكره ، فَصَمَدّتُ عليه حتى جاءني جبرئيل ، فقال : يا محمد ، إنّك إنْ لا تفعـل ما تُؤْمر به ، يعذّبك ربُّك ، فاصنـع (يا عـلي) لنا صـاعاً من طعـام ، واجعل عليـه رِجْـلَ شاة ، وامـلأ لنا عسـا من لَبَن ، ثم اجمع لي بني عبـد المـطلب حتى أُكلّمهم وأُبَلّغهم ما أُمِرت به ، ففعلت ما أُمرني به ، ثم دعوتهم له ، وهم يـومئذٍ أربعـون

(١) سورة الشعراء : الآية ٢١٤ .

رجلاً ، يزيدون رجلاً أو ينقصونه ، فيهم أعمامه . . . إلى أن قال : فأكلوا حتى ما لهم بشيء حاجة ، ثم قال (النبي) : أسقهم . فجئتهم بذلك العس ، فشربوا حتى رووا منه جميعاً ، ثم تَكَلَّم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا بني عبد المطلب ، إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب ، جاء قومه بأفضل ممّا قد جئتكم به ، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن أدْعُوَكم إليه ، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر ، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟ قال : فأحجم القوم عنها جميعاً ، وقلت : أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي ،ثم قال : إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوه .

وفي رواية أُخرى قال ذلك القول ثلاث مرات ، كلُّ ذلك أقوم إليه فيقول : إجلس[1] .

ودلالة الحديث على الخلافة لعلي والوصاية له ،لا تحتاج إلى بيان.، وهذا إنْ

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٦٣ ـ ٦٤ . ورجال السند كلّهم ثقات إلاّ أبو مريم عبد الغفار بن القاسم ، فقد ضَعّفه القوم ، ليس ذلك إلاّ لتشيعه ، فقد أثنى عليه ابن عقدة وأطراه ، وبالغ في مدحه ، كما في لسان الميزان ، ج ٤ ، ص ٤٣ وأسند إليه .
وأخرجه بهذا اللفظ أبو جعفر الإسكافي المتكلم المعتزلي البغدادي ، في كتابه نقض العثمانية ، على ما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ١٣ ، ص ٢٤٤ ، وقال : « إنّه روي في الخبر الصحيح » ، وابن الأثير في الكامل ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، وأبو الفداء عماد الدين الدمشقي ، في تاريخه : ج ٣ ، ص ٤٠ . والخازن علاء الدين البغدادي في تفسيره ، ص ٣٩٠ . وغيرهم من الحفّاظ وأساتذة الحديث وأئمة الأثر ، والمراجع في الجرح والتعديل ، ولم يقذف أحد منهم الحديث بضعف أو غمز لمكان أبي مريم في أسناده .
على أنّه أخرجه الإمام أحمد في مسنده في غير مورد ، فرواه في الجزء الأول ، ص ١٥٩ عن عفان عن أبي عوانة عن عثمان بن المغيرة ، عن أبي صادق ، عن ربيعة بن ناجز ، ورجال السند كلُّهم ثقات . كما أخرجه في الجزء الأول ، ص ١١١ ، بسندٍ رجاله كلُّهم من رجال الصحاح بلا كلام ، وهم شريك ، والعمش ، والمنهال ، وعباد .
وللحديث صور مختلفة رواها عدّة من الحفاظ ، فمن أراد التوسع في ذلك فليرجع إلى المصادر التالية : الغدير ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٩ . غاية المَرام ، للسيد البحراني ، المقصد الثاني ، الباب ١٥ و ١٦ . وتعاليق إحقاق الحق ، ج ٤ ، ص ٦٦ ـ ٧٠ . والمراجعات ، المراجعة ٢٠ ، والمراجعة ٢٢ ، وقد تكلم في إسناد الحديث في المتن وتعاليقه بما لا يدع للمريب شكاً .

دَلّ على شيء ، فإنّما يدلّ على أنّ النبوة والإمامة كانتا متعاقدتين بعقد واحد ، تتجليان معاً ، ولا تتخلفان .

كتمان الحقائق

إنّ من العجب أنّ أُناساً يدّعون أنّهم حفظة الحديث وعَيْبة آثار رسول الله صلى الله عليه وآله ، كَتَموا الحقائق وارتكبوا جنايات في نقل الآثار ، وإليك نبذة من هؤلاء .

١ ـ رأينا أنّ الطّبري في تاريخه ، نقل قول النبي على الوجه التالي :

ـ « فأيُّكم يؤازرني على هذا الأمر ، على أنْ يكون أخي ووصيي وخَليفتيَ فِيكُمْ » . كما نقل قوله الآخر :

ـ « إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوه » .

ولكنه في تفسيره ، لم يعجبه نقل الحقيقة ، لمخالفتها لما يبطنه من العقيدة ، فقال مكان الجملتين : « فأيُّكم يؤازرني على هذا الأمر ، على أن يكون أخي **وكذا وكذا** » .

ـ « إنّ هذا أخي **وكذا وكذا** ، فاسمعوا له وأطيعوه »[1] .

٢ ـ إنّ الحافظ أبا الفداء ابن كثير (م ٧٧٤) ، ذكر الحديث في تاريخه على النصّ الذي رواه الطبري في تفسيره ، مع أنّه وضع تاريخه ، على منوال تاريخ الطبري ، ولكن لم يعجبه نقله من تاريخه ، واعتمد على التفسير الذي كنى عن نصّ رسول الله بالوصاية والخلافة لعلي[2] .

٣ ـ إنّ محمد حسين هيكل ، كتب ما هو خزاية فاضحة في مجال الحديث ، فإنّه كتب الجملة الأُولى أعني قول النبي الأكرم : « فأيُّكم يؤازرني على هذا الأمر

---

(١) تفسير الطبري ، ج ١٩ ، ص ٧٥ .

(٢) البداية والنهاية ، الجزء الثالث من المجلد الثاني ، ص ٤٠ .

وأن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم » . وترك من رأس الجملة الثانية التي قالها النبي لعلي .

ولكن هذا المقدار من الإعتراف بالحقيقة ، لم يعجب القشريين من الأزهريين ، فوقع موقع النقد منهم ، وأسقط في الطبعة الثانية من الكتاب كلّ ما يرجع إلى عليٍّ عليه السلام ، دفعاً لأمواج اللوم والعتاب[1] .

* * *

ب ـ حديث المنزلة

روى أهل السِيَر والتاريخ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، خلّف علي بن أبي طالب على أهله في المدينة ، عند توجهه إلى تبوك ، فأرجف به المنافقون ، وقالوا : ما خلّفه إلاّ استثقالاً له ، وتخوُّفاً منه ، فلما قال ذلك المنافقون ، أخذ علي بن أبي طالب ، سلام الله عليه ، سلاحَه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو نازل بالجرف[2] ، فقال : يا نبيّ الله ، زعم المنافقون أنّك إنّما خلفتني أنّك استثقلتني ، وتخفّفت مني ، فقال : كذبوا ، ولكني خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكونَ مني بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنّه لا نبي بعدي ؟ .

فرجع علي إلى المدينة ، ومضى رسولُ الله صلى الله عليه وآله على سفره[3] .

---

(١) حياة محمد ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٥٤ ، ص ١٣٩ . وعلى هذه الطبعة جاءت الطبعات اللاحقة ، ونسخت الطبعة الأُولى وكأنّ الأستاذ لم يكتبها .

(٢) الجرف ، بالضم ثم السكون ، موضع على بعد ثلاثة أميال من المدينة .

(٣) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ٢ ، ص ٥١٩ ـ ٥٢٠ ، وقد نقله من أصحاب الصحاح : البخاري في غزوة تبوك ، ج ٦ ، ص ٣ ، ط ١٣١٤ . ومسلم في فضائل عليٍّ ، ج ٧ ، ص ١٢٠ . وابن ماجة في فضائل أصحاب النبي ، ج ١ ، ص ٥٥ ، ط المطبعة التازية بمصر . والإمام أحمد في مسنده في غير مورد لاحظ ج ١ ، ص ١٧٣ و١٧٥و١٧٧و١٧٩و١٨٢ و١٨٥و٣٣٠ وغيرهم من الأثبات الحفاظ ، فلم يشك في صحة سند الحديث إلاّ الآمدي ، وليس هو من علم الحديث في حِلٍّ ولا ترحال .

(إذا ما فُضِّلَتْ عليا قريش فلا في العِيرِ أنت ولا النفير) =

ومن عجيب القضايا ما رواه مسلم ، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ، قال : أَمَرَ معاوية بن أبي سفيان سعداً ، وقال : ما منعك أن تَسُبَّ أبا التراب ، فقال : أمّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالَهُنَّ له رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، فلن أَسُبَّه ، لأن تكون لي واحدة منهن أَحبُّ إليّ من حُمر النعم . سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول له وقد خلّفه في بعض مغازيه ، فقال له علي : يا رسول الله خلّفتني مع النساء والصبيان . فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله) : أمّا ترضى أنْ تكونَ مني بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنّه لا نبوة بعدي .

وسمعته يقول يوم خيبر : لأُعطِيَنَّ الرايةَ رجلاً يُحبُّ الله ورسولَه ، ويحبُّه الله ورسولُه . قال : فتطاولنا لها ، فقال : أُدعو لي عليّاً ، فأُتي به أرمد ، فبصق في عينه ، ودفع الراية إليه ، ففتح الله عليه .

ولما نزلت هذه الآية : ﴿ فَقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وأَبْناءَكُمْ ﴾ ، دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، فقال : « اللّهم هؤلاء أهلي »[1] .

وأمّا دلالة الحديث على أنّ النبي أفاض على عليٍّ عليه السلام ـ بإذن من الله سبحانه ـ الخلافة والوصاية ، فيكفيك فيها أنّ كلمة « منزلة » إسم جنس أضيف إلى هارون ، وهو يقتضي العموم ، فيدلّ على أنّ كل مقام ومنصب كان ثابتاً لهارون فهو أيضاً ثابت لعلي ، إلاّ ما استثناه ، وهو النبوّة .

على أنّ الإستثناء هو أيضاً دليل العموم ، ولولاه لما كان وجه للإستثناء .

وأمّا ما جاء في صدر الحديث من أنّه خلّفه على أهله ، فلا يكون دليلاً على الإختصاص ، لبداهة أنّ المورد لا يكون مخصِّصاً ، وهو أحد القواعد المسلّمة في

= وما جرّه إلى التشكيك ، غير كون الحديث نصاً صريحاً في إمامة علي ، فحاول التشكيك للتخلص من هذا الإرتباك .

(١) صحيح مسلم ، ج ٧ ، باب فضائل علي بن أبي طالب ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

علم الأُصول ، فلو رأيت أنّ الجُنُبَ يمسّ آية الكرسي ، فقلت له ،لا يُمُسَّنَّ آيـاتِ القرآن محدِثٌ ، يكون دليلاً على أنّ الجنب يحرم عليه مسّ القرآن على الإطلاق .

وأمّا منزلة هارون من مـوسى ، فيكفي في بيانها قـوله سبحـانه ـ حكـاية عن مـوسى ـ : ﴿ واجْعَلْ لي وَزيـراً مِنْ أَهْـلي * هـارونَ أخي * اَشْـدُدْ بِـهِ أَزْري * وأَشْرِكْهُ في أَمرِي ﴾[1] فجاء الجواب :

﴿ قال قـدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى ﴾[2] .

إنّ من تَتَبّـع سيرة النبي يجـده يصوّر عليّـاً وهارون كـالفرقـدين في السماء ، والعينـين في الوجـه ، لا يمتاز أحـدهما في أُمّته عن الآخر في أمتـه بشيءٍ مـا ، ومن ذلك :

أ ـ إنّ النبي سمّى أبناء علي كأسماء أبناء هارون ، فسـمّاهم حسناً وحُسَيْنـاً ومُحْسِناً ، وقال : إنّما سَمَّيْتُهم بأسماء وُلد هارون : « شُبَّرٌ ، وَشُبَيْر ، ومُشبر »[3] .

ب ـ إنّ النبي اتّخذ عليّاً أخاه ، وآثره بذلك عـلى من سواه ، تحقيقـاً لعموم الشَّبه بين منازِل الهارونِيَّيْنِ من أخويهما ، وحرصـاً على أن لا يكـون ثمة من فـارق بينهـما . وقد آخى بـين أصحابـه ، فجاء عـليٌّ عليـه السـلام وقـال : آخيت بـين أصحابك ،ولم تؤاخ بيني وبين أحد ؟ فقـال رسول الله صـلى الله عليه وآلـه : أنت أخي في الدنيا والآخرة[4] .

ج ـ أمر بسد أبواب الصحابة من المسجد ، تنزيهاً لـه عن الجُنُب والجنابـة ، لكنه أبقى باب عـلي عليه السـلام ، وأباح لـه عن الله تعالى ، أن يـدخل المسجـد جنباً ، كما كان هذا مباحاً لهارون ، فدلّل ذلك على عموم المشابهة بـين الهارونِيَّـيْنِ

---

(١) لاحظ سورة طه : الآيات ٢٩ ـ ٣٣ وقوله : ﴿ وأَشْرِكْهُ في أَمْري ﴾ يـدل على اشـتراك هارون مـع موسى في النبوة كـما يدل عليـه قولـه تعالى : ﴿ وَوَهَبْنـا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنـا أَخاهُ هـارونَ نبيّاً ﴾ (سـورة مريم : الآية ٥٣) ، ولأجل ذلك استثناها النبي من منزلة هارون من موسى .

(٢) سورة طه : الآية ٣٦ .

(٣) مستدرك الحاكم ، ج ٣ ، ص ١٦٥ و ١٦٨ .

(٤) سنن الترمذي ، ج ٥ ، ص ٦٣٦ ، الحديث ٣٧٢٠ . ومستدرك الحاكم ، ج ٣ ، ص ١٤ .

عليهما السلام ، كما قال ابن عباس : « وسدّ رسولُ الله أبوابَ المسجد غير باب علي ، فكان يدخل المسجد جنباً ، وهو طريقه ليس له طريق غيره »[1] .

* * *

ج ـ حديث « الغدير »

حديث الغدير ، حديث الولاية الكبرى ، حديث إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضى الرب تعالى . وهو حديث نزل به كتاب الله المبين ، وتواترت به السنّة النبوية ، وتواصلت حلقات أسانيده منذ عهد الصحابة والتابعين إلى اليوم الحاضر ، وقد صبّ شعراء الإسلام واقعة الغدير ، في قوالب الشعر ، وهو من أحسن ما أثار قرائحهم الشعرية وإليك فيما يلي حاصل تلك الواقعة ، وخطبة النبي الأكرم فيها :

أجمع رسول الله صلى الله عليه وآله ، الخروج إلى الحج في السنة العاشرة من الهجرة ، وأذّن في الناس بذلك ، فقدم المدينة خلق كثير يأتمون به حجته ، تلك الحجة التي سميت بحجة الوداع ، وحجة الإسلام ، وحجة البلاغ ، وحجة الكمال ، وحجة التمام[2] ، ولم يحج غيرها منذ هاجر إلى أن توفّاه الله سبحانه . واشترك معه جموع لا يعلم عددها إلاّ الله ، وأقلّ ما قيل إنّه خرج معه تسعون ألفاً ، وأمّا الذين حجّوا معه فأكثر من ذلك ، كالمقيمين بمكة ، والذين أُتوا من اليمن . فلما قضى مناسكه وانصرف ، راجعاً إلى المدينة ، ومعه من كان من الجموع المذكورات ، ووصل إلى غدير « خم » من الجُحْفَة ، التي تتشعب فيها

---

(١) حديث « سدّ الأبواب كلّها إلاّ باب علي » ، من الأحاديث المتضافرة المنقولة عن لفيف من الصحابة ، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، لاحظ مسند أحمد ، ج ٢ ، ص ٢٦ . ومنهم أبوه عمر بن الخطاب ، لاحظ مستدرك الحاكم ، ج ٣ ، ص ١٢٥ . ومن أراد التبسّط في أسانيده فعليه بالغدير ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ـ ٢١٥ . والمراجعات ، المراجعة ٣٤ .

(٢) تسميتها بالبلاغ وبالتمام والكمال، لنزول قوله سبحانه : ﴿ يا أَيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ . وقوله سبحانه : ﴿ اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ ديناً ﴾ سورة المائدة : الآيتان ٦٧ و ٣ في ذلك الحج .

طرق المَدنيين والمصريين والعراقيين ، وذلك يوم الخميس ، الثامن عشر من ذي الحجة ، نزل جبرئيل الأمين عن الله تعالى بقوله : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾[1] ، وكان أوائلُ القوم قريبين من الجحفة ، فأمر رسول الله أن يُرَد من تقدم منهم ، ويُحْبس من تأخّر عنهم ، حتى إذا أخذ القوم منازلهم ، نودي بالصلاة ، صلاة الظهر ، فصلّى بالناس ، وكان يوماً حاراً ، يضع الرجل بعض ردائه على رأسه وبعضَه تحت قدميه من شدّة الرمضاء ، فلما انصرف من صلاته ، قام خطيباً وسط القوم على أقتاب الإبل ، وأسمع الجميع رافعاً عقيرته ، فقال :

« الحمد لله ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، الذي لا هادي لمن أضلّ ولا مُضِلّ لمن هدى ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، أمّا بعد :

أيُّها الناس ، إنّي أُوشك أنْ أُدعى فأُجَبْت ، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون ، فماذا أنتم قائلون » ؟ .

قالوا : « نشهد أنّك قد بَلّغت ونصحت ، وجهدت ، فجزاك الله خيراً » .

قال : « ألستم تشهدون أنْ لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأنّ جَنَّته حَقٌ ، ونارَه حقٌ ، وأنّ الموتَ حق ، وأنّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها ، وأنّ الله يَبْعَثُ مَنْ فِي القبور » ؟ .

قالوا : « بلى نشهد بذلك » .

قال : « اللّهم اشهد » . ثم قال : « أيُّها الناسُ ، ألا تسمعون ؟ » .

قالوا : « نعم » .

قال : فإنّي فَرَطٌ على الحَوْض[2] ، فانظروني كيف تَخْلُفوني في الثقلين » .

فنادى مناد : « وما الثّقلان يا رسول الله ؟ » .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

(٢) أي متقدِّمكم إليه .

قال : « الثَّقْل الأكبر ، كتابُ الله ، والآخر الأصغر ، عترتي ، وإنّ اللَّطيفَ الخبيرَ نَبَّأني أنّهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض ، فلا تَقَدَّموهما فتهلكوا ، ولا تَقْصُروا عنهما فتهلكوا » .

ثم أخذ بيد علي فرفعها ، حتى رؤي بياض آباطهما ، وعرفه القوم أجمعون ، فقال : « أيُّها الناس ، مَنْ أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم ؟ » .

قالوا : « الله ورسوله أعلم » .

قال : « إنّ الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أَوْلى بهم من أَنْفسهم .

فمن كنت مولاهُ ، فَعَليٌّ مَوْلاهُ ـ يقولها ثلاث مرات ـ ثم قال : اللَّهُمَّ والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، وأَحِبَّ من أَحَبَّه ، وأَبغض من أَبغضه ، وانصر من نصره ، واخذُل من خَذَلَه ، وأَدِرِ الحَقَّ معه حيث دار ، أَلا فليبلغ الشاهد الغائب » .

ثم لم يتفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله :

﴿ اليومَ أَكْمَلْتُ لكم دِينَكُم ، وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتي ﴾ الآية ، فقال رسول الله : « الله أكبر على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ورضى الرب برسالتي ، والولاية لعلي من بعدي » .

ثم أخذ الناسُ يهنئون عليّاً ، وممّن هنّأه في مقدم الصحابة الشيخان أبو بكر وعمر ، كل يقول : بَخٍ بَخٍ ، لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ، ومولى كل مؤمن ومؤمنة .

وقال حسان ، أئذن لي يا رسول الله أن أَقول في عليٍّ أبياتاً ، فقال : قل على بركة الله ، فقام حساناً ، فقال :

يناديهم يومَ الغديرِ نبيُّهم	بخُمٍّ واسمع بالرسول مناديا
فقال فمن مولاكُمْ ونَبِيُّكم	فقالوا ولم يُبْدوا هناك التَّعاميا
إلهك مولانا وأَنْتَ نبيُّنا	ولم تَلْقَ منا في الولاية عاصيا
فقال له قم يا عليُّ فإنّني	رَضيتُك من بعدي إماماً وهاديا

فمن كنتُ مولاه فهذا وليُّه | فكونوا له أتْباعَ صِدْقٍ مواليا
هناك دَعى اللّهُمَّ والِ وَلِيَّه | وَكُنْ للذي عادى عليّاً معاديا

فلمّا سمع النبي أبياته قال : «لا تزال يا حسّان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك »[1] .

هذا مجمل الحديث ، في واقعة الغدير ، وقد أصفقت الأُمّة على نقله ، فلا نجد حديثاً يبلغ درجته في التواتر والتضافر ، ولا في الإهتمام نظماً ونثراً .

والإحتجاج به على إمامة عليٍّ عليه السلام يتحقق ببيان الأُمور التالية :

الأمر الأول : البلاغ الرسمي للولاية

إنّ النبي الأكرم أشاد بولاية علي ووصايته ، في حديث يوم الدار ، في مجتمع محدود ، لا يربو عددهم الأربعين . كما أشاد بخلافته عند توجّهه إلى تبوك ، أمام جماعة من الصحابة والمهاجرين ، وكان هذا وذاك ، وغيرهما ممّا صدر منه صلى الله عليه وآله ، في ظروف مختلفة ، حول ولاية الإمام ، تهيئة للأذهان ، للإعلان الرسمي لهذه الولاية أمام الجموع الهائلة ، ليقف عليها القريب والبعيد ، والحاضر والبادي ، فقام بإبلاغ ذلك في ذلك المحتشد العظيم ، وأخذ منهم الإقرار والإعتراف ، وهنّأ الصحابة عليّاً عليه السلام ، بهذه المكرمة الإلهية ، فكان هذا إعلاناً رسمياً ، للأُمّة جمعاء ، لا يصحّ لأحد إنكاره ، والتغاضي عنه . وسيوافيك دلالة الحديث بوجه واضح لا يدع لقائل كلمة ، ولا لمجادل شبهة .

* * *

(١) هذا من أعلام النبوة ، فقد علم أنّه سوف يَنْحرف عن إمام الهُدى في أُخريات أيّامه ، فَعَلّق دعاءه على ظرفِ استمرارِه في نصرته . وقد نَقَلَ هذه الأبيات عن حسان بن ثابت عدّة من أعلام المؤرخين والمحدّثين ، وإن حذف من ديوانه ، فَحُرِّفَت الكلم عن مواضعها ، ولُعب بديوانه كما لُعب بكثير من الدواوين ، كديوان الفرزدق ، وديوان كُمَيت ، وديوان أبي فراس ، وديوان كشاجم ، التي حذفت منها ما يرجع إلى مدح أهل البيت ورثائهم .
لاحظ الغدير ، ج ٢ ، ص ٣٤ ـ ٤٢ .

الأمر الثاني : سند الحديث وتواتره

إنّ حديث الغدير من الأحاديث المتواترة من عصر الرسول الأكرم إلى يومنا هذا ، يقف عليه من سبر كتب الحديث والتاريخ والسِّير والكلام والتفسير وغيرها . وما ربما يصدر من كلمات حول الحديث من أنّه من أحاديث الآحاد ، فهو كلام صدر من المغرضين ورُماة القول على عواهِنِه ، من غير تدبّر وتثبت .

إنّ كتب الإمامية في الحديث وغيره ، مفعمة بإثبات قصة الغدير والإحتجاج بمؤداها . فمن مسانيد معنعنةٍ إلى مُنْبَثَقِ أنوار النبوة ، إلى مراسيل أرسلها المؤلفون إرسال المسلَّم ، وحذفوا أسانيدها لتسالم الفريقين .

وأمّا المحدثون وغيرهم من أهل السنّة فلا يتأخرون عن الإمامية في نقل الحديث والبخوع لصحته ، والركون إليه ، والتصحيح له ، والإذعان بتواتره إلاّ شُذّاذ تنكبوا عن الطريقة ، وقد ألّف غير واحد من علماء الإسلام كتباً مستقلة ، فلم يقنعهم إخراجه بأسانيد مبثوثة في الكتب ، فدوّنوا ما انتهى إليهم من أسانيده ، وضبطوا ما صَحّ لديهم من طرقه ، كل ذلك حرصاً على كلاءة متنه من الدثور ، وعن تطرق يد التحريف إليه ، منهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، صاحب التاريخ والتفسير المعروفين (ت ٢٢٤ ـ م ٣١٠) ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الهمداني المعروف بابن عقدة (م ٣٣٣) ، وأبو بكر محمد بن عمر بن محمد بن سالم التميمي البغدادي (م ٣٥٥) وغيرهم[1] .

ولأجل إيقاف القاريء على اهتمام الصحابة والتابعين ، وتابعي التابعين ، والعلماء ، والأدباء ، والفقهاء ، بنقل الحديث وضبط أسانيده ، نذكر عدد رواته في كل قرن على وجه الإجمال ونحيل التفصيل إلى الكتب المعدّة لذلك .

١ ـ روى الحديث من الصحابة ١١٠ صحابياً ، وطَبْع الحال يستدعي أنْ يكون رواته أضعاف المذكورين ، لأنّ السامعين الوعاة له كانوا مائة ألف ، أو يزيدون .

---

(١) ذكر شيخنا الحجة العلامة الأميني ، أسماء المؤلفين وخصوصيات كتبهم ، في الجزء الأول ، من غديره ، ص ١٥٢ ـ ١٥٧ .

٢ ـ رواه من التابعين ٨٤ تابعياً .

وأما عدّة الرواة من العلماء والمحدثين فنذكرها على ترتيب القرون .

٣ ـ عدد من رواه في القرن الثاني : ٥٦ عالماً ومحدّثاً .

٤ ـ عدد من رواه في القرن الثالث : ٩٢ عالماً ومحدّثاً .

٥ ـ عدد من رواه في القرن الرابع : ٤٣ عالماً ومحدّثاً .

٦ ـ عدد من رواه في القرن الخامس : ٢٤ عالماً ومحدّثاً .

٧ ـ عدد من رواه في القرن السادس : ٢٠ عالماً ومحدّثاً .

٨ ـ عدد من رواه في القرن السابع : ٢٠ عالماً ومحدّثاً .

٩ ـ عدد من رواه في القرن الثامن : ١٩ عالماً ومحدّثاً .

١٠ ـ عدد من رواه في القرن التاسع : ١٦ عالماً ومحدّثاً .

١١ ـ عدد من رواه في القرن العاشر : ١٤ عالماً ومحدّثاً .

١٢ ـ عدد من رواه في القرن الحادي عشر : ١٢ عالماً ومحدّثاً .

١٣ ـ عدد من رواه في القرن الثاني عشر : ١٣ عالماً ومحدّثاً .

١٤ ـ عدد من رواه في القرن الثالث عشر : ١٢ عالماً ومحدّثاً .

١٥ ـ عدد من رواه في القرن الرابع عشر : ١٩ عالماً ومحدّثاً .

وقد أغنانا المؤلفون في الغدير عن إراءة مصادره ومراجعه ، وكفاك في ذلك كُتُب لِمّة كبيرة من أعلام الطائفة :

منهم العلاّمة السيد هاشم البحراني (م ١١٠٧) مؤلف غاية المرام .

ومنهم السيد مير حامد حسين الهندي اللكهنوئي (م ١٣٠٦) ، ذكر حديث الغدير ، وطرقه ، وتواتره ، ومفاده في مجلدين ضخمين في ألف وثمان مائة صحيفة ، وهما من مجلدات كتابه الكبير « العبقات » ، فقد أتمّ الله به الحجة ، وأوضح المحجة ، وكتابه العبقات كتاب جليل ، فاح أريجه بين لابتي العالَم ، وطبق حديثُه المشرق والمغرب .

ومنهم العلامة المتتبع المحقق الفذّ الشيخ عبد الحسين النجفي (ت ١٣٢٠ ـ م ١٣٩٠) في كتابه الفريد « الغدير » ، وبعين الله ، إنّ كتابه هذا هو المعجز

المبين ، ومن حسنات الدهر الخالدة ، جزاه الله خير الجزاء[1] .

* * *

الأمر الثالث ـ دلالة الحديث

إنّ دلالة الحديث على إمامة مولانا أمير المؤمنين ، دلالة واضحة ، لم يشك فيها أي عربي صميم ، عصرَ نزول الحديث وبعده إلى قرون ، ولم يفهموا من لفظة المولى سوى معنى الإمامة ، وتتابع هذا الفهم فيمن بعدهم من الشعراء إلى أن وَلّد الدهرُ إمامَ المشككين ، فجاء بتشكيكات ، كسائر تشكيكاته ، التي تاب منها عند احتضاره[2] .

والدلالة مركزة على أن لفظ المولى نصّ فيما نثبته من الإمامة بالوضع اللغوي ، أو بالقرائن المحتفة به . وعلى كلا التقديرين ، يكون الحديث حجةً قاطعةً في الإمامة ، ونحن نسلك كلا الطريقين .

الطريق الأول ـ الدلالة بالوضع اللغوي

إنّ « مَفْعَلْ » ـ هنا ـ بمعنى « أَفْعَلْ » ، ولفظ « مَوْلى » أُريد منه هنا الأَوْلى ، سواءٌ أقلنا إنّه المعنى الوحيد ـ كما سيوافيك ـ أو أحد معانيه ، كما في قوله سبحانه : ﴿ فَالْيَومَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذينَ كَفَروا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاٰكُمْ وَبِئْسَ الْمَصيرُ ﴾[3] .

والمفسّرون للآية على فريقين منهم مَنْ حَصَرَ التفسير بأنّها أَوْلى بكم ، ومنهم

---

(١) ومن أراد التبسط فعليه الرجوع إلى ما ذكرنا من المصادر ، وإلى كتاب « المراجعات » لمصلح الدين ، السيد شرف الدين العاملي رحمه الله .

(٢) لاحظ دائرة المعارف ، لفريد وجدي ، ج ٤ ، ص ١٤٩ ، وفيها أنّه قال : « وأمّا ما استكثرت من إيراد السؤالات ، فإنّي ما أردت إلّا تكثير البحث وتشحيذ الخاطر ، والإعتمادُ في الكلّ على الله تعالى » .

(٣) سورة الحديد : الآية ١٥ .

من جَعَلَه أحد المعاني ، وهؤلاء أئمة العربية ، عرفوا أنّ هذا المعنى من معاني اللفظ اللغوية ، ولولاه لما صحّ لهم تفسيره به ، يقول الخازن : « هي مولاكم ، أي وَلِيُّكم ، وقيل أَوْلى بكم ، لما أسلفتم من الذنوب ، والمعنى : هي التي تَلي عليكم ، لأنّها ملكت أمركم وأُسلمتم إليها ، فهي أولى بكم من كل شيء »[1] .
وقد نقل كون المولى بمعنى الأولى ، الرازي في تفسيره عن الكلبي النسّابة (م ١٤٦) والفرّاء (م ٢٠٧)[2] وأبو عبيدة معمّر بن المثنى البصري (م ٢١٠) ، والأخفش الأوسط (م ٢١٨)[3] ، ونهاية العقول[4] .

واستشهد أبو عبيدة ببيت لبيد :

فَقَدْتَ كِلا الفَرْجَيْنِ تَحْسَبُ أَنَّهُ ... مولى المخافةِ خَلْفَها وأَمامَها

حتى أنّ البخاري ، صاحب الصحيح ، في قسم التفسير منه ، فسّره بـ « أَوْلى »[5] .

نعم هنا شبهة ذكرها الرازي في تفسيره ، حَسِبَ أنّها تصادم دلالة الحديث على الولاية الكبرى للإمام عليٍّ عليه السلام ، فقال في تفسير قوله سبحانه : ﴿ هِيَ مَوْلاكُمْ وبِئْسَ المَصير ﴾ : « لو كان مولى وأَوْلى بمعنى واحد في اللغة ، لَصَحَّ استعمال كلّ واحد منهما في مكان الآخر ، فيجب أن يقال : هذا مولى من فلان ، ولمّا بطل ذلك ، عَلِمنا أنّ الذي قالوه معنىً ، وليس بتفسير » .

وقال في نهاية العقول : « لو كان المَوْلى يجيء بمعنى الأَوْلى ، لَصَحَّ أن يُقْرَنَ بأحدهما ، كلّما يَصِحُّ قَرْنُه بالآخر ، لكنه ليس كذلك ، فامْتَنَع كونُ المولى بمعنى الأولى ، مع أنّه لا يقال : هو مولى من فلان ، ولا يصحّ أنْ يقال : « هو أولى » بدون من » .

---

(١) تفسير الخازن ، نقلاً عن الغدير ، ج ١ ، ص ٣٤١ .
(٢) معاني القرآن ، للفراء ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .
(٣) لاحظ جميع ذلك في تفسير الرازي ، ج ٨ ، ص ٩٣ .
(٤) نهاية العقول ، للرازي ، أيضاً .
(٥) صحيح البخاري ، ج ٧ ، ص ٢٤٠ .

يلاحظ عليه : قد فات الرازي أنّ اتّحاد المعنى أو الترادف بين الألفاظ ، إنّما يقع في جوهريات المعاني لا عوارضها الحادثة من أنحاء التركيب ، وتصاريف الألفاظ ، وصيغها . مثلاً : الإختلاف الحاصل بين المولى والأولى ، بلزوم مصاحبة الثاني بالباء (أولى به) ، وتجرّد الأول منه ، إنّما حصل من ناحية صيغة إفعل من هذه المادة ، كما أنّ مصاحبة « مِنْ » ، هي مقتضى تلك الصيغة مطلقاً ، إذن مفاد « فلان أولى بفلان » ، و« فلان مولى فلان » ، واحد ، حيث يراد به « الأولى به من غيره » ، ويشهد لذلك أنّ « افعل » بنفسه ، يستعمل مضافاً إلى المُثنّى والجمع ، أو ضميرهما بغير أداة ، فيقال : زيد أفضل الرجلين ، أو أفضلهما ، وأفضل القوم وأفضلهم ، ولا يستعمل كذلك إذا كان ما بعده مفرداً ، فلا يقال : زيد أفضل عمرو ، وإنّما يقال هو أفضل منه ، ولا يرتاب عاقل في اتّحاد المعنى في الجميع .

قال الأزهري في باب التفضيل : « إنّ صحة وقوع المرادف موقع مرادفه ، إنّما يكون إذا لم يمنع من ذلك مانع ، وها هنا منع مانع ، وهو الإستعمال ، فإنّ إسم التفضيل ، لا يصاحب من حروف الجر إلاّ « من » خاصة ، وقد تحذف مع مجرورها للعلم بها نحو : ﴿ **والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقى** ﴾[1] »[2].

ثمّ إنّ الرازي اختار أنّ المولى في الحديث بمعنى « الناصر » ، مع أنّ ما أورده على القول بأنّه بمعنى « الأولى » ، وارد عليه ، فلا يقال في اللغة العربية ، « هو مولى دين الله » ، مكان « ناصر » ، ولا يصحّ تبديل قوله : ﴿ **مَنْ أَنْصاري إلى الله** ﴾[3] . إلى « من مواليّ إلى الله » ، أو تبديل قول الحواريين : ﴿ **نَحْنُ أَنْصارُ الله** ﴾[4] إلى « نَحن موالي الله » .

هذه الحالة مطّردة في كثير من المترادفات التي جمعها الرّماني (م ٣٨٤) في تأليف مفرد ، مع أنّ اختلاف الكيفية حاكم عليها أيضاً ، مثلاً يقال : عندي

---

(١) سورة الأعلى : الآية ١٧ .

(٢) التصريح ، لخالد بن عبد الله الأزهري ، باب أَفْعَل التفضيل .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٥٢ .

(٤) الآية السابقة نفسها .

درهم غيرُ جيد ، ولا يصحّ أن يقال : عندي درهم إلاّ جيد ، كما هو السائد في كلمة « هل » و« همزة الإستفهام» ، فإنّهما بمعنى واحد ، ولكن يفترقان بفروق ثلاثة ، أو خمسة ، أو ستة .

ولما كان الإشكال ضئيلاً ، قال النيسابوري ، في تفسيره ـ بعد نقل كلام الرازي ، إلى قوله : وحينئذٍ يسقط الإستدلال به ـ : « قُلْتُ : وفي هذا الإسقاط بَحْثٌ لا يَخْفى »[1] .

ولما وقف التفتازاني على تمامية دلالة الحديث على الإمامة ، حاول رمي الحديث بعدم التواتر ، قال ـ في دلالة الحديث ـ : « « المولى » قد يُراد به المُعْتِق ، والمُعْتَق ، والحليف ، والجار ، وابن العم ، والناصر ، والأولى بالتصرف ، قال الله تعالى : ﴿ مأواكُمُ النّارُ هيَ مَوْلاكُمْ ﴾ ، أي أولى بكم ، ذكره أبو عبيدة ، وقال النبي : « أيّما إمرأة أنكحت نفسها بغير إذن مولاها » ، أي الأولى بها ، والمالك لتدبير أمرها ، ومثله في الشعر كثير . وبالجملة استعمال المولى بمعنى المتولي ، والمالك للأمر ، والأولى بالتصرف ، شائع في كلام العرب ، منقول عن كثير من أئمة اللغة ، والمراد أنّه اسم لهذا المعنى ، لا صفة بمنزلة الأولى ليعترض بأنّه ليس من صيغة اسم التفضيل ، وأنّه لا يستعملُ استعمالَه ، وينبغي أن يكون المراد به في الحديث هو هذا المعنى ، ليطابق صدر الحديث ، ولأنّه لا وجه للخمسة الأُوَل ، وهو ظاهر ، ولا للسادس لظهوره ، وعدم احتياجه إلى البيان وجمع الناس لأجله » . إلى أن قال : « ولا خفاء في أنّ الولاية بالناس ، والتولّي ، والمالكية لتدبير أمرهم ، والتصرّف فيهم ، بمنزلة النبي ، وهو معنى الإمامة »[2] .

هذا من غير فرق بين تفسير مَفْعَلْ بـ أَفْعَل ، أي المولى بمعنى أَوْلى ، أو تفسيره بفَعيل ، أي الولي ، وقد نصّ على ذلك أئمة العربية منهم الفراء في تفسيره ، وأبو العباس المُبَرّد ، قالا : « الولي والمولى ، بمعنىً في لغة العرب واحد »[3] .

---

(١) تفسير النيسابوري ، تفسير سورة الحديد .

(٢) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

(٣) لاحظ معاني القرآن للفراء ، ج ٣ ، ص ١٢٤ ، والغدير ج ١ ، ص ٣٦١ .

قـال في الصحـاح : والـولي كـل من وَلِيَ أمـر واحـد ، فهـو وليّـه ، وقـول الشاعر :

هُـمُ المَـوْلى وإن جَـنَـفـوا عـلـيـنـا وإنّـا مـن لـقـائـهـم لـزورُ[1]

وقال في النهاية : « وكُلّ من ولي أمراً أو قام به فهو مولاه ووليه »[2] .

وقال الفيروز آبادي ، في قاموسه : « المَوْلى : المالِـك ، والعبد ، والمعتق ، والولي ، والربّ »[3] .

واستشهد الزبيدي في تاج العروس ، على كون مولى بمعنى ولي ، بقوله صلى الله عليه وآله : « أيّما امرأة أنكحت بغير إذن مولاها . . . »[4] .

ليس للمولى إلاّ معنى واحد

إنّ السابر في كتب اللغة يرى أنّهم يذكرون في تفسير « المولى » أموراً ، يبدو أنّها معان مختلفة له ، مثلاً يقول صاحب القاموس : « المولى : المالِـكْ ، والعَبْد ، والمعتِق ، والمعتَق ، والصـاحب ، والقـريب كـابن العـم ونحـوه ، والجـار ، والحليف ، والإبن ، والعَمّ ، والنَّـزيـل ، والشَّريـك ، وابن الأُخت ، والـوَليّ ، والربّ ، والناصر ، والمُنْعِم ، والمُنْعَم عليه ، والمُحِبّ ، والتابع ، والصِّهر »[5] .

والحق أنّـه ليس للمولى إلاّ معنى واحـد وهو الأولى بـالشيء ، وتختلف هـذه الأولـوية بحسب الإستعـمال في كل مـورد من موارده ، والإشـتراك معنوي ، وهـو الأولى من الإشـتراك اللفظي المستـدعي لألفاظ كثـيرة غـير معلومـة بنصّ ثـابت ، والمنفية بالأصـل المحكّم ، وهذه النـظرية أبـدعها ابن البـطريق الحلّي (ت ٥٣٣ ـ

(١) الصحاح ، ج ٦ ، مادة «ولى » ، ص ٢٥٢٩ .
(٢) النهاية لإبن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٢٨ .
(٣) القاموس المحيط ، مادة « ولى » ، ج ٤ ، ص ٤٠١ .
(٤) تاج العروس ، ج ١٠ ، ص ٣٩٩ .
(٥) القاموس ، ج ٤ ، ص ٤٠١ .

م ٦٠٠)[١] .

وهـذا المعنى الواحـد ، وهو الأولى بـالشيء جامـع لهاتيـك المعـاني جمعـاء ، ومأخوذ في كلٍّ منها بنوع من العناية ، ولم يطلق لفظ المولى على شيء منها إلاّ بمناسبةٍ لهذا المعنى :

١ ـ فالمالك أولى بكلاءة مماليكه ، وأمرهم ، والتصرف فيهم .

٢ ـ والعبد أولى بالإنقياد لمولاه من غيره .

٣ ـ والمعتِقَ (بالكسر) أولى بالتفضيل على مَنْ أعتقه مِنْ غيره .

٤ ـ والمُعْتَقُ (بالفتح) أولى بأن يَعْرِف جميلَ من أعتقه عليه ويشكره .

٥ ـ والصاحب ، أولى بأن يؤدّي حقوق الصحبة من غيره .

٦ ـ والقريب ، هو أولى بأمر القريبين منه ، والدفـاع عنهم ، والسعي وراء صالحهم .

٧ ـ والجار ، أولى بالقيام بحفظ حقوق الجوار كلّها من البعداء .

٨ ـ والحليف ، أولى بالنهوض بحفظ مَنْ حالفه ، ودفع عادية الجور عنه .

٩ ـ والإبن أولى الناس بالطاعة لأبيه والخضوع له .

١٠ ـ والعَمّ ، أولى بكـلاءة إبن أخيه ، والحنـان عليه ، وهـو القـائم مقـام والده .

١١ ـ والنَّـزيل ، أولى بتقـدير من آوى إليهم ولجـأ إلى سـاحتهم ، وأمن في جوارهم .

١٢ ـ والشريك أولى برعاية حقوق الشركة وحفظ صاحبه عن الأضرار .

١٣ ـ وابن الأُخت ، أولى الناس بالخضوع لخاله الذي هو شقيق أُمه .

١٤ ـ والولي ، أولى بأن يراعي مصالح المُوَلّى عليه .

١٥ ـ والناصر ، أولى بالدفاع عمّن التزم بنصرته .

١٦ ـ والربّ ، أولى بخلقه من أي قاهر عليهم .

---

(١) عُمْدة عيون صحاح الأخبار ، لابن البطريق ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

١٧ ـ والمنعِم (بالكسر) أولى بالفضل على من أنعم عليه ، وأنْ يُتْبِعَ الحسنة بالحسنة .

١٨ ـ والمُنْعَمُ عليه ، أولى بشكر منعمه من غيره .

١٩ ـ والمحب ، أولى بالدفاع عمّن أحبّه

٢٠ ـ والتابع ، أولى بمناصرة متبوعه ممّن لا يتبعه .

٢١ ـ والصهر ، أولى بأن يرعى حقوق من صاهره ، فشدّ بهم أزْره ، وقوي أمره .

إلى غير ذلك من المعاني التي هي أشبه بموارد الإستعمال . والأولوية مأخوذة فيها بنوع من العناية .

إلى هنا قد ظهر أنّ المولى في الحديث الشريف بمعنى الأولى ، أو بمعنى الولي ، وأنّ ما ذكر للمولى من المعاني المختلفة ، فليس من قبيل المعاني المختلفة ، حتى يحتاج تفسير المولى بالأولى إلى قرينة مُعَيِّنة ، بل من قبيل المصاديق .

هذا كلّه في الطريق الأول .

الطريق الثاني ـ الدلالة بالقرائن

إنّ القرائن الحافة بالحديث تدلّ على أنّ المراد من المولى هو الأولى أو الولي ، وهي على قسمين : قرائن حالية وقرائن مقالية :

والمراد من الأُولى ، ما احتف به الكلام الصادر من النبي الأكرم ، من ظروف زمانية ومكانية . والمراد من الثانية ما يتصل بالكلام نفسه من الجمل والعبارات .

أمّا القرائن الحالية ، فبيانها بكلمة جامعة أنا لو فرضنا أنّ لفظ المولى مشترك بين المعاني التي تلوناها عليك ، إلاّ أنّه لا يمكن إرادة غيره في المقام ، إمّا لاستلزامه الكفر ، كما إذا أُريد منه الرب .

أو الكذب ، كما إذا أُريد منه العم ، والإبن ، وابن الأُخت ، والمعتِق ،

والمعتق ، والعبـد ، والمالـك ، والتابـع ، والْمُنْعَم عليه ، والشَّريـك ، والحليف ، وهو واضح لمن تدبر فيه .

وأمّا الصاحب ، والجار ، والنزيل ، والصِّهر ، والقـريب ، فلا يمكن إرادة شيء من هذه المعاني ، لسخافته ، لا سيما في هذا المحتشـد الرهيب ، وفي أثنـاء المسير ، ورمضاء الهجير ، وقد أمـر صلى الله عليـه وآله بحبس المتقـدم في السير ، ومنـع التالي منـه ، في محلّ ليس صـالحاً للنـزول ، غير أنّ الـوحي الإلهي ، حبسه هناك ، فيكون صلى الله عليه وآله قد عقد هذا المحتفـل ، والناس قـد أنهكتهـم وعثاء السفر ، وحرّ الهجير ، وحراجة المـوقف ، حتى أنّ أحدهم لَيَضَـع طرفـاً من ردائه تحت قدميه ، وطرفاً فوق رأسه ، فيرقى هنالك منبر الأهداج ، ويُعْلِمُهم عن الله تعالى بأنّه مَنْ كان هو صلى الله عليه وآله مصاحباً أو جـاراً أو نزيـلاً عنده ، أو صهراً أو قريباً له ، فعليٌّ كذلك !! .

وأمّا المُنْعِم ، فلا ملازمة بين أن يكون كلّ من أنعم عليه رسول الله صلى الله عليه وآله فعليٌّ منعِم عليه .

وأمّا الناصر والمحب ، فسـواء كان كـلامه صـلى الله عليه وآلـه ، إخباراً أو إنشاء ، فاحتمالان ساقطان ، إذ ليسا بـأمر مجهـول عندهم ، لم يسبقـه التبليغ حتى يأمر به في تلك الساعة ، ويحبس له الجماهير ، ويعقد له ذلك المنتدى الرهيب ، في موقف حرج ، لا قرار فيه .

فلم يبق من المعـاني إلاّ الولي ، والأولى بـه ، والمراد منـه المتصرف في الأمـر ومتوليه . ذكر الرازي في تفسير قوله تعالى : ﴿ **واعْتَصِموا بالله هُوَ مَوْلاكُم** ﴾[1] ، قال : قال القفال : « هو مولاكم ، سَيِّدُكُم والمُتَصَرِّفُ فيكم »[2] .

فتعين أنّ المراد بـالمَوْلى : المُتَصَرِّف ، الـذي قَيّضه الله سبحـانه لان يُتَّبـع ، ويكونَ إماماً ، فيهدي البشر إلى سنن النجاة ، فهو أولى من غيره بأنحـاء التصرف

(١) سورة الحج : الآية ٧٨ .
(٢) تفسير الرازي ، ج ٦ ، ص ٢١ .

في المجتمع الإنساني ، فليس هو إلا نبي مبعوث أو إمام مفترض الطاعة منصوص به من قبله تعالى ، بأمر إلهي ، لا يبارحه في أقواله وأفعاله : **﴿ وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوىٰ * إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحىٰ ﴾**[١] .

وأمّا القرائن المقالية : فمتعددة تثبت أيضاً أنّ المَوْلى بمعنى الأولى بالشيء أو بمعنى الولي ، إذا تنازلنا إلى أنّه أحد معانيه ، وأنّه من المشترك اللفظي ، وأمّا على القول بأنّه ليس للمولى إلاّ معنى واحد ، كما أوضحناه ، فلا حاجة لذكر القرائن إلاّ تأكيداً .

القرينة الأُولى : صدر الحديث ، وهو قوله صلى الله عليه وآله : « ألست أَوْلى بِكُمْ من أَنْفُسِكُم » ، أو ما يؤدّي مؤدّاه من ألفاظ متقاربة ، ثم فرّع على ذلك قوله : « فَمَنْ كُنْتُ مَولاهُ فَعَلِيٌّ مولاه » . وقد روى هذا الصدر من حفاظ أهل السنّة ، ما يربو على أربع وستين عالماً[٢] .

فإنّ هذا الصدر يُعَيّن أنّ المراد من المولى هو الأولى ، ولا وجه للتفكيك المخل .

القرينة الثانية : ذيل الحديث ، وهو قوله صلى الله عليه وآله : « اللّهم وال من والاه ، وعادِ من عاداه » ، وفي جملة من طرق الحديث قوله : وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، أو ما يؤدّي مؤدّاه ، فلو أُريد منه غير الأولى بالتصرف ، فما معنى هذا التطويل ، فإنّه لا يلتئم ذكر هذا الدعاء إلاّ بتنصيب علي مقاماً شامخاً ، يؤهله لهذا الدعاء .

القرينة الثالثة : **أخذ الشهادة من الناس** ، حيث قال صلى الله عليه وآله : « ألستم تشهدون أنْ لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأنّ حجته حقّ الخ » . فإنّ وقوع قوله : « من كنت مولاه » ، في سياق الشهادة بالتوحيد والرسالة ، يحقق كون المراد ، الإمامة ، الملازمة للأولوية على الناس .

---

(١) سورة النجم : الآيتان ٣و٤ .

(٢) لاحظ نقولهم ، في كتاب الغدير ، ج ١ ، موزعين حسب قرونهم .

القرينة الرابعة : التكبير على إكمال الدين ، حيث لم يتفرقوا بعد كلامه صلى الله عليه وآله ، حتى نزل أمين وحي الله بقوله تعالى : ﴿ **اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ (الآية) ، فقال رسول الله : « الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ، ورضى الرب برسالتي ، والولاية لعلي من بعدي ، فأي معنى يكمل به الدين ، وتتم به النعم ، ويرضى به الربّ في عداد الرسالة ، غير الإمامة التي بها تمام الرسالة ، وكمال نشرها وتوطيد دعائمها .

القرينة الخامسة : نَعْيُ النبي وفاته إلى الناس ، حيث قال صلى الله عليه وآله : « كأنّي دُعيت فأجبت » . وفي نقل : « إنّه يوشك أن ادعى » ، أو ما يقرر ذلك ، وهذا يعطي أنّ النبي قد بقيت من تبليغه مهمة ، يحذر أن يدرِكَهُ الأجل قبل الإشادة بها ، وهي تعرب عن كون ما أشاد به في هذا المحتشد ، تبليغ أمر مهم ، يخاف فوتَه ، وليس هو إلّا الإمامة .

أضف إليه أنّه يعرب بذلك عن أنّه سوف يرحل من بين أظهرهم ، فيحصل بعده فراغ هائل ، وأنّه يُسَدُّ بتنصيب عليٍّ في مقام الولاية .

القرينة السادسة : التهنئة ، جاء في ذيل الحديث ، وأخرجه الطبري في كتاب « الولاية » عن زيد بن أرقم ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « معاشر الناس ، قولوا : أعطيناك على ذلك عهداً عن أنفسنا ، وميثاقاً بألسنتنا ، وصفقة بأيدينا ، نؤدّيه إلى أولادنا وأهالينا ، لا نبغي بذلك بدلاً ، وأنت شهيد علينا ، وكفى بالله شهيداً ، قولوا ما قُلْتُ لكم ، وسَلِّموا على عليٍّ بإمرة المؤمنين ، وقولوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، فإنّ الله يعلم كُلَّ صوت ، وخائنة كل نفس ، فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه ، ﴿ **ومن أَوْفَىٰ بما عاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتيهِ أجراً عظيماً** ﴾ قولوا ما يُرضي الله عنكم ، فإنْ تَكفُروا ، فإنّ الله غَنِيٌّ عَنْكُمْ » .

القرينة السابعة : الأمر بإبلاغ الغائبين : وقد أمر صلى الله عليه وآله في آخر خطبته بأنْ يُبَلِّغَ الشاهدُ الغائبَ ، فما معنى هذا التأكيد ، إذا لم يكن هناك مهمة لم تُتَح الفرص لتبليغها على نطاق واسع ، ولا عرفته جماهير المسلمين ، وما هي إلّا الإمامة .

وغير ذلك من القرائن التي استقصاها شيخنا المتتبع في غديره[1] .

حديث الغدير ورجالات الأدب

شاء المولى سبحانه أن يبقى حديث الغدير على مَرِّ العصور والأيام ، حجةً على المسلمين في التعرّف على مستَقَرّ الولاية الكبرى بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ، فقيّض المولى سبحانه ، رجالات الأدب ، وأساتذة الشعر ، فنظموا تلك المأثرة النبوية الخالدة ، وصبّوها في قوالب أشعارهم ، وقرائضهم ، فترى أنّهم ـ وهم أساتذة اللغة وبواقع الأدب ـ يعبّرون عنه بكلمات صريحة في الإمامة ، أو الخلافة . وقبل كل شاهد نذكر بيت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال :

وأوْجَب لي ولايته عليكم ... رسولُ الله يومَ غديرِ خمّ

ثم بعده حسان بن ثابت ، الذي حضر مشهد الغدير ، وقد تقدّم ذكر أبياته .

ومنهم قَيْس بن سعد بن عبادة ، الصحابي العظيم ، يقول :

وعَليٌّ إمامُنا وإمامٌ ... لسوانا أتى به التنزيل

يوم قال النبيُّ من كنتُ مولاه ... فهذا مولاهُ خطب جليل

ومنهم داهية العرب ، في قصيدته المعروفة بـ « الجلجلية » ، يقول فيها معترضاً على معاوية :

وكم قد سمعنا من المصطفى ... وصايا مخصصة في علي

وفي يوم خمّ رقى منبراً ... وبلّغ والصحب لم ترحل

فامنحه إمرة المؤمنين ... من الله مستخلف المنحل

وغيرهم من الشعراء الذين يحتجّ بقولهم في الأدب واللغة ، ككميت بن زيد الأسدي المتوفي عام ١٢٦ ، والعبدي الكوفي من شعراء القرن الثاني ، وشيخ

---

(١) لاحظ الغدير ، ج ١ ، ص ٣٧٠ ـ ٣٨٣ .

العربية أبي تمّام ، وغيرهم ممّن يطول بذكرهم المقام[1] .

إلى هنا تمّ الكلام حول الحديث متناً وسنداً ، وهو يعرب عن حقيقة ناصعة من أجلى الحقائق الدينية ، وهي ثبوت الولاية لعلي بعد النبي ، ولا يرتاب فيها إلاّ مغرض لا يرتاد الحقيقة ، أو غافل عن مصادر الحديث[2] .

ثم إنّ ها هنا سؤالين مهمّين ، ربما يدفع البعضُ بهما حديثَ الغدير ودلالَته ، لا بُدّ من ذكرهما ، والإجابة عنهما :

* * *

السؤال الأول : لماذا أعرض الصحابة عن مدلول حديث الغدير ؟

إنّ هاهنا اعتراضاً على تواتر حديث الغدير ، أو دلالته على تنصيب عليٍّ في مقام الولاية والخلافة ، بأنّه لو كان الأمر كذلك ، فلماذا لم يأخذه الصحابة مقياساً بعد النبي . وليس من الصحيح إجماع الصحابة ، وجمهور الأُمّة على ردّ ما بلّغه النبي في ذلك المحتشد العظيم .

والجواب :

إنّ ذلك أقوى مستمسك لمن يريد التخلص من الإعتناق بالنصّ المتواتر الجلي في المقام ، ولكنه لو رجع إلى تاريخ الصحابة ، يرى لهذه الأمور نظائر كثيرة في حياتهم السياسية ، وَلْيَكُنْ تَرْكُ العملِ بحديث الغديرِ من هذا القبيل . وفيما يلي نذكر نماذج من هذا الإجتهادِ المرفوض قبال النصّ .

١ ـ رزية يوم الخميس

كلُّ من ألَمّ بالحديث والتاريخ ، يعرف حديث « رزية يوم الخميس » ،

---

(١) من أراد الوقوف على أشعارهم ، فليرجع إلى الغدير بأجزائه .

(٢) لقد استندنا في هذا البحث الضافي إلى كتاب الغدير ، فنقدر جهود شيخنا العلامة الأميني ، المغفور له .

الذي رواه الشيخان وغيرهما ، أخرج البخاري عن ابن عباس ، قال : لما حُضِر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب ، قال النبي : « هلّم أكتب لكم كتاب لا تضلّوا بعده أبداً » ، فقال عمر : « إنّ النبي قَد غلب عليه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله » . فاختلف أهل البيت ، فاختصموا ، منهم من يقول : قرّبوا ، يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلّوا بعده ، ومنهم يقول ما قال عمر . فلما أكثروا اللغو والإختلاف عند النبي ، قال لهم (صلى الله عليه وآله) : قوموا .

قال عبد الله بن مسعود : فكان ابن عباس يقول : « إنّ الرزية كلّ الرزية ما حالَ بين رسول الله وبين أنْ يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم »[1] .

٢ ـ سرية أُسامة

قد اهتمّ النبي ببعث سرية أُسامة بن زيد اهتماماً عظيماً ، فأمر أصحابه بالتهيؤ لها ، وحثّهم عليها ، ثم عبّأهم بنفسه الزكية ، إرهافاً لعزائمهم ، واستنهاضاً لهممهم ، فلم يُبْق أحداً من وجوه المهاجرين والأنصار كأبي بكر ، وعُمَر ، وأبي عبيدة ، وسعد ، وأمثالهم ، إلاّ وقد عبّاه بالجيش ، وكان ذلك لأربع ليال بقين من صفر ، سنة إحدى عشرة للهجرة ، فلما كان يوم الثامن والعشرين من صفر ، بدأ به (صلوات الله عليه وآله) مرض الموت ، فلما أصبح يوم التاسع والعشرين ، ووجدهم مُثّاقلين ، خرج إليهم فحضّهم على السير ، وعقد اللواء لأسامة بيده الشريفة ، إرهافاً لعزيمتهم ثم قال : « أُغز باسم الله ، وفي سبيل

(١) أخرجه البخاري ، في غير مورد ، لاحظ ج ١ ، باب كتابة العلم ، الحديث ٣ ؛ وج ٤ ، ص ٧٠ ؛ وج ٦ ، ص ١٠ ؛ من النسخة المطبوعة سنة ١٣١٤ . والإمام أحمد في مسنده ج ١ ، ص ٣٥٥ ، وفيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : يوم الخميس وما يوم الخميس . ثم نظرت إلى دموعه على خدّيه تحدر كأنّها نظام اللؤلؤ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله ، إئتوني باللوح والدواة ، أو الكتف ، أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً . فقالوا : « رسول الله يَهْجُر » !! .

الله » . فخرج بلوائه معقوداً ، فدفعه إلى بُرَيْدة ، وعسكر بالجُرْف .

ثم تثاقلوا هناك ، فلم يبرحوا ، مع ما وَعَوْه ورأوه من النصوص الصريحة في وجوب إسراعهم كقوله صلوات الله عليه وآله : « أُغز صباحاً على أهل أُبنة » . وقوله : « وأسرع السير لتستبق الأخبار »[1] .

وقد أغضب النبيَّ تثاقُلُهم ، حتى قال : « جَهِّزوا جيشَ أُسامة ، لَعَنَ الله من تخلّف عنه » ، فقال قوم : « يجب علينا امتثال أمره ، وأُسامة قد برز من المدينة » ، وقال قوم : « قد اشتدّ مرض النبي ، فلا تسع قلوبنا مفارقته ، والحالة هذه ، فنصبر حتى نبصر أي شيء يكون من أمره »[2] .

ثم إنّ مَنْ ذَكر تخلُّفَ القومِ عن أُسامة ، حاول تعليل تخلّف الصحابة ، فقال بأنّ الغرض منه إقامة مراسم الشرع في حال تزلزل القلوب ، وتسكين نائرة الفتنة المؤثرة عند تقلّب القلوب[3] .

فإذا صحّ هذا العذر ، فليصحّ مثله في حديث الغدير ، فإنّ القوم ـ أكثرهم لا جميعهم ـ ثَقُل عليهم إمامة علي بن أبي طالب الذي قتل من أبناء القوم وإخوانهم يوم بدر وحنين وغيرهما ، ما قتل ، فرجّحوا مخالفة الحديث حفظاً للوحدة ، أو لغير ذلك من هذه المبررات ـ عند القوم ـ للإجتهاد تجاه النصّ .

كما أنّهم في نفس القضية ، طعنوا في إمارة أُسامة ، طعناً عظيماً ، وأقلّ ما قالوه ، إنّ النبيَّ قد أمّر شاباً غير مجرّب على شيوخ القوم وأكابرهم !! .

٣ ـ صُلْحُ الحُديبيّة واعتراض القوم

إنّ النبي الأكرم صالح قريشاً في أرض الحديبيّة لمصالح عالية ، كشف المستقبل عنها بوضوح . ولما تمّ كتاب الصلح ، اعترض عليه لفيف من الصحابة ، حتى تصوّروا أنّه من باب إعطاء الدنيّة في طريق الدين .

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٢ .
(٢) الملل والنحل ، للشهرستاني ، ج ١ ، ص ٢٣ .
(٣) المصدر سابق نفسه .

روى مسلم في باب صلح الحديبيّة أنّ عمر قـال لرسول الله صلى الله عليـه وآلـه : « أوَ لسنا عـلى الحق ، وهم على البـاطل ؟ » قـال رسـول الله : « بـلى » . قال : « أوَ لسنا قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النار » ؟ قال : « بـلى » . قال : « ففيم نُعطي الدّنيـة في ديننا ، ونـرجع وَلمّـا يحكم الله بيننا وبينهم » ؟ . فقـال صلّى الله عليه وآله : « يا ابن الخطاب ، إنّي رسولُ الله ، ولن يضيّعني الله أبداً »[1] .

فانطلق عُمَر ، ولم يصبر متغيظاً ، فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر ، ألسنا على حقّ وهم على باطل ، قال : بلى ، قال : أليس قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النـار . قـال : بلى . قـال : فعلى مَ نعـطي الدنيّـة في ديننا ، ونـرجـع ولّما يحكم الله بيننـا وبينهم . فقال : يا ابن الخطاب ، إنّه رسول الله ، ولن يُضَيِّعه الله أبداً .

فلما فـرغ رسول الله من الكتـاب قال لأصحـابـه : قـومـوا فـانحـروا ، ثم احلقوا . قال الراوي : فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مـرات . فلما لم يقم منهم أحـد ، دخل خبـاءه ، ثم خرج ، فلم يكلم أحـداً منهم بشيء ، حتى نحر بُدْنَـهُ بيده ، ودعـا حالقـه ، فحلق رأسه . فلما رأى أصحـابه ذلـك قامـوا ، فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعض[2] .

ولسنـا بصدد استقصـاء مخالفـات القـوم لنصـوص النبي وتعليـماتـه ، فـإنّ المخالفة لا تقتصر على ما ذكـرنا بـل تربـوا على نيف وسبعـين مورداً ، استقصـاها بعض الأعلام[3] .

وعـلى ضوء ذلـك ، لا يكون تـرك العمل بحـديث الغـديـر ، من أكـثريـة الصحابة دليلاً على عدم تواتره ، أو عدم تمامية دلالته .

والمشكلة كلُّها في هذا البـاب ، هي التعرّف عـلى حكم الصحابـة من حيث

---

(١) صحيح مسلم ، باب صلح الحديبية ، ج ٥ ، ص ١٧٥ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٢ ، ص ١١٤ حيث استغفر للمحلقين ورأى بعضهم غير محلق .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٢ ، كتاب الشروط ، ص٨١ .

(٣) لاحظ كتاب النصّ والإجتهاد ، للسيد الإمام شرف الدين ، وهو كتـاب ممتع مـليء بالأحـداث التي قُدّم فيها الإجتهاد الخاطيء ـ لا الصحيح فإنّه تبع النص ـ على النصّ النبوي الجليّ .

العدالة ، فإنّ القوم ألبسوا مجموع الصحابة لباس العصمة ، وحلّوْهم أجمعين بحِلْية التقوى والعفاف ، على وجه لا يكادونْ يخالفون الكتاب والسنّة قيد شعرة ، فالصحابة بمجموعهم معصومون لا يخطئون . فمن كانت هذه عقيدته ، فيشكل عليه القول بأن القوم خالفوا تنصيص النبي وتنصيبه لعلي عليه السلام .

ولكنها عقيدة تضاد كتاب الله وسنته ، والتاريخ . فمن درس حياة الصحابة في ضوء الكتاب والسنّة النبوية والتاريخ الصحيح ، يقف على أنّ فيهم صالحاً وطالحاً ، كسائر أفراد المجتمعات البشرية ، وليس السلف خيراً من الخلف ، بل السلف والخلف على وتيرة واحدة ، ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بالخَيْراتِ بإذْنِ الله ﴾[1] .

* * *

السؤال الثاني : ما فائدة البحث عن إمامة عليٍّ في هذه الأزمان ؟

وها هنا سؤال آخر يطرحه لفيف من دعاة الوحدة ، الذين لهم رغبة خاصة بتوحيد صفوف المسلمين وتقريب الخطى بينهم ، وحاصله :

إنّ البحث عن صيغة الخلافة بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم ، يرجع لبّه إلى أمر تاريخي قد مضى زمنه وهو أنّ الخليفة بعد النبي هل هو الإمام أمير المؤمنين أو أبو بكر . وماذا يفيد المؤمنين البحث حول هذا الأمر الذي لا يرجع إليهم بشيء في حياتهم المعاصرة . أو ليس من الحريّ ترك هذا البحث حفظاً للوحدة .

والجـــواب

لا شك أنّ أعظم خلاف وقع بين الأُمّة ، اختلافُهم في الإمامة ، وما سُلَّ

---

(١) سورة فاطر : الآية ٣٢ ، وقد أشبع الأُستاذ دام حفظه ، الكلام في حال الصحابة من حيث البرهان والعاطفة في بحوثه في الملل والنحل ، فلاحظ : ج ١ ، ص ١٩١ ـ ٢٢٨ .

سَيْفٌ في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلّ على الإمامة[1] . فمن واجب المسلم الحرّ ، الذي لا يتبنّى إلاّ مصلحة المسلمين ، السعي وراء الوحدة ، ولكن ليس معنى ذلك ترك البحث ، وغَلْق ملف الدراسة ، فإنّه إذا كان البحث نزيهاً موضوعياً يكون مؤثّراً في توحيد الصفوف وتقريب الخُطى ، إذ عندئذٍ تتعرف كل طائفة على ما لدى الأخرى ، من العقائد والأصول ، وبالتالي تكون الطائفتان متقاربتين . وهذا بخلاف ما إذا تركنا البحث مخافة الفرقة ، فإنّه يثير سوء ظنّ كلّ طائفة بالنسبة إلى الأخرى في مجال العقائد والمعارف ، فربما تتصورها طائفة أجنبياً عن الإسلام . **هذا أولاً** .

وثانياً : إنّ لمسألة البحث عن صيغة الإمامة بعد النبي بُعْدين أحدهما بُعدٌ تاريخي مضى عصره ، والثاني بُعْدٌ ديني باقٍ أثره إلى يومنا هذا ، ومن واجب كلّ مسلم الأخذ به ، وهو أنّه إذا صَحّ تنصيب عَليٍّ لمقام الولاية والخلافة ، بالمعنى الذي تتبناه الإمامية ، يكون الإمام ، وراء كونه زعيماً في ذلك العصر ، مرجعاً في رفع المشاكل التي خلفتها رحلة النبي ، ممّا قد مرّ عليك ، فيجب على المسلمين الرجوع إليه في تفسير القرآن وتبيينه ، وفي مجال الموضوعات المستجدة التي لم يرد فيها النصّ في الكتاب والسنّة ، كما يكون مرجعاً في سائر الأمور .

وفي ضوء هذا ، فالبُعْد الذي مضى ، ولا نعيد البحث فيه ، هو كونه زعيماً في ذلك العصر ، وقد مضى زمنه ، ولكن الباقي زعامته الدينية ، وقيادته في مجال المعارف والمسائل الشرعية ، فهو بُعْدٌ باق ، فيجب على كل المسلمين الرجوع إلى الإمام أخذاً بهذه الأبعاد ، لحديث الغدير وغيره . فليس البحث متلخصاً في البعد السياسي حتى نشطب عليه بدعوى أنّه مضى ما مضى ، بل له كما عرفت مجال ومجالات باقية .

فإذا وصل البحث إلى هنا ، يجب علينا التركيز على مسألة أُخرى وهي أنّ النبي الأكرم ، لم يزل يُهيب في الجاهلين ، ويصرخ في الغافلين ، داعياً إلى التمسّك بالكتاب والعترة معاً ، وهذا تصريح بأنّ لقيادة العترة الطاهرة وراء

(١) تقدمت منا هذه الكلمة نقلاً عن الشهرستاني في المِلَلِ وَالنِحَلِ .

الزعامة السياسية المحددة بوقت خاص ، وزمن حياتهم ، بعداً خالداً إلى يوم القيامة ، وهو لزوم الإنكباب عليهم فيما يطرء علينا من الحوادث والوقائع الدينية ، وكل ما يمت إلى الدين بصلة ، ونتطلب الجواب والإهتداء منهم ، ولأجل ذلك يجب علينا التعرّف على هذا القسم من الأحاديث الذي يركز على الجهات المعنوية أزيد من التركيز على الجهات السياسية .

١ ـ حديث الثَّقَلَيْن

روى أصحاب الصحاح والمسانيد عن النبي الأكرم أنّه قال : «يآ أيُّها الناس إنّي تركت فيكم ما إن أَخَذْتُم به لن تضلّوا ، كتابَ الله وعترتي أهل بيتي » .

وقال في موضع آخر : « إنّي تركت فيكم ما إنْ تَمَسَّكْتُم به لن تَضِلُّوا ، كتابَ الله ، حَبْلٌ ممدودٌ من السماءِ إلى الأرض ، وعترتي أَهْلَ بيتي ، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » . وغير ذلك من النصوص المتقاربة .

وقد صدع بها في غير موقف ، تارة بعد انصرافه من الطائف ، وأخرى يوم عرفة في حجة الوداع ، وثالثة يوم غدير خمّ ، ورابعة على منبره في المدينة ، وأخرى في حجرته المباركة في مرضه والحجرة غاصّة بأهله .

ولا يشك في صحّة الحديث إلاّ الجاهل به أو المعاند ، فقد رُوي بطرق كثيرة عن نيف وعشرين صحابياً[١] .

إنّ الإمعان في الحديث يعرب عن عصمة العترة الطاهرة ، حيث قورنت

---

(١) وكفى في ذلك أن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية قامت بنشر رسالة جمعت فيها مصادر الحديث ونذكر من طرقه الكثيرة ما يلي : صحيح مسلم ، ج ٧ ، ص ١٢٢ ، سُنن الترمذي ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ ، مسند أحمد ، ج ٣ ، ص ١٧ و٢٦ و٥٩ . وج ٤ ، ص ٣٦٦ و٣٧١ . وج ٥ ، ص ١٨٢ و ١٨٩ .

وقد قام المحدث الكبير السيد حامد حسين الهندي بجمع طرق الحديث ونقل كلمات الأعاظم حوله ونشره في ستة أجزاء وهو من أجزاء كتابه الكبير العبقات .

بـالقرآن الكـريم ، وأنّهما لا يفترقـان ، ومن المعلوم أنّ القرآن العـظيم ، كتاب لا يـأتيه البـاطل من بـين يديـه ولا من خلفه ، فكيف يمكن أنْ يكـون قرنـاءُ القـرآن وأعداؤه ، خاطئين فيما يحكمون ويُبرمون ، أو يقولـون ويحدّثـون . فعدم الإفـتراق إلى يوم القيامة ، آية كونهم معصومين فيما يقولون ويروون .

أَضف إلى ذلـك أنّ الحديث ، يَعُـدُّ المتمسِّكَ بـالعترة غـيرَ ضالٍّ ، بقـوله : « لَنْ تضلّوا » . فلو كـانوا غـير معصومـين من الخلاف والخـطأ ، فكيف لا يضـلّ المتمسك بهم ؟ .

نعم ، ورد في بعض النصـــوص مكـان كتــاب الله وعـــترتي ، كتـــاب الله وسنّتي[1] . وهـو على فـرض صحته ، حـديث آخر لا يـزاحمه ، عـلى أنّه حـديث واحـد ، وهذا الحـديث متواتـر نقله أعلام الأئمـة ، وأساتـذة الحديث والتـاريـخ والسيرة ، ولا يعلم حقيقة ذلك إلاّ من راجع مصادر الحديث[2] . فيقـدّم عليه في كل حال .

من هم العترة وأهل البيت ؟

لا أظن أنّ أحـداً ، قرأ الحـديث والتاريـخ ، يَشُكُّ في أنّ المـراد من العـترة وأهل البيت لفيفٌ خاص من أهل بيته . ويكفي في ذلـك مراجعـة الأحاديث التي جمعها ابن الأثير في جامعه عن الصحاح ، ونكتفي بالقليل من الكثير منها .

١ ـ روى الـترمذي عن سعـد بن أبي وقّاص قـال : لمّا نـزلت هـذه الآيـة : ﴿ فَقُـلْ تَعالَـوا نَدْعُ أبنـاءَنـا وأَبْنـاءَكُمْ ونِسـاءَنـا ونِسـاءَكُمْ . . . ﴾ الآيـة ، دعـا رسـول الله صلى الله عليـه وآله عليّـاً ، وفاطمـة ، وحسنـاً ، وحسينـاً ، فقـال : « اللّهم هؤلاء أهلي » .

---

(١) الصواعق المحرقة ، ص ٨٩ .

(٢) وراجع أيضاً في الوقوف عـلى مصادر الحـديث ، غايـة المرام للسيـد البحراني ، ص ٤١٧ ـ ٤٣٤ . والمراجعات ، المراجعة ٨ . وتعاليق إحقاق الحق ، ج٩ .

٢ ـ وروى أيضاً عن أمّ سَلَمة رضي الله عنها ، قالت : إنّ هذه الآية نزلت في بيتي : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ، قالت : وأنا جالسة عند الباب ، فقلت : يا رسول الله ، ألست من أهل البيت ، فقال : إنّك إلى خير ، أنْتِ من أزواج رسول الله . قالت : وفي البيت رسولُ الله ، وعليٌّ ، وفاطمة ، وحسن ، وحسين ، فجلّلهم بكسائه ، وقال : « اللّهم هؤلاء أهْلُ بيتي ، فأذْهِبْ عنهم الرِّجْسَ وطَهِّرْهُمْ تطهيراً » .

٣ ـ وروى أيضاً عن أنس بن مالك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يمرّ بباب فاطمة إذا خرج إلى الصلاة حين نزلت هذه الآية قريباً من ستة أشهر ، يقول : « الصلاة أهل البيت : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ » .

٤ ـ وروى مسلم عن زيد بن أرقم قال : قال يزيد بن حيان : انطلقت أنا وحصين بن سبرة ، وعمر بن مسلم ، إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسمعت حديثه ، وغَزَوْتَ معه ، وصَلَّيْتَ خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ .

قال : يا ابن أخي والله ، لقد كَبُرت سني ، وقَدُم عهدي ، فما حدّثْتُكم فاقبلوا ، وما لا فلا تُكَلِّفونيه . ثم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ، يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمّاً ، بين مكة والمدينة ، فحَمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكّر ثم قال : أما بعد ، ألا أيّها الناس ، إنّما أنا بشر ، يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأُجيب ، وأنا تارك فيكم ثَقَلَيْن ، أوّلهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به . فحثّ على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : وأهلِ بيتي ، أُذَكِّرُكُمُ الله في أهلِ بيتي ، أُذَكِّرُكُم الله في أهلِ بيتي ، أُذَكِّرُكُمُ الله في أهلِ بيتي » .

فقلنا : من أهل بيته؟ نساؤه ؟ . قال : لا ، وأَيْمُ الله ، إنّ المرأة تكون مع الرجل العصر من الدّهر ، ثم يطلّقها ، فترجع إلى أبيها وقومِها ، أهلُ بيته ،

أَصْلُه وعُصْبَتُه الذين حُرِموا الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ[1] .

* * *

٢ ـ حديث السفينة

روى المحدّثون عن النبي الأكرم أنّه قال : « إنّما مَثَلُ أهلُ بيتي في أُمَّتي ، كَمَثَلِ سفينةِ نوحٍ ، مَنْ رَكِبَها نَجا ، ومَنْ تَخَلَّف عنها غَرِقَ »[2] .

فَشَبَّه صلوات الله عليه وآله ، أَهْلَ بيته بسفينة نوح في أنّ من لجأ إليهم في الدين فأخذ أُصولَه وفروعه عنهم نجا من عذاب النّار ، ومَنْ تَخَلَّفَ عنهم كان كَمَنْ آوى يوم الطُّوفان إلى جبل لِيَعْصِمَه من أَمْرِ الله ، غير أنّ ذاك غرق في الماء وهذا في الحميم .

فإذا كانت هذه منزلة علماء أهل البيت ، ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ ؟ .

يقول إبن حَجَر في صواعقه : « ووجه تشبيههم بالسفينة أَنّ مَنْ أَحَبَّهم وعَظَّمَهم ، شكراً لنعمةِ مُشَرِّفِهم ، وأخذ بِهَدْي علمائهم ، نجى من ظلمة المخالفات . ومن تخلّف عن ذلك ، غرق في بحر كفر النِّعم ، وهلك في مفاوز الطغيان »[3] .

* * *

(١) لاحظ فيما نقلناه من الأحاديث ، جامع الأُصول ، ج ١ ، الفصل الثالث ، من الباب الرابع ، ص ١٠٠ ـ ١٠٣ .

(٢) مستدرك الحاكم ، ج ٢ ، ص ١٥١ . الخصائص الكبرى للسيوطي ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ . وللحديث طرق ومسانيد كثيرة ، من أراد الوقوف عليها ، فعليه بتعاليق إحقاق الحق ، ج ٩ ، ص ٢٧٠ ـ ٢٩٣ .

(٣) الصواعق ، الباب ١١ ، ص ١٩١ . ألا مسائل ابن حجَر أنّه إذا كان هذا مَقام أهل البيت ، فلماذا لم يأخذ هو بِهَدْي أئمتهم في شيءٍ من فروع الدين وعقائده ، ولا في شيءٍ من علوم السنّة والكتاب ، ولا في شيءٍ من الأخلاق والسلوك والآداب ؟ ولماذا تخلّف عنهم ، فأغرق نفسه في بحار كفر النعم ، وأهلكها في مفاوز الطغيان ؟! .

البحث الثاني

السنّة النبوية والأئمة الإثنا عشر

إنّ النبي الأكرم لم يكتف بتنصيب عليٍّ منصب الإمامة والخلافة، كما لم يكتف بإرجاع الأُمّة الإسلامية إلى أهل بيته وعترته الطاهرة ، ولم يقتصر على تشبيههم بسفينة نوح ، بل قام ببيان عدد الأئمة الذين يتولون الخلافة بعده ، واحداً بعد واحد ، حتى لا يبقى لُمرتاب رَيْب ، ولا لشاكٍّ شك ، وقد جاء ذلك في الصحاح والمسانيد بصُوَر مختلفة نشير إليها .

١ ـ كلهم من قريش

روى البخاري عن جابر بن سمرة قال : سمعت النبي يقول :

« يكون إثنا عشر أميراً ، فقال كلمة لم أسمعها ، فقال أبي : إنّه قال : كلُّهم من قُرَيْش »[1] .

٢ ـ لا يزال الإسلام عزيزاً

روى مسلم عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول :

---

(١) صحيح البخاري ، ج ٩ ، باب الإستخلاف ، ص ٨١ . ورواه ناقصاً كما يظهر ممّا نقله مسلم وغيره ، رواه أحمد في مسنده ، ج ٥ ، ص ٩٠ ، وص ٩٢ ، وص ٩٥ ، وص ١٠٨ .

« لا يزال الإسلام عـزيزاً إلى إثني عَشَر خليفـة. ثم قال كلمـة لم أفهمها ، فقلت لأبي : ما قال ؟ قال : قال : كلُّهم من قريش »[١] .

٣ ـ لا يزال الدين عزيزاً منيعاً

وروى أيضـاً عن جابـر بن سمرة قـال : انـطلقت إلى رسـول الله ومعي أبي فسمعته يقول :

لا يزال هذا الدين عزيـزاً منيعاً إلى إثني عشر خليفـة ، فقال كلمـة صمّنيها الناس ، فقلت لأبي : ما قال ؟ . قال : كلُّهم من قريش[٢] .

٤ ـ لا يزال الدين قائماً

وروى أيضـاً عنـه ، قـال : سمعت رسـول الله يـوم جمعـة عَشيـة رجم الأسلمي ، يقول : لا يزال الدين قائماً حتى تقوم السـاعة ، أو يكـون عليكم إثنا عشر خليفة كلُّهم من قريش[٣] .

٥ ـ لا يزال الدين ظاهراً

روى أحمـد في مسنده ، عن جـابر قـال سمعت رسـول الله يقـول في حجـة الوداع : إنّ هذا الدين لن يزال ظاهراً على من ناواه ، لا يضرّه مخـالف ولا مفارق حتى يمضي من أُمّتي إثنـا عشر خليفة . ثم تكلم بشيء لم أفهمـه ، فقلت لأبي : مـا

(١) صحيح مسلم ، ج ٦ ، كتاب الإمارة ، باب النـاس تَبَع لقـريش ، ص ٣ . وروى هذا المضمـون تـارة عن سماك بن حـزب عن جابـر ، وأخرى عن الشعبي عن جـابـر . ورواه أحمـد في مسنـده ، ج ٥ ، ص ٩٠ ، و٩٨ ، وفيه : فكبّر الناس وضجّوا .

(٢) المصدر السابق من صحيح مسلم ، ومسند أحمـد ، ج ٥ ، ص ٩٨ . وفيه : « لا يـزال هذا الـدين عزيزاً منيعاً يُنصرون على من ناواهم عليه » .

(٣) المصدر نفسه . ومسنـد أحمد ، ج ٥ ، ص ٨٦ ، ص ٨٩ ، وفي ص ٩٢ : « لا يـزال الدين قـائماً يقاتل عليه عصابة حتى تقوم الساعة » . وص ٩٨ ، وفيها « عصابة من المسلمين » .

قال ؟ قال : قال : كلهم من قريش [1] .

٦ ـ لا يزال هذا الأمر صالحاً

روى أحمد في مسنده عن جابر عن سمرة قال : جئت أنا وأبي إلى النبي ، وهو يقول : لا يزال هذا الأمر صالحاً ، حتى يكون إثنا عشر أميراً ، ثم قال كلمة لم أفهمها ، فقلت لأبي ما قال ؟ . قال : كلّهم من قريش [2] .

٧ ـ لا يزال الناس بخير

وروى أيضاً عنه قال : كنت مع أبي عند رسول الله ، فقال رسول الله : لا يزال هذا الدين عزيزاً ، أو قال : لا يزال الناس بخير ـ شكّ أبو عبد الصمد ـ إلى إثني عشر خليفة ، ثم قال كلمة خفيّة ، فقلت لأبي ، ما قال ؟ . قال : كلّهم من قريش [3] .

فَهَلُمّ الآن إلى البحث عن هؤلاء الخلفاء الإثني عشر ، حتى نعرف من هم وقد وقفت على أنّ الرسول الأكرم قد عرفهم بالخصوصيات التالية :

ـ لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثني عشر خليفة .

ـ لا يزال الدين عزيزاً منيعاً إلى إثني عشر خليفة .

ـ لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ، أو يكون عليكم إثنا عشر خليفة .

ـ لا يزال الدين ظاهراً على من ناواه . . . حتى يمضي من أُمتي إثنا عشر خليفة .

ـ لا يزال هذا الأمر صالحاً حتى يكون إثنا عشر أميراً .

ـ لا يزال الناس بخير إلى إثني عشر خليفة .

---

(١) مسند أحمد ، ج ٥ ، ص ٨٧ و ص ٨٨ وص ٩٠ . ولاحظ المستدرك ، ج ٣ ، ص ٦١٨ وفيه : «لا يزال أمر هذه الأُمّة ظاهراً » .

(٢) مسند أحمد ، ج ٥ ، ص ٩٧ وص ١٠٧ ولاحظ المستدرك ، ج ٣ ، ص ٦١٨ .

(٣) مسند أحمد ، ج ٥ ، ص ٩٨ .

وقد اختلفت كلمة شراح الحديث في تعيين هؤلاء الأئمة ، ولا تجد بينها كلمة تشفي العليل ، وتروي الغليل ، إلّا ما نقله القندوزي عن بعض المحققين ، قال :

« إنّ الأحاديث الدالّة على كون الخلفاء بعده إثني عشر ، قد اشتهرت من طرق كثيرة ، فبشرح الزمان ، وتعريف الكون والمكان ، علم أنّ مراد رسول الله من حديثه هذا ، الأئمة الإثنا عشر من أهل بيته وعترته ، إذ لا يمكن أن يُحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه ، لقلّتهم عن اثني عشر ، ولا يمكن أن يحمل على الملوك الأُمويين لزيادتهم على الإثني عشر ، ولظلمهم الفاحش إلّا عمر بن عبد العزيز ، ولكونه غير بني هاشم ، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قال : كلهم من بني هاشم ، في رواية عبد الملك عن جابر ، وإخفاء صوته في هذا القول يرجّح هذه الرواية ، لأنّهم لا يُحسِّنون خلافة بني هاشم ، ولا يمكن أن يحمل على الملوك العباسيين لزيادتهم على العدد المذكور ، ولقلّة رعايتهم قوله سبحانه : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبى ﴾ ، وحديث الكساء ، فلا بُدّ من أن يُحمل على الأئمة الإثني عشر من أهل بيته وعترته ، لأنّهم كانوا أعلم أهل زمانهم ، وأَجَلَّهم ، وأَوْرَعهم ، وأتْقاهم ، وأعلاهُم نَسَباً ، وأَفْضَلَهم حَسَباً ، وأَكْرَمَهم عند الله ، وكانت عُلومُهم عن آبائهم متصلة بجدِّهم صلى الله عليه وآله ، وبالوراثة اللَّدُنيَّة ، كذا عَرَّفَهم أهلُ العلم والتحقيق ، وأهل الكشف والتوفيق .

ويؤيّد هذا المعنى ، أي أنّ مراد النبي الأئمة الإثني عشر من أهل بيته ، ويشهد عليه ويرجّحه حديث الثقلين والأحاديث المتكثرة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها .

وأمّا قوله صلى الله عليه وآله : كلُّهم يجتمع عليه الأُمّة ، في رواية جابر بن سمرة ، فمراده أنّ الأُمّة تجتمع على الإقرار بإمامة كلِّهم وقت ظهور قائمهم المهدي »[1] .

والعجب من بعض المتعصبين حَمْلَهُ على خلفاء بني أُميّة من بعد الصحابة ،

(١) ينابيع المودة ، للشيخ سليمان المعروف بالبلخي القندوزي ، ص ٤٤٦ ، ط اسطنبول عام١٣٠١ .

قال : « وليس الحديث وارداً على المدح ، بل على استقامة السلطنة ، وهم يزيد بن معاوية ، وابنه معاوية ، ولا يدخل عبد الله بن الزبير لأنّه من الصحابة ، ولا مروان بن الحكم لكونه بويع بعد ابن الزبير ، فكان غاصباً ، ثم عبد الملك ، ثم الوليد ، إلى مروان بن محمد »[1] .

وهذا لعمري رمي للقول على عواهنه ، فمن أين علم أنّه إشارة إلى إمارة غير الصحابة ، مع أنّه قال : يكون بعدي . ثم ما فائدة هذا الإخبار وما حاصله ؟ .

أضف إلى ذلك أنّ الرسول الأكرم أناط عزة الإسلام ، ومنعته ، وقوام الدين وصلاح الأُمّة ، بخلافة هؤلاء . وهل كان في خلافتهم هذه الآثار ، أو الذي كان هو ما يضادُّها ؟ فكيف يمكن حمل هذه البشائر التي صدرت على سبيل المدح ، على مثل يزيد بن معاوية قاتل الإمام الطاهر ، والفاسق المعلن بالمنكرَات والكفر ، والمتمثل بأشعار ابن الزِّبَعْريّ المعروفة[2] . وموبقات هذا الرجل من استباحة دم الصحابة ، والتابعين ثلاثة أيام[3] ، وغير ذلك ، ممّا لا يُحصى . وكيف يَعُدُّ وليد بن يزيد بن عبد الملك من خلفاء رسول الله الذين يعتزّ بهم الدين ؟ :

فتح الوليد المصحف ذات يوم وقرأ قوله تعالى : ﴿ واسْتَفْتَحوا وخابَ كُلُّ جبّارٍ عَنيدٍ * مِنْ ورائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ من ماءٍ صَديدٍ ﴾[4] ، فدعى بالمصحف ، فنصبه غرضاً للنشاب ، وأقبل يرميه وهو يقول :

تُهَدِّدني بجبارٍ عنيد ... فها أنا ذاك جبّارٌ عنيد
إذا ما جئت ربَّك يومَ حشر ... فَقُلْ يا رَبِّ مزَّقني الوليد

---

(١) منتخب الأثر ، ص ١٦ ، نقلاً عن حواشي صحيح الترمذي .

(٢) ليت أشياخي ببدر شهدوا ... وَقْعَ الخَزْرَجِ من وَقْعِ الأَسَلْ

إلى آخر الأبيات وفيها :

لَعِبَتْ هاشم بالمُلْك فلا ... خَبَرٌ جاءَ ولا وَحْيٌ نَزَلْ

(البداية والنهاية ، لابن الأثير ، ج ٨ ، ص ١٤٢ . ط دار الفكر ـ بيروت ، وتذكرة الخواص ، لابن الجوزي ، ص ٢٣٥ ، ط بيروت ١٤٠١ ـ ١٩٨١) .

(٣) لاحظ تاريخ الطبري ، حوادث سنة ٦٣ ، ص ٣٧٠ ـ ٣٨١ . (٤) سورة إبراهيم:الآيتان ١٥ و١٦ .

وذكر محمد بن يزيد المبرِّد النحوي أنّ الوليد ألحد في شعرٍ له ذكر فيه النبي صلى الله عليه وآله ، وأنّ الوحي لم يأته من ربّه . كذب أخزاه الله من ذلك الشعر :

تَلَعَّبَ بالخلافة هاشمي بلاَ وَحْيٍ أتاه ولا كِتابِ
فقُل لله يمنعني طعامي وقُلْ لله يمنعني شرابي

فلم يُمْهل بعد قوله هذا إلاّ أياماً حتى قتل[1] .

والإنسان الحرّ الفارغ عن كل رأي مُسْبَق ، لو أمعن النظر في هذه الأحاديث وأمعن في تاريخ الأئمة الإثني عشر من ولد الرسول ، يقف على أنّ هذه الأحاديث لا تروم غيرَهم ، فإنّ بعضها يدُلّ على أنّ الإسلام لا ينقرض ولا ينقضي حتى يمضي في المسلمين إثنا عشر خليفة ، كلُّهم من قريش ، وبعضها يدلّ على أنّ عزّة الإسلام إنّما تكون إلى إثني عشر خليفة ، وبعضها يدلّ على أنّ الدين قائم إلى قيام الساعة ، وإلى ظهور إثني عشر خليفة ، وغير ذلك من العناوين .

وهذه الخصوصيات لا توجدَ في الأُمّة الإسلامية إلاّ في الأئمة الإثني عشر المعروفين عند الفريقين ، خصوصاً ما يدلّ على أن وجود الأئمة مستمر إلى آخر الدهر ، ومن المعلوم أنّ آخر الأئمة هو المهدي المنتظر ، الذي يُعَدُّ ظهوره من أشراط الساعة .

ولو أضفنا إلى هذا ، الروايات الكثيرة الواردة في الأئمة الإثني عشر ، يقطع الإنسان بأنّه ليس المراد إلاّ هؤلاء الذين اعترف بفضلهم ، وورعهم ، وتُقاهم ، وعلمهم ، ووعيهم ، وحلمهم ، وصبرهم ، ودرايتهم ، وكفايتهم ، الداني والقاصي ، والصديق والعدو ، ألا وهم :

علي بن أبي طالب ، فالحسن بن علي ، فالحسين بن علي ، فعلي بن الحسين ، فمحمد بن علي ، فجعفر بن محمد ، فموسى بن جعفر ، فعلي بن موسى ، فمحمد بن علي ، فعلي بن محمد ، فالحسن بن علي ، فمحمد بن الحسن

(١) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص٢١٦ .

العسكـري ، المهدي المنتـظر الذي يمـلأ الله به الأرض قسـطاً وعدلاً بعـدما مُلئت ظُلْماً وجَوْراً[1] ، صلوات الله وتحياته وسلامه عليهم أجمعين .

وقد تضافـرت النصوص في تنصيص الإمـام السابق عـلى الإمام الـلاحق ، فمن أراد الوقوف عـلى هذه النصـوص ، فعليه الـرجوع إلى الكتب المعـدّة لإمامـة الأئمة الإثني عشر[2] .

* * *

(١) سيوافيك الكلام في الإمام المنتظر ، وأحاديثه في السنّة النبوية ، وطـول عمره ، وعـلائم ظهوره ، وغير ذلك مما يرجع إليه .

(٢) لاحظ الكافي ، ج ١ ، كتاب الحجة ،وأجمع كتاب في هذا الموضوع هو كتاب « إثبات الهداة » للشيخ الحرّ العاملي وقد جمع فيه النصوص المتضافرة على إمامة كلّ واحدٍ من الأئمة الإثني عشر .

البحث الثالث

عصمة الإمام في القرآن

قد عرفت في البحث عن شروط الإمامة ، اختلاف أهل السنّة في عددها ، وعلمت المتفقّ عليه ، والمختلف عليه منها . وقد اتّفقوا وراء ذلك على أنّ العصمة ليست من الشرائط ، أخذاً بمبادئهم حيث إنّ الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، لم يكونوا بمعصومين قطعاً ، بل إنّ بعضهم لم يكن مجتهداً في الكتاب والسنّة .

وأمّا الشيعة الإمامية ، فقد اتّفقت على هذا الشرط من بين الشروط ، واستدلّوا عليه بأدلّة ، نكتفي ببعضها :

١ ـ الإمامة استمرار لوظائف الرسالة

إنّ حقيقة الإمامة الذي تتبناه الشيعة الإمامية ، هي القيام بوظائف الرسول بعد رحلته ، وقد تعرفت على وظائفه الرسالية والفراغات الحاصلة بموته والتحاقه بالرفيق الأعلى . ومن المعلوم أنّ سَدّ هذه الفراغات لا يتحقق إلاّ بأن يكون الإمام متمتعاً بما يتمتع به النبي الأكرم من الكفاءات والمؤهلات ، فيكون عارفاً بالكتاب والسنّة على وفق الواقع ، وعالماً بحكم الموضوعات المستجدة عرفاناً واقعياً ، وذابّاً عن الدين شبهاتِ المشككين ، ومن المعلوم أنّ هذه الوظيفة تستدعي كون الإمام مصوناً من الخطأ . فما دلّ على أنّ النبيَّ يجب أن يكون مصوناً في مقام إبلاغ

الرسالة ، قائمٌ في المقام بنفسه ، فإنّ الإمام يقوم بنفس تلك الوظيفة ، وإن لم يكن رسولاً ولا طرفاً للوحي ، ولكنه يكون عيبةً لعلمه ، وحاملاً لشرعه وأحكامه ، فإذا لم نجوّز الخطأ على النبي في مقام الإبلاغ ، فليكن الأمر كذلك في مقام القيام بتلك الوظيفة بلا منصب الرسالة والنبوة .

٢ ـ آية ابتلاء إبراهيم

قال سبحانه : **﴿ وإذِ ابتلى إبْرَاهيمَ رَبُّهُ بكلماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ، قال إنِّي جاعِلُكَ للنَّاسِ إماماً ، قال وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، قال : لا ينالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾**[١] .

إنّ تفسير الآية كما هو حقُّها يتوقف على البحث عن النقاط التالية :

أ ـ ما هو الهدف من الإبتلاء ؟ .

ب ـ ما هو المراد من الكلمات ؟ .

ج ـ ماذا يراد من الإتمام ؟ .

د ـ ما هو المقصود من الإمام (إماماً) ؟ .

هـ ـ كيف تكون الإمامة عهداً إلْهياً (عهدي) ؟ .

و ـ ما هو المراد من الظالمين ؟ .

ولكنّ إفاضة الكلام في هذه الموضوعات ، يُحْوِجُنا إلى تأليف رسالة مفردة فنكتفي بالتركيز على اثنين من هذه الموضوعات[٢] .

الأول ـ ما هو المقصود من الإمامة التي أنعم الله سبحانه بها على نبيّه الخليل ؟ .

الثاني ـ ما هو المراد من الظالمين ؟ .

* * *

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

(٢) وقد أشبع شيخنا الأستاذ ، البحث عن هذه الموضوعات الستّة في موسوعته القرآنية « مفاهيم القرآن » ، ج ٥ ، ص ٢٠٥ ـ ٢٥٩ .

الأول ـ ما هو المراد من الإمامة في الآية ؟

ذهب عدّة من المفسّرين منهم الرازي في مفاتيحه ، إلى أنّ المراد من الإمامة هنا ، النبوة ، وأنّ مِلاكَ إمامة الخليل ، نبوَّتُه ، لأنّها تتضمن مشاقّاً عظيمة[1] .

وقال الشيخ محمد عبده : « الإمامة هنا عبارة عن الرسالة ، وهي لا تُنال بكسب الكاسب »[2] .

يلاحظ عليه : إنّ إبراهيم كان نبيّاً قبل الإبتلاء بالكلمات ، وقبل تنصيبه إماماً ، فكيف يصحّ أنْ تُفَسَّر الإمامة بالنبوّة على ما في لفظ الرازي ، أو بالرسالة ، على ما في لفظ المنار ؟ ودليلنا على ما ذكرنا ، أمران :

١ ـ إنّ نزول الوحي على إبراهيم ، وجعله طرفاً للخطاب بقوله : ﴿ **إنّي جاعِلُكَ للنّاسِ إماماً** ﴾ ، أوضح دليل على أنّه كان نبيّاً متلقياً للوحي قبل نزول هذه الآية . وأسلوب الكلام يدلّ على أنّه لم يكن وحياً إبتدائياً ، بل يعرب عن كونه استمراراً للوحي السابق ، والمحاورة الموجودة بينه وبين الله تعالى ، حيث طلب الإمامة لذريته ، تناسب الوحي الإستمراري لا الوحي الإبتدائي . وإن كنت في شكّ ، فلاحظ الوحي الإبتدائي ، النازل على موسى في طور سيناء حيث خوطب بقوله :

﴿ **فلمّا أتاها نُودِيَ من شاطِىءِ الوادِ الأيْمَنِ في البُقْعَةِ المُبارَكَةِ من الشَّجَرَةِ أنْ يا موسى إنّي أنا اللهُ رَبُّ العالَمِينَ** ﴾[3] .

٢ ـ إنّ الخليل طلب الإمامة لذرّيته ، ومن المعلوم أنّ إبراهيم كان نبيّاً قبل أن يرزق أيّ ولد من ولديه إسماعيل وإسحاق ، أمّا أوّلهما فقد رُزِقَه بعد تحطيم الأصنام في بابل ، وإعداد العدّة للخروج إلى فلسطين ، حيث وافاه الوحي

---

(١) مفاتيح الغيب ، للرازي ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .

(٢) المنار ، ج ١ ، ص ٤٥٥ .

(٣) سورة القصص : الآية٣٠ . ولاحظ سورة العلق : الآيات ١ ـ٥ ، فإنّها من الوحي الإبتدائي ، وهي لا تشبه الخطاب الوارد في الآية الموجّه إلى الخليل .

وبشّره : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾[1] . وأمّا ثانيهما ، فقد بشرته به الملائكة عندما دخلوا عليه ضيوفاً ، فقالوا : ﴿ إِنّا نُبَشِّرُكَ بِغلامٍ عليم ﴾[2] .

وعلى ذلك ، يجب أن تكون الإمامة الموهوبة للخليل غير النبوة ، وإلّا كان أشبه بتحصيل الحاصل .

والظاهر أنّ المراد من الإمامة ، القيادة الإلهية للمجتمع ، فإنّ هناك مقامات ثلاثة :

- مقام النبوة ، وهو منصب تَحَمُّل الوحي .

- مقام الرسالة ، وهو منصب إبلاغه إلى الناس .

- مقام الإمامة ، وهو منصب القيادة وتنفيذ الشريعة في المجتمع بقوة وقدرة .

ويعرب عن كون المراد من الإمامة في المقام هو المعنى الثالث ، قوله سبحانه : ﴿ أَمْ يَحْسُدون النّاسَ على ما آتاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الكِتابَ والحِكْمَةَ وآتَيْناهُمْ مُلْكاً عظيماً ﴾[3] .

فالإمامة التي أنعم بها الله سبحانه على الخليل وبعض ذرّيته ، هي الملك العظيم الوارد في هذه الآية . وعلينا الفحص عن المراد من الملك العظيم ، إذ عند ذلك يتّضح أنّ مقام الإمامة ، وراء النبوة والرسالة ، وإنّما هو قيادة حكيمة ، وحكومة إلهيّة ، يبلغ المجتمع بها إلى السعادة . والله سبحانه يوضح حقيقة هذا المُلْك في الآيات التالية :

١ - يقول سبحانه - حاكياً قول يوسف عليه السلام - : ﴿ رَبِّ قد آتَيْتَني من المُلْكِ وَعَلَّمْتَني من تأْويلِ الأحاديثِ ﴾[4] . ومن المعلوم أنّ المُلْكَ الذي مَنَّ به

---

(١) لاحظ سورة الصافات : الآيات ٩١ - ١٠٢ .

(٢) لاحظ سورة الحجر : الآيات ٥١ - ٥٥ .

(٣) سورة النساء : الآية ٥٤ .

(٤) سورة يوسف : الآية ١٠١ .

سبحانه على عبده يوسف ، ليس النبوة ، بل الحاكمية ، حيث صار أميناً مكيناً في الأرض . فقوله : ﴿ **وَعَلَّمتني مِنْ تَأْويلِ الأَحاديثِ** ﴾ ، إشارةٌ إلى نبوته ، والمُلْكُ إشارة إلى سلطته وقدرته .

٢ ـ ويقول سبحانه في داود عليه السلام : ﴿ **وآتاهُ اللهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ ممّا يَشاءُ** ﴾[١] . ويقول سبحانه : ﴿ **وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وآتَيْناهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطابِ** ﴾[٢] .

٣ ـ ويحكي الله تعالى عن سليمان أنّه قال : ﴿ **وَهَبْ لي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدي إنَّك أَنْتَ الوهّاب** ﴾[٣] .

فملاحظة هذه الآيات يفسّر لنا حقيقة الإمامة ، وذلك بفضل الأُمور التالية .

أ ـ إنّ إبراهيم طلب الإمامة لذريته ، وقد أجاب سبحانه دعوته في بعضهم .

ب ـ إنّ مجموعةً من ذريته ، كيوسف ودارد وسليمان ، نالوا ـ وراء النبوة والرسالة ـ منصب الحكومة والقيادة .

ج ـ إنّه سبحانه أعطى آل إبراهيم الكتاب ، والحكمة ، والملك العظيم .

فمن ضمّ هذه الأُمور بعضها إلى بعض ، يخرج بهذه النتيجة : إنّ مِلاك الإمامة في ذريّةِ إبراهيم ، هو قيادتهم وحكمهم في المجتمع ، وهذه هي حقيقة الإمامة ، غير أنّها ربما تجتمع مع المقامَيْنْ الآخرين، كما في الخليل ، ويوسف ، وداود ، وسليمان ، وغيرهم ، وربما تنفصل عنها ، كما في قوله سبحانه: ﴿ **وقال لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالوتَ مَلِكاً ، قالوا أَنَّى يكونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنا ونَحْنُ أَحَقُّ بالمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المالِ ، قال إنَّ اللهَ آصطَفاهُ عَلَيْكُم وزادَهُ**

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

(٢) سورة ص : الآية ٢٠ .

(٣) سورة ص : الآية ٣٥ .

بَسْطَةً في العِلْمِ والجِسْمِ ، واللهُ يُؤْتي مُلْكَهُ مَنْ يشاءُ واللهُ واسِعٌ عَليمٌ ﴾[1] .

والإمامة التي يتبناها المسلمون بعد رحلة النبي الأكـرم ، تتّحد واقعيتهـا مع هذه الإمامة .

* * *

الثاني ـ ما هو المراد من الظالمين

الظُّلم في اللغة هو وضع الشيء في غير موضعـه ، ومجاوزة الحـدّ الذي عيّنـه العُرْف أو الشرع ، فالمعصية ، كبيرها وصغيرها ، ظلم ، لأنّ مقترفهما يتجاوز عن الحدّ الذي رسمه الشارع .

والظلم له مـراتب ، والمجموع يشـترك في كونـه تجاوزاً عن الحـدّ ، ووضعاً للشيء في غير موضعه .

ولما خلع سبحانـه ثوب الإمـامة عـلى خليله ، ونصبه إمـاماً للنـاس ، ودعا إبـراهيم أن يجعل من ذريتـه إمامـاً ، أُجيب بـأنّ الإمـامـة وثيقـة إلهيـة ، لا تنـال الظالمين ، لأنّ الإمام هو المطاع بين الناس ، المتصرف في الأموال والنفوس ، وقائد المجتمع إلى السعادة ، فيجب أن يكون على الصراط السويّ ، حتى يكون أمـرُه ، ونهيُه ، وتصرُّفُه ، وقيادتُه ، نابعة منه . والظالم المتجاوز عن الحدّ ، لا يصلح لهذا المنصب .

إنّ الظالم الناكث لعهد الله ، والناقض لقـوانينه وحـدوده ، على شفـا جرُف هارٍ ، لا يؤتمن عليه ، ولا تلقى إليه مقاليد الخلافة ، ولا مفاتيح القيادة ، لأنّه على مقربة من الخيانة والتعدّي ، وعلى استعدادٍ لأن يقع أداةً للجائرين ، فكيف يصـحّ في منطق العقل أن يكون إماماً مطاعاً نافذاً قوله ، مشروعاً تصرُّفه ، إلى غير ذلـك من لوازم الإمامة ؟ .

إنّ بعض المناصب والمقامات ، تُعَيَّن شروطُها بالنظر إلى ماهيتها وواقعيتها ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٧ .

فمدير المستشفى مثلاً ، له شروط تختلف عن شروط القائد . فالإمامة ، التي لا تنفك عن التصرف في النفوس والأموال ، وبها يناط حفظ القوانين ، يجب أن يكون القائم بها إنساناً مثالياً ، مالكاً لنفسه ، ولغرائزه ، حتى لا يتجاوز في حكمه عن الحدّ ، وفي قضائه عن الحق .

الجمع المُحلّى باللام العُموم

الظاهر من صيغة الجمع المحلّى باللام ، أنّ الظلم بكل ألوانه وصُوَرِه ، مانعٌ عن نيل هذا المنصب الإلهي ، فالإستغراق في جانب الأفراد ، يستلزم الإستغراق في جانب الظلم ، وتكون النتيجة ممنوعية كل فرد من أفراد الظلمة عن الإرتقاء إلى منصب الإمامة ، سواء أكان ظالماً في فترة من عمره ثم تاب وصار غير ظالم ، أو بقي على ظلمه . فالظالم عندما يرتكب الظلم يشمله قوله سبحانه : ﴿ لا يَنالُ عهدي الظالِمينَ ﴾ . فصلاحيته بعد ارتفاع الظلم تحتاج إلى دليل .

وعلى ذلك ، فكل من ارتكب ظلماً ، وتجاوز حدّاً في يوم من أيام عمره ، أو عبد صنماً ، أو لاذ إلى وثن ، وبالجملة : ارتكب ما هو حرام ، فضلاً عمّا هو كُفْر ، ينادى من فوق العرش : ﴿ لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِمِينَ ﴾ ، أي أنتم الظلمة الكفرة المتجاوزون عن الحدّ ، لستم قابلين لتحمل منصب الإمامة ؛ من غير فرق بين أن يصلح حالُهم بعد تلك الفترة ، أو يبقوا على ما كانوا عليه .

وهذا يستلزم أن يكون المؤهّل للإمامة ، طاهراً من الذنوب من لدن وُضِعَ عليه القلم ، إلى أنْ أُدرج في كفنه وأُدخل في لحده ، وهذا ما نسميه بالعصمة في مورد الإمامة .

سؤال وجوابه

السؤال

لسائل أن يسأل ويقول : إنّ الآية إنّما تشمل من كان مقيماً على الظلم ، وأمّا التائب منه ، فلا يتعلق به الحكم ، لأنّ الحكم إذا كان معلقاً على صفة ،

وزالت الصفة ، زال الحكم . ألا ترى أنّ قوله : ﴿ ولا تَرْكَنوا إلى الّذين ظَلَموا ﴾[1] ، إنّما هو ينهى عن الركون إليهم ما أقاموا على الظلم ، فقوله تعالى : ﴿ لا يَنالُ عَهدِي الظّالِمينَ ﴾ . لم يَنْفِ به العهد عمّن تاب عن ظلمه ، لأنّه في هذه الحالة ، لا يسمى ظالماً ، كما لا يسمى من تاب من الكفر ، كافراً .

والجـــواب :

إنّ هذا الإعتراض ذكره الجصاص (م ٣٧٠) في تفسيره على آيات الأحكام[2] . ولكنه عزب عنه أنّ قوله : الحُكْمُ يدور مدار وجود الموضع ، ليس ضابطاً كليّاً ، بل الأحكام على قسمين ، قسم كذلك ، وآخر يكفي فيه اتّصاف الموضوع بالوصف والعنوان آناً ما ، ولحظةً خاصة ، وإن انتفى بعد الإتصاف ، فقوله : « الخمر حرام » ، أو : « في سائمة الغنم زكاة » ، من قبيل القسم الأول ، وأمّا قوله : « الزاني يحدّ » ، و« السارق يقطع » ، فالمراد منه أنّ الإنسان المتلبس بالزنا أو السرقة يكون محكوماً بهما وإن زال العنوان ، وتاب السارق والزاني ، ومثله : « المستطيع يجب عليه الحج » ، فالحكم ثابت ، وإن زالت عنه الإستطاعة تقصير لا عن قصور .

وعلى ذلك فالمدعى أنّ الظالمين في الآية المباركة كالسارق والسارقة[3] والزاني والزانية[4] ، والمستطيع[5] وأمهات نسائكم[6] في الآيات الراجعة إليهم .

نعم المهم في المقام إثبات أنّ الموضوع في الآية من قبيل القسم الثاني ، وأنّ

---

(١) سورة هود : الآية ١١٣ .

(٢) تفسير آيات الأحكام ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٣٨ .

(٤) سورة النور : الآية ٢ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

(٦) سورة النساء : الآية ٢٣ . فمن صدق عليها الأُمومة للزوجة يحرم على الزوج تزوُّجها ، وإن طلق إبنتها .

التلبس بالظلم ولو آنا ما ، وفترة يسيرة من عمره يسلب من الإنسان صلاحية الإمامة وإن تاب من ذنبه .

ويدلّ على ذلك أمران :

الأول : إنّ الهدف الأسمى من تنصيب كل إنسان على الإمامة ، تجسيد الشريعة الإلهية في المجتمع ، فإذا كان القائد رجلاً مثالياً نقي الثوب ، مشرق الصحيفة ، لم ير منه عصيان ولا زَلّة ، يتحقق الهدف من نصبه في ذلك المقام .

وأمّا إذا كان في فترة من عمره مقترفاً للمعاصي ، ماجناً ، مجترحاً للسيئات ، فيكون غرضاً لسهام الناقدين ، ومن البعيد أن ينفذ قوله ، وتقبل قيادته بسهولة ، بل ينادى عليه إنّه كان بالأمس ، يقترف الذنوب ، وأصبح اليوم آمراً بالحق ومميتاً للباطل .

ولأجل تحقق الهدف يحكم العقل بلزوم نقاوة الإمام عن كل رذيلة ومعصية في جميع فترات عمره ، وأنّ الإنابة لو كانت ناجعة في حياته الفردية فليست كذلك في حياته الإجتماعية ، فلن تخضع له الأعناق ، وتميل إليه القلوب .

الثاني : إنّ الناس بالنسبة إلى الظلم على أقسام أربعة :

١ ـ من كان طيلة عمره ظالماً .

٢ ـ من كان طاهراً ونقياً في جميع فترات عمره .

٣ ـ من كان ظالماً في بداية عمره ، وتائباً في آخره .

٤ ـ من كان طاهراً في بداية عمره ، وظالماً في آخره .

عند ذلك يجب أن نقف على أنّ إبراهيم عليه السلام ، الذي سأل الإمامة لبعض ذريته ، أيّ قسم منها أراد ؟ .

حاش إبراهيم أن يسأل الإمامة للقسم الأول ، والرابع من ذرّيته ، لوضوح أنّ الغارق في الظلم من بداية عمره إلى آخره ، أو المتصف به أيام تصديه للإمامة ، لا يصلح لأن يؤتمن عليها .

فبقي القسمان الآخران ، الثاني والثالث ، وقد نصّ سبحانه على أنّـه لا ينال عهده الظالم ، والـظالم في هذه العبـارة لا ينطبق إلّا عـلى القسم الثالث ، أعني من كان ظالماً في بداية عمره ، وكان تائباً حين التصدي .

فـإذا خرج هـذا القسم ، بقي القسم الثاني ، وهـو من كان نقي الصحيفـة طيلة عمـره ، لم ير منـه لا قبل التصـدي ولا بعده أيَّ انحـرافٍ عن جـادّة الحق ، ومجاوزةٍ للصراط السوي .

* * *

٣ ـ آية التطهير وعصمة أهل البيت (ع)

هناك آية أُخرى تدلّ على عصمة عدّة خاصة من أهل بيت النبي الأكرم .

يقول سبحانـه : ﴿ وَقَرْنَ في بُيـوتِكُنَّ ولا تَبَرَّجْنَ تَبَـرُّجَ الجاهِلِيَّـةِ الأُولىٰ ، وأَقِمْنَ الصَّـلاَةَ وآتِينَ الـزَّكاةَ وأَطِعْنَ اللهَ ورسـولَـهُ إنَّمـا يـريـدُ اللهُ لِيُـذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً ﴾[1] .

وأداء حقِّ الآية في التفسير ، يتوقف على البحث عن النقاط التالية :

١ ـ ما هو المراد من الرِّجس ؟ .

٢ ـ هل الإرادة في الآية ، إرادة تكوينية خـاصة بـأهل البيت ، أو تشريعيـة تعمّ كلَّ إنسان بالغٍ واقعٍ في إطار التكليف ؟ .

٣ ـ من المراد من أهل البيت ؟ .

٤ ـ مشكلة السياق في الآية لو كان المراد منهم غير نسائه ، صلوات الله عليه وآله .

٥ ـ أهل البيت في حديث النبي ، الذي يكون مفسرًّاً لإجمال الآية .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٣ .

والبحث عن هذه الأُمور يحوجنا إلى تأليفٍ مفرد ، وهو خارج عن وضع كتابنا[1] . إلاّ أنّ المهم هنا هو التركيز على أنّ الإرادة في الآية تكوينية ، خاصة بأهل البيت ، وليست تشريعية ، وأمّا المقصود من أهل البيت ، فقد تقدّمت المأثورات فيهم عند البحث عن حديث الثقلين .

الإرادة تكوينية لا تشريعية

إنّ انقسام إرادته سبحانه إلى القسمين المذكورين ، من الإنقسامات الواضحة ، ومجمل القول فيهما أنّه إذا تعلقت إرادته سبحانه على إيجاد شيء وتكوينه في صحيفة الوجود ، فالإرادة تكوينية لا تتخلف عن المراد .

قال سبحانه : ﴿ **إنّما أَمْرُهُ إذَا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يقولَ لَهُ كُنْ ، فَيَكون** ﴾[2] .

وأما إذا تعلّقت بتشريع حكم وقانون ، لفرض عمل المكلَّف به ، فالإرادة تشريعية ، ومتعلَّقُها هو التشريع ، وأمّا امتثال المكلف فهو من غايات التشريع ، ربما يقع ويترتب عليه ، وربما ينفك عنه .

والقرائن تدلّ على أنّ المراد هنا هو الأول من الإرادتين ، بمعنى أنّ إرادته سبحانه ، تعلّقت على إذهاب الرجس عن أهل البيت وتطهيرهم من كل شيء يتنفر منه ، على غرار تعلق إرادته بإيجاد الأشياء في صحيفة الوجود .

والذي يدلّ على ذلك أُمور :

١ ـ إنّ الإرادة التشريعية لا تختص بطائفة دون طائفة ، بل هي تعمّ المكلّفين عامة ، يقول سبحانه ، بعد أمره بالوضوء والتيمم عند فقدان الماء : ﴿ **وَلَكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ** ﴾[3] .

---

(١) قد أفاض الشيخ الأستاذ الكلام في هذه المواضيع في موسوعته التفسيريّة ، مفاهيم القرآن ، ج ٥ ، ص ٢١٥ ـ ٣٢٢ .

(٢) سورة يس : الآية ٨٢ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٦ .

ولكنـه سبحانـه خصَّص إرادته في الآيـة المبحوث عنهـا ، بجمع خـاص ، تجمعهم كلمة أهل البيت ، وَخَصَّهم بـالخطاب وقـال : ﴿ عَنْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ ، أي لا غـيركم ، فتخصيص الإرادة بجمع خـاص على الـوجه المـذكور ، يمنـع من تفسيرها بالتشريعية .

٢ ـ إنّ العناية البـارزة في الآية المبـاركة ، أقـوى شاهـدعلى أنّ المقصـود هو التكوينية ،لوضوح أنّ تعلّق الإرادة التشريعية لا يحتاج إلى العنايات التالية :

أ ـ إبتدأ سبحانه كلامـه بلفظ الحصر ، وقال:﴿ إنَّمـا ﴾ ، ولا معنى للحصر إذا كانت تشريعية ، لعمومها لِكُلِّ مكلَّف .

ب ـ عـيّن تعـالى مُتَعَلّق إرادتـه بصـورة الإختصــاص ، فقـال : ﴿ أَهْــلَ الْبَيْتِ ﴾ ، وهو منصوب على الإختصاص[1] . أي أُخُصّكم أهل البيت .

ج ـ قـد بيّن متعلق إرادتـه بالتـأكيد ، وقـال بعد قـوله : ﴿ لِيُـذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ ﴾ ، ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ .

د ـ قد أكّده بالإتيان بمصدره بعد الفعل ، وقال : ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ، ليكون أوفى في التأكيد .

هـ ـ إنّه سبحانه قد أتى بالمصدر نكِرَة ، ليَدُلّ على الإكبار والإعجـاب ، أي تطهيراً عظيماً معجِباً .

و ـ إنّ الآية في مقام المدح والثناء ، فلو كـانت الإرادة تشريعية ، لما ناسب الثناء والمدح .

وعـلى الجملة : العنايـة البارزة في الآيـة ، تدلّ بـوضوح عـلى أنّ الإرادة في المقام تغاير الإرادة العامـة المتعلقة بكـلّ إنسان حـاضرٍ ، أو بادٍ . وللمحققـين من الشـيعة الإمامية كلمات وافية حول الآية تلاحظ في مواضعها[2] .

---

(١) الإختصاص من أقسام المنادى ، يقول ابن مالك :

الإخـتـصــاص كـنـداء دون يـا   كـأيّهـا الـفـتى بـإثـر ارجـونـيـا

(٢) تفسير التبيان ، للشيخ الطوسي ، (ت ٣٨٣ ـ م ٤٦٠) ، ج ٨ ، ص ٣٤٠ . ومجمع البيان ، =

فالإرادة في الآية الشريفة ، نظير الإرادة الواردة في الآيات التالية :

﴿ ونُريدُ أنْ نَمُنَّ علَى الَّذين اَسْتُضْعِفوا فِي الأرضِ ونَجْعَلَهُمْ أئمَّةً ونجعلَهُمُ الوارِثين ﴾[1] .

﴿ وَيُريدُ اللهُ أنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الكافِرينَ ﴾[2] .

﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، أُولئِكَ الَّذينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أنْ يُطَهِّرَ قُلوبَهُمْ ، لَهُمْ في الدُّنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عظيمٌ ﴾[3] .

وأمّا دلالتها على العصمة ، فتظهر إذا اطّلعنا على أنّ المراد من الرجس هو القذارة المعنوية لا المادية ، توضيح ذلك ، إنّ الرجس في اللغة هو القذر[4] ، وقد يعبّر به عن الحرام ، والفعل القبيح ، والعذاب ، واللعن ، والكفر ، قال الزجاج : «الرِّجس ـ في اللغة ـ كل ما استقذر من عمل ، فبالغ الله في ذمّ أشياء وسماها رِجْساً» . وقال ابن الكلبي : « رجس من عمل الشيطان ، أي مأثم »[5] .

والمتفحص في كلمات أئمة أهل اللغة ، والآيات الواردة فيها تلك اللفظة ، يصل إلى أنّها موضوعة للقذارة التي تتنفر منها النفوس ، سواء أكانت مادية كما في قوله تعالى : ﴿ إلاّ أنْ يكونَ مَيْتَةً أو دَماً مَسْفوحاً أوْ لَحْمَ خِنْزيرٍ ، فإنَّهُ رِجْسٌ ﴾[6] ، أو معنوية كما في الكافر وعابد الوثن ، وصنمه ، قال سبحانه : ﴿ فَاجْتَنِبوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثانِ ﴾[7] .

= للشيخ الطبرسي ، (ت ٤٧١ ـ م ٥٤٨) ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ . ورياض السالكين ، للسيد علي المدني (م ١١١٨) ، الروضة ٤٧ ، ص ٤٩٧ .

(١) سورة القصص : الآية ٥ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٧ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٤١ .

(٤) مقاييس اللغة ، ج ٢ ، ص ٤٩٠ ، ولسان العرب ج ٦ ص ٩٤ .

(٥) لسان العرب ، ج ٦ ، ص ٩٤ .

(٦) سورة الأنعام : الآية ١٤٥ .

(٧) سورة الحج : الآية ٣٠ .

وقال سبحانه : ﴿ كذٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ علَى الّذينَ لا يُؤْمِنونَ ﴾[1] .

فلو وصف العمل القبيح بالرجس ، فلأنّه عمل قذر ، تتنفر منه الطباع السليمة .

وعلى ضوء هذا ، فالمراد من الرِّجس في الآية ، كلّ عمل قبيح عرفاً أو شرعاً ، لا تقبله الطباع ، ولذلك قال سبحانه بعد تلك اللفظة ، ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً ﴾ ، فليس المراد من التطهير ، إلّا تطهيرهم من الرجس المعنوي الذي تُعَدُّ المعاصي والمآثم من أظهر مصاديقه .

وقد ورد نظير الآية في حق السيدة مريم قال سبحانه : ﴿ إنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ واصْطَفاكِ على نِساءِ العالَمِينَ ﴾[2] .

ومن المعلوم أنّ تَعَلُّقَ الإرادة التكوينية على إذهاب كلّ رجس وقذارة ،وكلّ عمل مُنَفِّرٍ عرفاً أو شرعاً ، يجعل مَنْ تَعَلَّقَتْ بِه الإرادة ، إنساناً مثالياً ، نزيهاً عن كل عَيْب وشَيْن ، ووصمةِ عار[3] .

* * *

إلى هنا ظهر بوضوح أنّ العصمة شرطٌ للإمام بالمعنى الذي يتبناه الإمامية في مجال الإمامة ، والآيتان الأوليان تدلّان على عصمة الإمام مطلقاً ، والآية الثالثة تدلّ على عصمة أهل البيت الذين نزلت فيهم الآية وفُسِّرَتْ في غير واحدٍ من الروايات ، وهم مَنْ كان إماماً وخليفةً للرسول كعلي والحَسَنَيْن عليهما السلام ، ومن كانت طاهرةً مُطَهَّرةً كالسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام ، وإن لم تكن إماماً .

* * *

بقيت هنا أبحاث موجودة في كتب الإمامة للشيعة الإمامية ، طوينا البحث

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٥ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٤٢ .

(٣) وحول الآية أبحاث لطيفة ، فمن أراد التبسّط فليرجع إلى المصدر الذي تقدّم الإيعاز إليه .

عنها ، لعدم الحاجة إلى البحث فيها بعد انتشار هذه الكتب وذيوعها وهي عبارة عن الأبحاث التالية :

١ ـ البحث عن الآيات الواردة في حق الإمام علي عليه السلام .

٢ ـ البحث عن الفضائل والمناقب الواردة في حقّه على لسان النبي الأكرم ، ونَقَلَها أصحاب الصحاح والمسانيد .

٣ ـ نفسيات الإمام وفضائله الأخلاقية التي اعترف بها التاريخ .

٤ ـ كونه أعلم الصحابة وأوعاهم بالكتاب والسنّة ، وقد كان الخلفاء يحتكمون إليه في مواضع لا تحصى .

٥ ـ احتجاجاته على كونه أحقّ بهذا الأمر (خلافة الرسول) ممّن تسنموا منصة الخلافة .

ومن أراد التبسّط في هذه المواضع ، فعليه بالكتب المعدّة للإمامة[١] .

* * *

(١) لاحظ الشافي للسيد المرتضى (م ٤٣٦) ، وتلخيصه لتلميذه الشيخ الطوسي (م ٤٦٠) ، ونهج الحق وكشف الصدق للعلامة الحلي ، (م ٧٢٦) ، وإحقاق الحق للقاضي التستري ، (م ١٠١٩) ، ودلائل الصدق للمظفر النجفي . وغيرها من مؤلفات كبار ورسائل صغار .

البحث الرابع

الإمام المنتظر في الكتاب والسنّة

قد تعرفت على عدد الأئمة وأسمائهم ، غير أنّ إفاضة القول في خصوصياتهم ، وعلومهم وفضائلهم ، ونتائج جهودهم في مجال العلم والفقه والحديث ، ومن ربّوه وأنتجوه من الرواة الوعاة ، وما لاقوه من اضطهاد خلفاء عصرهم ، يحتاج إلى تأليف حافل .

ولأجل ذلك طوينا الصفح عن هذه المباحث ، إلاّ انّ الإعتقاد بالإمام المنتظر ، مهدي هذه الأُمّة ، لما كان أصلاً رصيناً في أبحاث الإمامة للشيعة ، وكان الإعتقاد به أمراً مشتركاً بين طوائف المسلمين ، رَجّحنا إلقاء الضوء على هذا الأصل على وجه الإجمال ، ولا طريق لإثبات وجوده ، وولادته ، وعمره ، وظهوره ، وآثاره بعد الظهور ، وأصحابه ، إلاّ السمع ، فنقول :

كلُّ من كان له إلمام بالحديث يقف على تواتر البشارة ، عن النبي وآله وأصحابه ، بظهور المهدي في آخر الزمان لإزالة الجهل والظلم والجور ، ونشر أعلام العلم ، والعَدْل وإعلاء كلمة الحق ، وإظهار الدين كلّه ولو كره المشركون ، فهو بإذن الله تعالى ينجي العالم من ذلّ العبودية لغير الله ، ويلغي الأخلاق والعادات الذميمة ، ويبطل القوانين الكافرة التي سنتها الأهواء ، ووضعتها يد بني البشر ، ويقطع أواصر التعصبات القومية والعنصرية ، والوطنية ، ويميت أسباب العداوة والبغضاء التي صارت سبباً لاختلاف الأُمّة

وافتراق الكلمة ، واشتعال نيران الفتن والمنازعات ، ويحقق الله سبحانه بظهوره ، وعده الذي وعد به المؤمنين بقوله :

١ ـ ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذين آمَنوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ كما استَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ٱرتَضىٰ لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدونَني لا يُشْرِكونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الفاسِقون ﴾[1] .

٢ ـ ﴿ وَنُريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ اسْتُضْعِفوا في الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثينَ ﴾[2] .

٣ ـ ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحونَ ﴾[3] .

ويأتي عصر ذهبي لا يبقى فيه على الأرض بيت إلّا دخلته كلمة الإسلام ، ولا تبقى قرية إلّا وينادي فيها بشهادة : « لا إله إلّا الله » ، بكرة وعشياً .

هذا ما اتّفق عليه المسلمون في الصدر الأول ، والأزمنة المتلاحقة ، ولأجل ذلك استغلّ بعض المتهوسين قضية الإمام المهدي ، فادّعوا المَهْدَوِيَّة ، ولم نَعْهَدْ أحداً رَدَّه بإنكار أصل هذه البشائر ، وإنّما ناقشوه في الخصوصيات وعدم انطباق البشائر عليه[4] .

---

(١) سورة النور : الآية ٥٥ .

(٢) سورة القصص : الآية ٥ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ١٠٥ .

(٤) وقد ألّف غير واحدٍ من أعلام السُّنة كتباً حول الإمام المهدي عليه السلام ، كالحافظ أبي نعيم الأصفهاني له كتاب : « صفة المهدي » ، والكُنجي الشافعي له : « البيان في أخبار صاحب الزمان » ، وملاّ علي المتقي له : « البرهان في علامات مهديِّ آخر الزمان » ، وعباد بن يعقوب الرواجني له : « أخبار المهدي » ، والسيوطي له : « العُرْف الوردي في أخبار المهدي » ، وابن حجر له : « القول المختصر في علامات المهدي المنتظر » ، والشيخ جمال الدين الدمشقي له : « عقد الدرر في أخبار الإمام المنتظر » ، وغيرهم قديماً وحديثاً .

ولم ير التضعيف لأخبار الإمام المهدي إلّا من ابن خلدون في مقدمته ، وقد فنّد مقاله الأُستاذ أحمد =

وقد تضافر مضمون قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلّم : « لو لم يَبْقَ من الدُّنيا إلاّ يومٌ واحد ، لَطَوّل الله ذلك اليوم ، حتى يخرج رجل من ولدي ، فيملؤها عدلاً وقسطاً ، كما ملئت جوراً وظلماً »[1] .

وقد عرفت أنّ بحث المهدي بحث نقلي لا يمتّ إلى العقل بصلة ، فعلى من يريد اعتناقه ، أو ـ والعياذ بالله ـ ردّه ورفضه ، الرجوع إلى الصحاح والمسانيد ، وكتب الحديث والتاريخ ، حتى يقف على عدد الروايات الواردة حول المهدي عليه السلام ، في مجالات مختلفة ، وها نحن نأتي في المقام بفهرس الروايات التي رواها السنّة والشيعة .

فنقـــول :

١ ـ الروايات التي تُبَشِّر بظهوره	٦٥٧ رواية .
٢ ـ الروايات التي تصفه بأنّه من أهل بيت النبي الأكرم	٣٨٩ رواية .
٣ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه من أولاد الإمام علي عليه السلام	٢١٤ رواية .
٤ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه من أولاد فاطمة عليها السلام بنت النبي	١٩٢ رواية .
٥ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه التاسع من أولاد الحسين عليه السلام	١٤٨ رواية .
٦ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه من أولاد الإمام زين العابدين عليه السلام	١٨٥ رواية .
٧ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه من أولاد الإمام الحسن العسكري عليه السلام	١٤٦ رواية .
٨ ـ الروايات التي تبيّن آباء الإمام الحسن العسكري عليه السلام	١٤٧ رواية .
٩ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه يملأ العالم قسطاً وعدلاً .	١٣٢ رواية .

= محمد صديق برسالة أسماها : « إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون » ، وأخيراً نشر شخص يُدعى أحمد المصري رسالة أسماها : « المهدي والمهدوية » ، قام ـ بزعمه ـ بردّ أحاديث المهدي ، وأنكر تلك الأحاديث الهائلة البالغة فوق حدّ التواتر ، جهلاً منه بالسُّنة والحديث .

(١) لاحظ مسند أحمد ، ج ١ ، ص ٩٩ . وج ٣ ، ص ١٧ و ٧٠ .

١٠ ـ الروايات التي تدل على أنّ للإمام المهدي غيبة طويلة . ٩١ رواية .
١١ ـ الروايات التي تدلّ على أنّه يعمّر عمراً طويلاً . ٣١٨ رواية .
١٢ ـ الروايات التي تـدلّ على أنّ الإسـلام يعمُّ العالم كلّه
بعد ظهوره ٤٧ رواية .
١٣ ـ الروايات التي تـدلّ على أنّـه الإمام الثـاني عشر من
أئمة أهل البيت ١٣٦ رواية .
١٤ ـ الروايات الواردة حول ولادته . ٢١٤ رواية .

ولو وُجد هنا خلافٌ بين أكثر السنّة ، والشيعة ، فهو الإختلاف في ولادته ، فإنّ الأكثرية من أهل السنّة يقولون بأنّـه سيولـد في آخر الـزمان ، والشيعـة بفضل هذه الروايات ، تذهب إلى أنّـه ولد في « سُرَّ مَنْ رأى » ، عام ٢٥٥ ، وغاب بأمر الله سبحانه سنة وفاة والده ، عام ٢٦٠ ، وهو يحيى حياة طبيعيـة كسائـر الناس ، غير أنّ الناس يرونه ولا يعرفونه[1] ، وسوف يظهره الله سبحانه لتحقق عدله .

ولأجـل أن يقف البـاحث عـلى نمـاذج من أحـاديث المهـدي في الصحـاح والمسـانيد ، نـذكر بعضـاً منها وهـو نـذر يسـير من الأحـاديث الكثـيرة التي رواهـا المحدّثون والحفاظ في كتبهم :

١ ـ روى الإمـام أحمد في مسنـده عن رسول الله صـلى الله عليه وآلـه قال : « لو لم يَبْقَ من الدَّهر إلاّ يوم واحد ، لبعث الله رجـلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً ، كما ملئت جوراً »[2] .

٢ ـ أخرج أبو داود ، عن عبد الله بن مسعود قال : إنّ رسول الله صـلى الله عليه وآله قال : « لا تذهب ـ أوْ لا تنقضي ـ الدنيا حتى يملكَ العربَ رجلٌ من أهل بيتي يواطيء اسمُه إسمي »[3] .

---

(١) وأمّا ما يلهج به بعض النواصب الأعداء ، من أنّ الشيعة تذهب إلى غيبته في السرداب في سامـراء ، فهـو من الأكاذيب التي ليس لهـا أصل أبـداً ، لا في الكتب ، ولا في صدور العـوام ، وإنّما افتعلوه إزدراءً بالعقيدة .

(٢) مسند أحمد ، ج ١ ، ص ٩٩ ، وج ٣ ، ص ١٧ و٧٠ .

(٣) جامع الأصول ، ج ١١ ، ص ٤٨ ، الرقم ٧٨١٠ .

٣ ـ أخرج أبو داود عن أمّ سلمة رضي الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : المهديُّ من عترتي من وُلْد فاطمة »[١] .

٤ ـ أخرج الترمذي عن إبن مسعود أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يلي رجلٌ من أهل بيتي يواطيء اسمه إسمي » . قال : وقال أبو هريرة : « لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم ، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي »[٢] .

٥ ـ روى ابن ماجة في سننه عن أبي أُمامة الباهلي ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله فكان أكثر خطبته حديثا حدثناه عن الدّجال ، وحذَّرَناه ، فكان من قوله : إنّه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم ، أعظم من فتنة الدجال . . . » إلى أن قال : « وإمامُهم رجل صالح ، فبينما إمامهم قدتقدم ليصلي بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم ، فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القهقرى ، ليقدم عيسى يصلي بالناس ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له : تقدّم فصلِّ ، فإنّها لك أُقيمت . فيصلي بهم إمامهم . . » (الحديث)[٣] .

وسيجيء ذكر ما رواه البخاري ومسلم فيما يأتي .

قال بعض المحققين المعاصرين من أهل السنّة : « لا أرى لزاماً علينا نحن المسلمين أن نربط ديننا بهما (صحيحي مسلم والبُخاري) ، فلنفرض أنّهما لم يكونا ، فهل تشل حركتنا وتتوقف دورتنا ؟ . لا ، فالأمّة بخيرٍ والحمدلله ، والذين جاؤوا بعد البخاري ومسلم استدركوا عليهما ، واستكملوا جهدهما ، ووزنوا عملهما ، وكشفوا بعض الخلاف في صحيحهما ، وما زال المحدّثون في تقدم علمي ، وبحث وتحقيق ، ودراسة وجمع ، ومقارنة وتمحيص ، حتى يغمر الضوء كل مجهول ، ويظهر كلُّ خفي .

(١) المصدر السابق ، ص ٤٩ ، الرقم ٧٨١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٨ ، الرقم ٧٨١٠ .

(٣) سنن إبن ماجه ، ج ٢ ، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ، ص ٥١٢ ـ ٥١٥ ، وكنز العمال ، ج ١٤ ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٦ ، الرقم ٣٨٧٤٢ .

ولماذا نَرُدّ حديثنا لمجرد أنْ قيل في بعض رواته أنّه لين ، أو ضعيف ، أو منقطع ، أو مرسل ، أو . . . ؟ .

نعم ، هذه علل ، تثير الشك والتساؤل ، وتدفع إلى زيادة البحث والتعمّق ، ولكن ـ كما أعتقد ـ إنّ بعض علل الحديث لا تلزم بالرد لهذا الحديث ، فكثيراً ما نجد في بعض الطرق ضعفاً ، وفي بعضها قوّةً ، فهو صحيح من طريق ، حسن أو ضعيف من أخرى ، ومعنى هذا أنّ الراوي الذي حكم عليه مثلاً بأنّه ينسى ، تَبَيَّنَ أنّه في هذه الواقعة لم ينس ، فجاءت روايته مؤيّدة بما جاء عن غيره .

وأحاديث المهدي ـ في نظري ـ من هذا النوع ، ولو بعضها . رغم أنّ بعض المسلمين ـ كابن خلدون ـ قد بالغ وضعفّها كلّها ، وردّها وحكم عليها حكماً قاسياً ، واتّهم كل هؤلاء الرواة ومن رووا عنهم بما لا يليق أنْ يُظَنَّ فيهم .

إنّ المشكلة ليست مشكلة حديث أو حديثين ، أو راوٍ أو راويين ، إنّها مجموعة من الأحاديث والآثار تبلغ الثمانين تقريباً ، اجتمع على تناقلها مئات الرواة ، وأكثر من صاحب كتابٍ صحيح .

فلماذا نردّ كلّ هذه الكمية ؟ أكلّها فاسدة ؟ . لو صحّ هذا الحكم لانهار الدين ـ والعياذ بالله ـ نتيجة تطرّق الشك والظن الفاسد إلى ما عداها من سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله .

ثم إنّي لا أجد خلافاً حول ظهور المهدي ، أو حول حاجة العالم إليه ، وإنّما الخلاف حول من هو ، حسني ، أو حسيني ؟ سيكون في آخر الزمان ، أو موجود الآن ، خفي وسيظهر ؟ ظهر أو سيظهر ؟ . ولا عبرة بالمدّعين الكاذبين ، فليس لهم اعتبار .

ثم إنّي لم أجد مناقشة موضوعية في متن الأحاديث ، والذي أجده إنّما هو مناقشة وخلاف حول السند ، وإتّصاله أو عدم اتّصاله ، ودرجة رواته ، ومن خرّجوه ، ومن قالوا فيه .

وإذا نظرنا إلى ظهور المهدي ، نظرة مجرّدة ، فإنّنا لا نجد حرجاً من قبولها وتصديقها ، أو على الأقل عدم رفضها .

فإذا ما تأيّد ذلك بالأدلّة الكثيرة ، والأحاديث المتعددة ، ورواتها مسلمون مؤتمنون ، والكتب التي نقلتها إلينا كتب قيمة ، والترمذي من رجال التخريج والحكم ، بالإضافة إلى أنّ أحاديث المهدي لها ما يصحّ أنْ يكون سنداً لها في البخاري ومسلم ، كحديث جابر في مسلم الذي فيه : « فيقول أميرهم (أي لعيسى) تعال صل بنا »[1] وحديث أبي هريرة في البخاري ، وفيه : « كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم »[2] ، فلا مانع من أن يكون هذا الأمير ، وهذا الإمام هو المهدي .

يضاف إلى هذا أنّ كثيراً من السلف رضي الله عنهم ، لم يعارضوا هذا القول ، بل جاءت شروحهم وتقريراتهم موافقة لإثبات هذه العقيدة عند المسلمين »[3] .

* * *

(١) صحيح مسلم ، ج ١ ، باب نزول عيسى ، ص ٩٥ . وفيه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا تزال طائفة من أُمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى ، فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول : لا ، إنّ بعضكم على بعض أُمراء ، تكرمة الله هذه الأُمّة .

ولاحظ كنز العمال ، ج ١٤ ، ص ٣٣٤ ، الرقم ٣٨٨٤٦ .

(٢) صحيح البخاري ، ج ٤ ، باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام ، ص ١٦٨ . وصحيح مسلم ، ج ١ ، باب نزول عيسى ، ص ٩٤ ، وكنز العمال ، ج ١٤ ، ص ٣٣٤ ، الرقم ٣٨٨٤٥ .

(٣) بين يدي الساعة للدكتور عبد الباقي ، ص ١٢٣ ـ ١٢٥ .

أسئلة حول المهدي المنتظر عليه السلام

١ ـ كيف يكون إماماً وهو غائب ؟
٢ ـ لماذا غاب المهدي عليه السلام ؟
٣ ـ الإمام المهدي وطول عمره .
٤ ـ علائم ظهوره ، ما هي ؟ .



أسئلة مهمة حول المهدي عجل الله تعالى فرجه

إنّ القول بأنّ الإمام المهدي لما يزال حي يرزق منذ ولادته عام ٢٥٥ هجرية إلى الآن ، وأنّه غائب سوف يظهر بأمر من الله سبحانه ، أثار أسئلة حول حياته وإمامته ، نذكر رؤوسها .

١ ـ كيف يكون إماماً وهو غائب ، وما الفائدة المترقبة منه في غيبته ؟ .

٢ ـ لماذا غاب ؟ .

٣ ـ كيف يمكن أن يعيش إنسان هذه المدة الطويلة ؟ .

٤ ـ ما هي أشراط وعلائم ظهوره ؟ .

هذه أسئلة أُثيرت حول الإمام المهدي منذ أن غاب ، وكلّما طالت غيبته اشتدّ التركيز عليها ، وقد قام المحققون من علماء الإمامية بالإجابة عليها في مؤلّفات مستقلة لا مجال لنقل معشار ما جاء فيها ، غير أنّ الإحالة لما كانت عن المحذور غير خالية ، نبحث عنها على وجه الإجمال ،ونحيل من أراد التبسّط إلى المصادر المؤلّفة في هذا المجال .

* * *

السؤال الأول

كيف يكون إماماً وهو غائب ؟ وما فائدته ؟

إنّ القيادة والهداية والقيام بوظائف الإمامة ، هو الغاية من تنصيب الإمام ، أو اختياره ، وهو يتوقف على كونه ظاهراً بين أبناء الأُمّة ، مشاهداً لهم ، فكيف يكون إماماً قائداً ، وهو غائب عنهم ؟! .

والجواب : على وجهين نقضاً وحلاً .

أمّا النقض ، فإنّ التركيز على هذا السؤال يعرب عن عدم التعرّف على أولياء الله ، وأنّهم بين ظاهرٍ قائم بالأُمور ومُختَفٍ قائم بها من دون أن يعرفه الناس .

إنّ كتاب الله العزيز يعرّفنا على وجود نوعين من الأئمة والأولياء والقادة للأُمّة ، وليٌ غائب مستور ، لا يعرفه حتى نبي زمانه ، كما يخبر سبحانه عن مصاحب موسى عليه السلام بقوله : ﴿ **فَوَجَدا عَبْداً من عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً * قالَ لَهُ موسىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ علىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشْداً** ﴾ الآيات [1] .

ووليٌ ظاهر باسط اليد ، تعرفه الأُمّة وتقتدي به .

فالقرآن إذن يدلّ على أنّ الولي ربما يكون غائباً، ولكنه مع ذلك لا يعيش في

---

(١) سورة الكهف : الآيتان ٦٥ و٦٦ .

غفلة عن أُمّته ، بل يتصرف في مصالحها ويرعى شؤونها ، من دون أن يعرفه أبناء الأمّة .

فعلى ضوء الكتاب الكريم ، يصحّ لنا أن نقول بأنّ الولي إما ولي حاضر مشاهد ، أوْ غائب محجوب .

وإلى ذلك يشير الإمام علي بن أبي طالب في كلامه لكميل بن زياد النخعيّ ، يقول كميل : « أَخَذَ بيدي أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، فأخرجني إلى الجَبّان ، فلما أصحر ، تَنَفَّس الصعداء ، وكان مما قاله : « اللّهم بلى ، لا تخلو الأرضُ من قائمٍ لله بحُجَّةٍ ، إمّا ظاهراً مشهوراً ، أو خائفاً مغموراً لِئلاّ تَبْطُلَ حُجَجُ الله وبَيِّناتُه »[1] .

وليست غَيْبة الإمام المهدي ، بِدْعاً في تاريخ الأولياء ، فهذا موسى بن عمران ، قد غاب عن قومه قرابة أربعين يوماً ، وكان نبيّاً وليّاً ، يقول سبحانه : **﴿ وواعَدْنا موسى ثلاثينَ لَيْلَةً وأَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ ميقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعينَ لَيْلَةً ، وقالَ موسى لأخيه هارونَ اخْلُفْني في قَوْمي وأَصْلِحْ ولاَ تَتَّبِعْ سَبيلَ المُفْسِدينَ ﴾**[2] .

وهذا يونس كان من أنبياء الله سبحانه ، ومع ذلك فقد غاب في الظلمات كما يقول سبحانه : **﴿ وذا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنادىٰ في الظُّلُماتِ أَنْ لا إلَهَ إلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمينَ * فاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ ، وَكذلكَ نُنْجي المُؤْمِنينَ ﴾**[3] .

أو لم يكن موسى ، ويونس نبيَّيْن من أنبياء الله سبحانه ؟ وما فائدة نبي يغيب عن الأبصار ، ويعيش بعيداً عن قومه ؟ .

فالجواب في هذا المقام ، هو الجواب في الإمام المهدي عليه السلام ، وسيوافيك ما يفيدك ، من الإنتفاع بوجود الإمام الغائب في زمان غيبته في جواب السؤال التالي .

---

(١) نهج البلاغة بتعليقات عبده ، ج ٤ ، ص ٣٧ ، قصار الحكم ، الرقم ١٤٧ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٤٢ .

(٣) سورة الأنبياء : الآيتان ٨٧ ـ ٨٨ .

أمّا الحلّ فمن وجوه :

الأوّل ـ إنّ عدم علمنا بفائدة وجوده في زمان غيبته ، لا يدلّ على عدم كونه مفيداً في زمن غَيْبَته ، فالسائلُ جَعَلَ عدم العلم ، طريقاً إلى العلم بالعدم !! وكم لهذا السؤال من نظائر في التشريع الإسلامي ، فيقيم البسطاء عدم العلم بالفائدة ، مقام العلم بعدمها ، وهذا من أعظم الجهل في تحليل المسائل العلمية ، ولا شك أنّ عقول البشر لا تصل إلى كثير من الأمور المهمّة في عالم التكوين والتشريع ، بل لا يفهم مصلحة كثير من سننه ، وإن كان فعله سبحانه منزّهاً عن العبث ، بعيداً عن اللغو .

وعلى ذلك فيجب علينا التسليم أمام التشريع إذا وصل إلينا بصورة صحيحة ، كما عرفت من تواتر الروايات على غَيْبته .

الثاني : إنّ الغَيْبَة لا تلازم عدم التصرف في الأُمور ، وعدم الإستفادة من وجوده ، فهذا مصاحب موسى كان ولياً ، لجأ إليه ، أكبر أنبياء الله في عصره ، فقد خرق السفينة التي يمتلكها المستضعفون ، ليصونها عن غصب الملك ، ولم يَعْلَم أصحاب السفينة بتصرفه ، وإلاّ لَصَدُّوه عن الخرق ، جهلاً منهم بغاية عمله . كما أنّه بنى الجدار ، ليصون كنز اليتيمَيْن ، فأي مانع ، حينئذٍ من أن يكون للإمام الغائب في كل يوم وليلة تصرّفاً من هذا النمط من التصرفات . ويؤيد ذلك ما دلّت عليه الروايات من أنّه يَحْضُرُ الموسمَ في أشهر الحج ، ويَحُجُّ ويصاحِبُ الناسَ ، ويحضُرُ المجالس ، كما دلّت على أنّه يغيث المضطرين ، ويعود المرضى ، وربما يتكفل ـ بنفسه الشريفة ـ قضاء حوائجهم ، وإن كان الناس لا يعرفونه .

الثالث : المُسَلّم هو عدم إمكان وصول عموم الناس إليه في غيبته ، وأمّا عدم وصول الخواص إليه ، فليس بأمر مسلّم ، بل الذي دلّت عليه الروايات خلافه ، فالصلحاء من الأُمّة ، الذين يُسْتَدَرُّ بهم الغمام ، لهم التشرف بلقائه ، والإستفادة من نور وجوده ، وبالتالي ، تستفيد الأُمّة بواسطتهم .

الرابع : لا يجب على الإمام أن يتولّى التصرّف في الأُمور الظاهرية بنفسه ،

بل له تـولِيَةُ غيـرِهِ على التصرف في الأُمـور كما فعـل الإمام المهـدي ، أرواحنا لـه الفداء ، في غَيْبَته . ففي الغَيْبَة الصغرى ، كان له وكلاء أربعة ، يقومون بحوائج الناس ، وكانت الصلة بينـه وبين النـاس مستمّرة بهم . وفي الغَيْبَـة الكبرى نصب الفقهاء والعلماء العدول العالمين بالأحكام ، للقضاء وإجراء السيـاسات ، وإقـامة الحدود ، وجَعَلَهم حجةً على الناس ، فهم يقومون في عصر الغَيْبَـة بصيانـة الشرع عن التحريف ، وبيان الأحكـام ، ودفع الشبهـات ، وبكل مـا يتوقف عليـه نَظْمُ أُمور الناس[1] .

وإلى هـذه الأجوبـة أشار الإمـام المهدي عليـه السلام في آخـر توقيـع له إلى بعض نوّابه ، بقوله : « وأمّا وجهُ الإنتفاع بي في غَيْبَتِي ، فكالإنتفـاع بالشَّمْسِ إذَا غَيّبَها عن الأَبْصارِ ، السحابُ »[2] .

* * *

(١) المراد من الغيبة الصغرى ، غيبته صلوات الله عليه ، منذ وفاة والده عام ٢٦٠ إلى عام ٣٢٩ ، وقـد كانت الصلة بينه وبين الناس مستمرة بواسطة وكلائِه الأربعة : الشيـخ أبي عمـرو عثمان بن سعيد العمري ، وولده الشيخ أبي جعفر محمـد بن عثمان ، والشيـخ أبي القاسم الحسـين بن روح من بني نَوْبخت ، والشيخ أبي الحسن علي بن محمد السَّمُري .

والمراد من الغيبة الكبرى ، غيبته من تلك السنة إلى زماننا هذا ، انقـطعت فيها النيـابة الخـاصة عن طريق أشخاص معينين ، وحلّ محلّها النيابة العامة بواسـطة الفقهاء والعلماء العـدول ، كما جـاء في تـوقيعه الشريف : **« وأمّـا الحوادث الواقعة، فـارجعـوا فيهـا إلى رواة حـديثنـا ، فـإنّهم حجّتي عليكم ، وأنا حجة الله عليهم »** . (كمال الدين ، الباب ٤٥ ، ص ٤٨٤) .

(٢) كمال الدين ، للصدوق ، الباب ٤٥ ، الحديث ٤ ، ص ٤٨٥ . وقد ذكر العلامـة المجلسي في وجه تشبيهه بالشمس إذا سترها السحاب ، وجوهاً ، راجعها في بحـار الأنوار ، ج ٥٢ ، البـاب ٢٠ ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

السـؤال الثاني

لماذا غاب المهدي عليه السلام ؟

إنّ ظهور الإمام بين الناس ، يترتّب عليه من الفـائدة مـا لا يترتب عليـه في زمان الغَيْبَة ، فلماذا غاب عن الناس ، حتى حرموا من الإستفادة من وجوده ، ومـا هي المصلحة التي أُخفته عن أعين الناس ؟ .

الجـــواب

إنّ هذا السؤال يجاب عليه بالنقض والحل :

أمّا النقض ، فبما ذكرناه في الإجابة عن السؤال الأول ، فـإنّ قصور عقـولنا عن إدراك أسباب غَيْبَته ، لا يجرنا إلى إنكار المتضافرات من الروايات ، فالإعتراف بقصور أفهامنا أُولى من ردّ الروايات المتواترة ، بل هو المتعيّن .

وأمّـا الحلّ ، فـإنّ أسبـاب غيبتـه ، واضحـة لمن أَمْعَنَ فيـما ورد حـولها من الروايات ، فإنّ الإمام المهدي عليه السلام هو آخر الأئمة الإثني عشر الـذين وعد بهم الرسول ، وأناط عزة الإسلام بهم ، ومن المعلوم أنّ الحكومـات الإسلاميـة لم تُقَـدِّرْهُم ، بـل كـانت لهم بـالمرصـاد ، تلقيهم في السجـون ، وتـريق دمــاءهم الطاهرة ، بالسيف أو السمّ ، فلو كان ظاهراً ، لأقدموا على قتله ، إطفاء لنـوره ، فلأجل ذلك اقتضت المصلحة أن يكون مستوراً عن أعين الناس ، يـراهم ويرونـه ولكن لا يعرفونه ، إلى أن تقتضي مشيئة الله سبحانه ظهوره ، بعد حصول استعدادٍ

خاص في العالم لقبوله ، والإنضـواء تحت لواء طـاعته ،حتى يحقق الله تعـالى به مـا وعد به الأمم جمعاء من توريث الأرض للمستضعفين .

وقـد ورد في بعض الـروايـات إشـارة إلى هـذه النكتـة ،روى زرارة قـال : سمعت أبا جعفر (الباقر عليه السلام) ، يقول : إنّ للقائم غَيْبـة قبل أن يقـوم ، قال : قلت . ولِمَ ؟ . قال : يخاف . قال زرارة : يعني القتل .

وفي رواية أخرى : يخاف على نفسه الذبح[1] .

وسيوافيك ما يفيدك عند الكلام عن علائم ظهوره .

* * *

(١) لاحظ كمال الدين ، الباب ٤٤ ، الحديث ٨و ٩ و١٠ ، ص ٢٨١ .

السـؤال الثالث

الإمام المهدي وطول عمره

إنّ من الأسئلة المطروحة حول الإمام المهدي ، طول عمـره في فترة غيبتـه ، فـإنّه ولـد عام ٢٥٥ ، فيكـون عمره إلى الأعصـار الحـاضرة أكـثر من ألف ومـائـة وخمسين عاماً ، فهل يمكن في منطق العلم أن يعيش إنسان هذا العمر الطويل ؟ .

والجـــواب

من وجهين ، نقضاً وحلاً .

أمّا النقض ، فقد دلّ الذكر الحكيم على أن شيخ الأنبياء عاش قـرابة ألف سنة ، قال تعالى : ﴿ **فَلَبِثَ فيهم أَلْفَ سَنَةٍ إلَّا خَمْسينَ عاماً** ﴾[١] .

وقد تضمنت التوراة أسماء جماعة كثيرة من المعمـرين ، وذكرت أحـوالهم في سِفْر التكوين[٢] .

وقدقام المسلمون بتأليف كتب حول المعمرين ، ككتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني ، كما ذكر الصدوق أسماء عدّة منهم في كتاب كمال الدين[٣] ، والعلامة

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ١٤ .

(٢) التوراة ، سفر التكوين ، الإصحاح الخامس ، الجملة ٥ ، وذكر هنـاك أعمار آدم ، وشيث ونـوح ، وغيرهم .

(٣) كمال الدين ، ص ٥٥٥ .

الكراجكي في رسالته الخاصة ، باسم « البرهان على صحة طول عمر الإمام صاحب الزمان »[1] ، والعلامة المجلسي في البحار[2] ، وغيرهم .

وأمّا الحلّ ، فإنّ السؤال عن إمكان طول العمر ، يعرب عن عدم التعرّف على سعة قدرة الله سبحانه : ﴿ وَما قَدَروا الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾[3] ، فإنّه إذا كانت حياته وغَيْبَته وسائر شؤونه ، برعاية الله سبحانه ، فأي مشكلة في أن يَمُدّ الله سبحانه في عمره ما شاء ، ويدفع عنه عوادي المرض ويرزقه عيش الهناء .

وبعبارة أخرى ، إنّ الحياة الطويلة ، إمّا ممكنة في حدّ ذاتها أو ممتنعة ، والثاني لم يقل به أحد ، فتعين الأول ، فلا مانع من أن يقوم سبحانه بمدّ عمر وليّه ، لتحقيق غرض من أغراض التشريع .

أضف إلى ذلك ما ثبت في علم الحياة ، من إمكان طول عمر الإنسان إذا كان مراعياً لقواعد حفظ الصحة ، وأنّ موت الإنسان في فترة متدنية ، ليس لقصور الإقتضاء ، بل لعوارض تمنع عن استمرار الحياة ، ولو أمكن تحصين الإنسان منها بالأدوية والمعالجات الخاصة لطال عمره ما شاء .

وهناك كلمات ضافية من مَهَرة علم الطب في إمكان إطالة العمر ، وتمديد حياة البشر ، نشرت في الكتب والمجلات العلمية المختلفة[4] .

وبالجملة ، اتّفقت كلمة الأطباء على أنّ رعاية أُصول حفظ الصحة ، توجب طول العمر ، فكلما كثرت العناية برعاية تلك الأُصول ، طال العمر ، ولأجل ذلك ، نرى أنّ الوفيات في هذا الزمان ، في بعض الممالك ، أقلّ من السابق ، والمعمّرين فيها أكثر من ذي قبل ، وما هو إلا لرعاية أُصول الصحة ، ومن هنا أُسّست شركات تضمن حياة الإنسان إلى أمد معلوم تحت مقررات خاصة

---

(١) البرهان على طول عمر الإمام صاحب الزمان ، للكراجكي ، ملحق بـ « كنز الفوائد » ، له أيضاً ، الجزء الثاني . لاحظ في ذكر المعمرين ص ١١٤ ـ ١٥٥ ، ط دار الأضواء ، بيروت ـ ١٤٠٥ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ٥١ ، الباب ١٤ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٩٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٩١ .

(٤) لاحظ مجلة المقتطف ، الجزء الثالث من السنة التاسعة والخمسين .

وحـدود معينة ، جـارية عـلى قوانـين حفظ الصحة ، فلو فـرض في حيـاة شخص إجتماع موجبات الصحة من كل وجه ، طال عمره إلى ما شاء الله .

وإذا قرأت ما تُدَوِّنُه أقـلام الأطباء في هـذا المجال ، يتّضـح لك معنى قـوله سبحانه : ﴿ فَلَوْلا أنَّهُ كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ * لَلَبِثَ في بَطْنِهِ إلىٰ يَوْمِ يُبْعَثونَ ﴾[1] .

فإذا كان عيش الإنسان في بطون الحيتـان ، في أعماق المحيـطات ، ممكناً إلى يـوم البعث ، فكيف لا يعيش إنسان ، عـلى اليابسـة ، في أجواء طبيعيـة ، تحت رعاية الله وعنايته ، إلى ما شاء ؟ .

* * *

(١) سورة الصافات : الآيتان ١٤٣ و ١٤٤ .

السـؤال الرابع

علائم ظهوره ، ما هي ؟

إذا كان للإمـام الغائب ، ظهـوراً بعد غيبـة طويلة ، فـلا بدّ من أن يكـون لظهوره علائم وأشراط ، تخبر عن ظهوره ، فما هي هذه العلائم ؟ .

الجـــواب

إنّ ما جاء في كتب الأحاديث من الحوادث والفتن الواقعة في آخر الزمان على قسمين :

قسم هو من أشراط الساعة وعلامات دنو القيامة .

وقسم هو ما يقع قبل ظهور المهدي المنتظر .

وربمـا وقع الخلط بينهـما في الكتب ، ونحن نذكـر القسم الثاني منهـما ، وهو عبارة عن أمور عدّة ، منها :

١ ـ النداء في السماء .

٢ ـ الخسوف والكسوف في غير مواقعهما .

٣ ـ الشقاق والنفاق في المجتمع .

٤ ـ ذيوع الجور والظلم والهرج والمرج في الأُمّة .

٥ ـ ابتلاء الإنسان بالموت الأحمر والأبيض .

٦ ـ قتل النفس الزكية .

٧ ـ خروج الدجال .

٨ ـ خروج السفياني .

وغير ذلك مما جاء في الأحاديث الإسلامية[١] .

هذه هي علامات ظهوره ، ولكن هناك أموراً تمهّد لظهوره ، وتسهّل تحقيق أهدافه نشير إلى أبرزها :

١ ـ الإستعداد العالمي : والمراد منه أنّ المجتمع الإنساني ـ بسبب شيوع الفساد ـ يصل إلى حدّ ، يقنط معه من تحقق الإصلاح بيد البشر ، وعن طريق المنظمات العالمية التي تحمل عناوين مختلفة ، وأنّ ضغط الظلم والجور على الإنسان يحمله على أن يُذْعن ويُقِرّ بأنّ الإصلاح لا يتحقق إلاّ بظهور إعجاز إلهي ، وحضور قوة غيبية ، تدمر كل تلك التكتلات البشرية الفاسدة ، التي قَيَّدَتْ بأسلاكها أعناقَ البشر .

٢ ـ تكامل العُقُول : إنّ الحكومة العالمية للإمام المهدي عليه السلام لا تتحقق بالحروب والنيران والتدمير الشامل للأعداء ، وإنّما تتحقق برغبة الناس إليها ، وتأييدهم لها ، لتكامل عقولهم ومعرفتهم .

يقول الإمام الباقر عليه السلام في حديث له يرشد فيه إلى أنّه إذا كان ذلك الظرف ، تجتمع عقول البشر وتكتمل أحلامهم : « إذا قام قائمُنا ، وَضَعَ الله يده على رؤوس العباد ، فيجمع بها عقولهم ، تكتمل به أحلامهم »[٢] .

فقوله عليه السلام : يجمع بها عقولهم ، بمعنى أنّ التكامل الإجتماعي يبلغ

---

(١) لاحظ في الوقوف على هذه العلائم ، بحار الأنوار ، ج ٥٢ ، الباب ٢٥ ، ص ١٨١ ـ ٣٠٨ . كتاب المهدي ، للسيد صدر الدين الصدر (م ١٣٧٣) . ومنتخب الأثر، ص ٤٢٤ ـ ٤٦٢ .

(٢) منتخب الأثر ، ص ٤٨٣ .

بالبشر إلى الحدّ الذي يَقْبَلُ فيه تلك الموهبة الإلهية ، ولن يترصد للثورة على الإمام والإنقلاب عليه ، وقتله أو سجنه .

٣ ـ **تكامل الصناعات** : إنّ الحكومة العالمية الموحّدة لا تتحقق إلّا بتكامل الصناعات البشرية ، بحيث يسمع العالم كلّه صوته ونداءه ، وتعاليمه وقوانينه في يومٍ واحدٍ ، وزمنٍ واحدٍ .

قال الإمام الصادق عليه السلام : « إنّ المؤمنَ في زمان القائم ، وهو بالمشرق ، يرى أخاه الذي في المغرب ، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي بالمشرق »[١] .

٤ ـ **الجيش الثوري العالمي** ، إنّ حكومة الإمام المهدي عليه السلام ، وإن كانت قائمة على تكامل العقول ، ولكن الحكومة لا تستغني عن جيش فدائي ثائر وفعال ، يُمَهِّد الطريق للإمام عليه السلام ، ويواكبه بعد الظهور إلى تحقق أهدافه وغاياته المتوخّاة .

إلى هنا تمّ البحث عن الإمامة ، بالصورة التي تلائم العصر ، وقد ركزنا على أهمّ الموضوعات ، وتركنا البحث عن غيرها إلى الكتب المُعَدَّة لها . ويقع البحث فيما يلي في المعاد ، وحشر الإنسان في النشأة الأخرى ، وهو الأصل الأصيل في الشرائع السماوية[٢] .

* * *

(١) منتخب الأثر ، ص ٤٨٣ .

(٢) ومن حسن الختام ، فراغنا من تدوين هذه المباحث ليلة الجمعة ، الخامس عشر من شهر رمضان المبارك ، عشية ولادة الإمام الطاهر الحسن بن علي بن أبي طالب ، أبي محمد المجتبى ، من شهور عام ١٣٠٩ للهجرة النبوية ، أسأله تعالى إدامة توفيقه لإخراج جميع ما تبقّى من المباحث التي تدور حول معاد الإنسان .

الفصـــل العاشـــر

المعـــــاد

* مباحـث المعاد

١ ـ المعاد في الملل والشرائع السابقة .

٢ ـ أدلة وجوب المعاد وضرورته .

٣ ـ بواعث إنكار المعاد وشبهات المنكرين .

٤ ـ أدلة العقل والنقل على تجرّد الروح .

٥ ـ نماذج من إحياء الموتى في الشرائع السابقة .

٦ ـ الموت نافذة إلى حياة جديدة .

٧ ـ الحياة البرزخية وأدلتها في الكتاب .

٨ ـ أشراط الساعة .

٩ ـ مشاهد البعث والقيامة .

١٠ ـ المعاد الجسماني والروحاني .

١١ ـ الرجعة .

١٢ ـ التناســـخ .

١٣ ـ الإيمان وأحكامه .

١٤ ـ التوبة وشرائطها .

١٥ ـ الشفاعـــة .

١٦ ـ الإحباط والتكفير .

١٧ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

* أسئلة حول المعاد

الفصل العاشر

المعـــاد

البحث عن المعاد وحشر الإنسان بعد الدنيـا ، إجابـة عن أحد الأسئلة التي طالما كان الإنسان المفكّر يواجهها . فإنّه مذ فتح عينيه على الحياة ، يسأل نفسه عن أُمور :

١ ـ ما هو مبدأ العالم والإنسان ؟ .

٢ ـ ما هو الهدف من وجود الإنسان ؟ .

٣ ـ إلى أين المصير بعد الموت ؟ .

فالبحث عن الصانع ، إجابـة عن السؤال الأول ، كما أنّ البحث عن كـونه سبحـانه حكيمـاً ، وأنّ فِعْلَه منزّهٌ عن العبث ، إجـابة عن الثـاني ، وها هـو حين البحث عن جواب السؤال الثالث ، وإجمالُه :

إنّ الموت ليس نهاية الحياة ، وإنّ الإنسان لا يفنى بمـوته ، وإنّمـا الموت جسْرٌ لينتقل الإنسان عبره من نشأةٍ إلى نشأة أخرى أكمل من الأُولى ، وإنّ الإنسان خُلِقَ للبقاء ، لا للفناء ، وإنّ النشأة الأُخروية ، منتهى السير وغاية الغايات .

وتفصيل ذلك يتمّ في ضمن المباحث التالية :

* * *

مباحث المعاد

(١)

« المعاد » في المِلل والشرائع السابقة

الإعتقاد بالمعاد عنصر أساسي في كل شريعة لها صلة بالسماء ، ويحتل في الأصالة والتأثير محلّ العمود الفقري في بدن الإنسان ، وبدونه تصبح الشرائع مسالك بشرية مادية ، لا تمت إلى الله سبحانه بصلة . فقوام الشريعة بالمبدأ والمعاد ، ولأجل ذلك لا ترى شريعة تتسم بأنّها شريعة إلهية ولو بعد تحريفها ، خالية عن الدعوة إلى الحياة الأُخروية وحشر الإنسان بعد الموت ، وإقامة الحساب والجزاء والثواب والعقاب . وسيوافيك نصوص العهدين في هذا المجال .

إنّ المحققين في التاريخ البشري يصرحون بأنّ المجتمع الإنساني لم يزل معتنقاً لهذا الأصل ، وإن لم يعلم دينه ولا كتابه . وإليك التوضيح بوجوه :

١ ـ إنّ البدو القاطنين في الصحاري والبراري ، الذي يُعَدّون نموذجاً للمجتمع البدائي المنقرض ، لهم طقوس خاصة في دفن الموتى تدلّ على اعتقادهم بعودة الأرواح إلى الأجسام المدفونة ، ومن ذلك أنّهم يضعون حجارة كبيرة على صدور موتاهم ، ويربطون أعضاءهم بحبال متينة ، لئلا يتحركوا بعد عودالروح ويخرجوا من أماكنهم[١] .

٢ ـ إنّ المصريين ، ذوو الحضارة القديمة ، كانوا يعتقدون أنّ الروح بعد

---

(١) جامع الأديان ، تأليف جان ناس ، ترجمة علي أصغر حكمت ، ص ١٧ .

خروجها من البدن ، لها علاقة به ، وسوف ترجع إليه ، ولذلك كانوا يتركون في القبور منافذ ليسهل دخول الروح إليها ، ويضعون بعض الطعام والشراب في جنب الميت . ولأجل صيانة الموتى عن أذى السباع ، قام المتمكنون منهم ببناء الأهرام العظيمة فوق قبورهم .

٣ ـ عند البراهمة تثليث تَخَيّلوه منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وأطرافه الثلاثة : بَراهما ، وفيشنو ، وسيفا . فبَراهما هو الإله الخالق ، وفيشنو الإله الحافظ ، وسيفا الإله الهادم . والتناسخ احتلّ في الديانة البَراهمية مكان الإعتقاد بالمعاد ، ويراد منه رجوع الروح بعد انحلال جسدها إلى العالم الأرضي متلبسةً بجَسَد جديد ، إنساني أو حيواني[١] . فالإعتقاد بالتناسخ صورة منسوخة من العقيدة بالمعاد ، وإرضاء لفطرة الإنسان في حب البقاء .

٤ ـ إنّ مسلك البوذية الذي أسسه بوذا ، غير خال عن عود الأرواح إلى الأبدان عوداً تناسخياً ، فإنّ لهذا المذهب ، دعائم وأسس منها : « الألم من لوازم الوجود » ، ومنها : « الرجوع إلى هذه الدنيا بسبب الإلتياث بالشهوات في حياة سابقة » ، ومنها : « الخلاص من أثر الشهوات هو الوسيلة الوحيدة للنجاة من الحياة الأرضية بعد الموت ، وتلك النجاة هي نجاة من الألم ، وسبب للوصول إلى مكانة »[٢] . .

٥ ـ وعند المجوس أيضاً فإنّ الإعتقاد ببقاء الروح بعد الموت ومُجازات الإنسان حسب أعماله ، من الأُصول الأصيلة في ديانتهم ، حتى أنّ بعض المرجفين في الكلام[٣] تَصَوَّر أنّ تعاليم التوراة والمسيح في المعاد مأخوذة من تلك الديانة ، ولكن عزب عنه أنّ المجوسية ، إن كانت شريعة سماوية ، يجب أن تشترك مع سائر الشرائع في الأُصول ، وليست وحدة الأُصول فيها ، دليلاً على أخذ المتأخر من المتقدم ، فإنّ الشريعة فيض سماوي ، أُفيض من السماء إلى الإنسان الأرضي في

---

(١) لاحظ دائرة المعارف لفريد وجدي ، ج ٢ ، ص ١٥٥ و ١٦١ .

(٢) دائرة المعارف لفريد وجدي ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ .

(٣) الكاتب الفارسي حميد نير نوري في كتابه : « مساهمة الإيرانيين في الحضارة العالمية » ، ص ٢٢٨ .

أزمنة خاصة حسب لياقته وكفاءته ، فاشتركت كل الشرائع في الأُصول واختلفت في المنهاج .

هذا بعض ما يمكن أن نلفت النظر إليه في عمومية المعاد بين الأقوام والشعوب ، وقد اختصرنا الكلام فيه ، لأنّ الأَوْلى عطف النظر إلى الكتب السماوية ، المجموعة في العهدين وما ينقله القرآن الكريم لنرى تركيز الأنبياء في القرون السالفة على المعاد ، ونقتصر فى المقام على موارد خاصة .

المعاد في العهد القديم

إنّ من العجب أن التصريح بالحياة الأُخروية في العهد العتيق قليل ، وأنّ أكثر الوعود الواردة فيها على امتثال فرائض الربّ ، عائدة إلى رجوعهم إلى الأرض المقدسة ، وأنّ فيها من النِّعَم والبركات ما لا يحصى ، ولعلّ يد التحريف حذفت ما دلّ على الحياة الأُخروية وأنّ الإنسان يرى جزاء الأعمال وامتثال الفرائض ، وارتكاب المحرمات ، في النشأة الأُخرى ، وهذا هو الذي أضفى على مذهب اليهود صبغة مادية ، قَلّ التوجه فيها إلى الأُمور المعنوية ، ومع ذلك كلّه فقد بقي فيها جمل تُصَرّح بحشر الإنسان بعد الدنيا ، وإن كانت قليلة ، منها :

- « الرَّبُّ يُميت ويُحْيي »[١] .
- « تحيا أمواتُك يومَ تقومُ الجُثَث ، إستيقظوا تَرَنَّموا يا سُكّان التُّراب »[٢] .

نعم لا ننكر أنّ في التوراة وغيرها جمل ربما تكون مشيرة إلى يوم البعث ،ولكنها ليست صريحة في ذلك .

المعاد في العهد الجديد

بالرغم من قلة التصريح بالحياة الأُخروية في العهدالعتيق ،نجدالتصريح بها

(١) صموئيل الأول : الأصحاح الثاني : الجملة ٦ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) اشعيا : الأصحاح ٢٦ : الجملة ١٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

بكل وضوح في الجديد ، في موارد كثيرة منها ما يلي :

١ ـ « فإن إبن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه ، وملائكته ، وحينئذٍ يجازي كلَّ واحدٍ حسب عمله »(١) .

٢ ـ « هكذا يكون في انقضاء العالم ، يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار ، ويطرحونهم في أتون النار هناك يكون البكاء ، وصرير الأسنان »(٢) .

٣ ـ « في ذلك اليوم جاء إليه حَدُقيون ، الذين يقولون ليس قيامة ، فسألوه * قائلين : يا معلم ، قال موسى إن مات أحدوليس له أولاد ، يتزوج أخوه بامرأته ، ويقيم نسلاً لأخيه * فكان عندنا سبعة أُخوة وتزوج الأول ومات ، وإذ لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه ، وكذلك الثاني والثالث إلى السبعة * وآخر الكل ماتت المرأة أيضاً * ففي القيامة لمن من السبعة تكون الزوجة فإنّها كانت للجميع * فأجاب يسوع ، وقال لهم : تضلّون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله * لأنّهم في القيامة ، لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء »(٣) .

وهذا يعرب عن كون المعاد عند كاتب الإنجيل روحانياً محضاً ، لا جسمانياً وروحانياً كما عليه الذكر الحكيم .

٤ ـ « وإنْ أعْثَرَتْك رِجْلُكَ، فاقطعها، خير لك أن تدخل الحياة أعرج، من أن تكون لك رجلان وتطرح في جهنم في النار التي لا تُطْفأ * حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ * وإن أعثرتك عينُك فاقلعها ، خير لك أنْ تدخل ملكوت الله أعور من أنْ تكون لك عينان وتطرح في جهنم النار * حيث دودهم لا يموت والنار لا تُطْفَأ »(٤) .

٥ ـ « وهذه مشيئة الأب الذي أرسلني ، إن كلّ ما أعطاني لا أُتْلِفُ منه شيئاً

---

(١) إنجيل متّى : الأصحاح ١٦ : الجملة ٢٧ ، ط دار الكتاب المقدس .
(٢) إنجيل متى : الأصحاح ١٣ : الجملتان ٤٩ و٥٠ . ط دار الكتاب المقدس .
(٣) إنجيل متى : الأصحاح ٢٢ : الجملتان ٢٣ ـ ٣١ ، ط دار الكتاب المقدس .
(٤) إنجيل مرقس : الأصحاح ٩ : لاحظ الجملات ٤٢ ـ ٤٩ ، ط دار الكتاب المقدس .

بـل أُقيمه في اليـوم الأخير * لأنّ هـذه هي مشيئته الـذي أرسلني إن كلّ من يـرى الإبن ويؤمِنُ به تكون له حياة أبدية وأنا أُقيمه في اليوم الأخير »[1] .

هذا ، وفي العهدين جمل أُخر تصرّح أو تشير إلى يوم القيامة ، وقـد إقتصرنا علي ما ذكرنا رَوْماً للإختصار ، والذي نلفت النظر إليه هو عدم اهتمام يهود اليوم ، والأُمّة المسيحية ، بالبعث ويوم القيـامة ومـا فيها من الحسـاب والجزاء ، وهـذا هو الذي أجرأهم على المعاصي ، والخـلاعة ، والإنحـلال من كل القيم الأخـلاقية ، أعاذنا الله من ذلك ، ولأجل عدم اهتمام البيع والكنائس باليوم المـوعود ، صـارت تلكما الأُمَّتين ، يهوديّة ومسيحية بالهوية الدولية ، لا أكثر .

القرآن والمعاد في الشرائع السماوية

قد بَيَنّ الذكر الحكيم وجودَ تلك العقيدة في الشرائـع السماويـة من لدن آدم إلى المسيـح ، ولأجل أن يقف البـاحث على نمـاذج من ذلك ، نـأتي ببعض الآيات الكريمات :

أ ـ إنّه سبـحانه ـ بعدمـا هبط آدم إلى الأرض ـ يخاطب الخليقـة بخطابـات عـامّة ، تعـرب عن أنّ الهدف من إهبـاطـه إليهـا هـو استقـرار الخليقـة في الأرض استقـراراً مؤقتاً محـدوداً ، ليعودوا بعـد ذلك إلى النشـأة الأُخـرى . وجـاءت تلك الخطابات في آيات مختلفة ، نذكر منها :

ـ ﴿ **قالَ اهْبُطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ ، وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتاعٌ إلىٰ حينٍ** ﴾[2] .

ـ ﴿ **يـا بني آدمَ إمَّا يـأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّـونَ عَلَيْكُمْ آيـاتي ، فَمَنِ اتَّقىٰ وأَصْلَحَ فلا خَوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنونَ * والَّـذينَ كَذَّبُـوا بآيـاتِنا ، واستَكْـبَروا عَنْها ، أُولٰئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فيها خالِدونَ** ﴾[3] .

---

(١) إنجيل يوحنّا : الأصحاح ٦ : الجملتان ٣٩ ـ ٤٠ ، ط دار الكتاب المقدس .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٤ .

(٣) سورة الأعراف : الآيتان ٣٥ و٣٦ .

وهذه الخطابات العامة لجميع الخلائق ، تعرب عن أنّ المعاد هو الهدف الأصيل لخلق الإنسان في الأرض ، وأنّ الله سبحانه أنزل آدم لهذه الغاية .

ب ـ نرى أنّ شيخَ الأنبياء نوحاً ، الذي جاء لهداية قومه بشريعة بسيطة ، يخاطبهم بخطابات فيها الدعوة إلى تلك العقيدة ، نذكر منها قوله :

ـ ﴿ واللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نباتاً * ثمَّ يُعيدُكُمْ فيها وَيُخْرِجُكُمْ إخراجاً ﴾[1] .

فالدعوة إلى المعاد في هاتين الآيتين صريحة ، كما أنّها في الآية التالية بالإشارة .

ـ ﴿ رَبِّ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أسأَلَكَ ما ليسَ لي بِهِ عِلْمٌ ، وإلاّ تَغفرْ لي وتَرْحَمْني أكُنْ منَ الخاسرين ﴾[2] .

ج ـ وهذا إبراهيم بطل التوحيد ، يذكر المعاد واليوم الآخر في غير واحد من كلماته ، كما يحكيه عنه الذكر الحكيم :

ـ ﴿ مَنْ آمَنَ مِنهمْ باللهِ واليَوْمِ الآخرِ ﴾[3] .

ـ ﴿ ربَّنا اغفرْ لي ولِوالِدَيَّ ولِلْمُؤْمِنينَ يَوْمَ يقومُ الحِسابُ ﴾[4] .

ـ ﴿ وَلا تُخْزِني يَوْمَ يُبْعَثونَ ﴾[5] .

ـ ﴿ وَآشكروا لهُ ، إِلَيهِ تُرْجَعونَ ﴾[6] .

وهو سلام الله عليه ، لم يكتف بذلك ، بل طلب من الله تعالى إحياءَ

---

(١) سورة نوح : الأيتان ١٧ ـ ١٨ .

(٢) سورة هود : الآية ٤٧ ، وهذا التضرع صدر منه عندما علم بغرق ابنه في الماء ، فالمراد من الخسران هو الخسران بعد الموت .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٢٦ .

(٤) سورة إبراهيم : الآية ٤١ .

(٥) سورة الشعراء : الآية ٨٧ .

(٦) سورة العنكبوت : الآية ١٧ .

الموتى ، وحكاه الذكر الحكيم[1] . وسيوافيك بيانه في المباحث الآتية .

د ـ وهـذا موسى الكليم ، خـاطبه سبحـانـه عنـد التنـديـد بـأعـمال قـومـه بخطابات ، فيها الوعد والوعيد .

ـ ﴿ سأَصْرِفُ عن آيـاتيَ الَّذينَ يَتَكَـبَّرونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ . . . ذٰلِـكَ بأَنَّهمْ كذَّبوا بآياتِنا وكانوا عنها غافِلينَ * والَّذينَ كذَّبوا بآياتِنا ولقاءِ الآخرة حَبِـطَتْ أَعْمالُهُم ، هل يُجْزَوْنَ إلاّ ما كانوا يعملونَ ﴾[2] .

ونرى أنّ موسى عندما يـدعو عـلى طاغيـة عصره فرعـون مصر ، يطلب لـه العذاب الأليم ويقول :

﴿ ربَّنـا اطْمِسْ على أَمـوالِهِمْ ، واشدُدْ عـلىٰ قلوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنـوا ، حتّىٰ يرَوُا العذابَ الأَليمَ ﴾[3] .

كما أنّه عليه السلام ، يخاطب من يفسّر معاجزه بالسحر قائلاً :

﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بالهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكـونُ لَهُ عـاقِبَةُ الـدّارِ ، إنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمونَ ﴾[4] .

ويقول تنديداً بفرعون وملائه :

﴿ إنّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسابِ ﴾[5] .

وإنّ بني إسرائيل لما كانوا أشَدّ الناسِ لجاجاً وعناداً ، قام مـوسى ـ بأمـر منه سبحانه ـ بإحياء الميت في قضية البقرة[6] ، وسيوافيك بيانه في المباحث الآتية .

نعم ، كانت العقيدة بالمعاد ، عقيدة واضحة بـين الشرائع السـماوية ، حتى

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٠ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان ١٤٦ و ١٤٧ .

(٣) سورة يونس : الآية ٨٨ .

(٤) سورة القصص : الآية ٣٧ .

(٥) سورة غافر : الآية ٢٧ .

(٦) سورة البقرة : الآية ٧٢ .

أنّ مُؤْمِنَ آل فِرعون أخذ يعظ قومه بكلمات فيها إخافتهم من يوم القيامة ، ويقول :

- ﴿ وَيا قَوْمِ إِنّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ ﴾[1] .

- ﴿ وإِنَّ الآخِرَةَ هيَ دارُ القَرارِ ﴾[2] .

- ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلى الله ﴾[3] .

هـ ـ وهذا المسيح عيسى بن مريم ، يخاطبه سبحانه بآيات فيها التذكير بيوم القيامة ، يقول :

- ﴿ إِذْ قالَ اللهُ يا عيسىٰ إِنّي مُتَوَفِّيكَ ورافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذينَ كَفَروا وجاعِلُ الَّذينَ اتَّبَعوكَ فوقَ الَّذينَ كفَرُوا إِلىٰ يومِ القيامةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مرجِعُكُمْ ، فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فيما كُنْتُم فيه تختلفون * فأَمّا الَّذينَ كفرُوا فأُعَذِّبُهُمْ عذاباً شَديداً في الدُّنيا والآخِرَةِ ، وَما لَهُمْ منْ ناصرينَ * وَأَمّا الَّذين آمنُوا وعَمِلوا الصّالحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ واللهُ لا يُحِبُّ الظّالِمينَ ﴾[4] .

المعــاد في القرآن

إذا كان المعاد يحتل المكانة العليا في الشرائع السماوية ، وكان القرآن خاتم الكتب ، والمبعوث به خاتم الأنبياء ، فيناسب أن يكون المعاد مطروحاً فيه ، بشكلٍ مستوفٍ ، مقترناً بالدلائل العقلية المقنعة .

وقد صَدَّقَ الخُبْر الخَبَر ، فالذكر الحكيم يعتني بالمعاد ، ويهتم به إهتماماً بالغاً ، يكشف عنه كثرة الآيات الواردة في مجال المعاد ، وقد قام بعضهم بإحصاء ما يرجع إليه في القرآن فبلغ زهاء ألفٍ وأربعمائة آية ، وكان السيد العلامة الطباطبائي

---

(١) سورة غافر : الآية ٣٢ .

(٢) سورة غافر : الآية ٣٩ .

(٣) سورة غافر : الآية ٤٣ .

(٤) سورة آل عمران : الآيات ٥٥ ـ ٥٧ ..

رحمه الله يقول بأنّه ورد البحث عن المعاد في القرآن في آيات تربو على الألفين ، ولعلَّه ضَمّ الإشارةَ إليه ، إلى التصريح به . وعلى كل تقدير ، فهذه الآيات الهائلة ، تعرب عن شدّة اهتمام القرآن به .

أسماء المعاد في القرآن

ويعرب عن هذا الإهتمام أنّه سبحانه يسميه بأسماء ، ويصفه بصفات خاصة ، فيسميه بـ :

١ ـ يوم القيامة ، ٢ ـ يوم الدين ، ٣ ـ اليوم الآخر ، ٤ ـ يوم الحسرة ، ٥ ـ يوم الوقت المعلوم ، ٦ ـ يوم الحق ، ٧ ـ يوم الفصل ، ٨ ـ يوم الحساب ، ٩ ـ يوم التلاق ، ١٠ ـ يوم الأزفة ، ١١ ـ يوم التناد ، ١٢ ـ يوم الوعيد ، ١٣ ـ يوم الخلود ، ١٤ ـ يوم الخروج ، ١٥ ـ يوم الجمع ، ١٦ ـ يوم التغابُن ، ١٧ ـ اليوم الموعود ، ١٨ ـ يوم البعث ، ١٩ ـ الساعة ، ٢٠ ـ الحاقّة ، ٢١ ـ القارعة ، ٢٢ ـ الطامّة الكبرى ، ٢٣ ـ الصاخّة ، ٢٤ ـ الميعاد ، ٢٥ ـ الغاشية ، ٢٦ ـ الآخرة .

ويصفه بأنّه : ١ ـ يوم عظيم ، ٢ ـ يوم كبير ، ٣ ـ يوم محيط ، ٤ ـ يوم عقيم ، ٥ ـ يوم أليم ، ٦ ـ يوم مشهود ، ٧ ـ يوم عسير ، ٨ ـ يوم عبوس قمطرير ، ٩ ـ يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة ، ١٠ ـ يوم مجموع له الناس ، ١١ ـ يوم تشخص فيه الأبصار . ١٢ ـ يوم على الكافرين عسير ، ١٣ ـ يوم لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، ١٤ ـ يوم يجعل الولدان شيباً ، وغير ذلك من الأوصاف .

* * *

مباحث المعاد

(٢)

أدلة وجوب المعاد وضرورته

قد تعرفت على أنّ الحياة الأُخروية للإنسان ، أمر ممكن لا يمنع منه شيء ، وإنّما الكلام في وجوب وقوعها وضرورة وجودها . وفيما يلي نستدلّ على ضرورة وجود هذه النشأة بوجوه عقلية هدانا إليها القرآن الكريم .

الدليل الأول ـ صيانة الخلقة عن العبث

ذكرنا أنّ أحد الأسئلة التي تلاحق كلّ إنسان ويعاني منها ، هو الوقوف على هدف الخلقة ، وأنّه لماذا خلق ، وما هو الغرض من خلق الإنسان ، والإنسان الإلهي بما أنّه يصون فعل الحقّ عن العبث واللغو (لا بمعنى أنّ هناك غرضاً للخالق يستكمل به ، بل بمعنى أنّ فعله ليس بلا غاية) ، يجيب بأنّه لم يُخلق عبثاً ولا سدىً ، بل خُلق ليبلُغ الكمال الذي يناله في النشأة الأخروية ، على وجه لولاها لأصبح خلقه وإيجاده لغواً وباطلاً .

ثم إنّ هذا الدليل ، أي صيانة فعل الباري عن العبث ، يمكن بيانه بوجوه ، تتحد في الجوهر ، وإنّما تختلف في التقرير وهي :

١ ـ المعاد وغاية الخلقة .

٢ ـ المعادوالحقُّ المطلق .

٣ ـ المعاد والنّظْمُ البديع .

فيستدلّ على المعاد تارة بأنّه هو غاية الخِلْقة ، وأُخرى بأنّ الحقّ تعالى شأنه لا ينفك فعله عن غاية ، وثالثةً بأنّ النُّظُم البديعة السائدة على العالم لا تنفك عن غرض وغاية ، والكلُّ صور مختلفة لاستدلال واحد ، إستوحيناه من الذكر الحكيم ، فإليك بيانها :

١ ـ المعاد غاية الخلقة

يستدلّ الذكر الحكيم على لزوم المعاد بأنّ الحياة الأُخروية هي الغاية من خلق الإنسان وإنزاله إلى هذه البسيطة ،وأنّه لولاها لصارت حياته منحصرة في إطار الدنيا ، ولأصبح إيجاده وخلقه ـ بالتالي ـ عبثاً وباطلاً ، والله سبحانه مُنَزّه عن الإيجاد بلا غرض ، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعونَ** ﴾[1] .

ومن لطيف البيان في هذا المجال قوله سبحانه : ﴿ **ما خَلَقْنا السَّمٰوات والأَرْضَ وما بَيْنَهُما لاعِبينَ * ما خَلَقْناهُما إلاَّ بالحَقِ ،ولٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يعلمون * إنَّ يومَ الفَصْلِ ميقاتُهُمْ أَجمعينَ** ﴾[2] فترى أنّه يذكر يوم الفصل بعد نفي كون الخلقة لعباً ، وذلك يعرب عن أنّ النَّشأة الأُخروية تصون الخِلْقة عن اللغو واللعب ، وبذلك تظهر صلة الآيات .

٢ ـ المعاد والحق المطلق

ومن لطائف البيان في القرآن الكريم أنّه تعالى يصف نفسه بالحق (المطلق) وأنّه لا حَقّ سواه ، ثم يرتب على ذلك إحياء الموتى والنشأة الآخرة ، وذلك لأنّ الحق المطلق عبارة عن الوجودالذي لا يتطرق البطلان إلى ذاته أوّلاً ، وصفاته ثانياً ، وأفعاله ثالثاً ، ولو كان فعله بلا غاية ولا هدف ، لما كان حقّاً مطلقاً ،

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ١١٥ ، ولاحظ سورة ص : الآية ٢٧ .

(٢) سورة الدخان : الآيات ٣٨ ـ ٤٠ .

فيستدلّ بكونه حقّاً محضاً على لزوم الغاية التي تتمثل في الحياة الأُخروية للإنسان ، يقول سبحانه :

﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحيي المَوْتىٰ ، وأَنَّهُ عـلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَـديرٌ *وأَنَّ السَّاعةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فيها ، وأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ في القُبورِ ﴾[1] .

ولعلّ من هذا الباب وصفه سبحانه نفسه بالحق ، ثم ذُكره بعد ذلك آيات البعث والقيامة ، فكأنّه يشير بذلك إلى أنّ كونه حقاً مطلقاً لا يعتريه الباطل ، يلازم البعث ، وإلاّ لا يكون حقّاً مطلقاً ، نرى هذا البيان في قوله سبحانه :

﴿ ذٰلكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وأَنَّ ما يَدْعونَ مِنْ دونِهِ هُوَ الباطِلُ ﴾[2] .

ثم بعد ثلاث آيات يقول :

﴿ وَهُوَ الَّذي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يُحْييكُمْ ﴾[3] .

ومثله قوله سبحانه : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وأَنَّ ما يَدْعونَ من دونِهِ الباطِلُ ﴾[4] .

ثم بعد آيتين يقول : ﴿ يآ أَيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ واخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ. . . ﴾[5] .

٣ ـ المعاد والنظم البديع

وفي الذكر الحكيم تلويح وإشارة إلى هذا النوع من الإستدلال ،حيث نرى أنّه سبحانه يذكر النبأ العظيم واختلاف الناس فيه بين مثبت ونافٍ ، ثم يبيّن

(١) سورة الحج : الآيتان ٦ و٧ .
(٢) سورة الحج : الآية ٦٢ .
(٣) سورة الحج : الآية ٦٦ .
(٤) سورة لقمان : الآية ٣٠ .
(٥) سورة لقمان : الآية ٣٣ .

النظام البديع السائد في الكون ، ببيان رائق مبسوط ، مُعرِباً عن أنّه لولا النبأ العظيم ، لأصبح خلقُ العالَم بلا غاية .

يقول سبحانه : ﴿ عَمَّ يتساءَلونَ * عَنِ النَّبَإِ العَظيمِ * الَّذي هُمْ فيه مُخْتَلِفونَ ﴾ .

ثم يقول : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً ، والجِبالَ أَوْتاداً ﴾ إلى قوله : ﴿ إنَّ يَوْمَ الفَصْلِ كانَ مِيقاتاً ﴾[1] .

وبذلك تقف على انسجام الآيات وصلة بعضها ببعض .

وفي كلمات الإمام أمير المؤمنين إشارة إلى هذا النمط من الإستدلال ، يقول عليه السلام .

« وإنّ الخَلْقَ لا مُقْصِرَ لهم عن القيامة ، مرقلين في مضمارها إلى الغاية القُصْوى »[2] .

وفي خطبة أُخرى قال عليه السلام : « قد شخصوا من مستقر الأجداث وصاروا إلى مصائر الغايات »[3] .

* * *

الدليل الثاني ـ المعاد مقتضى العدل الإلهي

لزوم العمل بالعدل ، والإجتناب عن الظلم ، من فروع التحسين والتقبيح العقليين ، اللذين هما من أحكام العقل العملي . فمن قال بلزوم فعل الحسن واجتناب القبيح ، يرى العمل بالعدل واجباً لكلٍ فاعل مريد مختار ، من غير فرق

---

(١) سورة النبأ : الآيات ١ ـ ١٧ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٥٦ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٠ . وفي رسالته إلى إبنه الحسن : «واعلم يا بُنَيّ أنّك خُلِقْتَ للآخرة لا للدنيا الخ » . (الكتاب ٣١) .

بـين أن يكون ممكنـاً ، أو واجباً ، لأنّ الحَسَنَ حَسَنٌ في كـل حال ، والقبيـحَ قبيحٌ كذلك .

وهنـاك جماعـة من المتكلمين ـ كـالأشـاعـرة ـ ينكـرون التحسـين والتقبيـح العقليين ، ويتركون المجال في القضـاء بهما للوحي السـماوي ، وهـم أيضاً يقـولون بلزوم العمل بالعدل والإجتناب عن الظلم ، بحكم أن الشرع قد أمـر بهما ، وأنّـه سبحـانه وصف نفسـه بالقيـام بالقسط[1] ، فتكـون النتيجة لـزوم معـاملة العبـاد بالعدل .

ثم إنّ إثابة المطيعين من باب التفضل منـه سبحانـه ، لأنّهم يطيعـونه تعـالى بفضل ما أنعمه عليهم من النعم الوجـودية ، كـما أنّ عقاب العصـاة ، حق محض له ، فله أن يعفو عنهم[2] .

هـذا هو حكم العقـل في كل واحـد من القسمين : المطيع والعـاصي ، إذا لوحظا مستقلين .

ولكن هناك كلام آخر ، وهو أنّه لو كان جميع العبـاد مطيعـين سالكـين نهج الإمتثال ، فله التفضل بالثواب ، كـما له تـركه . وكـذلك لـو كان جميـع العباد ، عُصاة سالكين نهج المخالفة ، فله سبحانه معاقبتهم أو العفو عنهم ، ولكنّ العباد ، ينقسمـون إلى قسمـين ، فهم بـين مـطيـع وعـاص ، والتسـويـة بينهم بصـورهـا المختلفة ، خلاف العدل . فإنّه لو أثاب الجميع أو عاقب الجميع ، أو تركهم سدىً من دون أن يحشروا في النشـأة الأخـرى ، كـان ذلـك كلّه عـلى خـلاف العـدل ، وخلاف ما يحكم به العقل من لزوم كون فعله تعالى حسناً ، فهنا يستقل العقل بأنّه يجب التفريق بينهما من حيث المصير والثواب والعقاب . وبما أنّ هذا غير متحقق في النشـأة الدنيـوية ، فيجب أن يكـون هناك نشـأة أُخرى يتحقق فيهـا ذلـك المَيْـز ، ويفرّق فيه بين المطيعين والعاصين ، وهو المعاد .

وهذا الدليل العقلي يشير إليه القرآن الكريم في لفيف من آياته ، وهي عـلى

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨ . وسورة يونس : الآية ٤٤ .

(٢) كل ذلك مع قطع النظر عن وعده ووعيده .

قسمين : قسم يندد بالتسوية وينكرها ، وقسم يصرّح بالفرق بين العاصي والمطيع في النشأة الآخرة .

فمن القسم الأول :

ـ قوله سبحانه : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذينَ آمنوا وَعَمِلوا الصَّالحاتِ ، كالمُفْسِدينَ في الأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقينَ كالفُجَّارِ ﴾[1] .

ـ قوله سبحانه : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المُسْلِمينَ كالمُجْرِمينَ * ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمونَ ﴾[2] .

ـ قوله سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئات أَنْ نَجْعَلَهُمْ كالَّذينَ آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ سواءً مَحياهُمْ ومَماتُهمْ ، ساءَ ما يَحْكُمونَ ﴾[3] .

ومن القسم الثاني :

ـ قوله سبحانهُ : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَميعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ، ثمَّ يُعيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذينَ آمنوا وَعَمِلوا الصَّالحاتِ بالقِسْطِ ، والَّذينَ كفرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَميمٍ وعذابٌ أَليمٌ بما كانوا يَكْفُرونَ ﴾[4] .

ـ وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ، والسَّمٰواتُ وَبَرَزوا للهِ الواحِدِ القهّار* وَتَرى المُجْرِمين يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنينَ في الأَصْفاد * سرابيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وتَغْشىٰ وُجوهَهُمُ النّارُ * لِيَجْزِيَ اللهُ كلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ ، إِنَّ اللهَ سَريعُ الحِسابِ ﴾[5] .

ـ قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيةٌ أَكادُ أُخْفيها لِتُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بما

---

(١) سورة ص : الآية ٢٨ .

(٢) سورة القلم : الآيتان ٣٥ و٣٦ .

(٣) سورة الجاثية : الآية ٢١ .

(٤) سورة يونس : الآية ٤ .

(٥) سورة إبراهيم : الآيات ٤٨ ـ ٥١ .

تَسْعىٰ ﴾[1] .

فقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ اللهُ ﴾ و﴿ لِتُجْزىٰ ﴾ ، إشارة إلى أنّ قيام القيامة ، تحقيق لمسألة الثواب والعقاب ، الذين هما مقتضى العدل الإلهي .

وفي كلام الإمام علي إشارة إلى هذا البيان :

قال عليه السلام : « يومٌ يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين لنقاش الحساب ، وجزاء الأعمال »[2] .

وقال عليه السلام : « فجَدَّدَهُمْ بعد إخلاقِهِمْ ، وجَمَعَهُمْ بعد تَفرُّقِهِمْ ، ثمّ ميَّزهم لما يريده من مسألتِهِمْ عن خفايا الأعمال وخبايا الأفعال »[3] .

* * *

الدليل الثالث : المعاد مجلى لتحقق وعده ووعيده

وهناك دليل ثالث يضفي على المعاد الضرورة والقطعية ، وهو مركب من مقدمة شرعية ، وحكم عقلي ، وذلك أنّه سبحانه قد وعد المطيعين بالثواب ، والعاصين بالعقاب ، وهذه صُغْرَى البرهان أخبر عنها الشرع . وحُكْم العقل عندئذٍ واضح ، وهو أنّ إنجاز الوعد حَسَنٌ ، والتخلّف عنه قبيح . نعم ، تقدم في الدليل السابق أنّ العباد لا يستحقون الثواب بطاعتهم ، وإنّما هو جود وتفضّل ، لكن هذا بغضّ النظر عن الوعد به ، وأمّا معه ، فالوفاء بهِ لازم .

والآيات الواردة في هذا المجال على قسمين : قسم يذكر فيه وعده بالقيامة ووعده بالثواب ووعيده بالعقاب . وقسم يذكر أنّه ينجز وعده ولا يخلف .

أمّا القسم الأول : فما يدلّ عليه كثير ، نذكر بعضه .

ـ أمّا ما يدلّ على الوعد بالقيامة ، فمنه قوله تعالى :

---

(1) سورة طه : الآية ١٥. ولاحظ سورة سبأ الآيات ٣ ـ ٥ ، سورة الزلزلة : الآية ٦ .
(2) نهج البلاغة ، الخطبة ١٠٢ .
(3) نهج البلاغة ، الخطبة ١٠٩ .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضوا وَيَلْعَبوا حتّىٰ يُلاقوا يَوْمَهُمُ الَّذي يوعَدون ﴾[1] .

ـ وما يدل على الوعد بالثواب ، فمنه قوله تعالى :

﴿ وأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعيدٍ ، هذا ما تُوعدونَ ﴾[2] .

ـ وما يدلّ على الوعيد بالعقاب ، فمنه قوله تعالى :

﴿ وإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعينَ ﴾[3] .

﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزابِ فالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾[4] .

وأمّا القسم الثاني : الذي يركّز على حكم العقل ويدعمه ، وينفي الخلف عن وعده ، فمنه قوله تعالى :

﴿ رَبَّنا إنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فيهِ ، إنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الميعادَ ﴾[5]

﴿ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ القِيامَةِ إنَّكَ لا تُخْلِفُ الميعادَ ﴾[6] .

وعلى هذا الأساسُ يستدلّ المحقق الطوسي ، على ضرورة المعاد ، بقوله : « ووجوب إيفاء الوعد ، يقتضي وجوب البعث »[7] .

* * *

(١) سورة الزخرف : الآية ٨٣ . لاحظ الذاريات : ٦٠ ، المعارج : ٤٤ ، الأنبياء : ١٠٣ .
(٢) سورة ق : الآيتان ٣١ و ٣٢ .
(٣) سورة الحجر : الآية ٤٣ .
(٤) سورة هود : الآية ١٧ .
(٥) سورة آل عمران : الآية ٩ .
(٦) سورة آل عمران : الآية ١٩٤ .
(٧) كشف المراد ، المقصد السادس ، المسألة الرابعة ، ص ٤٠٦ .

الدليل الرابع : المعاد مجلى لرحمته سبحانه

ومن لطائف الكلام في الذكر الحكيم أنّه عدّ المعاد فرعاً لرحمته ، وجعله مجلىً لها ، قال سبحانه : ﴿ قُلْ لِمَنْ ما في السَّمٰوات والأَرْض ؟ قُلْ للهِ ، كَتَبَ علىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلىٰ يَوْمِ القِيامَةِ لا ريبَ فيه الذين خسروا أنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ ﴾[1] .

فترى أنّه سبحانه يُرَتّب جمع الناس إلى يوم القيامة ، على قوله : ﴿ كَتَبَ علىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ، وذلك لأنّ هذا اليوم يوم الرحمة للمؤمن والكافر ، غير أنّ الكافر ، قد خسر نفسه باقتراف المعاصي وترك الفرائض في الدنيا ، فلا يتوفق لنيل رحمته تعالى ، ولعلّه سبحانه إلى ذلك يشير في الآية بقوله : ﴿ الَّذين خَسِروا أنْفُسَهَمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ ﴾ .

ويعود معنى الآية إلى أنّ يوم القيامة أشبه بمائدة ممدودة ، فيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين ، ولكن الإنتفاع منها رهن قيود وشروط هي في وسع كل واحد من المكلّفين . فلو حُرِم الكافر من الرحمة ، فهو بفعل نفسه وما جنته يداه لا من جانبه سبحانه ، وهذا كابتلاء العباد وامتحانهم ، فإنّه رحمة ، لأنّ الهدف منه خروج الطاقات من القوة إلى الفعل ، والكمالات من الخفاء إلى البروز ، ولكن الكافر لا يخرج منه إلّا راسباً غير مستفيد من أهداف الإبتلاء ، بل يخسر نفسه بفتور عزمه في مجال الطاعة .

ويمكن استفادة ذلك من الآية التالية ، وهي قوله سبحانه :

﴿ فَانظُرْ إلىٰ آثارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحيي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إنَّ ذلكَ لَمُحْيي المَوْتَىٰ وهُوَ على كُلِّ شيْءٍ قَديرٌ ﴾[2] . فللآية دلالتان :

المطابقية منها تهدف إلى تشبيه إحياء الموتى بإحياء الأرض حتى يرجع المنكر عن إنكاره بمشاهدة إحياءٍ محسوس ، وهو إحياء الأرض . والإلتزامية منها تدلّ على أنّ

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢ .

(٢) سورة الروم : الآية ٥٠ .

إحياء الموتى يوم القيامة ، رحمة من الله سبحانه لهم ، كما أنّ إحياءَ الأرض رحمة من الله سبحانه لعباده .

* * *

الدليل الخامس : المعاد خاتمة المطاف في تكامل الإنسان

إنّ الحركة تتقوم بأُمورٍ ستة ، منها الغاية ، كما حقق في محلّه . اعتبار الغاية في حقيقة الحركة ينشأ من تَصَوُّر مفهومها ، فإنّ الحركة جهد وسعي ، يتطلب صاحبها غاية يفقدها ، من غير بين أنْ تكون الغاية عقلائية ، كحركة الطالب لتحصيل العلم ، أو غير عقلائية ، كاللعب بالسُّبَّحَة لترويح النفس .

ونرى أنّ الإنسان منذ تكونه نطفة فعلقة فمضغة ، إلى أنْ يفتح عينه على الوجود ، في حال حركة دائمة وسعي متواصل ليس له ثبات ولا قرار ، وهو يطلب بحركته وسعيه شيئاً يفقده . فعلى ذلك لا بدّ من وجود يوم يزول فيه وصف اللاقرار ، ويدخل منزلاً فيه القرار والثبات ، يكون غاية المطاف .

والحركة وإنْ كانت تتوقف بالموت ولا يرى بعدها في الإنسان سعي ، لكنّ تفسير الموت ببطلان الإنسان وشخصيته الساعية ، إبطال للغاية التي كان يتوخاها من حركته ، فلا بدّ أنْ يكون الموت وروداً إلى منزل آخر ، يصل فيه إلى الغاية المتوخاة من سعيه وجهاده ، وذلك المنزل هو النشأة الأُخروية .

ولا يصح أنْ يقال إنّ الغاية من الحركة والسعي والكدح ، هو نيل اللذائذ المادية والتجمّلات الظاهرية ، لوضوح أنّ الإنسان مهما نال منها ، لا يخمد عطشه ، بل يستمر في سعيه وطلبه ، وهذا يدلّ على أنّ له ضالة أُخرى يتوجّه نحوها ، وإن لم يعرف حقيقتها ، فهو يطلب الكمال اللائق بحاله ، ويتصور أنّ ملاذّ الحياة غايته ، ومنتهى سعيه ، ولكنه سوف يرجع عن كل غاية يصل إليها ويعطف توجهه إلى شيء آخر .

قال صدر المتألّهين : الآيات التي ذكرت فيها النطفة وأطوارها الكمالية ،

وتقلّبـاتها من صـورة النقص إلى صورة أكمـل ، ومن حال أدون إلى حـال أعـلى ، فالغرض من ذكرها ، إثبات أنّ لهذه الأطـوار والتحولات غـاية أخـيرة ، فللإنسان توجّه طبيعي نحو الكمال ، ودين إلهي فطري في التقرّب إلى المبدأ الفعّال ، والكمال اللائق بحال الإنسان المخلوق أوّلاً من هذه الـطبيعة ، وإلّا كـان لا يوجـد في هذا العـالم الأدنى ، بل في عـالم الآخرة التي إليهـا الرجعي ، وفيهـا الغـايـة والمنتهى ، فبـالضرورة إذا استوفى الإنسـان جميع المـراتب الخلقية الـواقعـة في حـدود حـركتـه الجوهرية الفطرية ، من الجماديـة والنباتيـة ، والحيوانيـة ، وبلغ أشُدَّهُ الصـوري ، وتمّ وجوده الدنيوي الحيواني ، فلا بدّ أنْ يتـوجه نحـو النشأة الآخـرة ، ويخرج من القوة إلى الفعل ، ومن الدنيا إلى الأُخرى ، ثم المولى ، وهو غاية الغايات ، ومنتهى الأشواق والحركات[1] .

وفي الآيـات الكريمـات إشارات إلى هـذا البرهـان ، يفهمها الـراسخون في الذكر الحكيم .

يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنـاهُ خَلْقاً آخَـرَ فَتَبارَكَ الله أَحْسَنُ الخـالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ تُبْعَثونَ ﴾[2] .

وأنْتَ إذا لاحظت هذه الآيات وما تقدمها ممّا يتكفل ببيـان خلقة الإنسـان ، ترى لها إنسجاماً وترابطاً خـاصّاً ، فـالله سبحانـه يصف الإنسان بـأنّه كـان نطفـة فعلقـة فمضغـة ، إلى أنْ أنشـأه خَلْقـاً آخـر ، ثم يـوافيـه المـوت ، ثم يبعث يـوم القيامة ، فكأنّ الآية تبيّن تطور الإنسان تدريجاً من النقص إلى الكمال ، ومن القوة إلى الفعل ، وأنّه منذ تَكَوَّن يسير في مدارج الكـمال ، إلى نهاية المـطاف وهو البعث يوم القيامة ، فهذا غاية الغايات ، ومنتهى الكمال .

ويمكن استـظهار ذلـك من قولـه سبحانـه : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الـزَّوْجَيْنِ الـذَّكَرَ والأُنْثىٰ * مِنْ نُطْفَةٍ إذا تُمنى * وأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْـرىٰ ﴾[3] ، بالبيـان الماضي في الآية السابقة .

---

(١) الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٥٩ .

(٢) سورة المؤمنون : الآيات ١٤ ـ ١٦ .

(٣) سورة النجم : الآيات ٤٥ ـ ٤٧ .

ولعلّه لأجل ذلك يصف القرآن يوم البعث بـ « المَساق » ، و« الرُّجْعى » ، و« دار القرار » ويقول : ﴿ إلىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَساق ﴾[1] ، و﴿ إنَّ إلىٰ رَبِّكَ الرُّجعىٰ ﴾[2] ، و ﴿ إنَّما هٰذهِ الحياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دارُ القَرارِ ﴾[3] .

* * *

الدليل السادس ـ المعاد مقتضى الربوبية

إنّ الربّ في اللغة بمعنى الصاحب ، يقال : ربُّ الدّار ، وربّ الضَّيعَة . فالربوبية تحكي عن مالكية الرّبّ ، ومملوكية المربوب .

والعلاقة المتَّسمة بالربوبية ، تقتضي كون المربوب ذا مسؤولية أمام ربّه ، وأنّ الربّ لا يتركه سدى ، بل يحاسبه على أعماله ويجازيه بما أتى تجاهه ، وبما أنّ هذه المحاسبة لا تتحقق في النشأة الدنيوية ، فيجب أن يكون هناك نشأة أُخرى تتحقق فيها لوازم الربوبية ، فلا معنى لربٍّ بلا مربوب ، كما لا معنى لمربوب يترك سدى ، ولا يحاسب على أعماله وأفعاله .

ولعله لهذا الوجه ، يركّز القرآن على كلمة الرّبّ في قوله : ﴿ يا أيُّها الإنسانُ إنَّكَ كادحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ﴾[4] .

وفي قوله : ﴿ وإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أئِذا كُنّا تُراباً أئِنّا لَفي خَلْقٍ جَديدٍ ، أُولٰئِكَ الَّذينَ كَفَروا بِرَبِّهِمْ ﴾[5] .

وهذه الآية الثانية ، أصرح في المطلوب ، وهو أنّ كُفْرانَهُم بِربّهم جعلهم

---

(١) سورة القيامة : الآية ٣٠ .
(٢) سورة العلق : الآية ٨ .
(٣) سورة غافر : الآية ٣٩ .
(٤) سورة الإنشقاق : الآية ٦ .
(٥) سورة الرعد : الآية ٥ .

منكرين للمعاد ، فلو عرفوا حقيقة الربوبية ، وعـرفوا ربّهم ، لأذعنـوا بأنّ مقتضى الربوبية ، لزوم وجود يوم تطرح فيه أعمال العباد على طاولة الحساب .

* * *

وهـذه البراهـين الستة تضفي عـلى المعاد ضرورة ، وقـطعيّـة ، ووجـوبـاً ، وحتميةً ، وكلّها براهين عقلية أرشدنَا إليها الذِّكر الحكيم في مُحْكَمِ آياته .

* * *

مباحث المعاد

(٣)

بواعث إنكار المعاد وشبهات المنكرين

النـاس أمام دعـوة الأنبياء إلى البعث في النشـأة الأخرى كـانوا عـلى صنفين معتنق يشكل الأقليّة في المجتمع الإنساني ، ومنكر يشكّلون الأكثرية الساحقة فيه . وكان المشركون من العرب ، المعاصرون للنبي ، أكثر عناداً ولجاجاً في المعـارف ، خصوصاً ما يرجع منها إلى البعث ويوم الحساب .

غـير أنّه كـانت لهم بـواعث لـلإنكـار ، كـما كـانت لهم شبهـات ، ولم تكن شبهاتهم إلاّ واجهة لإنكارهم ، فيبرروا بهـا جحودهم ، ويعـطوه صبغة الحجـة ، والعذر .

ونحن نذكر بواعث الإنكار أوّلاً ، ثم نردفها بـالشُّبُهات ثـانياً ، ونعتمـد في ذلـك على الـذكر الحكيم الـذي ينقل ذلـك عن المنكرين ، سـواء كانـوا من الأُمم السالفة ، أو من المعاصرين لنزول الرسالة .

بواعث إنكار المعاد

كثيراً ما نرى أُناسـاً يتبنّون شيئـاً ويحتجون لـه بأدلـة واهية ، وهم يعلمـون بوهنها ، وأنّ المخاطبين يقفون على سقمها ، ومع ذلـك ، يُصِرّون على مـواقفهم . وهذا من الأُمور التي تُمَكّن من استكشاف الباعث أو البـواعث الواقعيـة لهذا التبني من خلال أفعالهم وسيرتهم ومعاشراتهم ، والذكر الحكيم كشف عن تلك البواعث

التي كانت تدفع المشركين إلى إنكار المعاد ، ثم التعلل له بحجج واهية ،وإليك بيانها .

الباعث الأول ـ التحلل من القيود والحدود

إنّ الإيمان بالمبدأ ، والمعاد ، لا يتلخص في الإقرار اللساني ، بل المؤمن يحمل مسؤولية خاصة أمام الله سبحانه في الحياة الدنيوية ، ولازم هذه المسؤولية ، الإلتزام بحدود وقيود ، تَصُدُّه عن التحلل والإفراط في الملاذ والشهوات والإنهماك في إشباع الغرائز الحيوانية . وقد كان الإلتذاذ واتّباع الهوى ، غاية المنى لأكثر المنكرين ، وكان يسود عليهم سيادة الإله على خلقه ، قال سبحانه : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكونُ عَلَيْهِ وَكيلاً ﴾[١] .

ولما كان الإعتقاد بالمعاد ، منافٍ لهذا المبدأ الحيواني ، أنكروه بحجج واهية يأتي الإشارة إليها ، ويشير الذكر الحكيم إلى هذا الباعث ، بقوله :

﴿ أَيَحْسَبُ الإنْسانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ * بَلَىٰ قادِرينَ على أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ * بَلْ يُريدُ الإنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ * يَسْأَلُ أَيّانَ يَوْمُ القِيامَةِ ﴾[٢] .

فالآية الأُولى تَذْكُر مُعْتَقَدَهُم وإنكارهم ، والآية الثانية تَذْكر باعث إنكارهم ، وأنّه ليس هو ما يتظاهرون به من عدم إمكان جمع العظام ، وإنّما هو رغبتهم في أن يرفعوا كل عائق يَحُدّ من انغماسهم في الملذات ، وكل رادع يصدُّهم عن إرضاء الغرائز البهيميّة . وقوله : ﴿ لِيَفْجُرَ أمامَهُ ﴾ ، بمعنى لِيَشُقَّ أمامه ، ولا يرتدع بشيء من القوانين والتشريعات .

الباعث الثاني ـ صيانة السلطة

إنّ السُّنة السائدة عند أصحاب السلطة هي استعباد غيرهم واضطهاد حقوقهم ، كما أنّ السُّنّة السائدة على المترفين في الحياة الدنيا ، هي الإنهماك في

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٤٣ .

(٢) سورة القيامة : الآيات ٣ ـ ٦ .

اللذائذ ، وكلاهما لا يتّفقان مع الإعتقاد بالمعاد ويوم الحساب ، يقول سبحانه :

﴿ وَقالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذينَ كَفَرُوا وَكَذَّبوا بِلِقاءِ الآخِرَةِ ، وَأَتْرَفْناهُمْ في الحياةِ الدُّنْيا ، ما هذا إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمّا تَأْكُلونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمّا تَشْرَبُونَ . . . هَيْهات ، هَيْهَاتَ ، لِما تُوعدونَ * إنْ هيَ إلاّ حَياتُنا الدُّنْيا ، نَموتُ وَنَحْيا وما نَحْنُ بِمَبْعوثين ﴾[1] .

فالآية الأُولى تُشير إلى باعثين من بواعث الإنكار ، بينهما صلة قوية ، ولذلك أدمجناهما وَجَعَلْناهما باعثاً واحداً ، أحدهما باعث نفسي هو الإتراف والتَّمتّع بأسباب الشهوات ، والآخر باعث سياسي ، هو ما كان للمنكرين من عِلْيَة القوم وأشرافهم من تسلّط على أقوامهم فانكروا المعاد لئلا تتزعزع عروش سلطتهم بانتشار هذه العقيدة بين أتباعهم ومرؤوسيهم ، فكانوا يدعون الناس إلى إنكار المعاد ويقولون : ﴿ هَيْهاتَ ، هَيْهاتَ لِما توعَدونَ ﴾ .

الباعث الثالث ـ التكذيب بالحق

إنّ هناك آياتُ تعرب عن أنّ المنكرين ، من أول يوم واجهوا فيه دعوة الرسل ، أنكروها ولم يعتنقوها ، فَجَرّهم ذلك إلى إنكار المعارف كلّها وبالأخص المعاد ، وحشر الإنسان في النشأة الأُخرى .

نعم ، لا ينفك عنادهم أمام الأنبياء عن علّة نفسية أو إجتماعية أو سياسية ، جَرّتهم إلى اتّخاذ ذلك الموقف السلبي في بدء الدعوة في كلّ ما يقوله الأنبياء ويدعون إليه ، وإن كان بعضُه موافقاً لطبعهم وشعورهم والذكر الحكيم يشير إلى هذا الباعث بقوله حاكياً عنهم :

﴿ أَءِذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً ؟! ذلكَ رَجْعٌ بَعيدٌ * قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وعِنْدنا كِتابٌ حفيظٌ * بل كَذَّبوا بالحَقِّ لَمّا جاءَهُم فَهُمْ في أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾[2] .

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات ٣٣ و٣٦ و٣٧ .

(٢) سورة ق : الآيات ٣ ـ ٥ .

فيذكر في الآيتين الأُوليين شُبْهَتَهُمْ ـ التي سيأتي بيانها ـ إلّا أنّه سُرْعانَ ما بَيّنَ في الآيـة الثالثـة أنّ هذه الشبهـة واجهـة وغـطاء لها ، وأنّ البـاعث الـواقعي هـو تكذيبهم بالحق من أول الأمر ، ولأجل ذلك هم في أمر مَريجٍ مضطرب .

* * *

هـذه هي البـواعث التي كـانت تـدفـع إلى إنكـار المعـاد ، ونحت الأعـذار والشبهات في هذا المجال . وإليك فيما يلي بيان شبهاتهم أوّلاً ، وأجوبتها ثانياً . .

* * *

شبهات المنكرين للمعاد

الشبهات التي ينقلها الذكر الحكيم عنهم تبلغ عشر شبهـات ، غير أنّ كثـيراً منهـا ضئيل ، ليس لـه دليل سـوى البواعث التي قـدّمناهـا ، ومع ذلـك لم يتركهـا القرآن بلا جـواب ، إمّا مقـارن لذكـرها أو في مـواضع أخـرى ، وفيما يـلي نذكـر رؤوس الشبهات الواهيـة ، ثم نتبعها بـذكر الشبهـات القابلة للبحث ، فنـطرحها ونناقشها .

١ ـ لا دليل على المعاد

يقول سبحانه : ﴿ **وإذَا قيل إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ والسَّاعَةُ لا رَيْبَ فيها قُلْتُمْ ما نَدْري ما السَّاعَةُ إنْ نَظُنُّ إلّاَ ظَنّاً وما نَحْنُ بِمُسْتَيْقنينَ** ﴾[١] .

وقائل الشبهة يتظاهر بأنّه لا دليل عـلى النّشأة الأُخـرى وإحياء المـوتى فيها ، ولو كان لاتّبعه . ولم يتركه القرآن بلا جواب ، فقد أقام براهين دامغة عـلى إمكانـه وضرورته كما سيوافيك .

ولأجل كون المعاد مقروناً بالبراهين ، يتعجّب القرآن من إنكارهم ويقول : ﴿ **وَإنْ تَعْجَبْ ، فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أءِذا كُنّا تُراباً أَءِنّا لفي خَلْقٍ جَديدٍ** ﴾[٢].

---

(١) سورة الجاثية : الآية ٣٢ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٥ .

٢ ـ المعاد من أساطير الأولين

يقول سبحانه : ﴿ قالوا أَءِذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً وَعِظاماً أَءِنّا لَمَبْعوثونَ * لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وآباؤنا هذا من قَبْلُ ، إنْ هذا إلّا أساطيرُ الأَوَّلينَ ﴾[١] .

وبما أنّ الشرائع السماوية ، مُتّحدة في الأُصول ، وإنّما اختلافُها في الشرع والمنهاج[٢] ، كانت الدعوة إلى المعاد موجودة في الشرائع السالفة ، فَحَسِبَها المشركون أُسطورة من أساطير الأوّلين .

مع أنّ الدعوة إلى عقيدة قديمة لا يكون دليلاً على بطلانها ، كما أنّ استحداث عقيدة لا يكون دليلاً على صحتها ، وإنّما الضابط هو الدليل .

٣ ـ المعاد إفتراء على الله أو جنون من القول

يقول سبحانه : ﴿ وقالَ الّذينَ كَفَروا هَلْ نَدُلُّكُمْ على رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إنَّكُمْ لَفي خَلْقٍ جَديدٍ * أَفْتَرى على الله كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾[٣] .

والمنكرون لأجل التظاهر بالحرية في القضاء ، وابتعادهم عن العصبية ، فَسّروا الدعوة إلى المعاد بأنّ الداعي إمّا رجلٌ غير صالح ، إفترى على الله كذباً ، أو أنّه معذور في هذا القول وقاصر ، لأنّ به جنة ، وهذا نوع من الخداع ، إذ كيف صار « أمينُهُم » مفترياً على الله الكذب ، ومتى كان الإنسان العاقل الذي أثبت الزمان عقله وذكاءه ودرايته وأمانته حتى قمع أُصول الشرك عن أديم الجزيرة ، متى كان مجنوناً ؟ .

٤ ـ إعادة الأموات سحر

يقول سبحانه : ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعوثونَ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ لَيَقُولَنَّ الّذينَ

---

(١) سورة المؤمنون : الآيتان ٨٢ و٨٣ .

(٢) إشارة إلى قوله سبحانه : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً ﴾ (سورة المائدة : الآية ٤٨) .

(٣) سورة سبأ : الآيتان ٧ و٨ .

كَفَروا إنْ هذا إلَّا سِحْرٌ مُبينٌ ﴾[1] .

فقد بلغ عنادهم في إنكار الحقيقة مبلغاً لو قام النبي معه بإحياء الموتى أمامهم ، ورأوه بأُمّ أعينهم ، لقالوا إنّه سحر مبين ، وإنّك سحرت أعيننا ، ولا حقيقة لما فعلت .

٥ ـ إذا كان المعاد حقّاً فأَحيوا آباءنا

يقول سبحانه : **﴿وإذا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إلَّا أَنْ قالوا ائْتوا بآبائنا إنْ كُنْتُمْ صادقينَ ﴾**[2] .

غير أنّ طلبهم إحياء آبائهم لم يكن إلّا تَعَلّلاً أمام دعوة النبي ، فلو قام النبي بهذا العمل ، لطلبت كل قبيلة ، بل كلّ إنسان نفس ذلك العمل من النبي ، حتى يؤمن به ، فتنقلب الدعوة لعبة في أيديهم . ولأجل ذلك يضرب القرآن عن الجواب صفحاً ، ويكتفي بقوله : **﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إلىٰ يومِ القيامة فيه ، ولكنَّ أكثرَ النّاس لا يَعْلَمونَ ﴾**[3] .

٦ ـ حشر الإنسان عسير

إنّ هذا الإعتراض وإن لم ينقل عنهم صريحاً ولكن يُعْلَم من الآيات الواردة حول المعاد ، أنّه كان أحد شبهاتهم .

يقول سبحانه في أمر المعاد : **﴿ ذلك حَشرٌ علينا يسير ﴾**[4] ويقول : **﴿ ذلكَ على الله يَسيرٌ ﴾**[5] ويقول : **﴿ وما أَمْرُ السَّاعَةِ إلّا كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ**

---

(١) سورة هود : الآية ٧ .
(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٥ .
(٣) سورة الجاثية : الآية ٢٦ .
(٤) سورة ق : الآية ٤٤ .
(٥) سورة التغابن : الآية ٧ .

أَقْرَبُ ﴾[1] ويقول : ﴿وهُوَ الَّذي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[2] .

وهذه الشبهة صورة خفيفة للشبهة السابعة الآتية التي سيوافيك الجواب عنها تفصيلاً . والإجابة عن تلك يغني عن الإجابة عن هذه . قال أمير المؤمنين عليه السلام : « وما الجَليلُ واللَّطيفُ ، والثَّقيلُ والخَفيفُ ، والقَوِيُّ والضَّعيفُ في خلقه إلّا سواء »[3] .

هذه هي شبهاتهم الضئيلة الواهية التي لا يخفى بطلانها وكانت لهم معها شبهات أُخرى أجدر بالبحث والتحليل ، وهي أربع ، نذكرها أوّلاً ثم نجيب عنها بالتفصيل .

٧ ـ إحياء الموتى خارجٌ عن إطار القُدرة

يظهر من الذكر الحكيم أنّهم كانوا يعتمدون على هذه الشبهة ، ويحكيها سبحانه بقوله : ﴿ وَضَرَبَ لنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحيي العِظامَ وَهِيَ رَميمٌ ﴾[4] .

٨ ـ التعرف على الأجزاء الرميمة غير ممكن

إنّ عادة الموتى بأعيانهم يتوقف على التعرف على أجزاء أبدانهم الرميمة المبعثرة ، على أديم الأرض وفي جوفها . وفي أعماق البحار ، ليُعاد جزء كل إنسان إلى بدنه ، وهذا أمر محال .

وهذه الشبهة وإن لم يُصرّح بها القرآن، ولكن يستنبط من إجابة القرآن عليها أنّهم كانوا يعتمدون عليها .

---

(١) سورة النحل : الآية ٧٧ .
(٢) سورة الروم : الآية ٢٧ .
(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٠ .
(٤) سورة يس : الآية ٧٨ .

يقول سبحانه : ﴿ وقالَ الَّذين كفروا لا تَأْتينا السَّاعةُ قُلْ بلى وَرَبّي لَتَأتِيَنَّكُمْ ، عالِمِ الغيْبِ لا يَعْزُبُ عنهُ مِثْقالُ ذرَّةٍ في السَّمٰوات ولا في الأرضِ ولا أصغَرُ من ذلكَ ولا أكْبَر إلاّ في كتابٍ مبينٍ ﴾[1] .

فإنّ قوله : ﴿ عالَمِ الغيبِ ، لا يَعْزُبُ عنه . . . ﴾ يكشف عن أنّ شُبْهَتَهم في إمكان المعاد ، هي عدم إمكان التعرّف على أجزاء الموتى المبعثرة .

٩ ـ الموت بطلان للشخصية

وممّا كانوا يعتمدون عليه في إنكارهم للمعاد ، هو أنّ الموت وصيرورة الإنسان عظاماً ثم تراباً ، يلازم بطلان شخصيته وانعدامها ، والمعدم لا يعاد .

ولعلّه إلى تلك الشبهة يشير قوله سبحانه : ﴿ وقالوا أئِذا ضَلَلْنا في الأَرْضِ أئِنّا لفي خَلْقٍ جديدٍ ﴾[2] ويحتمل كونه إشارة إلى الشبهة التالية .

١٠ ـ فقدان الصلة بين المبتدأ والمُعاد

إذا كان الموت وصيرورة الإنسان تراباً ، إعداماً للشخصية ، فالشخصية المحياة في النشأة الأُخرى ، لا تمت إلى الأُولى بصلة ، فكيف تكون إحياء لها ؟ فإنّ المقصود من المعاد ، إحياء الناس لإثابتهم أو معاقبتهم ، وهو فرع وحدة المعاد والمبتدأ ، واتّحادهما ، وهو منتف ، ولعلّ الآية السابقة ، تشير إلى هذه الشبهة .

هذه هي شبهاتهم التي تستحق البحث ، وإليك فيما يلي مناقشتها :

الإجابة التفصيلية عن شبهاتهم

الإعتقاد بالمعاد إعتقاد بالغيب وإيمان به ، وهو فرع معرفة الله سبحانه ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، وأفعاله ، ولولا تلك المعرفة ، لما حصل الإيمان بشيء من

---

(١) سورة سبأ : الآية ٣ .

(٢) سورة السجدة : الآية ١٠ .

الأُمور الغيبية ، فالإعتقاد بمعاجز الأنبياء ، وكراماتهم التي يحكيها لنا القرآن الكريم ، قائم على معرفة الله سبحانه . ومعرفة شؤونه تبارك وتعالى . وعلى هذا الأساس يبتني الجواب عن الشبهتين الأُوليين :

جواب الشبهة الأُولى ـ القدرة المطلقة وإحياء الموتى

إنّ تخيل استحالة المعاد ، الناشيء من توهّم أنّ إحياء الموتى خارج عن إطار القدرة ،جهل بالله سبحانه ، وجهل بصفاته القدسية ، فإنّ قدرته عامة تتعلق بكل أمر ممكن بالذات ، ومن هنا نجد القرآن الكريم ينددد بقصور المشركين وجهلهم في مجال المعرفة ، ويقول : ﴿ **وما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، والأَرْضُ جميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ والسَّمٰواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمينِهِ** ﴾[1] . ومعنى عدم التقدير هنا ، عدم تعرفهم على الله سبحانه حَقّ التعرف ، ولذلك يعقبه بقوله : ﴿ **وَنُفِخَ في الصُّورِ** ﴾ ، معرباً عن أنّ إنكار المعاد ينشأ من هذا الباب .

وفي آيات أخرى تصريحات بعموم قدرته ، كقوله : ﴿ **أَيْنَما تكونوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَميعاً ، إنَّ اللهَ علىٰ كُلِّ شيْءٍ قَديرٌ** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ على كُلِّ شيَءٍ قَديرٌ** ﴾[3] .

والآيات الواردة في هذا المجال كثيرة[4] .

ثم إنّ القرآن يسلك طريقاً ثانياً في تقرير إمكان المعاد ، وذلك عبر الآتيان بأُمور محسوسة أقرب إلى الإذعان والإيمان :

---

(١) سورة الزمر : الآية ٦٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٤٨

(٣) سورة هود : الآية ٤ .

(٤) لاحظ النحل : الآية ٧٧ ، العنكبوت : الآية ٢٠ ، الروم : الآية ٥٠ ، فصلت : الآية ٣٩ ، الشورى : الآية ٩و٢٩ ، الأحقاف :.الآية ٣٣ ، الحديد : الآية ٢ .

أ ـ القادر على خلق السموات ، قادر على إحياء الموتى

يقول سبحانـه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ على أَنْ يُحْيِيَ المَوْتى ﴾[1] .

وكيفية الإستدلال بها واضحة ، فإنّ القادر على إبداع هـذا النظم البـديع ، أقدر على إحياء الإنسان .

ب ـ القادر على المبتـدأ قادر على المعاد

إنّ من الضوابط العقلية المحكمـة أنّ أدلّ دليل عـلى إمكان الشيء وقـوعه ، وأنّ حكمَ الأمثال فيما يجوز ولا يجوز واحد ، فلو كانت الإعـادة أمراً محـالاً ، لكان ابتـداءُ الخِلْقة مثله ، لأنّهما يشـتركان في كـونهما إيجاداً لـلإنسان ، وعـلى ذلك قـوله سبحـانه : ﴿وَقـالوا أَئِـذا كُنّا عـظاماً ورُفـاتاً أَئِنـا لَمَبْعوثـونَ خَلْقـاً جـديـداً . . . فَسَيَقولونَ مَنْ يُعيدُنا ، قُلِ الَّذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[2] .

وقوله سبحانه : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُـدىً * أَلَمْ يَكُ نُـطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنىٰ * ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَـيْنِ الذَّكَـرَ والأُنْثى * أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقادِرٍ عَلَى أَنْ يُحيِي المَوْتى ﴾[3] .

ج ـ القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحيـاء الإنسان بعـد موته

ويُري الذكر الحكيم في آياته إعادة الحياة إلى التراب بشكل ملموس ، وذلك بصورتين :

أُولاهما : أنّه إذا امتنع عود الحياة إلى التراب ، فكيف صار التراب إنساناً في

---

(١) سورة الأحقاف : الآية ٣٣ . ومثلها يس : الآية ٨١ .

(٢) سورة الإسراء : الآيات ٤٩ ـ ٥١ .

(٣) سورة القيامة : الآيات ٣٦ ـ ٤٠ ، وقد ورد في هذا المجال آيات أُخـر ، فلاحظ يس : الآيـة ٧٩ ، سورة الطارق : الآيات ٥ ـ ٨ .

بدء الخلقة ، وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ يا أَيُّها النّاس إنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ من البَعْثِ فإنّا خَلَقْناكُمْ مِن ترابٍ . . . ﴾[1] .

ويقول : ﴿ مِنْها خَلَقْناكُمْ وفِيها نُعيدكُمْ ومِنْها نُخْرِجُكُمْ تارةً أُخْرى ﴾[2] .

وثانيتهما : إنّ الأرض الميتة تحيا كُلّ سنة بنزول الماءِ عليها فتهتز وتربو بعد جفافها ، وتُنْبِتُ من كل زوج بهيج ، يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً فإذا أَنْزَلْنا ، عَلَيْها الماءَ اهْتَزَّتْ ، وَرَبَتْ وأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ * ذلكَ بأَنَّ الله هُوَ الحَقُّ ، وأَنَّه يُحيي المَوْتى ، وأَنَّه على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ * وأَنَّ السّاعَةَ آتِيةٌ لا رَيْبَ فيها ، وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبورِ ﴾[3] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الّذي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ ، حتّى إذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمراتِ ، كذلك نُخْرِجُ المَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ ﴾[4] .

فليس إحياء الإنسان من التراب إلّا كإحياء التراب الميت ، باخضرار نباته ، وازهرار أشجاره .

وبهذه النماذج المحسوسة يُثْبِت القرآن عموم قدرته تعالى ، مضافاً إلى البراهين العقلية على عموم قدرته تعالى شأنه .

جواب الشبهة الثانية ـ العلم المطلق والتعرف على الأجزاء المندثرة

إنّ هذه الشبهة وسابقتها ، لهما منشأ واحد هو عدم التعرف على الله سبحانه : صفاته وأفعاله ، وهنا يقولون إنّ الأجزاء المتلاشية المبعثرة في أكناف

---

(١) سورة الحج : الاية ٥ .

(٢) سورة طه : الآية ٥٥ .

(٣) سورة الحج : الآيات ٥ ـ ٧ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٥٧ . ولاحظ الزخرف : الآية ١١ ، الروم : الآية ١٩ ، سورة فاطر : الآية ٩ ، سورة ق : الآيات ٩ ـ ١١ .

الأرض لا يمكن التعرف عليها ليعاد جمع أجزاء كل إنسان .

والجواب عنه واضح بعد التعرف على علمه الوسيع ، سبحانه ، وأنّ الممكنات بعامة أجزائها حاضرة لديه غير غائبة عنه .

يقول سبحانه : بعد نقل شبهتهم (أئِذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً ، ذلكَ رَجْعٌ بعيد) .

﴿ قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدنا كتابٌ حفيظ ﴾[1] . فالتركيز في الجواب على علمه سبحانه بما تنقص الأرض منهم ، وأنّ عنده كتاباً حفيظاً لكل شيء ، يُعْرب عن أنّ شبهتهم كانت ترجع إلى عدم إمكان التعرف على الأجزاء البالية ، حتى يُعاد جمعُها .

ونظير ذلك قوله سبحانه : ﴿ وما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلاّ كنَفْسٍ واحِدَةٍ إنَّ الله سميعٌ بَصيرٌ ﴾[2] . فالتركيز على كونه سميعاً وبصيراً يعرب عن أنّ المقصود من صدر الآية هو نقل شبهتهم الراجعة إلى علمه سبحانه .

جواب الشبهة الثالثة ـ الموت ليس إبطالاً للشخصية

إنّ القائل بأنّ الموت إبطال للشخصية ، حسب أنّ الإنسان موجود مادي محض ، وليس هو إلاّ مجموعة خلايا وعروق وأعصاب وعظام وجلود ، تعمل بانتظام ، فإذا مات الإنسان صار تراباً ، ولا يبقى من شخصيته شيء ، فكيف يمكن أنْ يكون المُعاد نفس الأول ؟ ولعلّه إلى ذلك يشير قولهم : « أئِذا ضَلَلْنا في الأَرْضِ أئنا لفي خلق جديد ؟ » . بأن يكون المراد من الضلال في الأرض بطلان الهوية بطلاناً كاملاً لا يمكن أن تتسم معه بالإعادة ، ويجيب القرآن عن هذه الشبهة بجوابين :

أوّلها ، قوله : ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رِبِّهِمْ كافِرونَ ﴾[3] .

---

(١) سورة ق : الآية ٤ .

(٢) سورة لقمان : الآية ٢٨ .

(٣) سورة السجدة : الآية ١٠ .

وثانيهما ، قوله : ﴿ قُلْ يَتوفّاكُـمْ مَلَكُ المَوْتِ الَّذي وُكِّلَ بِكُمْ ثمَّ إلى ربّكُمْ تُرْجَعونَ ﴾[1] .

والجـواب الأول راجع إلى بيـان باعث الإنكـار ، وهـو أنّ السبب الـواقعي لإنكار المعاد ، ليس ما يتقوّلونه بألسنتهم من الضلالة في الأرض ، وإنّما هو ناشيء من تَبَنّيهم موقفاً سلبياً في مجال لقاء الله ، فصار ذلك مبدءً لطرح هذه الشبهات .

والجواب الثاني جوابٌ عقلي عن هـذا السؤال ، وتعلم حقيقته بـالإمعان في معنى لفظ التـوفي ، فهو وإن كـان يفسَّر بالمـوت ، ولكنّه تفسـير بالـلازم ، والمعنى الحقيقي له هو الأخذ تماماً ، وقد نصّ على ذلك أئمة أهل اللغة ، قال ابن منـظور في اللسـان : « تُوُفِّيَ فـلان وتوفـاه الله ، إذا قَبَضَ نَفْسَـهُ ، وتَـوَفَّيْت المـال منـه ، واستوفيته ، إذا أَخَذته كلّه . وتـوفيت عدد القـوم ، إذا عددتهم كلهم . وأنشـد أبو عبيدة :

إنّ بـني الأدرد لـيسـوا مـن أحـد ولا تَـوفّـاهـم قـريش في الـعـدد

أي لا تجعلهم قريش تمام عددهم ولا تستوفي بهم عددهم »[2] .

وآيات القرآن الكريم بنفسها كافية في ذلك ، يقول سبحانه : ﴿ الله يَتَـوَفَّى الأَنْفُسَ حينَ مَوْتِها ، والَّتي لَمْ تَمُتْ في مَنامِها ﴾[3] . فإنّ لفـظة « التي » ، معطوفـة على الأنفس ، وتقدير الآية : يتـوفى التي لم تمت في منامهـا . ولو كـان التوفي بمعنى الإماتة ، لما استقام معنى الآية ، إذ يكون معناها حينئـذٍ : الله يُميتُ التي لَمْ تَمُتْ في منامِها . وهل هذا إلاّ تناقض ؟ فلا مناص من تفسير التوفّي بالأخذ ، وله مصاديق تنطبق على الموت تارة ، كما في الفقرة الأولى ، وعلى الإنامة أُخرى ، كـما في الفقرة الثانية .

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى قوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَتوفّـاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ ﴾ ، فمعناه : يأخذكم مَلَكُ المَوْتِ الـذي وُكّل بكم ثم إنّكم إلى الله تـرجعون . وهـذا

---

(١) سورة السجدة : الآية ١١ .

(٢) لسان العرب ، ج ١٥ ، ص ٤٠٠ ، مادة « وفى » .

(٣) سورة الزمر : الآية ٤٢ .

مآله إلى أنّ شخصيتكم الحقيقية لا تضل أبداً في الأرض ، وما يرجع إليها يأخذه ويقبضه ملك الموت ، وهو عندنا محفوظ لا يتغير ولا يتبدّل ولا يضلّ ، وأمّا الضال ، فهو البدن الذي هو بمنزلة اللباس لهذه الشخصية .

فينتج أنّ الضال لا يشكل شخصية الإنسان ، وما يشكّلها ويقوّمها فهو محفوظ عند الله ، الذي لا يضلّ عنده شيء .

والآية تعرب عن بقاء الروح بعد الموت وتجرّدها عن المادة وآثارها ، وهذا الجواب هو الأساس لدفع أكثر الشبهات التي تطرأ على المعاد الجسماني العنصري .

وبما أنّ تجرد النفس ، ممّا شغل بال المنكرين ، واهتمّ به القرآن الكريم ، عناية كاملة ، فسنبحث عنه بعد الإجابة عن الشبهة الرابعة .

جواب الشبهة الرابعة ـ شخصية المُعاد نفس شخصية المُبْتدأ

عرفت أنّهم قالوا : إذا كانت الغاية من المعاد ، تحقيق العدل الإلهي ، وإثابة المطيع ، وعقاب العاصي ، فيجب أن يكون المُعاد نفس المبتدأ حتى لا يؤخذ البريء بجرم المتعدي ، وهو يتوقف على وجود الصلة بين الشخصيتين ، وليس هناك صلة بينهما .

وهذه الشبهة ناشئة من نفس ما نشأت الشبهة السابقة منه ، وهو تَخَيُّل أنّ شخصية الإنسان منحصرة في الإطار المادي ،لا غير . ولعلّ قولهم : « أئِذا ضَلَلْنا في الأرض » ، يشير إلى هذه الشبهة .

والجواب نفس الجواب السابق ، وهو أنّ ما يرجع إلى حقيقة الإنسان محفوظ عند الله سبحانه ، وَهُوَ الصِّلة الوثيقة بين المبتدأ والمعاد ، وهو الذي يجعل البَدَنَ الثاني ، إعادة للشخص الأول ، لأنّ شخصيته هي روحه ونفسه وهي محفوظة في كلتا الحالتين ، وإنّما البدن أداة ولباس لها ، وليس هذا بمعنى أنّ الروح تعاد ولا يعاد البدن ، ولا أنّه لا يعاد نفس البدن الأول ، بل بمعنى أنّ المناط للشخصية الإنسانية ، هو روحه ونفسه ، والبدن غير مُهْتَم به ، والغرض من حشره ببدنه ، عدم إمكان تعذيب الروح أو تنعيمها إلاّ عن طريق البدن ، فإذا كانت الشخصية

محفوظة ، فلا تنقطع الصلة بين المبتدأ والمعاد ، خصوصاً أنّ أجزاء البدن المبعثرة ، معلومة لله سبحانه . فهو يُـرَكِّب تلك الأجزاء المبعـثرة ، وتتعلق بها الـروح ، قال سبحانه : ﴿ قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفيظٌ ﴾[1] . وقال سبحـانه : ﴿ قُـلْ يُحْيِيها الّـذي أَنْشأَهـا أَوَّلَ مرَّةٍ ، وَهُـوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَليمٌ ﴾[2] . فالتعبير بـ ﴿ خَلْقٍ عَليمٍ ﴾ مكان « خلق قديـر » ، إشارة إلى علمـه تعالى بـأجزاء بدن كل إنسان .

إلى هنا فرغنـا من الإجابـة عن الشبهات المـطروحة حـول المعاد التي ذكـرها القرآن ، وبما أنّ الإجابة عن الشبهتين الأخيرتين مبنيٍ على تجرّد الروح وبقائها بعـد الموت ، نُفْرِدُهُ بالبحث ونثبت هذا التجرّد عقلاً ونقلاً ، وهو من مهـام البحوث في المعاد .

* * *

---

(١) سورة ق : الآية ٤ .

(٢) سورة يس : الآية ٧٩ .

مباحث المعاد

(٤)

تجرد الروح الإنسانية

لقد شغل أمْرُ تجرد الروح بال المفكرين ، واستدلوا عليه بوجوه عقلية عدة ، كما اهتمّ القرآن الكريم ببيانه في لفيف من آياته ، وفيما يلي نسلك في البحث عن تجرّد الروح هذين الطريقين : العقلي والنقلي .

١ ـ البراهين العقلية على تجرد الروح

تدلّ براهين كثيرة على أنّ النفس مجرّدة غير مشوبة بالمادة وآثارها . وتجرّدها يعتبر من النوافذ إلى عالم الغيب ونكتفي فيما يلي بإيراد أبرز هذه البراهين وأوضحها ، وإلاّ فهي كثيرة تتجاوز العشرة .

البرهان الأول ـ ثبات الشخصية الإنسانية في دوامة التغيّرات الجسدية

وهذا البرهان يتألّف من مقدمتين :

الأولى أنّ هناك موجوداً تنسب إليه جميع الأفعال الصادرة عن الإنسان ، ذهنية كانت أو بدنية .

ولهذا الموجود حقيقة، وواقعية يشار إليها بكلمة « أنا » .

الثانية أنّ هذه الحقيقة التي تُعَدُّ مصدراً لأفعال الإنسان ، ثابتة وباقية

ومستمرة في مهبّ التغيرات ، وهذا آية التجرّد .

أمّا المقدمة الأُولى ، فلا تحتاج إلى بحث كثير ، لأنّ كل واحدٍ يَنْسِبُ أَعضاءه إلى نفسه ويقول يدي ، رجلي ، عيني ، أُذني ، قلبي ، . . . كما ينسب أَفعاله إليها ، ويقول قرأت ، كتبت ، أردت ، أحببت ، وهذا مما يتساوى فيه الإلهي والمادي ولا ينكره أحد ، وهو بقوله « أنا » و« نفسي » ، يحكي عن حقيقة من الحقائق الكونية ، غير أنّ اشتغاله بالأعمال الجسمية ، يصرفه عن التعمّق في أمر هذا المصدر والمبدأ ، وربما يتخيل أنّه هو البدن ، ولكنه سرعان ما يرجع عنه إذا أمعن قليلاً حتى أنّه ينسب مجموع بدنه إلى تلك النفس المعبّر عنها بـ « أنا » .

وأمّا المقدمة الثانية ، فكل واحد منا يحسّ بأنّ نفسه باقية ثابتة في دوامة التغيرات والتحوّلات التي تطرأ على جسمه ، فمع أنّه يتصف تارة بالطفولة ، وأُخرى بالصبا ، وثالثة بالشباب ، وأخيراً بالكهولة ، فمع ذلك يبقى هناك شيء واحد تسند إليه جميع هذا الحالات ، فيقول : أنا الذي كنت طفلاً ثم صرت صبياً ، فشاباً ، فكهلاً ، وكل إنسان يحسّ بأنّ في ذاته حقيقة باقية وثابتة رغم تغير الأحوال وتصرم الأزمنة ، فلو كانت تلك الحقيقة التي يحمل عليها تلك الصفات أمراً مادياً ، مشمولاً لِسُنّة التغيّر والتبدّل ، لم يصحّ حمل تلك الصفات على شيءٍ واحد ، حتى يقول : أنا الذي كتبت هذا الخط يوم كنت صبياً أو شاباً ، فلولا وجود شيءٍ ثابتٍ ومستمرٍ إلى زمان النطق ، للزم كذب القضية ، وعدم صحتها ، لأنّ الشخصية التي كانت في أيام الصبا ، قد زالت ـ على هذا الفرض ـ وحدثت بعدها شخصية أُخرى .

لقد أثبت العلم أنّ التغيّر والتحوّل من الآثار اللازمة للموجودات المادية ، فلا تنفك الخلايا التي يتكون منها الجسم البشري ، عن التغير والتبدّل ، فهي كالنهر الجاري تخضع لعملية تغيير مستمر ، ولا يمضي على الجسم زمن إلاّ وقد احتلّت الخلايا الجديدة مكان القديمة . وقدحسب العلماء معدل هذا التجدد ، فظهر لهم أنّ التبدّل يحدث بصورة شاملة في البدن ، مرة كل عشر سنين .

وعلى هذا ، فعملية فناء الجسم المادي الظاهري مستمرة ، ولكن

الإنسان ،في الداخل (أنا) ، لا يتغير . ولو كانت حقيقة الإنسان هي نفس هذه الخلايا لوجب أن يكون الإحساس بحضور « أنا » في جميع الحالات أمراً باطلاً ، وإحساساً خاطئاً .

وحاصل هذا البرهان عبارة عن كلمتين : وحدة الموضوع لجميع المحمولات ،وثباته في دوامة التحولات . وهذا على جانب النقيض من كونه مادياً .

البرهان الثاني ـ علم الإنسان بنفسه مع الغفلة عن بدنه[1]

إنّ الإنسان قد يغفل في ظروف خاصة عن كل شيء ، عن بدنه وأعضائه ، ولكن لا يغفل أبداً عن نفسه ، سليماً كان أم سقيماً وإذا أردت أن تجرب ذلك ، فاستمع إلى البيان التالي :

إفرض نفسك في حديقة زاهرة غناء ، وأنت مستلق لا تُبْصِرُ أطرافَك ولا تتنبّه إلى شيءٍ ، ولا تتلامس أعضاؤك ، لئلا تحسّ بها ، بل تكون منفرجة ، ومرتخية في هواء طلق ، لا تحسّ فيه بكيفية غريبة من حرٍّ أو بردٍ أو ما شابه ، ممّا هو خارج عن بدنك . فإنّك في مثل هذه الحالة تغفل عن كل شيءٍ حتى عن أعضائك الظاهرة ، وقواك الداخلية ، فضلاً عن الأشياء التي حولك ، إلّا عن ذاتك ، فلو كانت الروح نفس بدنك وأعضائك وجوارحك وجوانحك ، للزم أن تغفل عن نفسك إذا غفلت عنها ، والتجربة أثبتت خلافه .

وبكلمة مختصرة : « المغفول عنه ، غير اللامغفول عنه » . وبهذا يكون إدراك الإنسان نفسه من أول الإدراكات وأوضحها .

البرهان الثالث ـ عدم الإنقسام آية التجرّد

الإنقسام والتجزء من آثار المادة ، غير المنفكة عنها ، فكل موجود مادي

---

(١) هذا البرهان ذكره الشيخ الرئيس في الإشارات ج ٢ ص ٩٢ . والشفاء قسم الطبيعيات في موردين ص ٢٨٢ و٤٦٤ .

خاضع لها بالقوة ، وإذا عجز الإنسان عن تقسيم ذلك الموجود ، فلأجل فقدانه أدواته اللازمة . ولأجل ذلك ذكر الفلاسفة في محلّه ، بطلان الجزء الذي لا يتجزأ . وما يسميه علم الفيزياء ، جزءً لا يتجزأ ، فإنّما هو غير متجزّء بالحسّ ، لعدم الأدوات اللازمة ، وأمّا عقلاً فهو منقسم مهما تناهى الإنقسام ، لأنّه إذا لم يمكن الإنقسام ، وعجز الوهم عن استحضار ما يريد أن يقسّمه ـ حتى بالمكبرات ـ بسبب صغره ، يفرض العقل فيه شيئاً غير شيءٍ ، فيحكم بأنّ كل جزء منه يتجزء إلى غير النهاية ، ومعنى عدم الوقوف أنّه لا ينتهي انقسامه إلى حدّ إلّا ويتجاوز عنه[1] .

ومن جانب آخر ، كلُّ واحدٍ منّا إذا رجع إلى ما يشاهده في صميم ذاته ، ويعبّر عنه بـ « أنا » ، وجده معنىً بسيطاً غير قابلٍ للإنقسام والتجزّي ، فارتفاع أحكام المادة ، دليل على أنّه ليس بمادي .

إنّ عدم الإنقسام لا يختص بما يجده الإنسان في صميم ذاته ويعبّر عنه بـ « أنا » ، بل هو سائد على وجدانياته أيضاً من حبٍّ ، وبُغْضٍ ، وإرادةٍ ، وكراهةٍ ، وتصديقٍ ، وإذعانٍ . وهذه الحالات النفسانية ، تظهر فينا في ظروف خاصة ، ولا يتطرق إليها الإنقسام الذي هو من أظهر خواص المادة .

إعطف نظرك إلى حبك لولدك ، وبغضك لعدوك ، فهل تجد فيهما تَرَكُّباً ؟ وهل ينقسمان إلى جزء فجزءٍ ؟ كلا ، لا .

فإذا كانت الذات والوجدانيات غير قابلة للإنقسام ، فلا تكون منتسبةً إلى المادة التي يُعَدّ الإنقسام من أظهر خواصّها .

فظهر ممّا ذكرنا أنّ الروح وآثارها ، والنفس والنفسانيات ، كلُّها موجودات واقعية خارجة عن إطار المادة ، ومن المضحك قول المادي إنّ التفحص ، والتفتيش العلمي في المختبرات لم يصل إلى موجود غير مادي ، حتى نذعن بوجوده ، فقد عزب عنه أنّ القضاء عن طريق المختبرات يختصّ بالأمور المادية ، وأمّا ما يكون

---

(١) لاحظ شرح المنظومة ، للحكيم السبزواري ، ص ٢٠٦ .

سنخ وجوده على طرف النقيض منها ، فليست المختبرات محلاً وملاكاً للقضاء بوجوده وعدمه .

ثم إنّ البحث العقلي ، في تجرّد الروح مترامي الأطراف مختلف البراهين ، اكتفينا بهذا القدر منه ، ومن أراد التبسّط فليرجع إلى الكتب المعدة لذلك[1] .

* * *

٢ ـ القرآن وتجرّد النفس وخلودها

الآيات التي يستظهر منها خلود الروح وتجرّدها على قسمين : قسم يدلّ عليه بصراحة لا تقبل الإنكار ، وقسم آخر يستظهر منه ، وإنْ كان قابلاً للحمل على معنى آخر ، وإليك نقل القسمين بإيضاح إجمالي :

القسم الأول من الآيات

(أ) ـ يقول سبحانه : ﴿ **اللهُ يَتَوفَّىٰ الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها ، والّتي لَمْ تَمُتْ في مَنامِها ، فَيُمْسِكُ الّتي قَضىٰ عَلَيْها المَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الأخرى ، إلى أَجَلٍ مُسَمّىً ، إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتفَكَّرونَ** ﴾[2] .

والدلالة مبنية على إمعان النظر في لفظة التوفّي ، وقد عرفت أنّها بمعنى الأخذ والقبض ، لا الإماتة . وعلى ذلك فالآية تدلّ على أنّ للإنسان وراء البدن شيئاً يأخذه الله سبحانه ، حين الموت والنوم ، فيُمْسكه إن كتب عليه الموت ، ويرسله إن لَمْ يكتب عليه ذلك إلى أجلٍ مسمى ، فلو كان الإنسان متمحضاً في المادة وآثارها ، فلا معنى « للأخذ » و« الإمساك » و« الإرسال » ، كما هو واضح .

(ب) ـ يقول سبحانه : ﴿ **ولا تَحْسَبَنَّ الّذينَ قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً ، بل**

---

(١) لاحظ الإشارات للشيخ الرئيس ج ٢ ، ص ٣٦٨ ـ ٣٧١ . والأسفار ، ج ٨ ص ٣٨ . وأصول الفلسفة للعلامة الطباطبائي ، رحمه الله وترجمة الأستاذ دام حفظه ج ١ ، المقالة الثالثة ، ص ١٢٩ ـ ١٨٣ . وفي هذا الأخير يجد المتتبع ضالته .

(٢) سورة الزمر : الآية ٤٢ .

أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقونَ * فَرِحينَ بما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرونَ بالَّذين لَمْ يَلْحَقوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ألّا خَوفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنونَ * يَسْتَبْشِرونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُؤْمِنينَ ﴾[1] .

وصراحةُ الآية غيرُ قابلةٍ للإنكار ، فإنّها تقول : إنّهم أحياء أوّلاً ، ويرزقون ثانياً ، وإنّ لهم آثاراً نفسانية يفرحون ويستبشرون ، لا يخافون ولا يحزنون ثالثاً :

ونظيره قوله سبحانه : **﴿ ولا تَقُولوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سبيلِ الله أمواتٌ ، بل أَحْياءٌ ولكن لا تَشْعُرونَ ﴾**[2] .

وتفسير الحياة في الآيتين ، بالحياة في شعور الناس وضمائرهم ، وقلوبهم ، وفي الأندية والمحافل والمناسبات الرسمية ، تفسير مادي للآية ، جرّت إليه النزعات الإلحادية ، ولو كان المراد هو هذا النوع من الحياة ، فما معنى قوله سبحانه : **﴿ يُرْزَقون ﴾** ، **﴿ فرحين ﴾** ، **﴿ يستبشرون ﴾** ، وما معنى قوله : **﴿ ولكن لا تشعرون ﴾** ، فإنّ الحياة بالمعنى الذي ذكروه يشعر بها كل الناس .

(ج) ـ يقول سبحانه : **﴿ وحاقَ بآلِ فِرْعَوْنَ سوءُ العذابِ * النّارُ يُعْرَضونَ عليها غُدُوّاً وَعَشِيّاً ، وَيَوْمَ تقومُ السّاعَةُ ، أَدْخِلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذابِ ﴾**[3] .

فترى أنّه سبحانه يحكم على آل فرعون بأنّهم يُعْرضون على النار ، في كل يوم وليلة ، قبل يوم القيامة ، بشهادة قوله بعده : **﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ ﴾** ، فإنّه دليلٌ على أنّ العرضَ على النار قبلها ، فلو كان الموت بطلاناً للشخصية ، واندثاراً لها ، فما معنى العرض على النار ، صباحاً ومساءً .

(د) ـ يقول سبحانه : **﴿ مِمّا خطيئاتِهِمْ أُغْرِقوا فَأُدْخِلوا ناراً ، فَلَمْ يَجدوا لَهُمْ مِنْ دونِ اللهِ أَنصاراً ﴾**[4] .

---

(١) سورة آل عمران : الآيات ١٦٩ ـ ١٧١ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٥٤ .

(٣) سورة غافر : الآيتان ٤٥و٤٦ .

(٤) سورة نوح : الآية ٢٥ .

ودلالة الآية كدلالة سابقتها ، ولا يمكن تفسير قوله : ﴿ **فَأُدْخِلوا نـاراً** ﴾ ، بنار القيامـة ، وذلك لأنّ القيـامة لم تقـع بعد ، والآيـة تحكي عن الدخـول أوّلاً ، وكـونه متصـلاً بغـرقهم لا منفصـلاً عنـه ثـانيـاً ، قضـاءً بحكم الفـاء في قـولـه : ﴿ **فأُدْخِلوا** ﴾ .

(هـ) ـ يقول سبحانه : ﴿ **قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الّذي وُكّل بِكُمْ ، ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعونَ** ﴾[1] .

وقـد تقدمت دلالـة الآيـة ، فقلنـا إنّ محـور الـدلالـة هـو الإمعـان في معنى التوفّي .

(و) ـ يقول سبحانه : ﴿ **وَلَوْ تَرى إذِ الظّالمونَ في غمراتِ المَـوْتِ والملائِكَـةُ باسِطوا أيدِيهِمْ أَخْرِجوا أَنْفُسَكُمْ ، اليَوْمَ تُجْـزَوْنَ عذابَ الهُـونِ بما كُنْتُمْ تَقـولونَ على الله غَيْرَ الحَقِّ وكُنْتُمْ عن آياتِهِ تَسْتَكْبِرونَ** ﴾[2] .

والمراد من الأنفس ، في الآية ، هـو عين مـا ورد في قولـه سبحانـه : ﴿ **الله يَتَوفَّى الأنفُسَ حين مَوْتِها** ﴾ ، وهي تحكي عن أنّ للظالمين أبدانـاً وأنْفُساً والمـلائكةُ موكّلون بأخذ أنفسهم وترك أبدانهم ،ولو كان الإنسان مـوجوداً مـادياً محضـاً ، فما معنى أخذ الأنفس ، إذ يكون الموت حينئذٍ خمود الحرارة الغريزية لا أكثر .

أضف إلى ذلك أنّ الآية تدلّ على أن الظالم يعذب يوم خروج نفسـه بعذاب الهُون ، وهذا يدل على أنّ وراءَ البدن شيءٌ آخر يُعَذَّب .

وتفسير عذاب الهُون بشدة قبض الروح ، تفسير على خلاف الظاهر .

(ز) ـ يقول سبحانه : ﴿ **قيلَ ادْخُـلِ الجَنَّةَ ، قـال يا لَيْتَ قَـوْمي يَعْلَمونَ * بما غَفَر لي رَبِّي وَجَعَلَني من المُكْرَمين** ﴾[3] .

يقـول المفسرون : إنّ عيسى عليه السـلام بعث رسولـين من الحواريـين إلى

---

(١) سورة السجدة : الآية ١١ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٩٣ .

(٣) سورة يس : الآيتان ٢٦و٢٧ .

مدينة أنطاكية ، فلقيا من أهلها عنفاً وردّاً ، غير أنّ واحداً من أهلها اسمه حبيب النجار ، آمن بهما وأظهر إيمانه ،وقال : ﴿ إنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فاسْمَعونِ ﴾ ، فلما سمع القوم إيمانه وطؤوه بأرجلهم حتى مات ، فأُدخله الله الجنة ، وخوطب بقوله تعالى : ﴿ أُدْخلِ الجَنَّة ﴾ . ثم هو تمنّى أن يعلم قومُه بما آتاه الله تعالى من المغفرة وجزيل الثواب ، فقال : ﴿ يا لَيْتَ قَومي يَعْلَمونَ * بِمَا غَفَر لي رَبِّي وَجَعَلني من المُكرَمينَ ﴾ .

فالآية تدل على أنّ الموت ليس فناء للإنسان ، بل هو بعد الموت يرزق في الجنة ، ويتمنى أن يعلم قومه بما رزق من الكرامة .

أضف إلى ذلك أنّ قوله تعالى : ﴿ أُدْخِل الجَنَّة ﴾ ، لا يمكن أن يكون خطاباً للبدن لأنه يوارىٰ تحت التراب ، فالمخاطب به شيءُ آخر ، وهو الروح ، فتدخل الجنة وتتنعّم فيها ، وكم فرق بين قوله : « أُدخل الجنة » وقوله « أبشر بالجنة » فالثاني لا يدلّ على شيء مما ذكرنا بخلاف الأوّل .

(و) يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَد خَلَقْنا الإنسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طينٍ * ثُمَّ جَعلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ * ثُمَّ خَلَقْنا النُّطفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظاماً ، فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ، ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخرَ ، فتبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ ﴾[1] .

وأمّا دلالةُ الآيةِ على أنّ الروحَ أمْرٌ غير ماديّ ، فيظهر بالإمعان فيها ، وبيانه : أنّ الآية تبيّن تكامل خلقة الإنسان من مرحلة إلى مرحلة ، والمراحل الموجودة بين السلالة ، وقوله : ﴿ فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ﴾ ، كلُّها تكامل من صنف واحد ، فمادة الإنسان لن تبرح تتكامل من السلالة إلى العظام المكسوة باللّحم .

وبعد ذلك نرى تغييراً في أُسلوب بيان الآية ، حيث يقول : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ ، فتبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالَقين ﴾. فهو سبحانه :

أولاً : يعطف هذه المرحلة على المراحل السابقة ، بلفظة ثُمّ ، بخلاف

(١) سورة المؤمنون : الآيات ١٢ـ١٤ .

المـراحـل السـابقـة ، فيعـطفهـا بـالفـاء ، ويقـول فخلقنـا العَلَقـة . . . فخلقنـا المُضْغة . . . فَكَسَوْنـا العِظام . . . وهـذا يدل عـلى تغايـر هائـل بين هـذه المرحلة والمراحل السابقة .

ثانياً : يستعمل في بيان خلقـه هذه المـرحلة لفظ الإنشاء ، بمعنى الإبـداع ، وإنشاء شيءٍ بلا مثال قَبْلَه ، وهو أيضاً يدل على مغايـرة هذه المـرحلة لما سبقهـا من المراحل ، مغايرةً جوهريّةً .

وثالثاً : إنّه سبحانه بعدمـا يقرر خلقـه هذه المـرحلة ، يثني على نفسـه ، مما يعرب عن اختلاف هذه المرحلة مع ما تقدمها ، وامتيازها عنها إمتيازاً جوهرياً .

وهذه الوجوه ، تكفي في دلالة الآيـة على أنّ المُنْشـأ في هذه المـرحلة شيءٌ لا يشبه المنشآت السابقة ،ويختلف عنها جوهراً ، وحيث إنّ المنشآت السابقة من سنخ تكامل المادة ، فيكون المُنْشَأ في هذه المرحلة ، مُنْشأ غـير مادي ، وهـو تعلّق النفس المجردة بالبدن في تلك المرحلة .

إلى هنا تم إيراد الآيات الصريحة في المطلوب ، ويقع الكـلام بعده في القسم الثاني من الآيات ، وهي التي يُسْتَظْهر منها الدلالـة على تجـرد الروح ، وإنْ كـانـت قابلة للحمل على معان أخرى .

القسم الثاني من الآيات

أ ـ يقول سبحانه : ﴿ فاليَوْمَ نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيةً ﴾[1] .

وتتضح الدلالة إذا أمعنّا أنّه سبحانه يخص النجاة ببـدن فرعـون ، ويقول : ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ وهـذا يعرب عن أنّ هنـاك شيء آخر لا يشمله النجـاة ، ويقع مـورد العذاب .

أضف إلى ذلك خطابه سبحانه أعني قوله : ﴿ نُنَجّيك ﴾ ، فإنه يدلّ على أنّ

---

(١) سورة يونس : الآية ٩٢ .

هناك واقعية ، غير البدن ، يكلمها ويخاطبها ، ويُعلّمها بأنّ النجاة تشمل بَدَنَها لا غيره .

ب ـ يقول سبحانه : ﴿ فعقَرُوا النّاقَةَ وعتَوْا عَنْ أمرِ رَبّهِمْ ، وقالوا يا صالِحُ ائْتِنَا بِما تَعِدُنا إنْ كُنْتَ مِنَ المُرسَلينَ * فأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فأصْبَحُوا في دارِهِمْ جاثمينَ * فَتَوَلّى عَنْهُمْ وقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسالَةَ رَبِّي وَنصحت لَكُمْ وَلٰكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحينَ ﴾[1] .

فقوله تعالى : ﴿ فَتولّى عنهم ﴾ : بعد قوله : ﴿ فَأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ ، يدل على أنّ توليه عنهم كان بعد هلاكهم ، ويترتب على ذلك أن محاورتهم بقوله : ﴿ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ﴾ ، كان محاورة بعد الدمار ، فالآية تدل على أمرين ، خلود الروح بعد الموت ، وإمكان الإتصال بالأرواح كما اتصل صالح بها فقال ما قال .

ونظير ذلك ما نقله عن شعيب ، قال : ﴿ الَّذينَ كَذَّبوا شُعَيباً كأنْ لَمْ يَغْنَوا فيها ، الَّذينَ كَذَّبوا شُعَيباً كانوا هُمُ الخاسِرينَ * فَتَوَلّىٰ عَنْهُمْ وقال يا قَوْم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فكيف آسى على قَوْمٍ كافرينَ ﴾[2] . ووجه الدلالة في المقامين واحدٌ خصوصاً إذا أمْعَنّا في « الفاء » ، في قوله ﴿ فَتولّى ﴾ ، المُعْرِب عن تأخر التولّي والمحاورة عن الهلاك .

وإنما جعلناهما من الآيات غير الصريحة ، لاحتمال أنْ تكون المحاورة تأثُريّة ، يتكلم بها الإنسان بلا اختيار عندما يواجه حادثة مُؤلمة حلّت على إنسان عاصي لا يسمع كلام ناصِحِه ، كالمجرم المصلوب فإنه يخاطَب ، بمثل ما خوطب به هؤلاء ، ولكنّ ظاهر الآية هو الأول .

ج ـ يقول سبحانه : ﴿ واسْأل مَنْ أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا ، أجَعَلْنَا مِنْ دونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدونَ ﴾[3] .

والآية تأمر النبي أن يسأل المتقدمين من الرسل في شأن اختصاص العبادة

---

(١) سورة الأعراف : الآيات ٧٧ـ٧٩ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان ٩٢ـ٩٣ .

(٣) سورة الزخرف : الآية ٤٥ .

بالله سبحانه ، الذي يحكي عنه قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا في كُلِّ أُمَّةٍ رسولاً أنِ اعبُدوا اللهَ واجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ** ﴾[1] .

والسؤال فرع وجود المسؤول أوّلاً ، وإمكان الإتصال ثانياً . فهي تدل على وجود أرواح الأنبياء ، وإمكان اتصال النبي بها .

ومع ذلك يمكن أن يكون المراد هو سؤال علماء أهل الكتاب أو أتباعهم ، لقوله سبحانه : ﴿ **فَإِنْ كُنْتَ في شكٍّ مّمّا أنْزلْنا إليكَ فاسأَل الّذينَ يقرءُون الكتابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تكونَنَّ من المُمْتَرين** ﴾[2] والغاية من السؤال هو الإحتجاج ، ومع ذلك فهذا الإحتمال على خلاف الظاهر .

وفي الآيات[3] ما يدل على أنّ الآية تأمر النبي بالسؤال في ليلة المعراج ، ولو تمت الروايات سنداً ، لما كانت مخالفة لما قلنا .

إلى هنا تم إيراد الآيات ـ بقسمَيْها ـ الدالة على خلود الروح بعد الموت ، وتجرّدها من آثار المادة ، وإمكان الإتصال بها في هذه النشأة وبذلك ثبت بنحو قاطع ، من طريقي العقل والنقل ،وجود الروح وتجردها وخلودها[4]، الذي له دَوْرٌ عظيم في حلّ معضلات المعاد ، والإجابة على الأسئلة الواردة حوله .

* * *

---

(١) سورة النحل : الآية ٣٦ .

(٢) سورة يونس : الآية ٩٤ .

(٣) لاحظ مجمع البيان ، ص ٤٩-٥٠ .

(٤) لاحظ في تكلّم النبي مع أرواح المشركين في غزوة بدر ، المصادر التالية : صحيح البخاري ، غزوة بدر ، ج ٥ ، ص٩٧،٩٨و ١١٠ . وصحيح مسلم ج ٤ ، كتاب الجنة . وسنن النسائي ، ج ٤ ، ص ٨٩و٩٠ . ومسند أحمد ، ج ٢ ص ١٣١ . وسيرة إبن هشام ، ج ١ ، ص ٦٣٩ ، ومغازي الواقدي ، ج ١ ، غزوة بدر . وبحار الأنوار ، ج ١٩ ، ص ٣٦٤ .
وتكلّم النبي مع أرواح المؤمنين المدفونين في البقيع : طبقات إبن سعد ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ . والسيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٦٤٢ . وإرشاد المفيد ، ص ٤٥ .
وتكلّم أمير المؤمنين مع النبي عند تغسيله : نهج البلاغة ، الخطبة ٢٣٠ .

نماذج من إحياء الموتى في الشرائع السابقة

أثبت الحكماء لليقين مراتب ودرجات ، ولكل منها عندهم إسم خاص ، ولتبيين هذه الدرجات نأتي بمثال :

إذا سمع الإنسان إسم النار ، ولم يرها ، وقيل له إنها موجود عنصري لها هيئةٌ خاصةٌ ، وأثر ومعيّن في الأعضاء ، وأذعن بذلك لكون المخبرين صادقين ، فهذه مرتبة من اليقين .

ثم إذا شاهدها من بعيد ، ولكن لم تمسّ حرارتها بدنه ، وإنما رأى هيئتها ، والتهابها ، بأم عينه ، فهذه مرتبة من اليقين أقوى من السابقة .

ولكن أين هذه المرتبة مما إذا شاهدها عن كثب ومَسّته حرارتها ، ففي هذه المرتبة يتكامل يقينه بها ، ويبلغ الدرجة القصوى .

وإذا كان لليقين مراتب ودرجات ، فلا لَوْم على الأنبياء والأولياء أنْ يطلبوا من الله سبحانه إحياء الموتى حتى يشاهدوه بأعينهم لإكمال مراتب يقينهم بالقيامة ، وتبديل علم اليقين فيهم بعين اليقين[1] .

---

(١) اقتباس من قوله سبحانه . ﴿ كلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثمّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليقينِ ﴾ (التكاثر : الآيات ٥ ـ ٧) .

ومن هنـا نرى أنّ الله سبحـانـه أحيى المـوتى لإبـراهيم الخليل ، وعـزَيْـر ، وغـيرهم كما سيأتي ، والغايـة كانت إكـمال مراتب اليقـين ، أو إتمـام الحجـة عـلى البعيدين عن هذه المعارف ، كما هو الحال في إحياء عيسى الموتى لبني إسرائيل ، وفيما يلي نورد هذه النماذج من القرآن الكريم .

١ ـ إبراهيم وإحياء الموتى

ذكر المفسرون أنّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رأى جيفة تمزقها السباع ، فيأكل منها سباع البر ، وسبـاع الهواء ودواب البحـر ، فسأل الله سبحـانه وقـال : يا ربّ قـد علمت أنّـك تجمعها في بـطون السباع والـطير ودواب البحر ، فـأرني كيف تحييهـا لأعاين ذلك ؟

يقول سبحانه : ﴿ **وإذ قال إبـراهيمُ رَبِّ أرِنِي كَيْفَ تُحيِ الْمَوْتىٰ ، قـالَ أوَلَمْ تُؤْمِن قالَ بلىٰ ولكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قال : فَخُذْ أرْبَعَةً من الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُـزْءاًثُمَّ ادْعُهُـنَّ يَـأتِينَكَ سَعْيـاً ، واعْلَمْ أنَّ اللهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ** ﴾[1] .

ومـا ذكرنـا من سبب النزول يكشف عن أنّـه لم يكن غرض إبـراهيم إحيـاء نفس فقط ، وإلا لكفى فيـه إحياء طـير واحد بعـد إماتتـه ، وإنمـا لكـان الغـرض مشاهدة إعادة أجزاء كلّ طير إليه بعد اختلاطها بـأجزاء الـطيور الأخـر ، وهذا لا يتحقق إلا بتعدد الطيور أوّلاً ،واختلافها نوعاً ، ثانياً ، واختلاطهـا بعد ذبحهـا ، ثالثاً ، فلأجل ذلك ورد أنّه أخذ طيوراً مختلفة الأجناس ، قيـل إنها : الطاووس ، والديك ، والحمام ، والغراب ، فقطّعها ، وخلط ريشهـا بدمهـا ، ثم فرّقهن عـلى عشرة جبال ، ثم أخذ بمناقيرهن ، ودعاهن باسمه سبحانه ، فأتته سعياً ، فكـانت تجتمع ويأتلف لحم كلّ واحد وعظمه إلى رأسه ، حتى قامت أحياء بين يديه .

وبذلك كمل إيمانه ، وتم إذعانه بأنّه سبحانه يمكن أن يعيد أجـزاء بدن كـل

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٠ .

حيّ إليه ، وأنِ اختلط بحيّ آخر ، كما لو أكلت الإنسان الميتَ سباعُ البراري وجوارحُ الهواء ، وحيتانُ البحار ، فإن الإختلاط لا يكون مانعاً عن الإحياء والإعادة ، وقد تقدّم في بيان شبهاتهم أنّ المنكرين كانوا يركزون على « ضلالة الأجزاء » في الأرض ، واختلاط أجزاء الموتى بعضها ببعض ، وقد قال سبحانه في هذا المجال : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا ما تَنْقُصُ الأرضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حفيظٌ ﴾[1] .

والإستدلال بالآية يتوقف على الإمعان في أمرين :

الأول ـ إنّ مقتضى البلاغة مطابقة الجواب للسؤال ، ولما كان سؤاله عن مشاهدة إحياء الموتى ـ واقتضى الحال الإجابة عنه ـ فيجب أن يكون ما يأمر به سبحانه محققاً لإحياء الموتى ، وهو لا يتحقق إلا بأن يقوم إبراهيم بتقطيعهن وخلط أجزائهن ، وتفريقهن على الجبال .

الثاني : الإمعان في قوله : ﴿ فَصُرْهُنَّ ﴾ ، والمصدر الذي اشتُقّ منه ، وفيه إحتمالات :

١ ـ ما نقل عن ابن عباس من أنه قرأ : « فَصَرَّهُنَّ » ، بتشديد الراء ، من باب صرَّ ، يَصُرُّ ، من التصرية ، وهي الجمع والضم[2] ، وهذه القراءة غير معروفة ، فهذا الإحتمال ساقط .

٢ ـ أن يكون مأخوذاً من الصَّيْر ، معتل العين ، فيقال صار يصير صيراً ، بمعنى انتهى إليه ، مثل قوله : ﴿ إليه المصير ﴾ . والأمر منه « صُرْ » ولعل من فَسره من أهل اللغة بمعنى المَيْل أخذه من هذا .

٣ ـ أنْ يكون مأخوذاً من « صري » ، معتل اللام ، ذكره الفراء في معاني القرآن ، فقال إنها إن كانت بمعنى القطع ، تكون من « صَرَيْت ، تصري » ، واستشهد بقول الشاعر :

---

(١) سورة ق : الآية ٤ .

(٢) الكشاف ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

صَرَت نـظرة لـو صـادف جـوز دارع
غـداً والـعـواصي من دم الجـوف تـنـعـر[1]

فإن جعل من « صَير » يكون بمعنى « أمِلْهُنّ إليك » ، ويجب عند ذلك تقدير كلمة اقطعهن ، لدلالة ظاهر الكلام عليه ، فيكون معنى الآية : أملهن إليك ، فقطِّعْهُنّ ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءً ، مثل قوله : ﴿ اضْرِبْ بعصاكَ البَحْرَ ، فَانْفَلَقَ ﴾[2]، أي فضرب فانفلق .

وإن جعل من « صري » ، تكون الكلمة متضمنة معنى الميل بقرينة تعدّيها بـ « إلى » ، فيكون المعنى : اقطعهن متمايلات إليك ، كتمايل كل طير إلى صاحبه .

وعلى كل تقدير ، فالآية تدل على أنّ إبراهيم قطّعهن وخلط أجزاءهن ، ثم فرقها على الجبال ، ثم دعاهن ، فأتَيْنه سعياً .

ومن غريب التفسير ، ما ذكره صاحب المنار فقال في معنى الآية ما حاصله : خُذْ أربعة من الطّير فضمها إليك ، وآنسها بك ، حتى تستأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك إذا دعوتها ، فإن الطيور من أشدّ الحيوانات استعداداً لذلك ، ثم اجعل كل واحد منها على جبل ، ثم ادعها ، فإنها تُسْرِع إليك من غير أنْ يمنعها تفرق أمكنتها وبعدها ، كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى ، يدعوهم لكلمة التكوين : « كونوا أحياء » ، فيكونون أحياء ، كما كان شأنه في بدء الخلقة ، ذلك إذ قال للسموات والأرض : ﴿ ائتيا طَوعاً أو كَرْهاً ، قالتا أتَيْنا طائعين ﴾[3] قال : والدليل على ذلك من الآية قوله تعالى : ﴿ فَصُرْهُنَّ ﴾ ، فإن معناه « أملهن » ، أي أوجد ميلاً بها ، وآنسها بك ويشهد به تعديته بإلى ، فإنّ صار إذا تعدى بإلى كان بمعنى الأمالة »[4] .

---

(١) معاني القرآن : ج ١ ص ١٧٤ . الشعر : « صَرَتْ نَظَرة » : أي قطعت نظرة ، أي فعلت ذلك ، والجوز وسط الشيء والعواصي جمع العاصي وهو العِرْق ، ويقال نعر العرق : فار منه الدم .

(٢) سورة الشعراء : الآية ٦٣ .

(٣) سورة فصلت : الآية ١١ .

(٤) لاحظ تفسير المنار ، ج ٣ ، ص ٥٥ـ٥٨ : وذكر وجوهاً في دعم هذه النظرية التي نقلها عن أبي مسلم ، وقد استحسنها في آخر كلامه وقال « ولله دَرّ أبي مسلم ، ما أدَقّ فهمه وأشدّ استقلاله فيه » .

يلاحظ عليه : إنّ ما ذكره خلاف نصوص الآية ، فإن إبراهيم طلب من الله سبحانه أنْ يُرِيَهُ كيف يحيي الموتى أولاً ، وأراد سبحانه ، بقرينة تخلل الفاء في قوله ﴿ **فخذ** ﴾ ، إجراء ذلك بيد إبراهيم ثانياً ، ثم أمره سبحانه أنْ يجعل كل جزء منهن على جبل ، لا كل واحد منهن عليه ثالثاً .

وهذه الوجوه تدعم صحة النظرية المعروفة في تفسير الآية . وأما تعدية ﴿ **صرْهُنّ** ﴾ بـ ﴿ **إليك** ﴾ ، فقد عرفت الكلام فيه ، وأنّه إن كان بمعنى الميل فالأمر بالتقطيع مقدّر ، وإن كان بمعنى القطع ، فالكلمة متضمنة لمعنى الميل .

على أنّه لو كان المراد ما اختاره من المعنى ، لما احتاج إلى هذا التفصيل ، بل يكفي في المقام إحالة إبراهيم إلى لاعبي الطيور ، الذين يربون الطيور ، حتى إذا استأنسوا بأصحابهن ، يفرقونهن للطيران ، ثم يدعونهن بالصفير والعلامات الخاصة ، فيأتين سعياً .

ولَعَمري ، إنّ هذا التفسير يَحُطّ من عظمة القرآن ، وجلالته ، ويفتح الباب للملحدين في تأويل ما دلّ عليه القرآن من معاجز وكرامات الأنبياء والرسل ، ولقد أعرب الكاتب عن باعثه في آخر كلامه بقوله : « وأمّا المتأخرون فهمّهم أنْ يكون في الكلام خصائص للأنبياء ، من الخوارق الكونية ، وإنْ كان المقام ، مقام العلم والبيان والإخراج من الظلمات إلى النور ، وهو أكبر الآيات ، الخ »[1] .

وهذا يعرب عن أن المعاجز بنظره ، تضاد العلم ولا تصلح للإخراج من الظلمات إلى النور ، مع أنه سبحانه أسماها بالبينات ، وقال : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسعَ آياتٍ بيِّناتٍ** ﴾[2] .

* * *

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ١٠١ ولقد خرجنا في تفسير الآية عمّا اتبعناه من الإيجاز إيعازاً للباحث بما في المنار وأمثاله من الدعوات التي لا تتفق مع مبادىء الإسلام ، وسيلاحظ نظيره في الآية التالية .

٢ - إحياء عُزَيْر

يحكي الذكر الحكيم أنّ رجلاً صالحاً مرّ على قرية خربة ، وقد سقطت سقوفها ، فتساءل في نفسه ، كيف يحيي الله أهلها بعدما ماتوا ؟ ، ولم يقل ذلك إنكاراً ولا تعجّباً ولا ارتياباً ، ولكنه أحَبّ أنْ يُرِيَهُ الله إحياءها مشاهدة ، مثل قول إبراهيم الذي تقدم ، فأماته الله مائة سنة ثم أحياه ، فسمع نداءً من السماء : « كم لبثت ؟ » ، فقال : « لبثت يوماً أو بعض يوم » ، لأنّ الله أماته في أول النهار ، وأحياه بعد مائة سنة في آخر النهار ، فقال : يوماً ، ثم التفت فرأى بقية من الشمس ، فقال : أو بعض يوم . فجاءه النداء بل لبثت مائة سنة ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم تغيّره السنون ، وقيل كان زادُه عصيراً ، وتيناً ، وعنباً ، وهذه الثلاثة أسرع الأشياء تغيّراً وفساداً فوجد العصير حلواً ، والتين والعنب جنيان لم يتغيّرا ، ثم أمر بأن ينظر إلى حماره كيف تفرقت أجزاؤه وتبدّدت عظامه ، فجعل الله سبحانه إحياءه آية للناس وحجة في البعث . ثم جمع الله عظام حماره وكساها لحماً وأحياه .

يقول سبحانه : ﴿ أو كالَّذي مَرَّ علىٰ قريةٍ وهي خاويةٌ على عُروشِها ، قال : أنّىٰ يُحيى هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها ، فأماتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قال كَمْ لَبِثْتَ قال لَبِثْتُ يَوْماً أوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قال بَلْ لَبِثْت مائةَ عامٍ فانْظُرْ إلى طَعامِكَ وَشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وانْظُر إلى حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً للنّاس ، وانْظُر إلى العِظام كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فلمّا تَبيَّنَ لَهُ ، قالَ أَعْلَمُ أنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ ﴾[1] .

والإمعان في قوله سبحانه : ﴿ فأماتَهُ الله مِائَةَ عامٍ ﴾ ، يُفيد أنه أماته سبحانه ، ثم أحياه بعد تلك المدة .

كما أنّ الإمعان في قوله : ﴿ وانْظُر إلى العِظام ﴾ ، سواء أُريدَ منه عظام حماره أو غيره ، يفيد أنّه سبحانه كساها لحماً ثم أحياه ، فكان هناك إحياءُ لميّتين .

وقد سلك صاحب المنار في تفسير الآية نفس المسلك السابق ، فحملها على

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .

أنّ المراد من الإماتة هنا السُّبات ، وهو النوم المستغرق الذي سماه الله سبحانه : وفاة ، واستعان في تقريبه بأنّه قد ثبت في هذا الزّمان أنّ من الناس من تُحْفَظُ حياته زمناً طويلاً يكون فيه فاقد الحس والشعور ، فلبث الرجل الذي ضُرب على سمعه مائة سنة ، غير محال في نظر العقل [1] .

يلاحظ عليه : إنّ تفسير الموت بالسُّبات يحتاج إلى دليل ، والظاهر منه هو الإماتة الحقيقية .

وقياس المقام بأصحاب الكهف ، قياس مع الفارق ، حيث إنه سبحانه يصرّح هناك بالسُّبات، ويقول : **﴿ فَضَرَبْنَا على آذانهم في الكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾**[2] ويقول : **﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾**[3] ، بخلاف المقام .

على أنه لا يتطرّق في العظام التي أنشَزَهَا ، ثم كساها لحماً وأحياها . فلا مصير لمفسّر كلام الله من الإذعان بالغيب ، والقدرة المطلقة لله جلّ وعلا . ومحاولةُ تفسير المعاجز بما ثبت في العلوم ، نوع انسحاب في الصراع مع الماديين المنكرين لكلّ ما لا يتّفق مع أصول العلم الحديث .

٣ ـ إحياء قوم من بني إسرائيل

ذكر المفسرون أنّ قوماً من بني إسرائيل فروا من الطاعون أو من الجهاد ، لما رأوا أنّ الموتَ كَثُر فيهم ، فأماتهم الله جميعاً ، وأمات دوابهم . ثمّ أحياهم لمصالح مذكورة في الآية التالية ، قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذين خَرَجُوا من ديارِهِمْ وهُمْ ألوفٌ ، حَذَرَ المَوْتِ ، فقال لَهُمُ الله موتوا ، ثُمّ أَحْيَاهم ، إنَّ الله لَذُو فَضْلٍ على النَّاس ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكرونَ ﴾[4] .

---

(١) المنار ، ج ٣ ، ص ٥٠ .

(٢) سورة الكهف : الآية ١١ .

(٣) سورة الكهف : الآية ١٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٤٣ .

والـرؤية في الآيـة بمعنى العلم ، أي : « ألم تعلم » ، وذكر المُفَسّرون حـول فرارهم من الموت ، وكيفية إحيائهم ، أموراً ، يرجع إليها في محلّها[1] .

والآية كما تثبت وقوع إحياء الموتى ، بعد إمكانه ، تثبت إمكـان الرجعـة إلى الدنيا ، على مـا يتبنّاه الشيعـة الإماميـة ، كما هـو الحال أيضـاً في إحيـاء عـزيـر ، وسيوافيك الكلام فيها بعد الفراغ من المعاد .

ومما يثير العجب مـا ذكره صـاحب المنار حيث قـال : « الآية مسـوقة سَـوْق المَثـل ، والمراد بهم قـومٌ هَجَم عليهم أُولوا القوة والقُدرة من أعـدائهم لاستذلالهم واستخدامهم وبسط السلطة عليهم ، ، فلم يدافعوا عن استقلالهم ، وخرجوا من ديارهم وهم أُلوف ، لَهُمْ كثرة وعزة ، حـذر الموت ، فقـال لهم الله : موتـوا موت الخزي والجهل ، والخزيُ موتٌ والعلم وإباء الضيم حياة ، فهؤلاء ماتوا بالخزي ، وتمكّن الأعـداء منهم ، وبقوا أمـواتاً ثم أحيـاهم بإلقـاء روح النهضة والـدفاع عن الحـق فيهم فقاموا بحقوق أنفسهم واستقلوا في ذلك »[2] .

يلاحظ عليه : **أولاً** : إن الظاهر أنّ الآية تبينّ قصةً واحدة ، وهي فرار قوم من المـوت ، فـأمـاتهم الله ، ثم أحيـاهم ، لا بيـان قصتـين . بمعنى تشبيـه من لم يدافعوا عن عزتهم ، وغلبوا ، وبقـوا كذلـك حتى نفث في روعهم روح النهضة ، فقاموا للدفـاع ؛ بِقَوْم فـروا من الموت الحقيقي ، فـأماتهم الله مـوتاً حقيقيـاً ، ثم أحياهم ، ولو كانت الآية جارية مجـرى المَثَل لَـوَجَبَ أنْ يكون هنـاك مشبّه ومشبّـه به ، مع أنّ الآية لا تحتمل ذلك .

ولأجل ذلك نرى أنّه سبحانه عنـدما يـريد التمثيـل بمضمون آيـة يأتي بلفظ « مثـل » ، ويقول : ﴿ كَمَثَلِ الَّذي اسْتَوْقَدَ ناراً ﴾[3] ؛ و﴿ إنَّما مَثَلُ الحياةِ الـدُّنيا كماءٍ أنزَلْناهُ ﴾[4] ؛ و﴿ مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ

---

(١) لاحظ مجمع البيان، ج ١ ، ص ٣٤٦-٣٤٧ . وغيره .

(٢) المنار ، ج ٣ ، ص ٤٥٨-٤٥٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٧ .

(٤) سورة يونس : الآية ٢٤ .

أسفاراً ﴾[1] .

وثانياً : لو كان المراد من الموت ، موت الخزي ، ومن الحياة ، روح النهضة ، للزم على الله سبحانه مدحهم وذكرهم بالخير ، مع أنّه يذمّهم في ذيل الآية ، فإن فيها : ﴿ إنّ الله لَذُو فَضْلٍ على النّاسِ ولكنّ أكْثَرَ النّاس لا يشكُرُون ﴾[2] .

ثم إنّ صاحب المنار استعان في ردّ نظرية الجمهور ، بقوله سبحانه ﴿ لَا يَذُوقونَ فيها المَوْتَ إلا المَوْتَةَ الأولى ﴾[3] فلا حياة في هذه الدنيا إلا حياة واحدة[4] .

ولكن عزب عنه أنّ ما جاء في الآية يدل على سنّة الله تعالى في عموم الناس ، وهذا لا يخالف اقتضاء مصالح معيّنة ، أنْ يذوقَ البعض النادر منهم حياتين ، وقد وافاكَ الكلام في ذلك عند البحث في الحياة البرزخية .

٤ ـ إحياء قتيل بني إسرائيل

روى المفسرون أنّ رجلاً من بني إسرائيل قتل قريباً له غنياً ، ليرثه وأخفى قتله له ، ورغب اليهود في معرفة قاتله ، فأمرهم الله أنْ يذبحوا بقرة ، ويضربوا بعض القتيل ببعض البقرة ، ليحيا ويخبر عن قاتله ، وقد قاموا بذبح هذه البقرة بعد تساؤلات بينهم وبين موسى تكشف عن لجاجهم وعنادهم . ثم ضربوا بعض القتيل بها ، فقام حيّاً وأوداجه تشخب دماً ، وقال : « قتلني فلان ابن عمي » ، ثم قُبض . يقول سبحانه :

﴿ وإذ قالَ موسى لِقَوْمِهِ إنَّ الله يَأمُرُكُمْ أنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قالوا أتَتَّخِذُنا هُزُواً ، قالَ أعُوذُ باللهِ أنْ أكون من الجاهلينَ * .... * وإذ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّارَأْتُمْ فِيها واللهُ مُخْرِجٌ ما كُنتم تَكتمون * فقلنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها ، كذلكَ يُحيي اللهُ

(١) سورة الجمعة : الآية ٥ .
(٢) سورة النمل : الآية ٧٣ .
(٣) سورة الدخان : الآية ٥٦ .
(٤) المنار ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

المَوْتى ويُريكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلونَ ﴾[1] .

إنّه سبحانه وإنْ كان قادراً على إحيـائه من دون ذبـح البقرة ، ولكنـه أمرهم بذلك لأنهم سألوا موسى أنْ يُبَيِّنَ لهم حـال القتيل وهم كـانوا يَعُـدّون القُربـان من أعظم القربات .

فـأمرهم الله بتقـديم هذه القـربة تعليـماً منه لِكُـلّ من اعتاص عليـه أمر من الأمور ، أنْ يقدّم نوعاً من القرب قبل أنْ يسأل الله تعالى كَشْفَ ذلك عنه ، ليكون أقرب إلى الإجابـة ، وإنما أمـرهم بضرب بعض القتيل ، ببعض البقـرة ، بعد أنْ جعل اختيار وقت الإحياء إليهم ، ليعلمـوا أنّ الله سبحانه وتعـالى قادرٌ عـلى إحياء الموتى في كل وقت من الأوقات ، ومعنى قوله : ﴿ إضْربوه بِبَعْضِها ، كذٰلـكَ يُحيِي الله المَـوْتى ﴾ ، إنهم ضربوه فأُحيي ، مثـل قـولـه سبحـانـه : ﴿ اضْرِب بعصـاكَ البَحْرَ ، فَانْفَلَقَ ﴾ ، أي فضربه فانفلق ، وقوله : ﴿ كَذلِكَ يُحْيِي الله ﴾ ، يراد منه تفهيم قـوم موسى بـأنّهم إذ عاينـوا إحياء الميت ، فليعلمـوا أنّ الله قادر عـلى إحياء الموتى للحساب والجزاء .

هذا ما ذهب إليـه الجمهور في تفسـير الآية ، وهـو المتبادر منهـا ، وقد اتخـذ صاحب المنار في تفسير الآية ، موقفه السـلبي في باب المعاجز والكرامـات ، فقال بعد ما ذكـر نظريـة جمهور المفسرين : « والـظاهر ممـا قدمنـاه أنّ ذلك العمـل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل ، إذا وجد القتيل قـرب بلد ولم يعرف قاتله ، ليعرف الجاني من غيره ، فمن غسل يده[2] وفَعَل ما رُسِم لذلـك في الشريعـة ، بريء من الـدم ، ومن لم يفعل ، تثبت عليـه الجنـايـة . ومعنى إحيـاء الموتى على هذا ، حفظ الدماء التي كانت عرضة لأنْ تُسْفَك بسبب الخلاف في قتـل تلك النفس ، أي يحييها بمثل هذه الأحكام . وهذا الإحياء على حد قـوله تعـالى :

---

(١) لاحظ سورة البقرة : الآيات ٦٧ـ٧٣ .

(٢) لاحظ في كفيـة ذلك ، العهـد القديم سفـر التثنيـة : الأصحـاح ٢١ ، ص ٢١١ ، ط دار الكتـاب المقدس ، وحاصله أنّهم يغسلون أيديهم في دم عجلة ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر .

﴿ وَمَنْ أحياها فَكَأنّما أحيا النّاس جَميعاً ﴾[1] وقوله : ﴿ وَلَكُمْ في القصَاصِ حَياةٌ ﴾[2] »[3] .

يلاحظ عليه : أوّلاً : إنّ هذا التفسير لا ينطبق على قوله : ﴿ فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها ﴾ ، فإنّ معناه : اضربوا بعضَ النّفس المقتولة ببعض جسم البقرة ، وأين هذا من غسل أيدي المتهمين في دم العجلة المقتولة ، فهل غسل الأيدي في دمها عبارة عن ضرب المقتول ببعض البقرة ؟!

وثانياً : إنّه سبحانه يقول : ﴿ كذلك يُحيى الله المَوْتى وَيُريكُمْ آياتِهِ ﴾ ، فالقصة تتضمن آية من آيات الله ، ومعجزة من المعاجز ، فهل في غسل الأيدي بدم العجلة ودرء التهمة عن المتهم ، إراءة للآيات الإلهية .

وثالثاً : إنّ تفسير الآية بالإستناد إلى الإسرائيليات والمسيحيات ، مسلك ضال في تفسير كتاب الله العزيز ، وليس اللجوء إليها إلا لأجل ما اتخذه صاحب المنار من موقف مسبق تجاه المعاجز وخوارق العادات ، وإصراره على إرجاع عالم الغيب إلى الشهادة .

٥ ـ إحياء سبعين رجلاً من قوم موسى

ذكر المفسرون أنّ موسى عليه السلام إختار من قومه سبعين رجلاً حين خرج من الميقات ليكلمه الله سبحانه بحضرتهم ، فيكونوا شهداء له عند بني إسرائيل لعدم وثوقهم بأنّ الله سبحانه يكلّمه ، فلما حضروا الميقات ، وسمعوا كلامه تعالى سألوا الرؤية ، فأصابتهم الصاعقة فماتوا ، ثم أحياهم الله تعالى[4] ، يقول سبحانه :

﴿ وإذ قُلْتُمْ يا موسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتّىٰ نَرى اللهَ جَهْرَةً ، فَأخَذَتْكُمُ

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٧٩ .

(٣) لاحظ المنارج ١ ، ص ٣٤٥ـ٣٥٠ .

(٤) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

الصّاعِقَةُ وأَنْتُمْ تَنْظُرونَ﴿ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ **واخْتارَ موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقاتِنا فَلَمّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قال رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيّايَ ، أَتُهْلِكُنا بما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنّا إنْ هِيَ إلّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بها مَنْ تَشاء وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ** ﴾[2] .

والمتبادر من الآية هو إحياؤهم بعد الموت ، والخطاب لليهود والمعاصرين للنبي باعتبار أسلافهم ، ولا يفهم أي عربي صميم من جملة : ﴿ **ثُمَّ بَعَثْناكُمْ من بَعْدِ مَوْتِكم** ﴾ : سوى الإحياء بعد الإماتة .

وقد اتخذ صاحب المنار في تفسير الآية موقفه المعلوم من المعاجز ، فذهب إلى أنّ المراد من البعث هو كثرة النّسل . أي إنّه بعدما وقع فيهم الموت بالصاعقة ، وظنّ أنْ سينقرضون ، بارك الله في نَسْلهُم ، ليعد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الأباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها[3] .

يلاحظ عليه : أوّلاً : إنّ الظاهر من قول موسى : ﴿ **لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ** ﴾ ، أنّه سبحانه أجاب دعوته ، وأحياهم حتى يدفع عنه عادية اعتراض القوم بأنّه ذهب بهم إلى الميعاد ، فأهلكهم . وهذا لا يتم إلا إذا كان المراد هو إحياؤهم حقيقة .

وثانياً : إنّ الرجفة لم تأخذ إلا سبعين رجلاً من قومه ، فليس في إهلاكهم مظنة انقراض نسلهم .

وعلى كل تقدير فالباعث لصاحب المنار على تفسيره ، هو جنوحه إلى إنكار المغيبات ، وتطبيق ما ورد في الذكر الحكيم على العالم الحسّيّ التجريبي .

٦ ـ المسيح يحيي الموتى

إنّ الكتاب الحكيم يذكر في غير مورد ، إحياء المسيح للموتى . قال تعالى

---

(١) سورة البقرة : الآيتان ٥٥و٥٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥٥ .

(٣) تفسير المنار ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .

حاكياً عنه ﴿أنّي قَدْ جِئْتُكُمْ بـآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أنّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الـطِّينِ كَهَيْئَةِ الـطَّيرِ فَأَنْفُخُ فيهِ فَيَكُونُ طَيْـراً بِإِذنِ اللهِ ، وأُبْـرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْـرَصَ ، وأُحيِ المَوْتى بِـإِذْنِ اللهِ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْـكَ . . . وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ بِإِذْنِي وإذْ تُخْرِجُ المَوْتى بِإذني ﴾[2] .

وقد تضافر في التاريخ والإنجيل والحديث ، قيام المسيح بإحياء الموتى مرات عـديـدة ، بحيث صـار المسيـح عَلَماً وسمـة لإحيـاء المـوتى ، وعـلاج الأمـراض المستعصية .

٧ـ إيقاظ أصحاب الكهف

روى المفسرون أنّ فتيةً من قومٍ آمنوا بالله تعالى وكانوا يُخْفون إيمـانهم خوفـاً من مَلِكِهم ، الذي كان يعبد الأصنام ويدعو إليهـا ، ويقتل من خـالفه ، والفتيـة كانوا على دين المسيح ، وكان كل واحـد منهم يكتم إيمانـه عن صاحبـه . ثم اتفق أنّهم اجتمعوا وأظهروا أمرهم لبعضهم ، ولجأوا إلى كهف ، فضرب سبحـانه عـلى آذانهم ، فناموا في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم بعثهم . يقول سبحانه :

﴿ إذْ أوى الفِتْيَةُ إلى الكَهْفِ ، فقالوا ربَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْـكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أمرِنا رَشَداً * فَضَرَبْنا على آذانِهِمْ في الكَهْفِ سِنـينَ عدداً * ثم بَعَثْنـاهُمْ لِنَعْلَمَ أيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصىٰ لما لَبِثوا أَمَداً ﴾[3] .

والمـراد من الضرب على الآذان هـو إنامتهم ،لا سلب حيـاتهم ، كما يقـول سبحانه : ﴿ وَتَحْسَبُهُم أيْقَاظاً وَهُمْ رُقودٌ ﴾[4] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

(٢) سورة المائدة : الآية ١١٠ .

(٣) سورة الكهف : الآيات ١٠ ـ ١٢ .

(٤) سورة الكهف : الآية ١٨ .

فإنامة الله سبحانه هؤلاء الفتية هذه المُدّة المديدة ، ثم إيقاظهم ، لا يقصر عن الإماتة والإحياء ، والقادر عليه قادر على إحياء الموتى .

* * *

هذه النماذج المحسوسة من إحياء الموتى ، إذا انضمت إلى البراهين الناصعة الدالة على إمكان إحياء الموتى ، من طريق سعة قدرته سبحانه ، توجب القطع بإمكان المعاد ، وجمع العباد بعد موتهم ، للحساب والجزاء .

* * *

مباحث المعاد

(٦)

الموت نافذة إلى حياة جديدة

الموت آخر مرحلةٍ من مراحل الحياة الدنيوية ، وأوّل مرحلة من الحياة الأخروية . ولأجل التعرف على ما ورد حوله من الآيات ، نبحث عن الأمور التالية :

١ ـ الموت في اللغة والقُرآن .
٢ ـ هل الموت أمْرٌ عدمي أوْ وجودي ؟
٣ ـ الموتُ سنّة من سنن الله العامة .
٤ ـ لماذا يستوحش الإنسان من الموت ؟
٥ ـ الموت وأقسامه في القرآن .
٦ ـ الموت والأجل المسمى .
٧ ـ الإنابة حال الموت .
٨ ـ الوصية عند الموت .
٩ ـ جهل الناس بأوان موتهم .
١٠ـ الموت والملائكة الموكّلون بقبض الأرواح .

وفيما يلي نبحث عن كل واحدٍ منها .

* * *

الأمر الأول ـ « الموت » في اللغة والقُرآن

قـال في المقاييس : « المـوت ، أصـل صحيـح يـدل عـلى ذهـاب القـوة من الشيء ، منـه : الموت خـلاف الحياة »[1] . وهـذا هو الأصـل في استعـمالـه ، فلو أُطلق لفظ المـوت عـلى إطفـاء النـار ، وخـروج الأرض من قـابليـة الـزرع والاستصلاح ، أو على النوم ، فالكل يرجع إلى ذلك الأصل .

قال في اللسان : « الموت يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة ، فمنها ما هـو بإزاء القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات ، كقوله تعالى : ﴿ **يُحْيِي الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها** ﴾[2].

ومنها زوال القوة الحسيّة ، كقوله تعالى ـ حـاكياً قـول مريم عليهـا السلام ـ ﴿ **يا لَيْتَني مِتُّ قَبْلَ هذا** ﴾[3].

ومنها زوال القوة العاقلة ، وهي الجهالة ، كقولـه تعالى : ﴿ **أوَمَنْ كـان مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ** ﴾[4]، و﴿ **إنَّكَ لا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتىٰ** ﴾[5].

ومنها الحزن والخوف المكدر للحياة ، كقوله تعالى : ﴿ **ويأتيه المـوتُ من كلِّ مكانٍ وما هو بِميِّتٍ** ﴾[6].

وقد يستعار المَـوْتُ للأحـوال الشّاقـة ، كالفَقْـرِ والذُّلّ ، والسؤال والهـرم ، والمعصية »[7] . فالإستعمال في الجميع بأصل واحد .

وقد استعمل القرآن لفظ الموت ـ كما عرفت ـ في موارد ، بهذا المـلاك ، مثلاً يقـول : ﴿ **وآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ ٱلمَيْتَـةُ** ﴾[8] . ويقـول في الأصنـام : ﴿ **أمـواتٌ غَـيْرُ أحْياءٍ** ﴾[9] . ويطلقه على المراحل المتقدمة من خلق الإنسـان ، فيقول : ﴿ **وَكُنْتُمْ أمْواتاً فَـأَحْياكُمْ** ﴾[10] . فـترى في الجميع نـوع ذهاب وزوال ، إمّـا للطاقة كـما في

---

(١) مقاييس اللغة ، ج ٥ ، ص ٢٨٣

(٢) سورة الروم : الآية ٥٠ .

(٣) سورة مريم : الآية ٢٣ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ .

(٥) سورة النمل : الآية ٨٠ .

(٦) سورة إبراهيم : الآية ١٧ .

(٧) لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٩٢. لاحظ بقية كلامه .

(٨) سورة يس : الآية ٣٣ .

(٩) سورة النحل: الآية ٢١ .

(١٠) سورة البقرة : الآية ٢٨ .

الأرض ، أو للقدرة على الحركة والتكلم ، كما في الأصنام ، وغير ذلك .

* * *

الأمر الثاني ـ هل الموت أمر عدمي ؟

إنّ ملاحظة المعنى اللغوي ، والإستعمال القرآني للفظ الموت ، يفيد أنّ الموت أمرٌ عدمي ، ولكنه من زاوية أخرى ، ليس أمراً عدمياً في موت الإنسان ، وذلك لو فُسّر الموت بقبض الملائكة الطاقات الحسية الموجودة في الإنسان ، فإنّه أمرٌ وجوديٌّ ، وإن كانت النتيجة أمراً عدمياً .

ويمكن جعله أيضاً من الأمور الوجودية ـ في الإنسان ، بمعنىً آخر ، وهو أنّ الموت نافذة على الحياة الجديدة ، وانتقال من منزل إلى منزل ، وإلى ذلك لمحات في كلام الأئمة الأطهار من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله .

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : « أيّها الناس ، إنّا خُلِقْنا وإياكم للبقاء ، لا للفناء ، لكنكم من دار إلى دار تنقلون »[1] .

ويقول سيد الشهداء الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ـ مخاطباً أنصاره يوم عاشوراء ـ « صبراً بني الكرام ، فما الموت إلّا قنطرة تعبّر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة ، والنعيم الدائمة ، فأيُّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر » ؟[2] .

ويمكن جعله أمراً وجودياً أيضاً ، ببيان ثالث ، وهو أنّ الموت حَدّ الحياة الدنيوية ، وجدارها الذي إليه تنتهي .

أضف إلى ذلك أنّ الموت ربما يوصف بكونه أمراً عدمياً إذا نسب إلى الجسم ، وأمّا إذا نسب إلى الروح فلا يمكن تفسيره إلّا بأمر وجودي ، وهو انتقالها من مرحلة إلى مرحلة .

---

(١) الإرشاد ، للشيخ المفيد ، ص ١٢٧ .
(٢) معاني الأخبار ، للصدوق ، ص ٢٨٩ .

ولعلّه ـ لأحد هذه الوجوه ـ تعلق به الخلقُ في قوله سبحانه : ﴿ الَّذي خَلَقَ المَوْتَ والحَياةَ ﴾[1] .

والتقدير في قوله سبحانه ـ في تقدير حياة الإنسان ـ : ﴿ نَحْنُ قَدَّرنا بَيْنَكُمُ ٱلمَوْتَ وما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾[2] .

* * *

الأمر الثالث ـ الموت سنة عامة في الخَلْق

إن قوانين الديناميكا الحرارية تدلّ على أنّ مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً ، وأنّها سائرة حتماً إلى يوم تَصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة البالغة الإنخفاض[3] . فيومئذٍ تنعدم وتستحيل الحياة ، وهذا ما كشف عنه العلم الحديث .

والقرآن يصف الموت سنة إلهية عامة ، فيقول في الإنسان : ﴿ أَيْنَما تكونوا يُدْرِككم المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُروجٍ مُشَيَّدةٍ ﴾[4] .

ويقول : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائقةُ ٱلمَوْتِ ﴾[5] ويقول : ﴿ وما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ ، أفإنْ مِتَّ فَهُمُ الخالِدونَ ﴾[6] .

ويقول الإمام علي عليه السلام : « ولو أنّ أحداً يجد إلى البقاء سُلّماً ، أو لِدَفْعِ الموت سبيلاً ، لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام ، الذي سُخّرَ له مُلك الجنّ والإنس »[7] .

---

(١) سورة المُلك : الآية ٢ .

(٢) سورة الواقعة : الآية ٦٠ .

(٣) وهي الصفر المطلق .

(٤) سورة النساء : الآية ٧٨ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٨٥ .

(٦) سورة الأنبياء : الآية ٣٤ . ولاحظ الآيات التالية : آل عمران : الآية ١٥ ، الأحزاب : الآية ٦٠ ، الزمر : الآية ١٦ ، الواقعة : الآية ٨ ، الجمعة : الآية ٤٢ ، وغير ذلك .

(٧) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٢ .

وهناك آيات تدلّ على أنّ انهدام النظام أمر حتمي يوم القيامة ، وهو موته وسيجيء الكلام فيه في المباحث الآتية .

* * *

الأمر الرابع ـ لماذا يستوحش الإنسان من الموت ؟

إنّ للإنسان علاقة شديدة بالبقاء ، وهي ميل طبيعي يَحُسّه بفطرته . وبما أنّ المَوْتَ يُضادّ تلك النَّغْمَةَ الفطرية ، فيجزع الإنسان العادي غير العارف بحقيقة الموت .

وعلى كل تقدير ، فالناس في الحياة الدنيا على قسمين ، قِسْمٍ يستوحش من الموت ، ويتصوره شبحاً مخيفاً ، يريد أن يقطع أنياط قلبه ويفترس حياته ، وهؤلاء بين من يرى الموت آخر الحياة ونفادها ، ويتخيّلون أنّ الموت إبطال لذواتهم وشخصياتهم ، ومن يعتقد أنّ الموتَ نافذة للحياة الأخرى ، من دون أن يستعدوا لتلك المرحلة بصالح الأعمال ، بل أثقلوا كواهلهم بالمعاصي والذنوب ؛ فالموت عندهم سمّ يتجرعونه .

يقول سبحانه تنديداً باليهود : ﴿ قُلْ إنْ كانت لَكُمُ الدّارُ الآخِرَةُ عندَ اللهِ خالِصَةً مِنْ دونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ *وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمِينَ ﴾[1] .

وقسم آخر ، يشتاقون إلى الموت ويتلقونه بصدور رحبة ، ووجوه مشرقة ، لأنّهم يرونه انتقالاً من حياةٍ مُرّة إلى حياة حُلْوة ، وهؤلاء هُمُ الأنبياء والأولياء .

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « ولولا الأجل الذي كُتِبَ عليهم ، لم تستقر أرواحُهُم في أجسادهم طرفة عينٍ شوقاً إلى الثواب ، وخوفاً من العقاب ، عَظُمَ الخالِقُ في أنفسهم ، فَصَغُرَ ما دونَه في أعينهم » .

---

(١) سورة البقرة : الآيتان ٩٤ ـ ٩٥ ، ولاحظ الجمعة : الآيتان ٧ ـ ٨ .

الأمر الخامس ـ الموت وأقسامه

ينقسم الموت إلى أقسام نأتي بها فيما يلي :

أ ـ الموت السهل والموت العسير

لا شكّ أنّ الإنتقال من مرحلة إلى مرحلة أُخرى ، لا يخلو من مشقة ، حتى أنّ الطفل عندما ينتقل من عالم الأجنة إلى عالم الشهود ، يتحمل جهداً ومشقة بالغيْن . وللإنسان في إطار حياته في النشأتين مراحل حساسة تُعَدُّ كُلٌّ منها منعطفاً في مسيرته الوجودية، وهي : مرحلة التَوَلُّد، ومرحلة الموت، ومرحلة البعث، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه : ﴿ **وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يموتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً** ﴾[1] .

فالموتُ أحد هذه الحلقات الرئيسية في وجود الإنسان ، فهو لا يخلو بطبعه من مشقة وعسر ، ولكن لو غُضَّ البصر عنه ، فالموت حسب القرآن ينقسم إلى موت سهل وموت عسير :

الأول لصلحاء المؤمنين ، والثاني للعصاة والكافرين .

يقول سبحانه : ﴿ **الَّذينَ تَتوفّاهُمُ الملائِكَةُ طَيِّبينَ يقولونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلوا الجَنَّةَ بما كُنْتُم تَعْمَلونَ** ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ **يا أَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ * آرْجِعي إلَى رِبِّكِ رَاضِيةً مَرْضِيَّةً** ﴾[3] .

ويقول سبحانه في العصاة والظالمين : ﴿ **وجاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقِّ ذلكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحيدُ** ﴾[4] .

---

(١) سورة مريم : الآية ١٥ ، ولاحظ مريم : الآية ٣٣ .

(٢) سورة النحل : الآية ٣٢ .

(٣) سورة الفجر : الآيتان ٢٧ و ٢٨ .

(٤) سورة ق : الآية ١٩ .

ويقـول سبحـانـه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَـوَفَّتْهُمُ ٱلْمَـلَائِكَـةُ يَضْرِبُـونَ وجـوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾[1] .

وفي الروايات الإسلامية أخبار كثيرة فيما قدمنا[2] .

ب ـ موت البدن وموت القلب

وهناك تقسيم آخر للمـوت حسب متعلقه ، وهـو أنّه تـارة ينسب إلى الجسم والبدن ، وأخرى إلى القلب ومراكز الإدراك ، والأول هو الموت الطبيعي ، والثاني من شؤون بعض الأحيـاء ، إذا حَلّ الكفـرُ محلَّ الإيمـان ، والجهل مكـان العلم في قلوبهم ، فهؤلاء أمـوات بهذا النـظر ، وإن كانـوا أحياء مـاديين يـأكلون ويشربون ويتحركون ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتىٰ ولا تُسْمِـعُ الصُمَّ الدُّعـاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرينَ ﴾[3] ويقول : ﴿ أَوَمَنْ كان مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُـوراً يَمْشي بِهِ في النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها ﴾[4] .

ولا يختص الموت بهذه الـطغمة الـظالمة ، بـل يعمّ المتخاذلـين المستبطئـين في الدفاع عن عِزِّهِمْ وكيانهم ، ليعيشوا أياماً أو أعوامـاً صاغـرين ، فهؤلاء أموات في منطق الإمام علي عليه السلام ، كما أنّ المُتفانين في حفظ عزّتهم وكرامتهم أحيـاء ، وإن تَضرَّجـوا بدمـائهم في سوح الجهـاد ، يقول عليـه السـلام : « فـالمَـوْتُ ، في حياتِكُمْ مقهورين . والحياة ، في موتكم قاهرين »[5]

كما أنّ من لا يحسّ بالمسؤولية أمام المجتمع ، ويترك الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر بعامة مراتبها ، مَيِّتُ الأحياء ، يقول علي عليه السلام : « ومنهم تـارك لإنكار المنكر بلسانه ، وقلبه ويده ، فذلك ميّت الأحياء »[6] .

---

(١) سورة محمد : الآية ٢٧ .

(٢) لاحظ بحار الأنوار ، ج ٦ ص ١٢٢ ـ ١٥٤ .

(٣) سورة النمل : الآية ٨٠ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ . ولاحظ الروم : الآية ٥١ ـ ٥٢ .

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة ٥١ .

(٦) نهج البلاغة ، قسم الحكم ، الرقم : ٣٧٤ .

ج ـ موت الفرد والمجتمع

إنّ للفرد شؤوناً من أوج وحضيض ، وَرُقِيٍّ وهبوط ، وموت وحياة ، كما أنّ للمجتمع نفس تلك الشؤون ، حرفاً بحرف .

مثلاً : إنّ الثورة نواة تنبت وتشتد وتستوي وتأخذ لنفسها حالة الهجوم والاندفاع ،ولا تبرح على تلك السِّمة حتى تنتقل إلى حالة أخرى ، تأخذ لنفسها حالة الدفاع ، وردّ السِّهام الموجهة إليها . ولن تبرح على تلك الحالة حتى يَنْجَرَّ أمرها إلى الإنكسار والإنقراض .

ونظير ذلك جميع الحضارات البشرية ، والمناهج الإقتصادية والسياسية الإنسانية ، فلكُلٍّ منها حالات ثلاث : هجوم ، دفاع ، خمود .

فكما أنّ لكل فرد حياةً وموتاً وأجلاً حسب القرآن ، كذلك إنّ للمجتمع حياةً وموتاً وأجلاً .

يقول سبحانه : **﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فإذا جاءَ أَجَلُهُمْ ، لاَ يَسْتَأْخِرونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمونَ ﴾**(١) .

ويعود القرآن ليبين ، عامل تدمير الحضارات والمجتمعات والأنظمة البشرية ، ويركز منها على الظلم بالأخص ، وعلى الإتراف ثانياً ، فالظلم خروج عن الحدّ الوسط ، والإتراف هو الإنهماك في المعاصي ، وكلاهما يعجل في هلاك المجتمع واندثاره .

يقول سبحانه : **﴿ وما كان رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرىٰ بِظُلْمٍ وأَهْلُها مُصْلِحونَ ﴾**(٢) . ويقول أيضاً : **﴿ وإذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفيها** (بالطاعة) **فَفَسَقُوا فيها ، فَحَقَّ عليها القَوْلُ ، فَدَمَّرْناها تَدْميراً ﴾**(٣) .

ويقول سبحانه : **﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ القُرونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ، وكفى بِرَبِّكَ**

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٣٤ . ولاحظ سورة يونس : الآية ٤٩ .

(٢) سورة هود : الآية ١١٧ .

(٣) سورة الإسراء : الآية١٦.

بِذُنوبِ عِبادِهِ خَبيراً بَصيراً ﴾[1] . والإمعان في هـذه الآية يُفيـد أنّ الظلم والفسق والذنوب ، مدمرات للمجتمع[2] .

د ـ موت العِزّ وموت الهوان

ينقسم الموت إلى موت عِـزٍّ وموتِ هـوانٍ ، فالفـادون أنفسهم في طريق نشر القسط والعدل والعلم وسائـر المبادىء الإلهيـة يموتـون موت عـزّ وشرف ، والذين يقاتلون في سبيل الطاغوت ونشر الشرّ والجهـل والفساد ، لغـاية نيـل أجور ضئيلة ومناصب مؤقتة ، يموتون موت الهوان والذلّ والعار .

يقول سبحانه : ﴿ ولا تَقُولوا لِمَنْ يقْتَل في سبيـلِ الله أمواتٌ ، بَـلْ أَحياءٌ ، ولكن لا تَشْعُرونَ ﴾[3] .

ويقول سبحانـه فيمن خرج طـالباً للعلم والإيمـان : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِـهِ مهاجراً إلى الله ورسولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ على الله ﴾[4] .

* * *

الأمر السادس ـ الموتُ والأجل المُسَمّى

يقسم القرآن الأجل إلى أجل ، وأجلٍ مسمى ، وبيانه :

إنّ لكل نوع من أنواع الموجـودات الحيّة ، بـل مطلق المـوجودات ، قـابلية خاصة لإدامة الحياةوالوجود . ومن هذا ، ما يقال إنّ العمر الـطبيعي للإنسـان هو

---

(١) سورة الإسراء : الآية١٧ .

(٢) وأما ماهي الصلة بين هذه العوامل وتدمير المجتمع وانحلاله ، فهو يحتاج إلى بيان خارج عن موضوع الكتاب ، غير أنّا نقول إجمالاً : إنّ بين هذه العوامل وإهلاك المجتمع ، رابطة مادية وطبيعية ، وفي الوقت نفسه رابطة إلهية ، فالوقوف على العلل المادية لا يغني عن الإذعان بأنّ هناك رابطة غيبيـة بين هذه العلل ومعلولها .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٥٤ . ولاحظ سورة آل عمران : الآية ١٦٩ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٠٠ ، ولاحظ سورة الحج الآية ٥٨ .

مائة وعشرون سنة ، فالإنسـان ـ بما هـو إنسان ـ قـابل لأن يعيش هـذا المقدار من الزَّمن . وفي ضوء ذلك ، لكلّ إنسـان « أجل » ، بهـذا المعنى ، ولكنه ليس أجـلاً حتمياً وقطعياً ، بل قد يَنْقُصُ عَنْهُ أو يزيد عليـه لعوامـل خاصـة في حياتـه ، فَرُبَّ إنسان يموتُ في العقـد الخامس أو السـادس من عمره ، وهـو أجلٌ حتمي ومسمى له ، مع أنّ الأجل المُطْلَقَ كان أزيد منـه . وربّ إنسان يعيش أزيـد من هذا الحَـدّ الـطبيعي ، ويموت في العقـد الخامس عشر من عمـره ، وهو أجَـلٌ حتميٌ ومسمىً له ، وإن كانَ الأجلُ المطلق أنقص منه .

والأجـل المطلق يعـرفه غـيره سبحانـه ، ولكنّ الأجل الحتمي عنـده ، فهـو الذي يعرف الحَدّ الذي تقف فيـه حياة كـل إنسان ، ولا تتجـاوزه قطعـاً ، يقول سبحانه : ﴿ **هُوَ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ طينٍ ، ثُمّ قَضى أَجَلاً ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ، ثم أَنْتُم تَمْتَرون** ﴾[1] .

* * *

الأمر السابع ـ الإنابة عند الموت

قد عرفت أنّ قسماً من النّاس يخـافون من المـوت لِما علمـوا من أنّ كواهلهم مثقلة بعـظائم الذنـوب ، أو لاعتقادهم بـأنّه خـاتمة المـطاف في الحيـاة البشريـة . والصنف الأول ، إذا فوجئوا بالمـوت ، يلجأون إلى التـوبة والإنـابة ، وينـدمون ، ولكن لات حـين مندم ، فـإنّهم قد ضَيّعـوا الفُرَصَ ، والتـوبة إنّمـا تُقْبـل إذا كـان الإنسـان ذا مقدرة عـلى الفعل والـترك والـطاعـة والعصيـان ، فيُـرَجِّـح بـاختيـاره الإنقياد ، على المخالفة ، وهذا من تُقْبَل توبته ، لأنّ الإنابة في هذا المقام ، تكشف عن تحول روحي ، وثورة نفسانية على المعصية والتمـرد والتجرّي ، وأمّـا إذا وصل الإنسان في مدارج حياته إلى نقطة ليس أمامها إلاّ طريق واحد ، وهو ترك التمرّد ،

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٢ . وبما أنّ الكلام فيه قد سبق في الجزء الثاني من هذا الكتاب « الإلهيات » ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٦ ، فقد إكتفينا بهذا المقدار .

لفقدان القوة والطاقة ، فلا تقبل التوبة عند ذاك ، لأنّها لا تكشف عن انقلاب روحي نحو الكمال ، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه :

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ للَّذين يَعْمَلونَ السَّيِّئاتِ ، حتىٰ إذا حَضرَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ ، قال إنِّي تُبْتُ الآن ﴾[1] .

وقد ندم طاغية مصر ، فرعون ، عندما وافاه الغرق ، وأحسّ بالعجز عن استمراره بالعصيان فأسلم ، وقال : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إلٰهَ إلاَّ الَّذي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسْرائيلَ ، وأنا مِنَ المُسْلِمين * الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدينَ ﴾[2] .

وقد كان الطغاة من الأمم السالفة على هذا النمط ، فلا يلجأون إلى الإنابة إلاّ بعدما يروا بأس الله تعالى ، يقول سبحانه :

﴿ فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بما كُنّا بِهِ مُشْرِكينَ * فلم يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لَمّا رَأَوا بَأْسَنا ﴾[3] .

يقول الإمام علي عليه السلام : « فهو يعضّ يده ندامةً على ما أصحر له عند الموت من أمره »[4] .

* * *

الأمر الثامن ـ الوصية عند الموت

لا ينبغي لامريءٍ مسلم أن يبيتَ ليلةً إلاّ ووصيته تحت رأسه[5] .

ومع ذلك ربما يترك الإنسان هذه الفريضة ، فله الإيصاء حال الموت .

يقول سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذا حَضرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إنْ تَرَكَ خَيْراً

---

(١) سورة النساء : الآية ١٨ .
(٢) سورة يونس : الآيتان ٩٠ و ٩١ .
(٣) سورة غافر : الآيتان : ٨٤و٨٥ .
(٤) نهج البلاغة ، الخطبة ١٠٩ .
(٥) وسائل الشيعة ، ج ١٣ ، كتاب الوصايا ، الباب الأول ، الحديث ٧ .

آلْوَصِيَّةُ ﴾[1] والمُراد من الخَيْر هو المال .

ويقـول سبحانـه : ﴿ يا أَيُّهـا الَّذينَ آمَنـوا شهـادةُ بَيْنِكُمْ إذَا حَضرَ أَحَـدَكُمُ المَوْتُ ، حِينَ آلوَصِيَّةِ ، إثنان ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ . . . ﴾[2] .

* * *

الأمر التاسع ـ جهل الناس بأوان موتهم

إقتضت الحكمة الإلهية جهل الناس بزمان ومكان موتهم ، وذلك لوجهين :

أ ـ لو علم الإنسان بزمن موته ، فربما يفشل في العمـل قبل أن يحـلّ أجله ، فإنّ العامـل الباعث إلى العمـل والنشاط في الحيـاة ، هو الأمـل ، فالأمـل رحمة ، ولولاه لما أرضعت والدة ولدها ، ولا غرس غارس شجرة[3] .

ب ـ إنّ لجهل الإنسان بأوان موته ومكانه ، تأثيراً تربوياً ، فإنّه لو علم بأنّـه سيموت بعد عام أو أشهر ، فترك التمرّد والتجري ، فلا يعد ذلك كمـالاً روحياً ، وثورة للفضائل على الرذائل ، وهـذا بخلاف مـا إذا سلك طريق الـطاعة ، وتـرك المعصية ، وهو يرجو العيش أعواماً طويلة ، فإنّه يكشف عن كمال روحي ، يدفعه نحو الفضائل ، يقول سبحانه : ﴿ وَمَا تَدْري نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَموتُ ﴾[4] .

* * *

الأمر العاشر ـ الملائكة المُوكّلون بقبض الأرواح

قد عرفت أنّ الخلق والتدبير من شؤونه سبحـانه ، فهـو القائـل عزّ وجـلّ :

---

(١) سورة البقرة : الآية١٨٠ .

(٢) سورة المائدة : الآية ١٠٦ .

(٣) سفينة البحار ، مادة : « أمل » .

(٤) سورة لقمان ، الآية ٣٤ ، وهاهنا وجه ثالث وهو أنّ علم الإنسـان بزمن مـوته يُشَجّعـه على الفجـور والعصيان متكلاً على التوبة والإنابة قَبْلَ مدّةٍ من حلول أجله .

﴿ أَلا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ ، تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ ﴾[1] . غير أنّ كونه مدبّراً لا ينافي أن يكون هناك أسبابٌ غيبيّة أو طبيعية لقبض الأرواح فإنّه أيضاً من شؤون التدبير . فَتَوَفّي الأنفس وأخذها ، فعلٌ لله سبحانه ، وفي الوقت نفسه فعلٌ لملائكته ، يقول سبحانه : ﴿ اللهُ يَتوفَّى الأَنْفُسَ حينَ مَوْتِها ﴾[2] .

وفي الوقت نفسه ينسبه إلى الملائكة ، ويقول : ﴿ الَّذينَ تَتَوفّاهُمُ الملائِكَةُ ﴾[3] .

وفي موضع ثالث ينسبه إلى ملك الموت ، ويقول : ﴿ قُلْ يَتَوفّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الَّذي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾[4] .

والنِّسَبُ كُلُّها صحيحة ، أخذاً بما ذكرناه في أقسام التوحيد من أنّ شيئاً واحداً يكون فعلاً لله سبحانه ، وفي الوقت نفسه فعلاً لعباده ، وقد تقدّم ذلك مفصّلاً .

* * *

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٤٢ .

(٣) سورة النحل الآية ٢٨ ، والآية ٣٢ منها .

(٤) سورة السجدة : الآية ١١ .

مباحث المعاد

(٧)

الحياة البرزخية

البرزخ هو المنزل الأول للإنسان بعد مفارقة الدنيا بالموت ، وتحقيق الحال يتوقف على تبيين معنى البرزخ ، وإثبات الحياة في تلك النشأة التي هي قبل البعث يوم القيامة .

قال إبن فارس في المقاييس : « البرزخ : الحائل بين الشيئين ، كأنّ بينهما بِرازاً أي متسعاً من الأرض ، ثم صار كل حائِل برزخاً فالخاء زائدة لما ذكرنا »[١] .

ويقول إبن منظور في اللسان : « البرزخ : ما بين شيئين . وفي الصحاح الحاجز بين شيئين . والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة : قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ »[٢] .

هذا معنى البرزخ وبه يفسر قوله سبحانه : ﴿ **وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾[٣] . والوراء في الآية بمعنى الأمام كما في قوله سبحانه : ﴿ **وكان وراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفينَةٍ غَصْباً** ﴾[٤] .

---

(١) المقاييس ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .
(٢) لسان العرب ، ج ٣ ، مادة برزخ ، ص ٨ .
(٣) سورة المؤمنون : الآية ١٠٠ .
(٤) سورة الكهف : الآية ٧٩ .

والآية لا تفيد أزيد من وجود الفاصل ، والحاجز بين الدنيا والقيامة ، مثل قوله سبحانه : ﴿ **بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغيانِ** ﴾[1] . ولا تدل على وجود حياة في هذا الفصل .

نعم ، هناك آيات يستفاد منها وجود حياة واقعية للإنسان في تلك النشأة ، نذكر منها ما يلي :

١ ـ قال تعالى : ﴿ **قالوا رَبَّنا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وأحْيَيْتَنا ٱثْنَتَيْنِ ، فٱعتَرَفْنا بذُنوبنا فَهلْ إلى خُرُوجٍ من سَبيلٍ** ﴾[2] ؟ .

وهذه الآية تحكي عن تحقيق إحياءَين وإماتتين إلى يوم البعث ، وقد اختلف المُفَسِّرونَ في تفسيرهما ، والمروي عن ابن عباس أنّ الإماتة الأولى ، حال كونهم نُطَفاً ، فأحياهم الله في الدنيا ، ثم أماتهم الموتَة الثانية ، ثم أحياهم للبعث ، فهذان إحياءان وإماتتان ونظيره قوله : ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرونَ باللهِ وَكُنْتُمْ أمواتاً فأحْياكُم ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يُحييكُمْ ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[3] .

يلاحظ عليه : إنّ الآية الثانية ليست نظير الآية الأولى حتى تُفسّر بها ، فإنّ الآية الثانية ، تصف الناس بكونهم أمواتاً ، وهو ينطبق على الإماتة في حال كون الإنسان نطفة أو قبل ذلك ، بخلاف الآية الأولى فإنّها تحكي عن إماتة الإنسان ، والفرق بين الموت والإماتة واضح ، فالأحوال المتقدمة على النطفة ، ونفسها ، توصف بالموت ، دون الإماتة . فلأجل ذلك لا يصح تفسير الإماتة بما جاء في هذا القول .

والظاهر أنّ المراد هو ما يلي :

الإماتة الأولى هي الإماتة عن الحياة الدنيا .

والإحياء الأوّل هو الإحياء في البرزخ ، وتستمر هذه الحياة إلى نفخ الصور الأول .

---

(١) سورة الرحمن : الآية ٢٠ .

(٢) سورة غافر : الآية ١١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٨ .

والإماتة الثانية ، عند نفخ الصور الأول ، يقول سبحانه : ﴿ ونُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ في السَّمٰواتِ ومَنْ في الأرْضِ ﴾[1] .

والإحياء الثاني ، عند نفخ الصور الثاني ، يقول سبحانه : ﴿ ونُفِخَ في الصُّور فإذا هُمْ مِنَ الأجداثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلونَ ﴾[2] .

وتعدد نفخ الصور يستفاد من الآيتين ، فيترتب على الأول هلاك من في السموات ومن في الأرض ، إلا من شاء الله ، وعلى الثاني قيام الناس من أجداثهم ، وفي أمر النفخ الثاني يقول سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ في الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمعاً ﴾[3] .

ويقول سبحانه : ﴿ فإذا نُفِخَ في الصُّور فلا أنْسابَ بَيْنَهُمْ يومَئِذٍ ولا يَتساءَلونَ ﴾[4] . واختلاف الآثار يدل على تعدد النفخ .

وعلى ضوء هذا فللإنسان حياة بعد الإماتة من الحياة الدنيا ، وهي حياة برزخية متوسطة بين النشأتين .

٢ ـ قوله سبحانه : ﴿ مِمّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدوا لَهُمْ مِنْ دونِ الله أنْصاراً ﴾[5] .

وهذه الآية تدل على أنهم دخلوا النار بعد الغرق بلا فصل للفاء في قوله : ﴿ فأُدْخِلُوا ﴾ . ولو كان المراد هو نار يوم القيامة لكان اللازم الإتيان بـ « ثم » أوّلاً ، وارتكاب التأويل في قوله ﴿ فأُدْخِلوا ﴾ ، حيث وضع الماضي مكان المستقبل لأجل كونه محقّق الوقوع ، وهو خلاف الظاهر ، ثانياً .

٣ ـ قوله سبحانه : ﴿ النّارُ يُعْرَضونَ عَلَيْها غُدُوّاً وَعَشِيّاً . وَيَوْمَ تَقومُ

---

(١) سورة الزمر : الآية ٦٨ .
(٢) سورة يس : الآية ٥١ .
(٣) سورة الكهف : الآية ٩٩ .
(٤) سورة المؤمنون : الآية ١٠١ .
(٥) سورة نوح : الآية ٢٥ .

السَّاعَةُ ، أَدْخِلوا آل فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذابِ ﴾[1] .

وهذه الآية تحكي عرض آل فرعون على النار صباحاً ومساءً ، قبل يوم القيامة ، بشهادة قوله بعد العرض : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ . ولأجل ذلك ، عبّر عن العذاب الأول بالعرض على النار ، وعن العذاب في الآخرة ، بإدخال آل فرعون أشدّ العذاب ، حاكياً عن كون العذاب في البرزخ ، أخَفُّ وطأً من عذاب يوم الساعة .

نعم ، هناك آيات تدلّ على حياة الإنسان في هذا الحدّ الفاصل بين الدنيا والبعث ، حياة تناسب هذا الظرف ، تقدّم ذكرها عند البحث عن تجرّد النفس ، ونكتفي هنا بهذا المقدار ، حذراً من الإطالة .

وأمّا من السنة ، فنكتفي بما جاءَ عن الصادق عليه السلام ، عندما سُئِل عن أرواح المؤمنين ، فقال : « في حجرات في الجنة ، يأكلون من طعامها ، ويشربون من شرابها ، ويقولون ربّنا أَتِمْ لنا الساعة وأنجز ما وعدتنا » .

وسُئِل عن أرواح المشركين ، فقال : « في النار يُعَذَّبون ، يقولون لا تُقِم لنا الساعة ، ولا تُنْجِز لنا ما وعدتنا »[2] .

السؤال في القبر وعذابه ونعيمه

إذا كانت الحياه البرزخية هي المرحلة الأولى من الحياة بعد الدنيا ، يظهر لنا أنّ ما اتّفق عليه المسلمون من سؤال الميت في قبره ، وعذابه إن كان طالحاً ، وإنعامه إن كان مؤمناً صالحاً ، صحيحٌ لا غُبار عليه ، وأنّ الإنسان الحي في البرزخ مسؤول عن أمور ، ثم معذّب أوْ مُنَعَّم .

قال الصدوق في عقائده : « إعتقادنا في المسألة في القبر أنّها حقّ لا بُدّ منها ، ومن أجاب الصواب ، فاز برَوْحٍ وريحان في قبره ، وبجنة النعيم في الآخرة ، ومن

---

(١) سورة غافر : الآية ٤٦ .

(٢) البحار ، ج ٦ ، باب أحوال البرزخ ، ص ١٦٩ ، الحديث ١٢٢ ، وص ٢٧٠ ، الحديث ١٢٦ .

لم يُجِب بالصواب ، فله نُزُل من حميم في قبره ، وتَصْلِيَةُ جحيمٍ في الآخرة »[1] .

وقال الشيخ المفيد : « جاءت الآثار الصحيحة عن النبي أنّ الملائكة تنزل على المقبورين فتسألهم عن أديانهم ، وألفاظ الأخبار بذلك متقاربة ، فمِنها أنّ مَلَكَيْنِ لله تعالى ، يقال لهما ناكِر ونَكير ، ينزلان على الميت فيسألانه عن رَبّه ونبيّه ودينه وإمامِه ، فإن أجاب بالحق ، سلّموه إلى ملائكة النعيم ، وإن أرْتَج سلّموه إلى ملائكة العذاب . وفي بعض الروايات أن اسمي المَلَكَيْنِ الذين ينزلان على الكافر ، ناكر ونكير ، واسمي المَلَكَيْنِ الذين ينزلان على المؤمن مُبَشّر وبشير » . إلى أن قال :

« وليس ينزل المَلَكان إلّا على حيٍّ ، ولا يسألان إلّا مَنْ يفهم المسألة ويعرف معناها ، وهذا يدلّ على أن الله تعالى يحيى العبد بعد موته للمسألة ، ويديم حياته لنعيم إن كان يستحقه ، أو لعذاب إن كان يستحقه »[2] .

وقال المحقق الطوسي ، في التجريد « وعذاب القبر واقع ، للإمكان ، وتواتر السمع بوقوعه » .

وقال العلامة الحلي ، في شرحه : « نقل عن ضرار أنّه أنكر عذابَ القبر ، والإجماع على خلافه »[3] .

والظاهر اتّفاق المسلمين على ذلك ، يقول أحمد بن حنبل : « وعذاب القبر حق ، يُسأل العبد عن دينه وعن ربه ، ويرى مقعده من النار والجنة ، ومنكر ونكير حق »[4] .

وقد نسب إلى المعتزلة إنكار عذاب القبر ، والنسبة في غير محلها ، وإنّما المنكر واحدٌ منهم ، هو ضرار بن عمرو ، كما تقدم ، وقد تاب عن الإعتزال ولحق بالمجبرة ، قال القاضي عبد الجبار في فصل عذاب القبر : « وجملة ذلك أنه لا

---

(١) عقائد الصدوق ، ص ٨١ ، من الطبعة الحجرية الملحقة بشرح الباب الحادي عشر .
(٢) شرح عقائد الصدوق : ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٣) كشف المراد ، ص ٢٦٦ ، ط صيدا ، ولاحظ إرشاد الطالبين ، ص ٤٢٥ .
(٤) السنة ، لأحمد بن حنبل ، ص ٤٧ ، ولاحظ الإبانة للأشعري ، ص ٢٧ .

خلاف فيه بين الأُمّة إلاّ شيء يحكى عن ضرار بن عمرو ، وكان من أصحاب المعتزلة ثم التحق بالمُجبِرة ، ولهذا ترى ابن الراوندي يشنع علينا ، فيقول : إنّ المعتزلة ينكرون عذاب القبر ولا يقرّون به » ، ثم استدلّ بآيات على حياة الإنسان في البرزخ[1] .

هذا كلّه ممّا لا ريب فيه ، إنّما الكلام فيما هو المراد هنا من القبر ، والإمعان في الآيات الماضية التي استدللنا بها على الحياة البرزخية ، والروايات الواردة حول البرزخ ، يعرب بوضوح عن أنّ المراد من القبر ، ليس هو القبر المادي الذي يدفن فيه الإنسان ، ولا يتجاوز جثّته في السَّعة ، وإنّما المراد منه هو النشأة التي يعيش فيها الإنسان بعد الموت وقبل البعث ، وإنّما كنّى بالقبر عنها ، لأنّ النزول إلى القبر يلازم أو يكون بدْءً لوقوع الإنسان فيها .

والظاهر من الروايات تعلّق الروح بأبدان تماثِلُ الأبدان الدنيوية ، لكن بلطافة تناسب الحياة في تلك النشأة ، وليس التعلق بها ملازماً لتجويز التناسخ ، لأنّ المراد من التناسخ هو رجوع الشيء من الفعلية إلى القوة ، أعني عودة الروح إلى الدنيا عن طريق النطفة فالعلقة ، فالمضغة إلى أن تصير إنساناً كاملاً ، وهذا منفي عقلاً وشرعاً ، كما سيوافيك . ولا يلزم هذا في تعلّقها ببدن ألطف من البدن المادي ، في النشأة الثانية .

قال الشيخ البهائي : « قد يتوهم أنّ القول بتعلق الأرواح ، بعد مفارقة أبدانها العنصرية ، بأشباح أُخر ـ كما دلّت عليه الأحاديث ـ قولٌ بالتناسخ ، وهذا تَوَهُّمٌ سخيف ، لأنّ التناسخ الذي أطبق المسلمون على بطلانه ، هو تعلّق الأرواح بعد خراب أجسادها ، بأجسام أُخر في هذا العالم ، وأمّا القول بتعلّقها في عالم آخر ، بأبدان مثالية ، مدّة البرزخ ، إلى أن تقوم قيامتها الكبرى ، فتعود إلى أبدانها الأوّلية بإذن مُبْدعها ، فليس من التناسخ في شيء »[2] .

قال الرازي : « إنّ المسلمين يقولون بحدوث الأرواح وردّها إلى الأبدان ،

---

(١) شرح الأُصول الخمسة ، ص ٧٣٠ .

(٢) البحار ، ج ٦ ، ص ٢٧٧ .

لا في هـذا العالم ، والتنـاسخية يقـولون بقـدمها ، وردّهـا إليها ، في هـذا العالم ، وينكرون الآخرة والجنة والنار ، وإنّما كُفّروا من أجل هذا الإنكار »[1] .

نَفْــــخُ الصّــــور

إنّ الإنسان الذي يعيش في هـذا الكوكب ، بـالنسبة إلى المعـارف الغيبية ، كالجنين في بطن أُمّه ، فلو قيل له إنّ وراء الرحم أَنْجُماً وكواكب وشموساً وأقماراً ، وبحاراً ومحيطاتٍ ، لا يفقـه منها شيئـاً ، لأنّها حقائق خـارجة عن عـالمه الضيّق ، والإنسان الماديّ القاطن في هذا الكوكب لا يفقه الحقائق الغيبية الموجودة وراء هـذا العالم ، فلأجل ذلك لا مناص له من الإيمـان المجرّد من دون تعمق في حقيقتهـا ، وهذا أصل مفيد جداً في باب المعاد ، وعلى ذلك تبتني مسألة نفخ الصور ، فـما هو المراد من الصور ، أهو شيء يشابه البوق المتعارف أو شيء غيره ؟ وما هو المـراد من النفخ ؟ لا مناص لنا من الإعتقاد بوجوده وتحققه ، وإنْ لم نتمكن من التعرف عـلى واقعيته ، ومع ذلك فلا بُدّ أن تكون هناك حقيقة واقعية ، لها صلة بين نفخ الصور في هذا العالم ، ونفخه في النشأة الأُخرى .

تَدُلُّ الآيات على أنّ الإنسان يعيش في البرزخ إلى أن يفاجئـه نفخ الصـور ، فعند ذلك يهلك كل من في السموات والأرض إلّا من شـاء الله ، يقول سبحـانه : **﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ الله ، ثُمَّ نُفِخَ فيهِ أُخْرى فإِذَا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرونَ ﴾**[2] . ففي النفخ الأول موت كـل ذي حياة في السّموات والأرض ، كما أنّ في النَّفْخِ الثاني ، إحياءَهم .

يقـول سبحـانـه : **﴿ وَنُفِـخَ فِي الصُّــورِ فـإذَا هُمْ مِنَ الأَجْـدَاثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلونَ ﴾**[3] .

* * *

---

(١) نهاية العقول ، للرازي ، البحار ، ج ٦ ، ص ٢٧٨ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٦٨ .

(٣) سورة يس : الآية ٥١ . والآية ناظرة إلى النفخ الثاني .

ما ذكرناه في هذا البحث تصوير وترسيم للنشأة التي يمرّ بها الإنسان بعد موته إلى أنْ يقوم من جدثه ، ويحشر إلى الله تعالى . وفي البحث القادم تصويرٌ لمشاهد القيامة ، من بداية وقوعها إلى أنْ يحاسب الإنسان ويصير إلى مآله من الجنة أو النار .

* * *

مباحث المعاد

(٨)

أشراط الساعة

الشَرَط ـ بالتحريك ـ : العلامة ، والجمع أشراط ، وأشراط الساعة : أعلامها[١] .

والمراد من أشراط الساعة العلامات والآيات التي تخبر عن دنو القيامة ، وقربها ، وهي مأخوذة من الذكر الحكيم ، قال سبحانه : ﴿ **فَقَدْ جاءَ أشْراطُها** ﴾[٢] .

وهذه العلامات بعضها مذكور في الكتاب العزيز ، وبعضها مذكور في السُّنة فنبحث عن كلا القسمين على وجه الإجمال .

وأمّا مشاهد القيامة ، فهي الحوادث الهائلة التي تقع في نفس قيام الساعة ، التي وردت في سور التكوير والإنفطار والإنشقاق وغيرها ، كتكوير الشمس وانكدار النجوم وانفطار السماء وانتثار الكواكب ، وتسجير البحار وتفجيرها ، وغير ذلك . فالكل من مشاهد القيامة التي نأتي بها في بحث خاص وإليك الكلام في أشراط الساعة الواردة في الكتاب .

---

(١) لسان العرب ، ج ٧ ، ص ٣٢٩ ، مادة شرط .

(٢) سورة محمد : الآية ١٨ .

أشراط الساعة في الكتاب

جاء في الذكر الحكيم أُمور يستظهر منهـا أنّها من أشراط الساعـة ، والآيات الواردة في هذا المجال بين واضحة الدلالة وغيرِها .

أ ـ بعثة النبي الأكرم

يقول سبحانه : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرونَ إِلَّا السَّاعَـةَ ، أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَـةً فَقَدْ جـاءَ أَشْراطُها ، فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكراهُمْ ﴾[1] .

إنّ هذه الآية تندد بالمشركين بأنّهم لا يؤمنون ، ولا ينتظرون شيئاً إلّا القيامة أن تأتِيَهُمْ فجأة حتى يؤمنوا ، ولكن لا يفيدهم عندها إيمانُهم ، ومن أين لهم التذكّر والإتعاظ والتوبة إذا جاءَتْهم الساعة بغتـة . ومع ذلـك كله فليعلموا أنّ السـاعة ، وإن لم تأتهم ، ولكن قد جاءتهم أشراطها وعلاماتها ، فعليهم أن يَتّعظوا بذلك .

والآيـة غير متضمنـة لتعيين مـا جاء من الأشراط ، لكن قـال ابن عبـاس : « والنبيُّ من أشْراطِها ، ولقد قال بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين »[2] .

وكون بعثة النبي من معالم الساعة ، لا ينافي وجـود هذه الفـترة الطويلة بينـه وبين القيامة ، وذلك لأنّ ما مضى من عمر الأرض والمجتمع الإنساني أزيد بكثير مما بقي منه ، فيصحّ جعل ظهوره من معالم الساعة .

ويحتمل أن يكون المراد من أشراط الساعة التي جاءتهم إنشقاق القمر بيده ، ونزول القرآن الذي هو آخر الكتب[3] .

ب ـ إندكاك السدّ وخروج يأجوج ومأجوج

جاء في الذكـر الحكيم أنّ ذا القرنـين وصل في مسـيره إلى قوم طلبـوا منه أن

---

(١) سورة محمد : الآية ١٨ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ١٠٢ .

(٣) لاحظ المصدر السابق نفسه .

يبني لهُمْ سدّاً يحجز عنهم يأجوج ومأجوج ويقيهم شرهما ، فقام ذو القرنين بعمليةٍ كبيرة ، حيث سدّ ما بين الجبلين ـ الذي كان طريق نفوذهما ـ بزُبَرِ الحديد ثم أنجز عملية بناء السدّ بما يحكيه تعالى من قوله : ﴿ حَتى إذا ساوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخوا ، حتى إذَا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتوني أُفْرِغْ عَلَيْه قِطْراً ﴾[1] .

فلما فرغ من بناء السدّ قال :

﴿ هذا رَحْمَةٌ من ربِّي ، فإذا جاءَ وَعْدُ ربِّي جَعلَهُ دَكّاءَ وكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً * وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئذٍ يَموجُ في بَعْضٍ ، وَنُفِخَ في الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً ﴾[2] .

وقوله : ﴿ وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَموجُ في بَعْضٍ ﴾ ، يعرب عن كون اندكاك السَّدِّ من أشراط الساعة[3] . والمراد أنّه بعد انقضاء أمْرِ السَّدِّ يموج بعض الناس في بعض ، فَيَرْتفع من بينهم النُّظْمُ ، ويَحْكُمْ فيهم الهرج والمرج ، ويظهر هذا أيضاً من آية أخرى ، أعني قوله تعالى : ﴿ حتّىٰ إذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدبٍ يَنْسِلونَ * واقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فإذَا هي شاخِصَةٌ أبْصارُ الَّذينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنّا في غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنّا ظالِمينَ ﴾[4] .

فمفادها أنّه عندما ينفرج سدّ يأجوج ومأجوج ، يتفرق المحجوزون خلف السدّ ، في الأرض ، فلا ترى أكمةً إلّا وقوم منهم يهبطون منها ، وعند ذلك يقترب الوعد الحق ، أي قيام الساعة . فيكون اندكاك السدّ وانتشار يأجوج ومأجوج في الأرض من أشراط الساعة ، لحكايته عن اقتراب الوعد الحقّ ، وهذا هو المراد من أشراط الساعة .

ج ـ إتيان السماء بِدُخان مبين

إنّ الصناعات البشرية أوجدت قلقاً في الحياة ، ولوثت البيئة في الأرض

---

(١) سورة الكهف : الآية ٩٦ .

(٢) سورة الكهف : الآيتان ٩٨ و ٩٩ .

(٣) ويمكن جعله من أشراطها على حدة ، فإنّها تحكي عن عموم حالة الفوضى والهرج والمرج العالَمَ بأسره .

(٤) سورة الأنبياء : الآيتان ٩٦ و ٩٧ .

بالأدخنة المتصاعدة من معاملها ، والإبخرة المتطايرة من موادها . ولكنها إلى اليوم ليست إلى الحدّ الذي يزاحم الحياة ، والله يعلم مآل الأمور .

ولكنه تعالى يخبر عن حدوث دخان في السماء ، يَغْشى الناس ، ويكون عذاباً أليماً لهم ، يقول تعالى : ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنا اكْشِفْ عنّا العَذابَ إِنّا مُؤْمِنونَ * أَنّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالوا مُعَلَّمٌ مَجْنونٌ * إِنّا كاشفوا العذاب قَليلاً إِنَّكُمْ عائِدونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرى إِنّا مُنْتَقِمونَ** ﴾[1] .

إنّ في تفسير الآية وجهين :

الوجه الأوّل ـ إن مجموع هذه الآيات راجعة إلى عصر النبي ، وذلك أنّ رسول الله دعا على قومه لمّا كذّبوه ، فقال : أللهم سنيناً كَسِنِيِّ يوسف ، فَأَجْدَبَتِ الأرض وأصابت قُرَيْشاً المجاعة ، وكان الرجل لِما به من الجوع ، يرى بينه وبين السماء كالدخان ، فجاؤوا إلى النبي وقالوا : يا محمد ، جئت تأمر بصلة الرحم وقومك قد هلكوا . فسَألَ الله تعالى لهم بالخصب والسعة ، فكشف عنهم ، ثم عادوا إلى الكفر[2] .

يلاحظ على هذا الوجه : **أولاً** ، إنّ ظاهر الآية أنّ السماء تأتي بدخان مبين ، وتحدثه ، وهو غير تجلّي السماء بصورة الدخان في عين الجائع ، الذي هو انخداع الحواس لغلبة الجوع ، من دون أنْ يكون هناك دخان في الواقع .

وثانياً : إنّ أصحاب السِّيَر النبوية لم يذكروا شيئاً عن هذا الجوع المُدْقِع الذي أحدق بقريش وأوجد فيهم سنيناً كسني يوسف .

وثالثاً : إنّ ما جاء في القصة ، لا يناسب خُلُقَ النبيِّ وعطفه على قومه ، وكونه رحمة للعالمين ، كيف وقد قال سبحانه : ﴿ **وما كانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنْتَ**

---

(١) سورة الدخان : الآيات ١٠ـ١٦ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٦٢ ، وتفسير الطبري ، ج ١٥ ، ص ٦٦ . وبهذا المضمون روايات أُخر في المصدرين .

فيهِمْ ، وما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وهم يَسْتَغْفِرونَ ﴾[1] وهو صلوات الله عليه وآله ، لم يدع عليهم في غزوة أُحُدْ ، مع أنّهم شَجّوا جبهته وكسروا أسنانه ، وضرّجوا وجهه بالدماء .

فهذه الأمور ، توجب عدم الإطمئنان إلى هذا الوجه .

الوجه الثاني : إنّ مفاد الآية يرجع إلى أشراط الساعة ، وأنه قبل قيام البعث يغشى الناس دخان مبين . ويؤيّد ذلك أنّ الآية تتضمن ذكر يومين :

١ ـ يومٌ تأتي السماء فيه بدخان مبين .

٢ ـ ويوم يبطش فيه الرب تعالى البطشة الكبرى .

وبما أنّ البطشة الكبرى راجعة إلى يوم البعث الذي يأخذ فيه الله تعالى الظالمين والكافرين بشدة وقدرة ، يكون ذلك قرينة على أنّ ما يقع في اليوم الأول ، من أشراط الساعة ، فيومٌ تظهر فيه آية الساعة وعلامتها ، ويوم تتحقق فيه نفس الساعة .

وأما على التفسير الأول ، فلا مناص ، من جعل اليوم الأول يوم طروء الجوع في مكة ، واليوم الثاني يوم غلبة النبي على قريش في بدر ، ولا يخفى أن تفسير اليومين بهذا النحو يحتاج إلى دليل .

ويؤيّد المعنى الثاني ما روي عن حُذيفة بن اليَمان ، مرفوعاً : أوّلُ الآيات الدّجال ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوقُ الناس إلى المحشر ، تُقيلُ معهم إذا قالوا ، والدُّخان . قال حذيفة : يا رسول الله ، وما الدُّخان ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وآله الآية : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماء بِدُخَانٍ مُبِينٍ .. ﴾ ، يملأ ما بين المشرق والمغرب ، يمكث أربعين يوماً وليلةً ، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكام ، وأما الكافر بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودُبُرِه[2] .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٣ .

(٢) تفسير الطبري ، ج ٢٥ ، ص ٦٨ . والدر المنثور ، ج ٦ ، ص ٢٩ .

نعم بقي هنا شيء وهو أنّه لو كان صدر الآيات راجعاً إلى أشراط الساعة، فما معنى قوله سبحانه: ﴿ إنّا كاشِفوا العذابِ قَليلاً إنَّكُمْ عائِدون ﴾. **فإنه بالمعنى الأوّل ألصق.**

ولكن يمكن أن يقال: إن الجملة الخبرية متضمنة لقضية شرطية، وهي أنه حتى لو كشفنا عنهم العذاب، لعادوا لما كانوا عليه من العصيان نظير قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لعَادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وإنَّهُمْ لكاذِبونَ ﴾[1].

د ـ نزول المسيح

يقول سبحانه: ﴿ وَلَمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّون * وقالوا ءَآلِهَتُنا خيرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إلاّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إنْ هُوَ إلاّ عَبْدٌ أنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إسْرائِيلَ * وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأرضِ يَخْلُفُونَ * وإنَّه لَعِلْمٌ للسّاعَةِ، فَلا تَمْتَرُنَّ بها، واتَّبِعونِ، هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾[2].

روى المفسرون أنه لما نزل قوله سبحانه: ﴿ إنَّكم وما تعبُدُونَ مِنْ دون الله حَصَبُ جَهَنَّم ﴾[3]، أحدثت قريش ضجة، وقاموا يجادلون النبي فقالوا: قد رضينا بأنّ تكون آلهتنا كذلك، حيث يكون عيسى أيضاً مثلهم، وقالوا ـ كما يحكيه سبحانه عنهم: ـ ﴿ ءَآلِهَتُنا خيرٌ أمْ هُوَ ﴾، فليست آلهتنا خيراً من عيسى، فإن كان عيسى في النار، فكذلك آلهتنا.

فأجاب سبحانه بأنّهم ما ضربوا هذا المثل إلا للمجادلة والمخاصمة، وأنهم قوم خَصِمون لا يتطلبون الحق. ثم أخذ بتوصيف عيسى بن مريم وتبيين مقامه فقال: ﴿ وإنّه لَعِلْمٌ للسّاعَةِ ﴾، أي إنّ وجود عيسى في ظرف من الظروف، يُعْلَمُ به قُرْب الساعة، فلا تكذبوا بها.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٢٨.

(٢) سورة الزخرف: الآيات ٥٧ ـ ٦١.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٩٨.

فالآية تدل على أنّ وجود عيسى في ظرف من الظروف يعلم به دنو السّاعة ، وأما ظرفه ، فالظاهر من الروايات هو نزوله بعد خروج الإمام المهدي عليه السلام[1] .

وللآية تفسير آخر ، يطلب من مظانّه[2] .

هـ ـ إخراج دابة من الأرض

قال تعالى : ﴿ وإذا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ أخْرَجْنا لَهُمْ دابّةً من الأرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أنّ النّاسَ كانوا بآياتِنا لا يُوقِنونَ ﴾[3] .

وتوضيح الآية يتوقف على إيضاح أمور :

١ ـ ما هو المراد من قوله : ﴿وَإذا وَقَعَ ٱلقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ ؟ .

٢ ـ ما هو المراد من الدابة المخرجة من الأرض ؟

٣ ـ بماذا تتكلم هذه الدابة ، وماذا تقول ؟

٤ ـ ما هو موضع قوله سبحانه في الآية : إنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ؟ فهل هو يحكي قول الدابة ، أو هو تعليل لصدر الآية (وقوع القول عليهم) .

٥ ـ ما هو المراد من الآيات ؟

٦ ـ ما هو الهدف من إخراج الدابة ؟

٧ ـ ما هو زمان إخراجها ؟

والحقّ أنّ هذه الآية ، إحدى الآيات التي يحيق بها الإبهام من جهة أو جهات ، وليس لها في القرآن ما يشابهها في المضمون ، حتى يستعان به على

---

(١) لاحظ ما أوردناه من الروايات في بحث الإمامة .
(٢) لاحظ مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٣٥٨ .
(٣) سورة النمل : الآية ٨٢ .

تفسيرها ، فلا مناص من الإمعان فيها نفسها ، أو اللجوء إلى الروايات الواردة حولها ، فنقول :

أما السؤال الأول ، فالمراد من وقوع القول عليهم ، هو استحقاقهم للعذاب ، يظهر ذلك من قوله تعالى : ﴿ **وَوَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَموا فَهُمْ لا يَنْطِقونَ** ﴾[1] . وليس المراد من القول ، القول اللفظي ، بل القول التكويني المساوق لِتحَقُّق العذاب ، وحصوله في الخارج . وقد عرفت أنّ العالَم فعلُ اللّهِ سبحانه ، وفعلُهُ كلامُهُ ، والآيتان نظير قوله سبحانه : ﴿ **أفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب ، أفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ في النّارِ** ﴾[2] .

وأما الثاني فالدابة في اللغة والقرآن تطلق على كل ما يُدبّ على الأرض ، يقول سبحانه : ﴿ **وما مِنْ دابَّةٍ في الأرْضِ إلاّ على اللّهِ رِزْقُها** ﴾[3] . ولا يظهر من نفس الآية أنّه من أي نوع من الدواب ، أهو إنسان أو حيوان ، فلا مناص من الرجوع إلى الروايات التي نشير إلى مصادرها آخر البحث .

غير أنّه يمكن أنْ يقال إن « الدابة » استعملت في القرآن كثيراً في المعنى العام ، فإطلاقها على نوع خاص منه كالإنسان ، يحتاج إلى قرينة .

أضف إلى ذلك أنّه ربما استعمل في مقابل الإنسان ، يقول سبحانه : ﴿ . . . . **والدوابُّ وكثيرٌ من الناسِ** ﴾[4] وفي آية أُخرى : ﴿ **ومن النّاس والدَّوابِّ** ﴾[5] . وهذا يدفعنا إلى القول بأنّ المراد من الدابة هو غير الإنسان .

وأما الثالث : فلا يظهر من الآية شيء في جوابه إلاّ احتمال أن يكون مقول كلامها هو ما جاء في ذيل الآية من قوله ﴿ **إنّ النّاس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾ . وقد ورد في بعض الروايات مضمون كلامها الذي تتكلم به .

---

(١) سورة النمل : الآية ٨٥ .
(٢) سورة الزمر : الآية ١٩ .
(٣) سورة هود : الآية ٦ .
(٤) سورة الحج : الآية ١٨ .
(٥) سورة فاطر : الآية ٢٨ .

وأما الرابع ، فيحتمل أنْ يكون قوله : ﴿ **إنّ النّاسِ** ﴾ مقولاً لكلامها ، كما يُحتمل أنْ يكون تعليلاً لفرض العذاب عليهم ، الذي يدل عليه صدر الآية ، فكأنه يقول : حق عليهم العذاب لأنهم كانوا بآياتنا لا يوقنون ، ويؤيّد هذا الوجه قراءة ﴿ **إنّ** ﴾ بالكسر ، التي تجعلها جملة مستأنفة ، واقعة موقع التعليل .

وأما الخامس ، فيحتمل أنْ يكون المراد من الآيات هو الآيات الكونية والأنفسية الواردة في قوله سبحانه : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آياتنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِمْ حتىّٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الحَقُّ ، أوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أنَّهُ على كُلِّ شيءٍ شَهيدٌ** ﴾[1] .

كما يحتمل أنْ يكون المُراد من الآيات ، المعاجز وخوارق الآيات التي جاءت بها الأنبياء ، وإطلاق الآية على المعجزة في القرآن ، كثير .

ويحتمل أن يكون المراد ، الكتب السماوية ، فإنها آيات إلهية .

ولا يظهر من الآية شيء في تعيين أحد هذه الاحتمالات ، إلاّ أنّه يمكن تاييد الإحتمال الثالث بقوله سبحانه في آية سابقة عليها : ﴿ **إنَّ هذا القُرآن يَقُصُّ على بَني إسرائيل أكْثَرَ الّذي هُمْ فيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾[2] .

وأما السادس ، وهو الهدف من إخراج الدابة ، فيمكن أنْ يكون إعلام دُنُوّالسّاعة ، كما يمكن أنْ يكون لأجل تمييز المؤمن من الكافر ، وغير ذلك من الأهداف التي وردت فيها الروايات .

وأما السابع ، وهو زمان الإخراج فسياق الآيات يثبت أنّها تقع قبل يوم القيامة ، عند دنوّها لقوله سبحانه بعدها : ﴿ **ويَومَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآياتنا فَهُمْ يوزَعونَ** ﴾[3] . فبما أنّ الثانية تقع قبل القيامة ، فسياق الكلام يقتضي كون الأولى كذلك .

ويتحصّل من الإمعان في الآيات أنّه سبحانه يحكي في لفيف منها عن أمور

---

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣ .

(٢) سورة النمل : الآية ٧٦ .

(٣) سورة النمل : الآية ٨٣ .

ثلاثة ، الأولين راجعان إلى ما قبل القيامة ، ويعدّان من أشراطها ، والثالث إلى نفس القيامة .

فالأول ، هو وقع القول على الكافرين وخروج الدابة .

والثاني ، هو حشر فوج من كلّ أمة .

والثالث ، هو نفخ الصُور ، أعني قوله سبحانه : ﴿ **وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ** ﴾[1] .

وعلى ضوء ذلك يمكن عدّ الأوّل والثاني من أشراط الساعة[2] .

و ـ مجيء بعض آيات الربّ تعالى

يقول سبحانه : ﴿ **هل يَنْظُرون إلّا أنْ تأتِيَهُمُ المَلائِكَةُ أوْ يأتِيَ رَبُّكَ أوْ يأتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أوْ كَسَبَتْ في إيمانِها خَيْراً ، قُلِ انْتَظِروا إنّا مُنْتَظِرونَ** ﴾[3] .

الإستفهام في الآية إنكاري ، وقع في مقام يعرب عن عدم نفع العظة ونجاح الدعوة ، وأنّ المخاطبين كانوا في عناد ولجاج إزاء دعوة النبي الأكرم ، كما هو الظاهر من الآيات المتقدمة عليها ، فإنّه يقول :

﴿ **أنْ تَقولوا إنَّما أُنْزِلَ الكِتابُ علىٰ طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا . . .** ﴾ .

﴿ **أو تقولوا لَوْ أنّا أُنْزِلَ عَلَيْنا الكِتابُ ، لَكُنّا أَهْدى مِنْهُمْ . . .** ﴾ .

ففي هذا السياق ورد قوله سبحانه :

﴿ **هَلْ يَنْظُرونَ** ﴾ ، أي هؤلاء لا ينتظرون إلا أُموراً تترجح بين كونها موجبة لهلاكهم أو كونها أمراً محالاً في نفسه ، أوْ غير ناجعة في إيمانهم عند وقوعها .

---

(١) سورة النمل : الآية ٨٧ .

(٢) ومن أراد التبسط في الآية ، فعليه الرجوع إلى المصادر التالية : تفسير الطبري ، ج ٢٠ ، ص ١٠-١٢ . الدر المنثور ، ج ٥ ، ص ١١٦ . تفسير البرهان ، ج ٣ ، ص ٢٠٩-٢١١ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٥٨ .

فالأوّل ، هو قوله تعالى : ﴿ **أنْ تَأتِيَهُمُ الملائِكَةُ** ﴾ ، فإنّ نزولَ الملائكة عليهم يلازم هلاكهم . يقول سبحانه : ﴿ **ما نُنَزِّلُ الملائكَةَ إلاّ بالحَقِّ وما كانوا إذاً مُنْظَرينَ** ﴾[1] .

والثاني،هو مجيء الربّ ومشاهدته بأُمّ أعينهم ، وهو أمْر محال . وإنْ أُريد منه يوم اللقاء ، الذي ينكشف منه الغطاء ، ويتجلى سبحانه بأسمائه وصفاته ، تجلّياً لا يبقى معه ريب ولا شك ، فلا ينجع إيمانهم عند ذاك .

والثالث ، وهو مجيء بعض آياته ، فهو مردد بَيْن أن يكون المراد منه الموت الذي تتبدل فيه نشأة الحياة إلى نشأة أُخرى ، أو يكون المراد هو خروج الدابة عند دنو الساعة الذي مضى البحث عنه ، وعند ذلك تكون الآية ناظرة إلى بعض أشراط الساعة .

وعلى كلا المرادَيْنَ ، لا ينفع بعدهما الإيمان والإستغفار . . .

قال الطبرسي : « المراد الآيات التي تضطرهم إلى المعرفة ، ويزول التكليف عندها (لا ينفع نفساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمنت من قَبْلُ) لأنّه ينسد باب التوبة بظهور آيات القيامة »[2] .

روى العيّاشي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ، في تفسير الآية ، قولهما : « طلوعُ الشمس من المغرب ، وخروج الدابة ، والدخان ، والرّجُل يكون مُصراً ولم يعمل على الإيمان ثم تجيء الآيات ، فلا ينفعه إيمانه »[3] .

هذا بعض الكلام حول أشراط الساعة الواردة في آيات الذكر الحكيم .

وأما الروايات ، فنقتبس منها ما يلي :

١ ـ روى مسلم في صحيحه عن حذيفة بن أسيد الغفاري : إطّلع رسول الله صلى الله عليه وآله علينا ونحن نتذاكر فقال : ما تذكرون ؟ قلنا : نذكر

---

(١) سورة الحِجر : الآية ٨ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ .

(٣) البحار ، ج ٦ ، ص ٣١٢ ، الحديث ١٣ .

الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فَذَكَرَ : الدُّخان ، والدجّال ، والدابّة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسفٌ بالمشرق ، وخسفٌ بالمغرب ، وخسفٌ بجزيرة العرب ، وآخِرُ ذلك نارٌ تطردُ النّاس إلى محشرهم[1] .

٢ ـ روى القمي في تفسيره عن عبد الله بن عباس ، قال : حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله حجة الوداع ، فأخذ باب الكعبة ، ثم أقْبَلَ علينا بوجهه ، فقال : ألا أُخْبِرُكم بأشراط الساعة ، وكان أدنى الناس منه يومئذ سلمان رضي الله عنه ، فقال : بلى يا رسول الله .

فقال : إنّ من أشراط القيامة ، إضاعة الصلاة ، واتباع الشهوات ، والميل مع الأهواء ، وتعظيم أصحاب المال ، وبيع الدين بالدنيا ، فعندها يذاب قلب المؤمن وجوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أنْ يُغَيِّره . . . . لاحظ بقية الحديث[2] .

* * *

(١) جامع الأصول ، ج ١١ ، ص ٨٧ ، الحديث (٧٨٩٨) . ورواه الصدوق في الأمالي ، وقال في آخره : ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر تنزل معهم إذا نزلوا ، وتقبل معهم إذا اقبلوا (البحار ، ج ٦ ، ص ٣٠٣) .

(٢) البحار ، ج ٦ ، الحديث ٦ ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٩ . وقد روى المجلسي في الجزء السادس من بحاره ، في باب أشراط الساعة ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦ ، اثنين وثلاثين حديثاً . وما نقلناه نموذج من تلك الأحاديث ، كما روى الجزري ، في الجزء الحادي عشر من جامع الأصول ، في الباب المعقود لبيان أشراط الساعة ، ص ٧٤ ـ ٩٤ ، مائة وستة أحاديث .

مشاهد البعث والقيامة

لقد تعرّفت على أشراط الساعة التي تخبر عن دنوّها ، كتاباً وسنةً ، وهي غير نفس القيامة ، فإنها الأمور الكونية التي تُدَبِّر النظام السائد ، ليؤسس بعده نظام جديد لمحاسبة العباد ، وجزائهم ، وقد أكثر الذكر الحكيم من نقل وتصوير مشاهد القيامة في سوره القصار .

وبعد تلك الحوادث المريعة ، تتلاحق مواقف العالم الأخروي ، إلى أن يَرِدَ الخلق إلى مثواهم الأخير ، وفيما يلي نستعرضها واحدةً بعد الأخرى .

١ ـ إنهدام النظام

تظافرت الآيات القرآنية على أن البعث لايقوم على هذا النظام السائد ، وإنما يقوم على نظام جديد ، وهو لا يتحقق إلا بتلاشي النظام الموجود وانهدامه . والقرآن يخبر عن مشاهد ذاك الإنهدام الكوني العام ، فيحدّث عن انشقاق السماء وانفطارها ، وتكوير الشمس ، وانكدار النجوم وتناثرها ، وامتداد الأرض ، وتفجير البحار وتسجيرها ، وتسيير الجبال حتى تكون كالعهن المنفوش ، وغير ذلك من المشاهد المروعة للقلوب[1] .

---

(١) لاحظ سور التكوير ، والانفطار ، والإنشقاق والقارعة وغيرها .

٢ ـ خروج الناس من القبور

ويستعقب ذلك مشهد آخر ، ألا وهو خروج الناس من الأجداث .

يقول سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ في الصُّورِ فإذا هُمْ من الأجداثِ إلى رَبِّهم يَنْسلونَ * قالوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ، هذا ما وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ ﴾[١] .

وبعد ذلك يُدْعى الناس إلى الحساب ، وموقف العرض ، وهو مشهد أشدّ في النفس هولاً ممّا سبق ، لِعَظم الحسرة والخوف الحاكمين على القلوب آنئذٍ ، يقول سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدّاعِ إلى شيءٍ نُكُرٍ * خُشَّعاً أبْصارُهُمْ ، يَخْرُجونَ مِنَ الأجْداثِ كأنَّهمْ جرادٌ مُنْتَشِر * مُهْطِعِينَ إلى الدّاعِ يقولُ الكافِرونَ هذا يَومٌ عَسِرٌ ﴾[٢]

﴿ لكلِّ امرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[٣]

* * *

٣ ـ إعطاءُ الكُتُبِ

وبعد خروج الناس من القبور ، وإحضارهم إلى موقف المحاكمة ، ووقوفهم على صعيد الحساب ، تنشر الصحف ﴿ وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾[٤] . فيأخذ كلّ إنسان كتابه الذي دُوّنَ فيه ـ بيد الحفظة من الملائكة ـ ما عَمِلَهُ من صغير وكبير ، فمنهم من يتلقاه بيمينه ، ومنهم من يتلقاه بشماله .

يقول سبحانه :

﴿ فأمّا مَنْ أُوتيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسيراً * وَيَنْقَلِبُ إلى

---

(١) سورة يس : الآيتان ٥١ و ٥٢ .

(٢) سورة القمر : الآيتان ٦ ـ ٨ . ولاحظ الزلزلة الآية ٦ .

(٣) سورة عبس : الآية ٣٧ .

(٤) سورة التكوير : الآية ١٠ .

أهله مَسروراً * وأمّا من أوتيَ كِتابَهُ وراءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثبوراً ﴾[1] .

* * *

٤ ـ الحِساب والشهود

وبعد تناول الصحف يبدأ الحساب ، وهو مشهد مُرَوِّعٌ للقلوب وَمُقَطِّعٌ للأرواحِ ، إنّه مشهد القضاء على الناس بشهود لا يتطرق إلى شهادتهم ريب ولا يُتّهمون بكذب . وهم بين شاهد خارجي كالله سبحانه ، والأنبياء ، والملائكة ، والأرض ، وداخلي كالأعضاء والجوارح حتى جلد البدن .

وهناك نوعٌ آخر من الشهود لا يشابه القسمين ، وهو تجسّم أعمال الإنسان بوجود يناسب تلك النشأة وهذا نظير عرض صور الجريمة ووقائعها التي التقطت عند ارتكاب المجرم لها ، أو بثّ الشريط الذي سجل فيه كلام المعتدي بالسبّ والوقيعة ، وإن كان هناك فرق بين المُمَثَّل والمُمَثِّل له .

وبذلك لا يجد المجرم لنفسه إلا الإعتراف بالذنب والتقصير والجُرأة ، لثبوت الجرم عليه بوجه لا يقبل الإنكار ، وإليك عرض هؤلاء الشهود في ضوء آيات القرآن الكريم ، مقدّمين الشهود الخارجيين على الداخليين .

الشاهد الأول ـ الله سبحانه

من عجيب الأمر أنّ الله سبحانه هو القاضي والحاكم بين العباد ، وهو بنفسه أيضاً شاهد على أعمالهم ، يقول سبحانه : ﴿ إنّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ إنَّ اللّهَ علىٰ كلِّ شيءٍ شَهِيدٌ ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ . . . لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ واللهُ شَهِيدٌ على ما تَعْمَلُونَ ﴾[3] .

---

(١) سورة الانشقاق : الآيات ٧ ـ ١١ وسيأتي بيان أوْفى لإعطاء الكتب في الشهود .

(٢) سورة الحج : الآية ١٧ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٩٨ .

الشاهد الثاني ـ نبيّ كُلّ أمّة

يدل القرآن الكريم على أنّ لكُلّ أُمَّةٍ شهيداً من أنْفُسِهم ، وقد جاء ذلك في عدة آيات منها قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ في كُلِّ أُمَّةٍ شَهيداً عليهم من أنفُسِهِم ﴾[1] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُركائِي الَّذينَ كُنْتُمْ تَزْعُمونَ * وَنَزَعْنا من كُلّ أُمَّةٍ شَهيداً . . . ﴾[2] .

والظاهر أنّ هذا الشاهد من كل أُمّةٍ هو نبيهم ، وإن لم يصرح به في الآيات ، وذلك للزوم كون الشهادة القائمة هناك مشتملة على حقائق لا سبيل للمناقشة فيها ، فيجب أن يكون هذا الشاهد عالماً بحقائق الأعمال التي يشهد عليها ، لا بظاهر صورها وهيئاتها المحسوسة لأنّ صورها مشتركة بين الطاعة والمعصية .

ولا يكون هذا إلّا بأن يستوي عنده الحاضر والغائب ، ويعاين حقيقة ما انعقدت عليه القلوب فيتميز هذا الشاهد بخصوصيتين :

الأولى : أنّه محيط إحاطة علمية تامةً على حقائق الأعمال وما يجري في القلوب ، ويختلج في النفوس .

الثانية : أنْ يكون ذا عصمة إلهية ليمتنع عليه الخطأ والإشتباه عند تحمّل الشهادة ، والكذب والخيانة عند أدائها .

ولا يتصور هذا المقام إلا لنبيٍّ كلّ أُمّة ، وسيأتي تتميم لذلك في الشاهد الرابع .

الشاهد الثالث : نَبِيُّ الإسلام

عدّ القرآن نبيَّ الإسلام شاهدَ أُمّته ، يقول سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنا مِنْ

---

(١) سورة النحل : الآية ٨٩ .

(٢) سورة القصص : الآيتان ٧٤ و ٧٥ .

كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ ، وَجِئْنا بِكَ على هؤُلاء شَهيداً ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ في كُلِّ أُمَّةٍ شَهيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنا بِكَ شَهيداً على هؤُلاءِ . . ﴾[2] .

وقد عرفت أنّ هذه الشهادة تستلزم من الكفاءات شيئاً عظيماً ، وبهذا يظهر عِظَمُ مقام هذا الشاهد ، لوقوفه على ضمائر القلوب وأعمال الأُمّة ، وإن كانوا بعيدين عنه . ومن كان له هذا المقام ، فَتَعَرُّفه على الغيب من أهون الأُمور ، ومع ذلك نرى بعض القشريين ينزعجون من إثبات علم الغيب للنبيّ ، ويزعمون أنّ نسبته إليه وإلى الله سبحانه يستلزم الشرك ، ولكن عزب عنهم الفرق بين العلم الكسبي والذاتي ، والمحدود واللامحدود ، والقائم بالغير والقائم بالنفس .

الشاهد الرابع : بعض الأُمّة الإسلامية

يقوله سبحانه : ﴿ وَكذلكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهداءَ على النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسولُ عَلَيْكُمْ شهيداً ﴾[3] .

والخطاب في الآية للأُمّة الإسلامية ، ولكن المراد قسم منها ، نظير قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُلوكاً ﴾[4] ، مخاطباً بني إسرائيل ، والمراد بعضهم . فباعتبار وجود الصّلة القوية بين القبيلة وملوكها ، نسب الملكوية إلى الجميع .

والدليل على أنّ المراد بعض الأُمّة ، هو أنّ أكثر أبناء الأُمّة ، مجهزون بحواس عادية لا تتحمل إلاّ صُوَر الأفعال والأعمال إذا كانوا في محضر المشهود عليهم ، وهو لا يفي في مقام الشهادة ، لأنّ المراد من الشهادة هو الشهادة على حقائق الأعمال ، والمعاني النفسانية من الكفر والإيمان والفوز والخُسْران ، وعلى كل خفي عن الحسّ ، ومستبطن عن الإنسان ، وعلى كل ما تكسبه القلوب ، الذي يدور عليه حساب ربّ العالمين ، يقول سبحانه : ﴿ وَلٰكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ

---

(١) سورة النساء : الآية ٤١ .

(٢) سورة النحل : الآية ٨٩ . ولاحظ الحج : الآية ٧٨ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٢٠ .

قُلوبُكُمْ ﴾[1] .

وليس ذلك في وسع الإنسان العادي إذا كان حاضراً عند المشهود عليه ، فضلاً عن كونه غائباً ، وهذا يدلّنا على أنّ المراد رجال من الأمّة لهم تلك القابلية ، بعناية من الله تعالى، فيقفون على حقائق أعمال الناس من إخلاص ورياء، وانقياد وتمرد ، ويؤدّون ذلك يوم القيامة . وهذه الكرامة ليس ينالها جميع الأمّة ، بل الأولياء الطاهرون منهم ، لا المتوسطون في الإيمان ، فضلاً عن الملوثين بالمعاصي والملطخين بالجرائم .

وقد التجأ بعضهم إلى جعل متعلق الشهادة كون الأمّة على دينٍ جامع ووسط ، وهو بمعزل عن التحقيق ، إذ ليس ذلك شهادة بشيء ، وقد وردت لفظة الشهادة بمعنى واحد في جميع القرآن ، في آياته المختلفة .

وبذلك يظهر معنى قوله سبحانه : ﴿ . . . وما جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أبيكُمْ إبراهيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفي هٰذا لِيَكُونَ الرَّسولُ شهيداً عَلَيْكُمْ ، وتكونوا شُهداءَ على النَّاسِ ﴾[2] . فالخطاب متوجّه إلى الأمّة ، والمراد بعضهم ممن أُعطيت لهم هذه الكرامة .

وهناك وجه آخر لما ذكرنا ، وهو أنّ أقلّ ما يعتبر في الشهود هو العدالة والتقوى ، والصدق والأمانة ، والأكثرية الساحقة من الأمّة ، يفقدون ذلك ، وهم لا تقبل شهادتهم على صاع من تمر أو باقة من بقل ، فكيف تقبل شهادتهم يوم القيامة ؟ .

وإلى هذا تشير رواية الزبيري عن الإمام الصادق عليه السلام قال : « قال الله تعالى : ﴿ وَكذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهَداءَ على النّاسِ وَيَكونَ الرَّسولُ عَلَيْكُمْ شهيداً ﴾[3] ، فإنْ ظَنَنْتَ بأنّ الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من المُوَحِّدين ، أَفَتَرى أنّ من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر ، يطلب الله شهادته يوم القيامة ، ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية . كلا ، لم يَعْنِ الله

---

(1) سورة البقرة : الآية ٢٢٥ .
(2) سورة الحج : الآية ٧٨ .
(3) سورة البقرة : الآية : ١٤٣ .

مثلَ هذا من خَلْقِه »[1]

إلى هنا تَمّ الكلام حول الشهود الخارجيين ، وإليك الكلام في الشهود الداخليين ، الذين لا ينفكون عن نفس المجرم .

الشاهد الخامس : الأعضاء والجوارح

من عجيب الأمر أنْ تشهد أعضاء الإنسان عليه : لسانه ويده ورجله ، بأمر من الله سبحانه .

يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كَانوا يَعْمَلونَ ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ اليَوْمَ نَخْتِمُ على أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بما كانوا يَكْسِبونَ ﴾[3] .

وأما كيفية الشهادة فهي من الأُمور الغيبية نؤمن بها ، وما إنطاقها عليه بعزيز ، وقد وسعت قدرته تعالى كلَّ شيء .

الشاهد السادس : الجلود

وتشهد على الناس جلودهم أيضاً .

يقول سبحانه : ﴿ حتّىٰ إذا ما جاءوها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأَبْصارُهُمْ وجُلودُهُمْ بما كانوا يَعْمَلونَ * وقالوا لِجُلودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُّمْ عَلَيْنا ، قالوا أَنْطَقَنا الله الَّذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيءٍ ﴾[4] .

وقوله : ﴿ أَنْطَقَنا الله الَّذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيءٍ ﴾ ، يشير إلى سعة قدرته سبحانه

---

(١) تفسير نور الثقلين ، ج ١ ، ص ١١٣ ، الحديث ٤٠٩ .

(٢) سورة النور : الآية ٢٤ .

(٣) سورة يس : الآية ٦٥ .

(٤) سورة فصلت : الآيتان ٢٠ و ٢١ .

على إنطاق الجلود[1] .

الشاهد السابع : الملائكـة

إنّ للإنسان حفظة يصحبونه منذ بلوغه التكليف فيسجّلون أعماله خيرها وشرّها ، وهذا قوله سبحانه : ﴿ ما يَلْفِظُ من قولٍ إلاّ لَدَيْهِ ، رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[2] .

وهذا الرقيبُ العتيد يشهد أعمال مَنْ وكّل به يوم القيامة ، عندما يرد الإنسان صعيد الحساب مع سائقه ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾[3] .

فأحد الملائكة يسوق الإنسان ، وآخر يشهد على أعماله .

الشاهد الثامن : صحيفة الأعمال

هناك آيات تدلّ على وجود صحف تضبط فيها أعمال العباد خيرها وشرّها ، وكَتَبَة يمارسون كتابتها ، ويوم الحساب تعرض على الإنسان ، فيقرؤها ، فيُرى المجرم مشفقاً منها ، يغلبه التعجب من إحاطة الكتاب بدقيق أعماله وجليلها .

يقول سبحانه : ﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً ، إنّ رُسُلَنا يَكْتُبونَ ما تَمْكُرونَ ﴾[4] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَكُلُّ شيَءٍ فَعَلوهُ ، في الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾[5] .

---

(١) ولا ينبغي التعجّب من ذلك ، وقد توصّل الإنسان في هذه الدنيا إلى معرفة فاعل كل جريمة ، ومرتكب كل جناية ، بتشخيص بصمات أصابعه ، ويكفي في إتمام الحجة عليه إظهار آثار جلد إصبعه وشهادتها عليه .

(٢) سورة ق : الآية ١٨ .

(٣) سورة ق : الآية ٢١ .

(٤) سورة يونس : الآية ٢١ ، وبهذا المضمون الزخرف : الآية ٨٠ و ٨٩ .

(٥) سورة القمر : الآيتان ٥٢ و ٥٣ .

ويقول سبحانه : ﴿ إِنّا نَحْنُ نُحْيي المَوْتىٰ ونكتبُ ما قَدَّموا وآثارَهُم وكُلَّ شيءٍ أحْصَيْناهُ في إمامٍ مُبينٍ ﴾[1] .

ويقول سبحانه مصوّراً حال المجرم عند الحساب وشهادة الكتاب عليه : ﴿ وَوُضِعَ الكِتابُ فَترى المُجْرِمينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾[2] .

ويقول سبحانه حاكياً تَعَجُّبَ المجرمين من إحاطته بعظائم الأعمال ودقائقها : ﴿ مالِ هذا الكِتابِ لا يُغادِرُ صَغيرَةً وَلا كَبيرةً إلَّا أَحْصاها ﴾[3] .

وكفى في إذعان الإنسان بجرمه وعصيانه ، كتابُه ، يقول سبحانه : ﴿ إقرأ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسيباً ﴾[4] .

الشاهد التاسع : الأرض

إنّ كُلّ عمل طالحاً كان أَوْ صالحاً ، إذَا كان بدنيا ، يصدر من الإنسان في نقطة وبقعة من بِقاع الأرض ، وهي تشهد يوم القيامة على الحوادث التي وقعت فيها ، يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لها ﴾[5]. وكيفية شهادتها من الأمور الغيبية ، ولكن يمكن أن نستعين على تقريبها بالأمور المحسوسة ببيان أنّ المجرم والمحسن يتركان بعد العمل آثاراً يستدلّ بها على كيفية عمله .

هذا وإن الخبراء يستدلّون بالمستندات الحفرية ، على كيفية حياة الماضين وحضارتهم وعلومهم ، وسائر شؤون حياتهم ، وقد ورد عن النبي أنّه لم يرتحل من منزل إلاّ صلى فيه ركعتين وقال : « حتى يشهد عَلَيّ بالصلاة »[6] .

---

(١) سورة يس : الآية ١٢ . ولاحظ الجاثية : الآيتان ٢٨ و ٢٩ . والإنفطار : الآيتان ١٠ و ١٢ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٤٩ .

(٣) سورة الكهف : الآية ٤٩ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ١٤ .

(٥) سورة الزلزلة : الآيتان ٤ و ٥ .

(٦) نقلاً عن تفسير الميزان : ج ٦ ، ص ٣٣٧ . وهناك روايات نقلها الشيخ الحرّ العاملي في الوسائل ، =

روى الشيخ الطوسي بإسناده عن أبي ذرّ عن النبي صلى الله عليه وآله ، في وصيته له : « يا أبا ذرّ ، ما من رجل يجعل جبهته في بقعة من بقاع الأرض ، إلاّ شهدت له بها يوم القيامة »[1] .

الشاهد العاشر : تجسم العمل بهويّته الأخروية

دلّ القرآن والأحاديث على أنّ لكل عمل يرتكبه الإنسان في هذه النشأة ، صورتَيْن وظهورَيْن وهُويتين ، يتمثل بإحداهما في هذه النشأة ، وبالأُخرى في النشأة الآخرة . فالصلاة في هذه الدنيا عبارة عن الأذكار والحركات ، وهي هويتها الدنيوية ، ولكنها لها في النشأة الأُخروية ظهوراً آخر . ومثله الأعمال الإجرامية ، فإنّ لكلٍّ منها صورتين ، يتمثّل بإحداهما في الدنيا، وبالأُخرى في الآخرة .

يقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾[2] ، وظاهر الآية هو مشاهدة نفس العمل . وتأويله بمشاهدة الجزاء ، على خلاف الظاهر ، والآيات الواردة في مجال تجسّم الأعمال كثيرة ، نكتفي بواحدة منها :

يقول سبحانه : ﴿وَالَّذينَ يَكْنِزونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلا يُنْفِقونَها في سَبيلِ الله ، فَبَشِّرْهُمْ بِعذابٍ أَليم * يَوْمَ يُحمى عَلَيْها في نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بها جِباهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لأَنْفسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزونَ ﴾[3] .

والآية تعرب عن تجسم الذهب والفضة الذي كُنِزَ بصورة النار المُحَمّاة ، بحيث يطلق عليها أنّها نفس ما كنزوه .

* * *

= ج ٣ ، ص ٤٧٤ ، كتاب الصلاة ، أبواب مكان المصلّي ، الباب ٤٢ ، الحديث ٩ ، وفي الباب روايات أُخرى فلاحظها .

(١) المجالس والأخبار ، ص ٢١٦ . نقله في الوسائل ، ج ٤ ، ص ٤٧٤ ، الحديث ٩ .

(٢) سورة الزلزلة : الآيتان ٧ و٨ .

(٣) سورة التوبة : الآيتان ٣٤ و٣٥ .

٥ ـ مشـــهد الميـــزان

إنّ هؤلاء الشهود الكثيرون يكفون في مقام القضاء وإتمام الحجـة ، غير أنّـه سبحانه ، لا يكتفي بهم ، كما لا يكتفي بصحائف الأعمال التي ضبطت فيها جميع أفعال العبد جليلها ، ودقيقها ، بـل يجسد وضـع الإنسان بتـوزين أعمالـه بالميـزان الذي يضعه يوم القيامة .

يقـول سبحانـه : ﴿ **وَنَضَعُ الموازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً ، وَإِنْ كَانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وكفى بِنا حاسِبينَ** ﴾[1] .

والنـاس بين ثقيـل الميزان وخفيفـه يقول سبحـانه : ﴿ **فَمَن ثَقُلَتْ موازِينُهُ فأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوازينُهُ فأُولئِكَ الَّذينَ خَسِروا أَنْفُسَهُمْ بما كانوا بآياتِنا يَظْلِمون** ﴾[2] .

غير أنّ الكلام في تبيين حقيقة هذا الميزان الذي توزن به الأعمال ، فهـل هو كهذه الموازين الحسية الموضوعة فوق مناضد البقالين والعطارين ، أو شيء غيرها ، فنقول :

لا شك أنّ النشأة الآخـرة ، أكمل من هـذه النشأة ، وأنّـه لا طريق لتفهيم الإنســان حقائق ذاك العـالم وغيوبـه المستـورة عنّـا ، إلاّ بـاستخـدام الألفـاظ التي يستعملها الإنسان في الأمـور الحسية . وعـلى ذلك ، فـلا وجه لحمـل الميزان عـلى الميـزان المتعارف خصـوصاً بعـد استعـمال الميـزان في القـرآن في غـير هـذا الميـزان المحسوس .

الميـزان في اللغة اسم آلـة يوزن بهـا الشيء ، يقول سبحـانـه : ﴿ **والسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الميزانَ** ﴾[3] فـالله سبحـانـه يخبـر فيهـا عن رفـع السـماء وخلقهـا مرفوعة ، كما يخبر عن أنّه وضع لكل شيءٍ ميـزاناً يُقَـدَّر به ، من غـير فرق بـين أن يكـون جسمـاً أو قـولاً أو فعـلاً أو عقيـدة ، فلكـلّ شيءٍ ميـزانٌ يُمَيِّـز بـه الحقُّ من

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان ٨ و ٩ .

(٣) سورة الرحمن : الآية ٧ .

البـاطل ، والصـدق من الكذب ، والعـدل من الـظلم ، والـرذيلة من الفضيلة . ولأجل هذه السَّعة في معنى الميزان يقول سبحانـه : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنـا رُسُلَنا بـالبَيِّناتِ وأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتـابَ والمِيزانَ لِيَقـومَ النَّاسُ بـالقِسْطِ** ﴾[1] ، فلا معنى لتخصيص الميزان هنا بما توزن بـه الأثقال ، مـع أنّ الهدف من إرسـال الرسـل وإنزال الكتب والميزان هو قيام الناس بالقسط في جميع شؤونهم العقيـدية والسيـاسية والإجتـماعية والإقتصادية . وبذلك يعلم أنّ تفسير الميزان بـالعدل ، أو بـالنبي ، أو بالقـرآن ، كلُّها تفاسير بالمصداق ، فليس للميزان إلّا معنى واحد هو : مـا يوزن بـه الشيء ، وهو يختلف حسب اختلاف الموزون من كونه جسماً أو حرارة أو نوراً أو ضغـطاً أو رطوبةً أو غير ذلك .

يقـول صدرالمتـألهين رحمـه الله : « ولو تـأملوا قليلاً في نفس معنى الميـزان ، وجرّدوا حقيقة معناه عن الزوائـد والخصوصيـات ، لعلموا أنّ حقيقـة الميزان ليس يجب أن يكون البتة مما له شكل مخصوص ، أو صورة جسمانيـة ، فإنّ حقيقـة معناه وروحه وسرّه ، هو ما يقاس ويوزن به الشيء ، والشيء أعمّ من أن يكون جسمانيـاً أو غـير جسماني ، فكـما أنّ القبّـان ، وذا الكفتـين وغـيرهمـا ، ميـزان لـلأثقـال ، والاسطرلاب ميزان للارتفاعـات والمواقيت ، والشـاقول ميـزان لمعرفـة الأعمدة ، والمسـطرميزان لاستقـامة الخـطوط ، فكذلـك علم المنطق ميـزان للفكـر في العلوم النظرية ، وعلم النحو ميزان للإعراب والبناء ، والعَروض ميزان للشعر ، والحسّ ميزان لبعض المدركات ، والعقل الكامل ميزان لجميع الأشيـاء ، وبالجملة ميـزان كل شيء يكون من جنسه ، فالمـوازين مختلفة والميـزان المذكـور في القرآن ينبغي أن يحمـل على أشرف المـوازين وهو ميـزان يوم الحسـاب ، كما دلّ عليـه قولـه تعالى : ﴿ **وَنَضَـعُ المَوازِينَ القِسْطَ لِيَـوْمِ القِيـامَـةِ** ﴾[2] وهـو ميـزان العلوم وميـزان الأعـمال القلبية ، الناشئة من الأعمال البدنية »[3] .

ويؤيد ذلك أنّه سبحانه يصف الميزان بكونه منزلاً من جانبه سبحانه ، كما في الآية السابقة ويقول : ﴿ **اللهُ الَّذي أَنْزَلَ الكِتـابَ بالحَقِّ ، والمِيـزانَ ، وما يُـدريكَ**

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

(٣) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٩٩ .

لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾[1] .

وبما أنّ توزين الأعمال بالموازين القسط ، من الأمور الغيبية التي لا يقف عليها الإنسان إلّا بخرق الحجب وحضور ذلك المشهد ، يعسُر تبيين حقيقته ، والذي يمكن أن يقال إنّه ليس من قبيل هذه الموازين الحسية التي توزن بها الأجسام الثقيلة وغيرها . وما ذكر له من التفاسير لا يتجاوز حدّ الإحتمال .

يقول صدر المتألهين : « وأمّا القول في ميزان الأعمال ، فاعلم أنّ لكل عمل من الأعمال البدنية ، تأثيراً في النفس فإن كان من باب الحسنات والطاعات ، كالصلاة والصيام والحج والزكاة والجهاد ، وغيرها ، فله تأثير في تنوير النفس وتخليصها من أسر الشهوات وجذبها من الدنيا إلى الأخرى ، ومن المنزل الأدنى إلى المحل الأعلى ، وكذلك فلكل عمل حق مقدار معين من التأثير في التنوير والتهذيب . وإذا تضاعفت وتكثّرت الحسنات ، فبقدر تكثرها وتضاعفها ، يزداد مقدار التأثير والتنوير .

وكذلك لكل عمل من الأعمال السيئة قدراً معيناً من التأثير في إظلام جوهر النفس وتكديرها وتعليقها بالدنيا وشهواتها ، فإذا تضاعفت المعاصي والسيئات ، ازدادت الظلمة والتكثيف شدّة وقدراً ، وكل ذلك محجوب عن مشاهدة الخلق في الدنيا . وعند قيام الساعة وارتفاع الحجب ، ينكشف لهم حقيقة الأمر في ذلك ، ويصادف كل أحد مقدار سعيه وعمله ، ويرى رجحان إحدى كفتي ميزانه ، وقوة مرتبة نور طاعته أو ظلمة كفرانه »[2] .

وعلى هذه النظرية ، فليس هنا ميزان وراء انكشاف السرائر والملكات الحسنة والسيئة ،وغاية ما في الأمر أنّ الإنسان يقف بعد رفع الحجاب على قُربه وبعده من الربّ ، وتتجسد له مرتبة نور طاعته أو ظلمة كفرانه .

ويقرب منه ما ذكره صاحب المنار ، قال : « إذا كان البشر قد اخترعوا موازين للأعراض كالحرّ والبرد ، أفَيَعجز الخالق الباريء القادر على كل شيء ،

---

(١) سورة الشورى : الآية ١٧ .

(٢) الأسفار ،ج ٩ ،ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

عن وضع ميزان للأعمال النفسانية والبدنية ، المعبّر عنها بالحسنات والسيئات بما أحدثته في الأنفس من الأخلاق والصفات ، والنقل والعقل متفقان على أنّ الجزاء إنّما يكون بصفات النفس الثابتة ، لا بمجرد ما كان سبباً لها من الحركات والأعراض الزائدة »[١] .

وبما قدمنا يندفع عمدة ما أُشكل على المتقدمين من المتكلمين في توزين الأعمال من أنّ العمل عرض غير باق ، فكيف يمكن توزينه في الآخرة ؟ .

فبعد إمكان توزين الحرارة والبرودة ، والضغط والرطوبة ، وغيرها من الأعراض الزائلة ، بل توزين الطاقة والحركة والعمل التي هي الوجه الآخر للمادة ، إذ ليست هي إلاّ المادة المستهلكة ، وهي توزن بالآلات وتقاس ، فيقال إن لهذا المحرك جهد كذا من الأحصنة ، وغير ذلك من الأقيسة ، فبعد إمكان وزن الأعراض وعمل الآلات ، ألا يمكن وزن عمل الإنسان في الآخرة بوجه من الوجوه ؟ .

هذا كله حول الميزان في النشأة الأُخرى، واعلم أنّه سبحانه لم يترك الإنسان سدى ، بل جعل لتشخيص صحة عقائده وأخلاقه وأعماله ، موازين كالكتاب والسنّة والعقل ، قال الإمام الباقر عليه السلام لأحد أصحابه : « أُعرض نَفْسَك على ما في كتاب الله ، فإنْ كنت سالكاً سبيله ، زاهداً في تزهيده ، راغباً في ترغيبه ، خائفاً من تخويفه ، فاثبت وأبشِر ، فإنّه لا يضرك ما قيل فيك ، وإن كنت مبائناً للقرآن ، فماذا الذي يغرُّك من نفسك ؟ »[٢] .

وعلى ضوء هذا ، فالقرآن ميزان ، كما أنّ النبي ميزان ، والإمام المعصوم ميزان ، فلا غَرْوَ مَن أن نزور علياً ونقول :

« السلام على يعسوب الإيمان وميزان الأعمال ، وسيف ذي الجلال »[٣] .

---

(١) المنار ، ج ٨ ، ٣٢٣ .

(٢) البحار ، ج ٧٨ ، باب وصايا الباقر عليه السلام ،ص ١٦٢ .

(٣) مستدرك الوسائل ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

وفي الختام نشير إلى أمرين :

الأول : إنّ بعض السلف ، إغتراراً بالظواهر ، ذهب إلى أنّ الميزان له كفّتان ولسان وساقان . وهو تعبّد بالظاهر وتعطيل للتعقل والتدبّر في نفس القرآن الكريم . بل الأولى لهم أن يقولوا : الميزان عبارة عمّا يعرف به مقادير الأعمال وليس علينا البحث عن كيفيته بل نؤمن به ونفوض كيفيته إلى الله تعالى ، كما قال المحقق الدواني[1] .

الثاني : المنقول عن المعتزلة[2] أنّهم ينكرون الميزان قائلين بأنّ الأعمال أعراض وقد عدمت ، فلا يمكن إعادتها . وعلى تقدير إعادتها ، لا يمكن وزنها ، وعلى تقدير إمكانه ، مقاديرها معلومةٌ له تعالى فوزنها عبث .

يلاحظ عليه : لو صحّت النسبة ، فإنّما يرد لو كان المراد من الميزان هو ما نقل عن بعض السلف . وأمّا على ما عرفت من التطور في الميزان فالشبهة مندفعة . وأمّا القول بأنّها معلومة ، فالحكمة في التوزين مثل الحكمة في الحساب ، الذي لا شبهة فيه .

* * *

٦ ـ الصراط

الصراط في اللغة هو الطريق ، ويغلب استعماله على الطريق الذي يوصل

---

(١) شرح العقائد العضدية ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٢) وهذه النسبة التي ذكرها المحقق الدواني في شرح العقائد العضدية غير صحيحة . قال القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة : فإن قالوا : وأي فائدة في وضع الموازين التي أثبتموها ، ومعلوم أنّه إنّما يوضع ليوزن به الشيء ، ولا شيء هناك يدخله الوزن ويتأتى فيه ، فإنّ أعمال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم أعراض لا يتصور فيها الوزن . قيل له : ليس يمتنع أن يجعل الله تعالى النور عَلَماً للطاعة ، والظلم أمارة للمعصية . ثم يجعل النور في إحدى الكفتين ، والظلم في الكفّة الأخرى ، فإن ترجحت كفّة النور حكم لصاحبه بالثواب ، وإن ترجحت الأخرى حكم له بالأخرى . . . إلى آخر كلامه . . . (شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٣٥) نعم ، القاضي يتخيل أنّ المراد من الميزان هو المتعارف بيننا ، وقد عرفت ما في ذلك .

الإنسان إلى الخير ، بخلاف السبيل ، فإنّه يطلق على كل سبيل يتوسل به خيراً كان أم شرّاً[1]

وإذا كان الصراط بمعنى الطريق ، فلكل موجودمن الموجودات الإمكانية طريق ، لو سلكه ، يصل إلى كماله الممكن من غير فرق بين الجماد والنبات والحيوان والإنسان .

وهذا ما يسمّى بالصراط التكويني ، وهو مجموعة القوانين السائدة على الموجود الإمكاني ، بأمر منه سبحانه ، التي لو تخلّف عنها لهلك .

وهناك صراط آخر يختص بالإنسان وهو الصراط التشريعي ، أعني القوانين والأحكام الشرعية التي فرضها سبحانه على عباده ، وهداهم إليها ، فهم بين شاكر وكفور ، وقد نبّه القرآن إلى الصراط التشريعي في عدّة آيات ، منها :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ **إنّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إمّا شاكِراً وإمّا كفوراً** ﴾[2] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ **وأنَّ هذا صِراطي مُسْتَقيماً فاتَّبعوهُ ولا تَتَّبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبيلِهِ** ﴾[3] .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ **وَهُدوا إلى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ وَهُدوا إلى صراطِ الحَميدِ** ﴾[4] .

وفي مقابل هذا الصراط التشريعي ، طريق آخر يباينه في المقصد والمآل ، وقائده هو الشيطان ومن تبعه ، يقول سبحانه : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إلى عذابِ السَّعيرِ** ﴾[5] .

وفي ضوء هذا يتبين أنّ لله سبحانه في هذه النشأة الدنيوية ، صراطَيْن

---

(١) مفردات الراغب ، مادة سبل .

(٢) سورة الدهر : الآية ٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية١٥٣ .

(٤) سورة الحج : الآية ٢٤ .

(٥) سورة الحج : الآية ٤ .

أحدهما تكويني ، في سلوكه كمال الموجود وبقاؤه ، والآخر تشريعي يختصّ بالإنسان ، فيه فوزه وسعادته .

نعم ، يستظهر من الذكر الحكيم ، ويدلّ عليه صريح الروايات ، وجود صراط آخر ، في النشأة الأُخروية يسلكه كل مؤمن وكافر .

يقول سبحانه : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً . . . وإنْ مِنْكُمْ إلاّ وارِدُها كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ﴾[1] .

وقد اختلف المُفَسِّرونَ في معنى الورود بين قائل بأنّ المراد منه هو الوصول إليها ، والإشراف عليها لا الدخول ، وقائل بأنّ المراد دخولها . وعلى كل تقدير ، فلا مناص للمسلم من الإعتقاد بوجود صراطٍ في النشأة الأُخروية ، وهو طريق المؤمن إلى الجنة ، والكافر إلى النار[2] .

وقد وصف الصراط في الروايات بأنّه أدَقّ من الشَّعر ، وأَحَدُّ من السيف . غير أنّ البحث يتركز على التعرّف على حقيقة هذا الصراط بالمقدار الممكن ، وإن كان الوقوف على حقيقته كما هي ، غير ممكنة إلاّ بعد رفع الحجب .

فنقول : لا شك أنّ هناك صلة بين الصراطين الدنيوي والأُخروي من وجوه :

١ ـ إنّ سالك الصراط الدنيوي بهداية . قيادة من النبي ، يسلك الصراط الأخروي بنفس تلك الهداية ويجتازه بأمان إلى الجنة . وسالكه بهداية الشيطان وولايته ، يسلك الصراط الأُخروي ، بنفس تلك الهداية ، فتزل قدمه ويهوي في عذاب السعير[3] .

٢ ـ إنّ قيام الإنسان بالوظائف الإلهية ، في مجالي العقيدة والعمل ، أمر

---

(١) سورة مريم : الآيات ٦٨ ـ ٧١ .

(٢) تفسير القمي ، ج ١ ، ص ٢٩ ، وفي أخرى بزيادة : « وأظلم من الليل » .

(٣) قال سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَولاّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ، وَيَهْدِيهِ إلى عَذابِ السَّعيرِ ﴾ (الحج : الآية ٤) .

صعب أشبه بسلوك طريق أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف . فالفائز من الناس ، من كانت له قدم راسخة في مجال الإيمان والعقيدة ، وتَثَبُّتٌ في مقام العمل والطاعة ، ومن المعلوم أنّ الفوز بهذه السعادة ليس أمراً سهلاً ، فكم من إنسان ضلّ في طريق العقيدة ، وعَبَد النفس والشيطان والهوى ، مكان عبادة الله سبحانه ، وكم من إنسان فشل في مقام الطاعة والعمل بالوظائف الإلهية .

فإذا كان هذا حال الصراط الدنيوي من حيث الصعوبة ، والدقة ، فهكذا حال الصراط الأُخروي ، وإلى ذلك يشير الإمام الحسن بن علي العسكري ، عليهما السلام في حديثه عن علي بن أبي طالب ، عليه السلام قال :

« والصِّراط المستقيم ، صراطان ، صراط في الدنيا وصراط في الآخرة ، أمّا الصراط المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلو ، وارتفع عن التقصير ، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل ، وأمّا الطريق الآخر فهو طريق المؤمنين إلى الجنة »[1]

فلو قال قائل بأنّ الصراط الأُخروي تَمَثُّلٌ لذلك الصراط الدنيوي وتجسّد له ، فلم يجازف .

٣ ـ إنّ لصدر المتألهين كلاماً في تبيين المراد من كون الصراط أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف .

قال : « إنّ كمال الإنسان منوط باستعمال قوتيه ، أمّا القوة النظرية فلإصابة الحق ونور اليقين في سلوك الأنظار الدقيقة التي هي في الدقة واللطافة أدقّ من الشعر ـ إذا تمثلت ـ بكثير . وأمّا القوة العملية ، فبتعديل القوتين الشَهَوية والغَضَبية ، لتحصل للنفس حالة إعتدالية متوسطة بين الأطراف غاية التوسط ، لأنّ الأطراف كلّها مذمومة ، والتوسط الحقيقي بين الأطراف المتضادة منشأ الخلاص عن الجحيم . وهو أحَدّ من السيف ، فإذاً الصراط له وجهان :

أحدهما أدقُّ من الشعر ، والآخر أحدّ من السيف »[2] .

---

(١) معاني الأخبار ، ص ٣٣ .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٨٥ .

وعلى هذا البيان فالدقة راجعة إلى سلوك طريق إصلاح العقل النظري ، والحِدّة راجعة إلى سلوك طريق إصلاح العقل العملي . وما في الآخرة تجسد للصراط الدنيوي في الدقة والحدة ، ولا حقيقة له إلّا ما كان للإنسان في هذه الدنيا .

٤ ـ إنّ للإيمان واليقين درجات كما أنّ للقيام بالوظائف العملية مراتب ، فللناس في سلوك الصراط منازل ودرجات . فهم بين مخلص لله سبحانه في دينه ، لا يَرى شيئاً إلّا ويَرى الله قَبْلَه ، وبين مُقَصّر في إعمال القُوى النظرية والعَمَلية ، كما أنّ بينهما مراتب متوسطة ، فالكل يسلك الصراط في النشأة الأُخرى ، في السرعة والبطء ، حسب شدّة سلوكه للصراط الدنيوي ، ولأجل ذلك تضافرت روايات عن الفريقين باختلاف مرور الناس ، حسب اختلافهم في سلوك صراط الدنيا ، قال الإمام الصادق (ع) : « النّاس يمرّون على الصراط طبقات ، والصراط أدقّ من الشعر ومن حدّ السيف ، فمنهم من يمرّ مثل البرق ، ومنهم مثل عدو الفرس ، ومنهم من يمرّ حبواً ، ومنهم من يمرّ مشياً ، ومنهم من يمرّ متعلّقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً »[1] .

فبقدر الكمال الذي يكتسبه الإنسان في هذه النشأة ، يتثبت في سلوك الصراط الأُخروي ، ولا تزل قدمه ، يقول سبحانه : ﴿ **وإِنَّكَ لَتَدْعوهُمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴿وإِنَّ الَّذينَ لا يُؤْمِنونَ بالآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لناكِبونَ** ﴾[2] .

هذا ما يقتضيه التدبّر في الآيات والروايات الواردة حول الصراط ، ومع ذلك كلّه ليس معنى كون الصراط الأُخروي تجسماً للصراط الدنيوي ، أو سلوكه تمثّلاً لسلوكه ، إنكار وجود صراط فوق الجحيم ، لا محيص لكل إنسان عن سلوكه ، بل مقتضي التعبد بظواهر القرآن والحديث وجود ذلك الصراط بمعناه الحقيقي ، وإنْ لم نفهم حقيقته ، ولا بأس بإتمام الكلام بحديث جابر ، وهو ينقل عن النبي أنّه قال :

---

(١) أمالي الصدوق ، المجلس ٣٣ ، ص ١٠٧ . لاحظ الدر المنثور ، ج ٤ ، ص ٢٩١ .

(٢) سورة المؤمنون : الآيتان ٧٣ و ٧٤ .

« لا يبقى بَرّ ولا فاجر إلّا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ، حتى أنّ للنار ضجيجاً من بردهم ، ثم يُنَجّي الله الذين اتّقوا ويَذَر الظالمين فيها جِثِيّاً »[1] .

٧ ـ الأعراف

يقول سبحانه : ﴿ وَبَيْنَهما حِجابٌ وَعلى الأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفونَ كُلاًّ بِسيماهُمْ ونادَوْا أَصْحابَ الجَنَّةِ أَنْ سلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلوها وَهُمْ يَطْمَعونَ * وإذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النّارِ ، قالوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مع القَوْمِ الظّالمين * ونادَىٰ أَصْحابُ الأَعْرافِ ، رجالاً يَعْرِفونَهُمْ بِسيماهُمْ ، قالوا ما أَغْنىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرونَ ﴾[2] .

الحجاب هو الستر المتخلل بين الشيئين يستر أحدهما من الآخر ، والضمير في قوله : ﴿ بَيْنَهُما ﴾ ، راجع إلى أصحاب الجنة والنار ، المذكورين في الآية المتقدمة .

والأعراف أعالي الحجاب والتلال من الرمل ، والعرف للديك ، وللفرس ، هو الشعر فوق رقبته ، وأعلى كل شيء ، ففيه معنى العلو ، والآية تدلّ على أنّ في أعالي الحجاب الذي بين الجنة والنار ، رجال يعرفون أهل الجنة والنّار بعلائمهم وهم مشرفون على الجانبين ، لارتفاع موضعهم . وظاهر السياق أنّ هؤلاء الرجال منحازون عن الطائفتين متمايزون عن جماعتهم ، فيكون بذلك أهل الجمع منقسمين إلى طوائف ثلاث : أصحاب الجنة ، وأصحاب النار ، وأصحاب الأعراف .

ثم إنّه وقع الكلام في معرفة من هم هؤلاء الرجال[3] ، والتدبّر في الآيات يعطي أنّهم جمع من عباد الله من غير الملائكة ، هم أرفع مقاماً وأعلى منزلة من

---

(١) الدر المنثور ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ .

(٢) سورة الأعراف : الآيات ٤٦ ـ ٤٨ .

(٣) اختلف المفسرون في ذلك على إثني عشر قولاً .

سائر الجمع ، يعرفون عامة الفريقين ، لهم أنْ يتكلموا بالحق يوم القيامة ، ولهم أن يشهدوا ، ولهم أن يشفعوا ، ولهم أن يأمروا ويقضوا، كلٌّ ذلك بإذنه سبحانه .

وقد تضافرت الروايات على أنّ المراد من الرجال هم الأئمة من آل محمد صلوات الله عليهم .

قال الصدوق : « إعتقادنا في الأعراف أنّه سور بين الجنة والنار عليه رجال يعرفون كلاًّ بسيماهم ، والرجال هم النبي وأوصياؤه »[1] .

* * *

٨ ـ لواء الحَمْد

إذا كان يومُ القيامة ، وحُشِرَ الناسُ على صعيد واحد ، وَتَمَيَّزَ الفريقان ، يُعَطى النبي الأكرم لواءَ الحمد ، ويَتَقَدَّمُ به ويأخذ مسيره ومَنْ خَلْفَه إلى الجنة ، وفي روايات الإمامية أنَّ النبي الأكرم يدفعه إلى وصيّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .

وقد ورد في غير واحد من الروايات ذكر لواء الحمد ، وأنّه مكتوب عليه : « المفلحون هم الفائزون بالجنة » . وأنّه يمشي عَلِيٌّ والقوم (أهل الجنة) تحت لوائه حتى يدخل الجنة »[2] .

وروى أحمد بن حنبل في مسنده عن أبي نضرة قال : خطبنا ابن عباس على منبر البصرة ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّه لم يكن نبي إلاّ له دعوة قد تنجزها في الدنيا ، وإنّي قد اختبأت دعوتي ، شفاعة لأمتي ، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر . . . »[3] .

---

(١) لاحظ بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ٣٢٩ ـ ٣٤٠ . وفي بعض الروايات : « يوقف كل نبي وكل خليفة نبي » ، وعند ذلك يكون ذكر النبي والأئمة من باب تطبيق الكلي على المصاديق المُثْلَى .

(٢) لاحظ بحار الأنوار ، ج ٨ ، باب ١٨ ، الأحاديث ١ ـ ١٢ .

(٣) مسند إبن حنبل ، ج ١ ، ص ٢٨١ ، وص ٢٩٥ ، وج ٣ ، ص ١٤٤ .

٩ ـ الحـــــوض

قال الصدوق : « إعتقادنا في الحوض أنّه حق وأنّ الـوالي عليه يـوم القيامـة أمـير المؤمنين عـلي بن أبي طـالب عليـه السـلام يسقي منـه أوليـاءه ، ويـذود عنـه أعداءه . مَنْ شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً »[١] .

روى الفريقان روايات حول الحوض: روى أبو حازم عن سهل بن سعـد ، قال سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقـول : أنا فـرطكم على الحـوض ، من وَرَد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً . وَلَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أقوام أعرفهم ويعرفـونني ، ثم يحال بينه وبينهم »[٢] .

روى الصـدوق عن الإمام الصـادق عليه السـلام عن آبـائـه ،قـال : قـال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من أراد أن يتخلص من هول يوم القيامة فليتـول وليّي ، ولْيَتَّبـع وصيي وخليفتي من بعـدي عـلي بن أبي طـالـب ، فـإنّـه صـاحب حوضي ، يذود عنه أعداءه ، ويسقي أولياءه . فمن لم يسق منه لم يزل عطشـاناً ولم يرو أبداً . ومن سُقي منه شربة ، لم يشْقَ ولم يظمأ »[٣] .

وقد تقدم قول رسول الله صلى الله عليه وآلـه ـ المنقول متـواتراً ـ في خـطبته يوم الغدير حيث قال :

« فإني فرط على الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين » .

فنادى مناد : « وما الثّقلان يا رسول الله » ؟

قال : « الثّقل الأكبر ، كتاب الله ، والآخـر الأصغر عـترتي ، وإن اللطيف الخبير نبّأني أنهما لن يفـترقا حتى يـردا عليّ الحـوض ، فلا تقـدموهمـا فتهلكوا ، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا »[٤] .

---

(١) عقائد الصدوق ، ص ٨٥ .

(٢) جامع الأصول ، ص ١١٩ ـ ١٢١ وقد نقل روايات كثيرة حول الحوض .

(٣) بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ١٩ ، نقلاً عن أمالي الصدوق ، ص ١٦٨ .

(٤) لاحظ في الوقوف على مصادره ، ما دَبّجه قلم المتتبع الكبير السيـد مير حـامد حسـين الهندي ، فقـد جمـع أسنـاده وبحث فيهـا وفي دلالتـه في ستـة مجلدات من كتـابـه « العبقـات » . ولاحظ كتـاب المراجعات ، للإمام شرف الدين ، المراجعة الثانية .

مباحث المعاد

(١٠)

المعاد الجسماني والروحاني

قد تعرفت على الدلائل التي أفادت ضرورة وقوع المعاد ، كما تعرفت على الآيات التي تشير إلى تلك الدلائل ، لكن يقع الكلام في كيفية المعاد ، وهل هو جسماني أو روحاني ، أو جسماني وروحاني معاً . وقبل بيان المراد من الجسمانية والروحانية، نشير إلى كلمات تَذْكُر الأقوال والآراء الموجودة في الكيفية .

١ ـ قال الرازي : « إختلفت أقوال أهل العالم في أمر المعاد على وجوه :

(أ) ـ أنّ المعاد ليس إلا للنفس ، وهو مذهب الجمهور من الفلاسفة .

(ب) ـ أن المعاد ليس إلا لهذا البدن ، وهو قول نفاة النفس الناطقة ، وهم أكثر أهل الإسلام .

(ج) ـ أنّ المعاد للأمرين ، وهم طائفة كبيرة من المسلمين »[١] .

٢ ـ وقال العلامة الحلّي : « إتفق المسلمون على إعادة الأجسام خلافاً للفلاسفة »[٢] .

٣ ـ وقال الدواني : « المعاد الجسماني هو المتبادر من إطلاق أهل الشرع ، إذ

(١) نهاية العقول . نقله المجلسي في البحار ، لاحظ ج ٧ ، ص ٤٨ .

(٢) شرح الياقوت ، ص ١٩١ .

هو الذي يجب الإعتقاد به ، ويكفر من أنكره ، وهو حق ، لشهادة نصوص القرآن في مواضع متعددة بحيث لا تقبل التأويل ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان . . . إلى قوله : بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[1]. قال المفسرون نزلت هذه الآية في أُبَيّ بن كعب فإنه خاصم رسول الله وأتاه بعظم قد رمّ وبلى ، فَفَتّه بيده وقال : يا محمد ، أترى الله يحيي هذه بعدما رمّت ، قال : نعم ، ويبعثك ويدخلك النار . « وهذا مما يقلع عرق التأويل بالكلية ، ولذلك قال الإمام (الرازي) : إنه لا يمكن الجمع بين الإيمان بما جاء به النبي وإنكار الحشر الجسماني »[2] .

٤ ـ قال صدر المتألهين : إتفق المحققون من الفلاسفة والمليّين على أحقّية المعاد ، وثبوت النشأة الباقية ، لكنهم اختلفوا في كيفيته ، فذهب جمهور الإسلاميين وعامة الفقهاء وأصحاب الحديث إلى أنه جسماني فقط ، بناء على أنّ الروح عندهم جسم سارٍ في البدن سريان النار في الفحم ، والماء في الورد ، والزيت في الزيتونة ، وذهب جمهور الفلاسفة وأتباع المشّائين إلى أنّه روحاني أي عقلي فقط لأنّ البدن ينعدم بِصُوَرِهِ وأعراضه لقطع تعلق النفس بها ، فلا يعاد بشخصه تارة أُخرى ، إذ المعدوم لا يعاد ، والنفس جوهر باقٍ لا سبيل للفناء إليه ، فتعود إلى عالم المفارقات لقطع التعلقات بالموت الطبيعي .

وذهب كثير من أكابر الحكماء ومشايخ العرفاء وجماعة من المتكلمين كالغزالي والكعبي والحليمي والراغب الأصفهاني وكثير من أصحابنا الإمامية كالشيخ المفيد ، وأبي جعفر الطوسي ، والسيد المرتضى ، والمحقق الطوسي ، والعلامة الحلّي ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين إلى القول بالمعادين ، ذهاباً إلى أنّ النفس مجرّدة تعود إلى البدن[3] .

قال العلامة المجلسي : « إعلم أنّ القول بالمعاد الجسماني مما اتفق عليه جميع المليين وهو من ضروريات الدين ومنكره خارج من عداد المسلمين ، والآيات الكريمة على ذلك ناصّة لا يعقل تأويلها ، والأخبار فيه متواترة لا يمكن ردّها ولا

---

(١) سورة يس : الآيات ٧٧ ـ ٧٩ .
(٢) شرح العقائد العضدية ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .
(٣) الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٦٥ .

الطعن فيها »[1]

إن القضاء البات في هذه الآراء يتوقف على معرفة ملاك توصيف المعاد بالجسماني والروحاني ، وإليك بيانه .

ملاك كون المعاد جسمانياً أو روحانياً

إن لتوصيف المعاد بالجسماني أو الروحاني ، أو هما معا ، ملاكين ، هما :

الملاك الأول : ما يرجع إلى اتخاذ موقف حاسم في حقيقة الإنسان ، وأنّها ما هي ، فلو قلنا بأن الإنسان عبارة عن هذا الهيكل الجسماني ، وليس للروح حقيقة وراء التفاعلات والإنفعالات المادية الفيزيائية والكيميائية ، وهي سارية في البدن سريان النار في الفحم ، والماء في الورد ـ لو قلنا بهذا ـ فلا مناص للقائل بالمعاد من توصيفه بكونه جسمانياً فقط ، إذ ليس هناك وراء الجسم ، والتأثير الماديين ، شيء آخر حتى يعاد .

وأما لو قلنا بأنّ وراء الجسم ، ووراء التفاعلات المادية ، جوهر حقيقي مدرك ، له تعلق بالبدن ، تعلّقاً تدبيرياً ما دامت العُلقة باقية ، فإذا زالت يكون له البقاء ولا يتطرق إليه الفناء . فلو قلنا بذلك ، ثم قلنا بأنّه سبحانه يبعث الروح مع البدن ، فالمعاد يكون جسمانياً من جهةٍ ، وروحانياً من جهةٍ أخرى ، لكون المبعوث ممزوجاً من شيئين ومؤلّفاً من أمرين ، ولكل معاد .

وأما لو قلنا بأنّ الروح ـ بعد مفارقتها البدن ـ لا ترجع إليه ، لعلةٍ ما ، فعندئذٍ تبعث الروح وحدها من دون تعلّقها بالبدن ، فيكون المعاد روحانياً فقط ، وهذا الملاك هو الذي يلوح من كلام صدر المتألهين ، وصهره عبد الرزّاق اللاهيجي[2] .

---

(١) بحار الأنوار ، ج ٧ ، ص ٤٦ . ولاحظ حق اليقين ، للسيد شبّر ، ج ٢ ، ص ٥٢ . ولا نطيل الكلام بنقل كلمات الآخرين .

(٢) الأسفار ، ج ٩، ص ١٦٥ . و«گوهر مراد» المقالة الثالثة ، الباب الرابع ، ص ٤٤٩ . (فارسي) .

الملاك الثاني : إنّ هناك ملاكاً آخر لكون المعاد جسمانياً ، وروحانياً ، يلوح ذلك من كلمات الشيخ الرئيس ، وهو تقسيم المعاد إلى الجسماني والروحاني ، حسب الثواب والعقاب الموعودَيْن : فلو قلنا:إنّ العذاب والعقاب ينحصران بالجسماني منهما ، كنعيم الجنّة وحرّ الجحيم ، فيكون المعاد معاداً جسمانياً ، فقط ، وأما لو قلنا بأنّ هناك ـ وراء ذلك ـ ثواباً وعقاباً عقليين لا يمتّان إلى البدن بصلة ، بل يلتذ ويعاقب بهما الروح فقط ، فيكون المعاد ، وراء كونه جسمانياً ، روحانياً أيضاً ، وبعبارة أخرى : إلتذاذ النفس وتألّمها باللذات والآلام العقلية ، فهذا ملاك كون المعاد ، روحانياً .

قال الشيخ الرئيس : « يجب أنْ يعلَمَ أنّ المعاد منه ما هو مقبول من الشرع ، ولا سبيل إلى إثباته إلا من طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة ، وهو الذي للبدن عند البعث ، وخيراتُه وشرورُه معلومٌ لا يحتاج إلى أن يُعْلَم ، وقد بسطت الشريعة الحقّة التي أتانا بها سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله ، حال السعادة والشقاء التي بحسب البدن .

ومنه ما هو معلوم مدرَك بالعقل والقياس البرهاني ، وقد صدقته النبوة وهو السعادة والشقاوة الثابتتان بالقياس إلى نفس الأمر ، وإن كانت الأوهام منّا تقصر عن تصورهما الآن . والحكماء الإلهيون ، رغبتهم في إصابة هذه السعادة أكثر من رغبتهم في إصابة السعادة البدنية ، بل كأنهم لا يتلفتون إلى تلك وإن أعطوها ، فلا يستعظمونها في جنب السعادة التي هي مقاربة الحق الأول »[1] .

---

(١) النجاة ، ص ٢٩١ . والشفاء ، قسم الإلهيات ، المقالة التاسعة ، الفصل ٧ . والظاهر من كلام الشيخ الرئيس أنه لا سبيل إلى المعاد الجسماني إلا بالشريعة وتصديق خبر النبوة ، وقد فسّر كلامه بأنه لا يمكن إثبات المعاد الجسماني وعود البدن مع الروح في النشأة الأخرى بالبرهان ، وإنما الطريق إليه هو الشريعة . ولكنه تفسير خاطىء ، كيف والأقلون من هذا الشيخ الإلهي مرتبة يثبتون ذلك بالبراهين الفلسفية، وإنما مراده من المعاد الجسماني هو اللذات والآلام الجسمانية من الجنة ونعيمها والنار ولهيبها ، فإن إثبات خصوص هذه اللذات يرجع إلى السمع وعالم الوحي ، ولولا السمع لما قدرنا على الحكم بأنّ لله سبحانه في النشأة الأخرى هذه النعم والنقم ، بل أقصى ما يمكن إثباته هو أن حشر الأجساد يمتنع أن يكون بلا غاية وبلا جهة ، أو بلا ثواب ولا عقاب ، وأما أن الثواب هو نفس ما ورد في الكتاب من الحور العين والفواكه والثمار وغيرها ، أو أنّ العقاب هو النار ولهيبها ،

وقال الإمام الرازي : « أمّا القائلون بالمعاد الروحاني والجسماني معاً ، فقد أرادوا أن يجمعوا بين الحكمة والشريعة فقالوا : دلّ العقل على أنّ سعادة الأرواح بمعرفة الله تعالى ومحبّته ، وأنّ سعادة الأجساد في إدراك المحسوسات ، والجمع بين هاتين السعادتين في هذه الحياة غير ممكن ، لأن الإنسان مع استغراقه في تجلّي أنوار عالم القدس ، لا يمكنه أن يلتفت إلى شيء من اللذات الروحانية ، وإنما تعذر هذا الجمع ، لكون الأرواح البشرية ضعيفة في هذا العالم ، فإذا فارقت بالموت ، واستمدت من عالم القدس والطهارة ، قويت وصارت قادرة على الجمع بين الأمرين ، ولا شبهة في أنّ هذه الحالة هي الحالة القصوى من مراتب السعادات »[1] .

وقال الحكيم السبزواري : « القول الفحل والرأي الجزل ، هو الجمع بين المعادين : لأن الإنسان بدن ونفس ، وإن شئت قلت نفس وعقل ، فللبدن كمال ، ومجازاة ، وللنفس كمال ومجازة وكذا للنفس وقواها الجزئية كمالات وغايات تناسبها وللعقل والقوى الكلية كمال وغاية ، ولأنّ أكثر الناس لا يناسبهم الغايات الروحانية العقلية ، فيلزم التعطيل في حقهم في القول بالروحاني فقط ، وفي القول بالجسماني فقط يلزم في الأقلين من الخواص والأخصينّ »[2] .

تحليل الملاكين في ضوء القرآن الكريم

إذا كان الملاك في توصيف المعاد بالجسماني أو الروحاني هو كون المحشور هو الجسم الحي وحده أو الروح وحدها ، فالقرآن الكريم يصدّق الأول وينكر الثاني ، وذلك أنّ مَنْ أمْعَن النظر في الآيات الواردة حول المعاد يقف على أنّ المعاد

فلا يثبته البرهان . ويؤيد ما ذكرنا أنّه يقول : « وهو الذي للبدن عند البعث وخيراته وشروره معلوم » . فالشيخ الرئيس إنما رُمِي بذلك لعدم تفريقهم بين الملاكين في توصيف المعاد بالجسماني أو الروحاني ، فزعموا أنّ الملاك عنده هو الأول منهما وغفلوا عن أنّ الملاك هو الثاني منهما كما يعلم من التأمل في كلامه .

(١) شرح العقائد العضدية للمحقق الدواني ، ج ١ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٦٥ ، تعليقة المحقق السبزواري .

الذي يصر عليه القرآن هو عود البدن الذي كان الإنسان يعيش به في هذه الدنيا ، ولا يصدّق عود الروح وحدها فقط . ويظهر ذلك من ملاحظة أصناف الآيات الواردة حول المعاد ، ونحن نأتي فيما يلي بلفيف منها :

١ ـ ما ورد في قصة إبراهيم وبقرة بني إسرائيل وإحياء عزير ، وأمّة من بني إسرائيل وأصحاب الكهف[١] .

٢ ـ الآيات التي تصرح بأنّ الإنسان خُلِق من الأرض وإليها يُعاد ، ومنها يُخرَج .

يقول سبحانه : ﴿ مِنْها خَلَقْناكُم وفيها نُعِيدُكُمْ ومنها نُخْرِجُكُم تارَةً أُخرى ﴾[٢] .

ويقول سبحانه : ﴿ ثُمّ يُعيدُكُمْ فيها وَيُخْرِجُكُمْ إخراجاً ﴾[٣] .

ويقول سبحانه : ﴿ ثُمّ إذا دعاكُمْ دَعْوَةً من الأرْضِ إذا أنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾[٤] .

ويقول سبحانه : ﴿ قال فيها تَحْيَوْنَ وفيها تَموتون ومِنْها تُخْرَجُونَ ﴾[٥] .

٣ ـ الآيات التي تدل على أنّ الحشر عبارة عن الخروج من الأجداث والقبور ، مثل قوله سبحانه : ﴿ فإذا هُمْ مِنَ الأجداثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجونَ مِنَ الأجْداثِ كأنّهم جَرادٌ مُنْتشِرٌ ﴾[٧] .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجْداثِ سِراعاً كأنّهمْ إلى نُصُبٍ

---

(١) لاحظ البحث الخامس من مباحث المعاد ، حيث ذكرنا نماذج من إحياء الموتى في الشرائع السابقة .
(٢) سورة طه : الآية ٥٥ .
(٣) سورة نوح : الآية ١٨ .
(٤) سورة الروم : الآية ٢٥ .
(٥) سورة الأعراف : الآية ٢٥ .
(٦) سورة يس : الآية ٥١ .
(٧) سورة القَمَرْ : الآية ٧ .

يوفِضونَ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ في القُبورِ ﴾[2].

وقوله تعالى : ﴿ وإذا القُبورُ بُعْثِرَتْ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ أفلَا يَعْلَمُ إذا بُعْثِرَ ما في القُبور ﴾[4].

٤ ـ ما يدل على شهادة الأعضاء ، قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وأَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ بما كانوا يَعْمَلُونَ ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بما كانوا يَكْسِبون ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ حتّىٰ إذا ما جاءُوها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأَبْصَارُهُمْ وَجُلودُهُم ﴾[7] .

٥ ـ ما يدل على تبديل الجلود بعد نضجها وتقطّع الأمعاء .

قال سبحانه : ﴿ كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَها ، لِيَذوقوا العذابَ ﴾[8] .

وقال سبحانه : ﴿ وَسُقوا ماءً حَمِيماً ، فَقَطَّع أَمْعاءَهُم ﴾[9] .

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في مواقف القيامة ، ومشاهدها ، ونعيم الجنة وعذاب الجحيم ، التي لا تدع لمريب ريباً في أنّ الإنسان سوف يبعث بهذا

---

(١) سورة المعارج : الآية ٤٣ .
(٢) سورة الحج : الآية ٧ .
(٣) سورة الإنفطار : الآية ٤ .
(٤) سورة العاديات : الآية ٩ .
(٥) سورة النور : الآية ٢٤ .
(٦) سورة يس : الآية ٦٥ .
(٧) سورة فصلت : الآية ٤١ .
(٨) سورة النساء : الآية ٥٦ .
(٩) سورة محمد : الآية ١٥ .

البدن العنصري الذي تكون له الحياة بالنحو الذي كانت له في الدنيا ، وهذا مما لا نشك فيه .

هذا كله حول المِلاك الأوّل ، وإليك البحث في الملاك الثاني الذي حاصله أنّ اتصاف المعاد بالجسماني أو الروحاني ، يرجع إلى كون الثواب والعقاب جسمانيين فقط ، أو أنّ هناك لذات وآلام روحية تلتذ بها النفس أو تتألّم ، ولا دخالة للجسم في حصول اللّذة والألم .

إن القرآن الكريم يصدّق كلا المعادين بهذا الملاك حيث يثبت اللذات والآلام الجسمانية والروحانية ، ولا يخص الثواب والعقاب بما يعرض للنفس عن طريق البدن ، وبواسطته . وإليك ما يدل على ذلك :

أما ما يدل على الثواب والعقاب الجسمانيين ، فحدّث عنه ولا حرج ، فالجنة والنار وما فيهما من النعم والنقم يرجعان إلى اللذات والآلام الجسمانية . وإنما الكلام فيما يدل من الآيات على اللذات والآلام الروحية فقط ، وفيما يلي نذكر بعضاً منها :

١ ـ لذة رضاء المعبود

يقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللّهُ المُؤْمِنينَ والمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خالدينَ فيها ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ منَ اللّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ ﴾[1] .

فترى أنه سبحانه يجعل رضوان الله في مقابل سائر اللّذات الجسمانية ، ويصفه بكونه أكبر من الأولى ، وأنّه هو الفوز العظيم .

ومن المعلوم أنّ هذا النوع من اللّذة لا يرجع إلى الجسم ، بل هي لذّة تدرك بالعقل ، والروح في درجتها القصوى .

وهنا كلمة مروية عن الإمام الطاهر علي بن الحسين قال : إذا صار أهل

---

(١) سورة التوبة : الآية ٧٢ .

الجنة ، ودخل وليُّ الله إلى جنانه ومساكنه ، واتكأ كل مؤمن منهم على أريكته ، حفته خدّامه وتهدلت عليه الثمار ، وتفجرت حوله العيون ، وجرت من تحته الأنهار ، وبسطت له الزرابي ، وصففت له النمارق وأتته الخدام بما شاءت شهوته من قبل أن يسألهم ذلك ، قال : ويخرجون عليهم الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء الله .

ثم إنّ الجبار يشرف عليهم فيقول لهم : أوليائي وأهل طاعتي وسكان جنتي في جواري ، هل أُنبئكم بخير مما أنتم فيه ، فيقولون ربنا وأي شيء خير مما نحن فيه ، نحن فيما اشتهت أنفسنا ، ولذّت أعيننا من النعم في جوار الكريم ، قال فيعود عليهم بالقول ، فيقولوا : ربّنا نعم، فائتنا بخير مما نحن فيه ، فيقول لهم تبارك وتعالى : رضائي عنكم ومحبتي لكم خير وأعظم مما أنتم فيه ، قال : فيقولون نعم يا ربنا ، رضاك عنا ومحبتك لنا خير لنا وأطيب لأنفسنا . ثم قرأ علي بن الحسين هذه الآية : **﴿ وَعَدَ اللّهُ المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ جَنّاتٍ تَجْري من تَحْتِهَا الأنْهارُ خالِدِينَ فيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ من اللهِ أكْبَرُ ذلِكَ هوَ الفَوْزُ العظيمُ ﴾**[1] .

٢ ـ ألم الإبتعاد عن رحمة الله ؟

إذا كان إدراك رضوان المعبود أعظم اللذات العقلية ، فإدراك الإبتعاد عن رحمة الله التي وسعت كلّ شيء ، من أعظَم الآلام العقلية . ولأجل ذلك نرى أنّه سُبْحانه يوعد المنافقين والكفار بالنّار ، ويُعقّبه بلعنهم. فكأنّ هناك ألَمَيْن : جِسْمي هو التعذيب بالنار ، وعقلي، وهو إدراكهم ألم الإبتعاد عن رحمته .

يقول سبحانه : **﴿ وَعَدَ اللّهُ المُنافِقِينَ والمُنافِقاتِ والكُفّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خالدينَ فيها هيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عذابٌ مُقيمٌ ﴾**[2] .

ويظهر عظم هذا الألم ، بوقوع هذه الآية قبل آية الرضوان فكأنّ الآيتين

---

(١) بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ١٤٠ ، كتاب العدل والمعاد ، الحديث ٥٧ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٦٨ .

تُعْربان عن اللذات والآلام العقلية التي تدركها الروح بلا حاجة إلى الجسم والبدن .

٣ ـ الحسرة يوم القيامة

يقول سبحانه : ﴿ إذْ تَبرَّأَ الَّذينَ اتُّبِعوا مِنَ الَّذينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأوُا العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسْبَابُ * وقال الَّذينَ اتَّبعوا لَوْ أنَّ لنا كَرَّةً فَنَتَبرَّأَ مِنهُمْ كما تَبرَّءُوا مِنّا كذلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ ، وما هُمْ بخارِجينَ مِنَ النّارِ ﴾[1] .

إن أصحاب الجحيم عندما يقفون على درجات الجنة ومقامات أصحابها ، وما حلّ بهم من السعادة والكرامة والراحة والإستظلال برحمة الله تبارك وتعالى ، وتفرغهم عن كل همّ وحزن ، ثم ينظرون إلى ما حلّ بهم من عذاب أليم ، وطعام من غِسلين[2] ، وضريع[3] ، وشراب من حميم[4] ، يتحسرون على ما ضيّعوا من الفرض ، ويندمون على ما فوّتوا في الدنيا وفرطوا في حياتهم ، ولكنها الحسرة في وقت لا تنفع فيه .

وهذا النوع من العذاب ـ أعني الحسرة ـ أشد على النفس مما يحل بها من عذاب البدن ، ولأجل ذلك يسمى يوم القيامة بيوم الحسرة ، قال سبحانه : ﴿ وَأنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إذْ قُضِيَ الأمْرُ وَهُمْ في غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[5] .

روى أبو سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا دخل أهل الجنة الجنةَ ، وأهل النارِ النارَ ، قيل يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، وقيل يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيجاء بالموت ، كأنّه كبش أمْلَح ، فيقال لهم : تعرفون الموت، فيقولون : « هذا ، هذا » وكُلّ قد عرفه ،

---

(١) سورة البقرة : الأيتان ١٦٦و١٦٧ .

(٢) سورة الحاقة : الآية ٣٦ .

(٣) سورة الغاشية : الآية ٦ .

(٤) سورة الأنعام : الآية٧٠ .

(٥) سورة مريم : الآية ٣٩ .

قال : فيقدم فَيُذْبَحْ ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت . قال : وذلك قوله : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ ﴾ .

ورُوي هذا الحديث عن الإمامين الصادِقَيْن عليهما السلام ، بزيادة : « فَيَفْرَحُ أهل الجنة فرحاً ، لو كان أحد يومئذٍ ميتا ، لماتوا فَرَحاً ، ويشهق أهل النار شهقة ، لو كان أحد ميّتاً ، لماتوا »[1] .

٤ ـ لقاء الله ومشاهدته العقلية

إن هناك لفيفاً من الآيات تعرب عن تمكن المؤمن من لقائه سبحانه يوم القيامة ، يقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ كان يَرْجوا لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً ولا يُشْرِكْ بِعِبَادِةِ رَبِّهِ أحَداً ﴾[2] .

وهذه الآيات الوافرة تشير إلى لقائه سبحانه . ولكن المفسرين ـ تنزيهاً له سبحانه عن الجسم والجسمانيات ـ أوّلوها إلى لقاء جزائه سبحانه وثوابه وعقابه ، ورضاه وسخطه ، وهذا المعنى مع صحته في نفسه ، ومع التركيز على تنزيهه سبحانه عن المشاهدة بالعيون المادية ، لا يمكن أنْ يكون معرباً عن كلّ ما تهدف إليه الآية ، فإن لهذه الآيات معنىً دقيقاً يدركه العارفون الراسخون في معرفته سبحانه ، القائلين بأنّ المعرفة ، بذر المشاهدة ، لكن لا مشاهدة جسمانية ، بل مشاهدة قلبية وعقلية ، ولمّا كان بيان هذا النوع من اللّذة العقلية ، خارجاً عن موضوع الكتاب نقتصر على هذا المقدار . ومن أراد التفصيل فليرجع إلى محله[3] .

---

(١) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٥١٥ .

(٢) سورة الكهف : الآية ١١٠ ، وورد هذا المضمون في الذكر الحكيم في سور كثيرة منها : الأنعام : ٣١ ، و ١٥٤ ، يونس : ٧ و ١١ و ١٥ و ٤٥ ، العنكبوت : ٥ و ٢٣ ، السجدة : ١٠ و ٢٣ ، فصلت : الآية ٥٤ .

(٣) ما ذكرناه نماذج من اللذات والآلام الروحية الدالة على أن الثواب والعقاب ليسا محصورين في الجسماني منها ، ومن أراد التوسع فليلاحظ كتاب « لقاء الله » ، للعارف الكبير ، الشيخ جواد المَلَكي ، (م١٣٤٤) . وهناك روايات وردت حول الموضوع ، فمن أراد الوقوف عليها فليرجع إلى توحيد الصدوق ، وإلى الموسوعة القرآنية : « مفاهيم القرآن » .

المعاد الروحاني عند الحكماء

قد وقفت على تضافر آيات الكتاب وأحاديث السنّة على عدم حصر المعاد في الجسماني ، كما تعرفت على حكم العقل في ذلك المجال ، وأنّ حصره في المعاد الجسماني يخالف رحمة الله الواسعة وحكمته البالغة ، وعلى ذلك فالشرع والعقل متعاضدان على أنّ هناك معاداً غير المعاد الجسماني ، ولكن يجب إلفات نظر الباحث في المقام إلى نكتة وهي أنّ المعاد الروحاني في الكتاب والسنّة يرجع إلى اللذات والآلام الروحية التي تلتذ بها النفس أو تتألم من دون حاجة إلى آلة جسمانية . وقد عرفت ما هو الوارد في الكتاب في هذا المجال من رضوانه سبحانه ولقائه والإبتعاد عن رحمته وإحاطة الحسرة بالإنسان في تلك النشأة ، فهذه هي حقيقة المعاد الروحاني التي تتلخص في غير اللذات والآلام الجسمانية ، وعلى هذا فهو يعمّ جميع أهل الجنة والنار من غير فرق بين الكاملين والمتوسطين .

وعلى الجملة هناك لذّات روحية وآلام كذلك تحيط أهل الجنّة والنار من غير فرق بين طبقاتهم . وأمّا المعاد الروحاني عند الحكماء ، فهو يختلف عمّا وقفنا عليه في الكتاب بأمرين :

الأول : إنّهم يَخُصّون المعاد الروحاني باللذات العقلية أي درك العقل الأمور الملائمة والمنافرة له ، فإن اللذة عندهم على وجه الإطلاق تفسَّر بإدراك الملائم من حيث هو ملائم ، كالحلو من المذوقات . والملائم للنفس الناطقة ، إدراك المعقولات بأنْ تتمكن النفس من تصوّر ما يمكن أنْ يدرَك من الحق تعالى ، وأنه واجب الوجود ، بريء عن النقائص والشرور والآفات ، منبع فيضان الخير على الوجه الأصوب ، ثم إدراك ما يترتب بعده من العقول والنفوس المجرّدة والأجرام السماوية والكائنات العنصرية حتى تصير النفس بحيث ترتسم فيها صور جميع الموجودات على الترتيب الذي هو لها .

وعلى هذا فإدراك الحس ، الملائم للحس ، معاد جسماني . وإدراك العقل ، الملائم له ، من الوجودات العالية ، معاد روحاني .

وهذه العلوم وإن كانت حاصلة لبعض النفوس في هذه النشأة إلا أنّها معرفة

ناقصة تتجلى بعد الموت في النشأة الأخرى بصورة كاملة برفع الموانع والحجب ، فكأنّ المعرفة العقلية بذر المشاهدة . فتلتذ النفوس في النشأة الأخرى بإدراك الأكمل فالأكمل .

وهذا كما ترى غير ما أشار إليه القرآن من اللذات الروحية ، نعم لا مانع من ثبوت كلا النوعين من المعاد الروحاني ، وليس الوارد في القرآن راداً لهذا القسم .

الثاني : إنّ المعاد الروحاني الوارد في القرآن الكريم يعمّ جميع النفوس ، كاملة كانت أو متوسطة أو ناقصة . ولكن المعاد الروحاني الذي عليه الحكماء يختص بصنف خاص ، وهم الكاملون في المعرفة . وذلك لأنّ المعاد الروحاني حسب الكتاب والسنة ، يرجع إلى اللذائذ الروحية لا إلى اللذة العقلية التي تختص بالكاملين في المعرفة .

يقول صدر المتألهين : « وهذا النوع من اللذة والسعادة لا تنالها كل نفس وإنما ينالها من عرف العقليات في النشأة الأولى ، لأن المعرفة بذر المشاهدة فمعرفة العقليات في النشأة الأولى منشأ الحضور في العقبى »[1] .

إن النفوس مختلفة ومنقسمة إلى كاملة ومتوسطة وناقصة ، فلا شك أنّ حصر المعاد في الجسماني يخالف رحمته الواسعة وحكمته البالغة إذ النفوس الناقصة والمتوسطة ، وإن كانت تلتذ بنعيم الجنة ،ولكن النفوس الكاملة لا تلتفت إلى مثلها بل تطلب غاية أعلى منها ، ولأجل ذلك يجب أن يكون هناك وراء هذه اللذات الحسية ، لذة عقلية تتشوق إليها النفوس الكاملة وتصبو إليها ، وليست هي إلا نيل مقامات القرب من الحق تعالى .

يقول الحكيم السبزواري : « لو حصروا المعاد في الجسماني لكان قصوراً حيث عطّلوا النفوس الكاملة عن البلوغ إلى غاياتها ، لأنها المستصغرة للغايات الجزئية ، الطالبة للإتصال بالأرواح المرسلة ، بل لمحض القرب من الله تعالى » .

---

(١) الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٢٣و١٢٩ .

وقال في موضع آخر : « إنّ الخلق طبقات فالمجازات متفاوتة ، فكل منها محبوب ومرغوب وجزاء يليق بحالها ، واللذائذ الحسية للكمل في العلم والعمل ، كالظلّ غير الملتفت إليه بالذات ، والتفاتهم بباطن ذواتهم وما فوقهم »[١] .

ثم إن للحكماء المتألهين في تبيين السعادة والشقاء الأخرويين العقليين مباحث مهمة لا سيما في تبيين دور العقل النظري والعملي فيهما فمن أراد الوقوف عليها ، فليرجع إلى مظانها[٢] .

* * *

(١) لاحظ إلهيات الشفاء ، والمبدأ والمعاد للشيخ الرئيس . والأسفار الأربعة لصدر المتألهين ، ج ٩ . وشرح المنظومة ، وأسرار الحكم ، كلاهما للحكيم السبزواري ، وغيرها من كتب الفلاسفة .
(٢) شرح المنظومة للحكيم السبزواري ، المقصد السادس ، الفريدة الثانية .

مباحث المعاد

(١١)

الرجعة

قضية الرجعة التي تحدثت عنها بعض الآيات القرآنية والأحاديث المروية عن أهل بيت الرسالة، مما تعتقد به الشيعة من بين الأمة الإسلامية، وليس هذا بمعنى أنّ مبدأ الرجعة يُعَدُّ واحداً من أصول الدين، وفي مرتبة الإعتقاد بالله وتوحيده، والنبوة والمعاد بل إنها تُعَدُّ من المسلّمات القطعية، وشأنها في ذلك شأن كثير من القضايا الفقهية والتاريخية التي لا سبيل إلى إنكارها. مثلاً: إتفقت كلمة الفقهاء على حرمة مسّ النساء في المحيض، بنص الكتاب العزيز يقول تعالى: **﴿ وَيَسْأَلونَكَ عن المحيض قُلْ هُوَ أذىً فَاعْتَزِلوا النِّساء في المَحِيضِ ولا تَقْرَبُوهُنَّ حتّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾**[١].

ودلّتِ الوثائق التاريخية على أنّ معركة بدر وقعت في السنة الثانية للهجرة. فالأولى قطعية فقهية، والثانية قطعية تاريخية، ولكن لا يعدان من أصول العقائد الإسلامية، وشأن الرجعة في هذا المجال شأنهما.

إذا عرفت ذلك نقول: الرجعة في اللُّغة ترادف العودة، وتطلق إصطلاحاً على عودة الحياة إلى مجموعة من الأموات بعد النهضة العالمية للإمام المهدي عليه السلام وهذه العودة تتم بالطبع قبل حلول يوم القيامة. وطبقاً لهذا المبدأ، فالحديث عن العودة، يُعَدُّ من أشراط القيامة.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

وعلى ضوء ذلك ، فظهور الإمام المهدي عليه السلام شيءٌ ، وعودة الحياة إلى مجموعة من الأموات شيء آخر ، كما أن البعث يوم القيامة أمر ثالث ، فيجب تمييزها وعدم الخلط بينها .

قال الشيخ المفيد : « إن الله تعالى يحشر قوماً من أُمة محمد صلى الله عليه وآله ، بعد موتهم ، قبل يوم القيامة ، وهذا مذهب يختص به آل محمد (صلوات الله عليه وعليهم) ، والقرآن شاهد به »[1] .

وقال المرتضى متحدثاً عن الرجعة عند الشيعة : « إعلم أنّ الذي تذهب الشيعة الإمامية إليه ، أنّ الله تعالى يعيد عند ظهور إمام الزمان ، المهدي عليه السلام ، قوماً ممن كان قد تقدّم موته من شيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ، ومشاهدة دولته ، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم ، فيلتذوا بما يشاهدون من ظهور الحق وعلو كلمة أهله »[2] .

وقال العلامة المجلسي : « والرجعة إنما هي لممحضي الإيمان من أهل الملّة ، وممحضي النفاق منهم ، دون من سلف من الأمم الخالية »[3] .

فالإعتقاد بالرجعة من الأمور القطعية المسلّم بها ، والروايات الكثيرة الواردة عن الأئمة المعصومين لا تُبقي أي مجال للشك في وقوعها .

يقول العلامة المجلسي : « كيف يشك مؤمن بحقيّة الأئمة الأطهار فيما تواتر عنهم فيما يقرب من مائتي حديث صريح ، رواها نيّف وثلاثون من الثقات العظام ، في أزيد من خمسين من مؤلفاتهم كثقة الإسلام الكليني والصدوق و . . . »[4] .

وقد وصف الشيخ الحرّ العاملي الروايات المتعلّقة بالرجعة بأنها أكثر من أن

---

(١) بحار الأنوار ، ج ٥٣ ، ص ١٣٦ ، نقلاً عن المسائل السروية ، للشيخ المفيد .

(٢) المصدر السابق نفسه ، نقلاً عن رسالة كتبها السيد المرتضى جواباً على أسئلة أهل الريّ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، وقد نقل أقوال علماء الشيعة ونصوصهم في هذا الجزء من بحاره فمن أراد زيادة الاطلاع فليرجع إليه ص ٢٢-١٤٤ .

(٤) المصدر السابق .

تعد وتحصى وأنّها متواترة معنى [١] .

هذه بعض كلمات كبار علماء الشيعة ومحدثيهم حول الرجعة ، ويقع الكلام في مقامين

الأول ـ إمكان الرجعة .

الثاني ـ الدليل على وقوعها في هذه الأمة .

* * *

المقام الأول : إمكان الرجعة

يكفي في إمكان الرجعة ، إمكان بعث الحياة من جديد يوم القيامة ، فإنّ الرجعة والمعاد ، ظاهرتان متماثلتان ومن نوع واحدٍ مع فارق أنّ الرجعة محدودة كيفاً وكمّاً ، وتحدث قبل يوم القيامة ، بينما يبعث جميع الناس يوم القيامة ليبدأوا حياتهم الخالدة .

وعلى ضوء ذلك ، فالإعتراف بإمكان بعث الحياة من جديد يوم القيامة ، ملازم للإعتراف بإمكان الرجعة في حياتنا الدنيوية . وحيث إنّ حديثنا مع المسلمين الذين يعتبرون الإيمان بالمعاد من أصول شريعتهم ، فلا بد لهؤلاء إذن من الإعتراف بإمكانية الرجعة .

أضف إلى ذلك أنّه قد وقعت الرجعة في الأمم السالفة كثيراً ، وقد تحدثنا عنه عند ذكر شواهد من إحياء الموتى في الأمم السالفة نظير :

١ ـ إحياء جماعة من بني إسرائيل[٢] .

٢ ـ إحياء قتيل بني إسرائيل[٣] .

---

(١) الإيقاظ من الهجعة ، الباب الثاني ، الدليل الثالث .

(٢) سورة البقرة : الآيتان ٥٥و٥٦ .

(٣) سورة البقرة : الآيتان ٧٢و٧٣ .

٣ ـ موت ألوف من الناس وبعثهم من جديد[١] .

٤ ـ بعث عُزَيْر بعد مائة عام من موته[٢] .

٥ ـ إحياء الموتى على يد عيسى عليه السلام[٣] .

وبعد وقوع الرجعة في الأمم السالفة ، هل يبقى مجال للشك في إمكانها ؟

وتصوُّر أنّ الرجعة من قبيل التناسخ المحال عقلاً ، تصوُّر باطلٌ ، لأنّ التناسخ عبارة عن رجوع الفعلية إلى القوة ، ورجوع الإنسان إلى الدنيا عن طريق النطفة ، والمرور بمراحل التكوُّن البشري من جديد ، ليصير إنساناً مرة أخرى ، سواء أدَخَلَتْ روحُه في جسم إنسان أم حيوان ، وأين هذا من الرجعة وعود الروح إلى البدن المتكامل من جميع الجهات ، من دون أن يكون هناك رجوع إلى القوة بعد الفعلية .

* * * *

المقام الثاني ـ أدلة وقوع الرجعة

يدل على وقوع الرجعة في هذه الأُمّة قوله تعالى: ﴿ وإذا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ أخْرَجْنا لَهُمْ دابَّةً مِنَ الأرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أنَّ النّاسَ كانوا بآياتنا لا يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآياتنا فَهُمْ يوزَعون ﴾[٤] .

لا يوجد بين المفسّرين من يشك بأنّ الآية الأُولى تتعلق بالحوادث التي تقع قبل يوم القيامة ، ويدل عليه ما روي عن النبي الأكرم من أنّ خروج دابة الأرض من علامات يوم القيامة ، إلا أنّ هناك خلافاً بين المفسرين حول المقصود من دابة الأرض ، وكَيفِيّة خروجها ، وكيف تتحدث ، وغير ذلك ممّا لا نرى حاجة لطرحه ؟ .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٩ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٤٩ .

(٤) سورة النمل : الآيتان ٨٢و٨٣ .

روى مُسلم أنّه قال رسول الله : إنّ الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خسفٌ بالمشرق ، وَخَسْفٌ بالمغرب ، وخسف في جزيرة العرب ، والدخان ، والدجّال ، ودابّة الأرض ، ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونارٌ تخرج من قعر عدن ترحل الناس »[1]

إنما الكلام في الآية الثانية ، والحق أنّها ظاهرة في حوادث قبل يوم القيامة ، وذلك لأنّ الآية تركز على حشر فوج من كل جماعة بمعنى عدم حشر الناس جميعاً ، ومن المعلوم أنّ الحشر ليوم القيامة يتعلق بالجميع ، لا بالبعض ، يقول سبحانه : **﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبالَ وَتَرى الأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ ، فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾**[2] أفَبَعْدَ هذا التصريح ، يمكن تفسير ظرف الآية بيوم البعث والقيامة ؟ .

وهناك قرينتان أخريان ، تحقّقان ظرفها لنا ، إن كنّا شاكين ، وهما :

أوّلاً ـ إنّ الآية المتقدمة عليها تذكر للناس علامة من علامات القيامة ، وهي خروج دابة الأرض ، ومن الطبيعي ، بعد ذلك أنّ حشر جماعة من الناس يرتبط بهذا الشأن .

ثانياً ـ ورد الحديث في تلك السورة عن القيامة في الآية السابعة والثمانين، أي بعد ثلاث آيات، قال سبحانه: **﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ في السَّمٰواتِ وَمَنْ في الأَرْضِ إلاّ مَنْ شاء الله وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرينَ ﴾**[3] .

وهذا يعرب عن أنّ ظرف ما تقدم عليها من الحوادث يتعلق بما قبل هذا اليوم ، ويُحقّق أنّ حشر فوج من الذين يكذبون بآيات الله يحدث حتماً قبل يوم القيامة ، وهو من أشراط هذا اليوم ، وسيقع في الوقت الذي تخرج فيها دابة من الأرض تكلم الناس .

ومن العجب قول الرازي بأنّ حشر فوج كل من أُمّة سيقع بعد قيام

---

(١) صحيح مسلم ، ج ٨ ، كتاب الفتن ، وأشراط الساعة ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة ، ص ١٧٩ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٤٧ .

(٣) سورة النمل : الآية ٨٧ .

الساعة[1] . فإنّ هذا الكلام خاوٍ لا يستند إلى أيّ أساس . وترتيب الآيات وارتباطها ببعضها ، ينفيه ، ويؤكّد ما ذهب إليه الشيعة من أنّ الآية تشير إلى حدثٍ سيقع قبل يوم القيامة .

أضف إلى ذلك أنّ تخصيص الحشر ببعضٍ ، لا يجتمع مع حشر جميع الناس يوم القيامة .

نعم ، الآية قد تحدثت عن حشر المكذبين ، وأما رجعه جماعة أُخرى من الصالحين فهو على عاتق الروايات الواردة في الرجعة .

وأمّا كيفية وقوع الرجعة وخصوصياتها فلم يتحدث عنها القرآن ، كما هو الحال في تحدثه عن البرزخ والحياة البرزخية .

ويؤيد وقوع الرجعة في هذه الأُمّة وقوعها في الأُمم السالفة كما عرفت . وقد روى أبو سعيد الخدري أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال : « لَتَتَّبِعُنّ سُنَنَ من كان قبلكم ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع . حتى لو دخلوا جحر ضبّ لتبعتموه . قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟[2] .

وروى أبو هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « لا تقوم الساعة حتى تُؤْخذ أمّتي بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، فقيل : يا رسول الله : كفارس والروم ، قال : وَمَنِ النّاس إلاّ أُولئك ؟[3] .

وروى الشيخ الصدوق رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « كل ما كان في الأمم السابقة فإنه يكون في هذه الأُمة مثله ، حذو النعل بالنعل ، والقذّة بالقذّة »[4] .

---

(١) مفاتيح الغيب ، ج ٤ ، ص ٢١٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الإعتصام بقول النبي ، ج ٩ ، ص ١١٢ .

(٣) صحيح البخاري ج ٩ ، ص ١٠٢ . وكنز العمال ، ج ١١ ، ص ١٣٣ .

(٤) كمال الدين ، ص ٥٧٦ .

وبما أنّ الرجعة من الحوادث المهمة في الأُمم السالفة ، فيجب أن يقع نظيرها في هذه الأُمة أخذاً بالمماثلة ، والتنزيل .

وقد سأل المأمون العباسي ، الإمام الرضا عليه السلام عن الرجعة فأجابه ، بقوله : إنّها حق ، قد كانت في الأُمم السالفة ، ونطق بها القرآن ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يكون في هذه الأُمة كل ما كان في الأُمم السالفة حذو النعل بالنعل ، والقذة بالقذة[1] .

هذه هي حقيقة الرجعة ودلائلها ، ولا يدّعي المعتقدون بها أكثر من هذا ، وحاصله عودة الحياة إلى طائفتين من الصالحين والطالحين ، بعد ظهور الإمام المهدي عليه السلام ، وقبل وقوع القيامة . ولا ينكرها إلّا من لم يمعن النظر في أدلتها[2] .

* * *

أسئلة وأجوبتها

السؤال الأول ـ كيف يجتمع إعادة الظالمين مع قوله سبحانه : ﴿ وَحَرامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعونَ ﴾[3] فإن هذه الآية تنفي رجوعهم بتاتاً ، وحشر لفيف من الظالمين يخالفها .

---

(١) بحار الأنوار ، ج ٥٣ ، ص ٥٩ ، الحديث ٤٥ .

(٢) بقي هنا بحثان :

١ ـ من هم الراجعون .

٢ ـ ما هو الهدف من إحيائهم .

وإجمال الجواب عن الأول أن الراجعين لفيف من المؤمنين ولفيف من الظالمين .

وإجمال الجواب عن الثاني ما جاء في كلام السيد المرتضى المنقول آنفاً ، حيث قال : « إن الله تعالى يعيد عند ظهور إمام الزمان ، المهدي عليه السلام ، قوماً ممن كان تقدم موته من شيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ، ومشاهدة دولته ، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم . . . إلى آخر كلامه » .

لاحظ تفصيل جميع ذلك في البحار ، ج ٥٣ . والايقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة ، للشيخ الحر العاملي .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٩٥ .

والجواب : إن هذه الآية مختصة بالظالمين الذين أُهلكوا في هذه الـدنيا ورأوا جزاء عملهم فيها ، فهذه الطائفة لا ترجع . وأما الظالمون الذين رحلوا عن الدنيـا بـلا مؤاخذة ، فـيرجع لفيف منهم لـيروا جزاء عملهم فيهـا ، ثم يُـرَدُّون إلى أشـد العذاب في الآخرة أيضاً . فالآية لا تمت إلى مسألة الرجعة بصلة .

السؤال الثاني ـ إن الظاهر من قوله تعالى : ﴿ حتّىٰ إذا جـاء أحَدَهُمُ المـوتُ قالَ رَبِّ ارْجِعونِ * لَعَلّي أعْمَلُ صالِحاً فيما تَرَكْتُ كلا إنَّها كَلِمَةٌ هـو قائِلُها ، وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إلىٰ يوم يُبْعَثُونَ ﴾[1] ، نفي الرجوع إلى الدنيا بعد مجيء الموت .

والجواب : إنّ الآية تحكي عن قـانون كـلّي قابـل للتخصيص في مورد دون مورد ، والدليل على ذلك ما عـرفت من إحياء المـوتى في الأُمم السالفـة ، فلو كان الرجوع إلى هذه الدنيا سنة كليةً لا تتبعض ولا تتخصص ، لكان عودها إلى الـدنيا مناقضاً لعموم الآية .

وهذه الآية ، كسـائر السنن الإلهيـة الواردة في حق الإنسـان ، فهي تفيد أنّ الموت بطبعه ليس بعده رجوع ، وهذا لا ينافي الرجوع في مورد أو موارد ، لمصالـح عُلْيا .

السؤال الثالث ـ إن الإستدلال على الرجعة مبني على جعل قولـه سبحانـه : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّن يُكذِّبُ بآياتِنـا فَهُمْ يوزَعـونَ ﴾ ، حاكيـاً عن حادثة تقع قبل القيامة ، ولكن من الممكن جعلها حاكية عن الحادثة التي تقع عنـد القيامة ، غير أنّها تقدمت على قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ ﴾ ، وكـان طبع القضية تـأخيرهـا عنه ، والمـراد من الفوج من كـل أمّة هـو الملأ من الـظالمين ورؤسائهم .

والجواب : أولاً ، إنّ تقديم قـوله : ﴿ وَيَـوْمَ نَحْشُرُ . . . ﴾ ، على فـرض كونه حاكياً عن ظاهرة تقع يوم القيامة ، عـلى قولـه : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَـخُ ﴾ ، ليس إلاّ إخلال في الكلام ، بلا مسوغ .

---

(١) سورة المؤمنون : الآيتان ٩٩و١٠٠ .

وثانياً ، إن ظاهر الآيـات أنّ هناك يـومين ، يـومُ حشر فوج من كـل أُمّة ، ويوم نفخ في الصور ، وجعل الأول من متمّمات القيامة ، يستلزم وحدة اليـومين ، وهو على خلاف الظاهر[1] .

* * *

(١) وإذا أحطت خُبراً بمـا ذكرنـاه ، يتبين لـك سقوط كثير مما ذكـره الألوسي في تفسـيره عند البحث عن الآية . لاحظ تفسيره ، ج ٢٠ ، ص ٢٦ .

مباحث المعاد

(١٢)

التّناسخ وأقسامه وبراهين بُطلانه

التناسخ من النسخ بمعنى النقل[١] ، أو بمعنى إزالة بشيءٍ يتعقبه ، كنسخ الشمس الظل ، والشيب الشبابَ[٢] .

فالنسخ يعرب عن خصوصيتين : النَّقْلُ والتَّحوّل . وسيوافيك أنّ كلتيهما مأخوذتان في التناسخ المصطلح ، الذي يعرب عن حالة نقل وتحوّل خاصة .

ثم إن للإنتقال أقساماً ما نشير إليها :

أ ـ الإنتقال من النشأة الدنيوية إلى النشأة الأُخروية الذي نسميه بالمعاد .

ب ـ الإنتقال من القوة إلى الفعل ، كانتقال النفس في ظل الحركة الجوهرية إلى كمالها الممكن .

ج ـ إنتقال النفس بالموت ، من البدن المادي إلى بدن مثله في هذه النشأة . وهذا النوع من الإنتقال هو التناسخ المصطلح الذي ذهب إليه بعض الفلاسفة من البراهمة والهندوس وغيرهم .

وتبيين الحق يتوقف على بيان ما يتصور للتناسخ من الأقسام حتى يعلم أيٌّ

(١) أقرب الموارد ، ج ٢ ، مادة نسخ .
(٢) المفردات في غريب القرآن ، مادة نسخ .

قسم منها يضاد المعـاد ويخالفـه ، فنقول : إن للتنـاسخ المـطروح من قِبَل أصحـابه صوراً ثلاثة :

الصورة الأولى : التناسخ المطلق

وهو انتقال النفس من بدن إلى بدن آخر في هذه النشـأة ، فإذا مـات البدن الثاني إنتقلت إلى ثالث ، وهكذا بلا توقف أبداً ، والبدن المنتقل إليه قد يكون بدن إنسان أو حيوان أو نبات . وطريق الإنتقـال غالبـاً ، هو التعلّق بجنـين الإنسان أو الحيوان ، أو بالخليّة النباتية . وقد نسب هذا القول إلى القدماء من الحكماء .

قـال شارح حكمـة الإشراق[1] : « إن شرذمة قليلة من القُـدماء ذهبـوا إلى امتنـاع تجرّد شيء من النفـوس بعـد المفـارقـة لأنها جسـمانيـة ، دائمـة الإنتقـال في الحيـوانات وغـيرها من الأجسـام ، ويعـرفـون بـالتنـاسخيـة ، وهم أقـلّ الحكـماء تحصيلاً »[2] .

الصورة الثانية : التناسخ المحدود (النزولي)

وهـو أنْ يختص الإنتقال ببعض النفـوس دون بعض آخـر ، وهـذا كـما هـو محدود من حيث الأفراد ، محدود كذلك من حيث الزَّمان . وذلك لأن الإنتقـال قد ينقطع ، ولا ترجع النفس إلى النشأة الدنيوية ، بل تلتحق بعالم النور والعقول .

ووجـه المحدودية من حيث الأفراد ، أنّ النفـوسَ المفـارِقـة لـلأبـدان بعـد الموت ، على قسمين :

١ ـ نفوس كاملة في مجـالي العلم والعمل ، فهـذه لا حاجـة لها لـلإنتقال إلى أبدان أخرى ، لأنها وصلت إلى كـمالها الممكن ، فـلا تحتاج إلى الـرجوع ثـانية إلى هذه النشأة .

---

(١) قُطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي ، المتوفي عام ٧١٠ أو ٧١٦ للهجرة .

(٢) شرح حكمة الأشراق ، المقالة الخامسة ، الفصل الأول ، ص ٤٧٦ .

٢ ـ ونفوس ناقصة في كلا المجالين ، فلا مناص لتكاملها من إرجاعها إلى هذه النشأة حتى تكتمل فيها إلى أن تصير غنية عن الرجوع ، فتلحق بعالم العقول .

وأما المحدودية من جانب الزمان ، فوجهه أنّ الهدف من التناسخ ورجوع النفس إلى البدن في هذه النشأة مجدداً ، هو إكمالها في مجال العلم ، وتهذيبها من الرذائل ، وتجريدها من الكدورات . فإذا صارت منزهة عنها ، فلا وجه لدوام هذا النقل والتحوّل ، بل لا مناص من لحوقها بعد الإستكمال بعالم النور .

ويسمى التناسخ المحدود من حيث الأفراد والأزمنة بـ « التناسخ النزولي » .

يقول صدر المتألهين شارحاً هذه العقيدة : « إن أول منزل للنفس ، الصَّيْصِيَّة الإنسانية[1] ، ويسمونها « باب الأبواب لحياة جميع الأبدان الحيوانية والنباتية » ، وهذا هو رأي يوذاسف التناسخي ، قائلاً بأن الكاملين من السعداء تتصل نفوسهم بعد المفارقة بالعالم العقلي والملأ الأعلى ، وتنال من السعادة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وأما غير الكاملين من السُعداء كالمتوسطين منهم والناقصين في الغاية والأشقياء على طبقاتهم ، فتنتقل نفوسهم من هذا البدن إلى تدبير بدن آخر من النوع الإنساني لا إلى غيره . وبعضهم جوّز ذلك ولكن اشترط أنْ يكون إلى بدن حيواني . وبعضهم جوّز النقل من البدن الإنساني إلى البدن النباتي أيضاً ، وبعضهم إلى الجامد أيضاً »[2] .

الصورة الثالثة : التناسخ الصعودي

وهناك قسم ثالث من التناسخ يسمى بالصعودي ، يغاير التناسخ النزولي ، وحاصله أنّ الحياة إنما تفاض على المستعد فالمستعد ، والنبات ـ بزعمهم ـ أشدّ

---

(١) أي البدن والهيكل المادي الإنساني في اصطلاح شيخ الإشراق ومن تابعه .

(٢) الأسفار ، ج ٩ ، الباب الثامن ، الفصل ٢ ، ص ٨ ويسمي الأول نسخاً والثاني مسخاً والثالث فسخاً والرابع رسخاً ، يقول الحكيم السبزواري :

نَسْخٌ وَمَسْخٌ رَسْخٌ فَسْخٌ قُسِما إنساناً وحيواناً جماداً نما

استعداداً وأَوْلَى بقبول الفيض الجديد من الحيوان والإنسان ، كما أنّ الإنسان يستدعي نفساً أشرف ، وهي التي جاوزت الدرجات النباتية والحيوانية .

وفي ضوء هذا ، فالحياة تفاض على النبات أولاً ، ثم تنتقل منه إلى الحيوان ، ثم إلى الإنسان ، وهذا النوع من التناسخ أشبه بالقول بالحركة الجوهرية ، وأنّ الأشياء في ظلّها تخرج من القوة إلى الفعل ، ومن النقص إلى الكمال ، وأنّ الموجود النباتي يتحول إلى الحيوان ، ثم الإنسان ، لكن الفرق بين القول بالتناسخ الصعودي والحركة الجوهرية ، هو أنّ التكامل في القول بالتناسخ على وجه الإنفصال دون الإتصال ، فالنفس النباتية تنتقل من النبات إلى البدن الحيواني ، ثم منه إلى البدن الإنساني ، ولكن التحول في الحركة الجوهرية ، على وجه الإتصال ، وأنّ النطفة الإنسانية تتحول وتتكامل من مرتبة ناقصة إلى مرتبة كاملة حتى يصدق عليها قوله سبحانه : ﴿ **ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ** ﴾[1] .

فظهر أنّ في التناسخ أقوالاً ثلاثة :

١ ـ التناسخ المطلق : وهو ما لا ينتهي النقل فيه ولا يتوقف ويعم الجميع .

٢ ـ التناسخ النزولي : وهو ما لا يعم الجميع أولاً ، ويتوقف النقل فيه بعد التصفية وبلوغ مراتب الكمال ، ثانياً .

٣ ـ التناسخ الصعودي : وهو ما يحصل فيه انتقال النفس في جهة الصعود ، من النبات إلى الحيوان فالإنسان . إذا تعرفت على المراد من هذه الأقسام ، فإليك تحليلها ، وبيان بطلانها :

* العناية الإلهية والتناسخ المطلق

إنّ التناسخ المطلق يعاند المعاد معاندة تامة ، والقائل به ليس له التفوبعود

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ١٤ . وما ذكرناه إجمال ما يرمي إليه أصحاب هذا القول ، والتفصيل يطلب من محله ، لاحظ في ذلك « أسرار الحكم » ، للحكيم السبزواري ، ص ٢٩٣-٢٩٤ .

الأرواح إلى الأبدان في النشأة الأخرى ، لأنّ المفروض أنّ الروح تنتقل إلى الأبد من بدنٍ إلى بدن ، بلا توقف ، فلا مجال للنفس لكي تبعث في النشأة الاخرى . ولعل أصحاب هذه النظرية ـ لقلّة تدبّرهم ـ حسبوا هذا النوع من الإنتقال للنفس معاداً لها ، فالمعاد عندهم هو انتقال النفس من بدن إلى بدن في هذه النشأة دون أن تكون هناك نشأة أخرى .

ويردُّها أنّ النفس عند هؤلاء لا تخلو من إحدى حالتين : إما أنْ تكون منطبعة في البدن ، إنطباع الأعراض في الجواهر ، والصور الجوهرية في المادة ، فهي ممتنعة الإنتقال ، إذ الانطباع ينافي الإنتقال ، والجمع بينهما جمع بين النقيضين ، فإنه يستلزم أن تكون النفس في حال الإنفصال موجودة بلا موضوع ، ومتحققة بلا محل .

أو تكون مجرّدة تجرداً تاماً ، ومع ذلك تكون دائمة الإنتقال في الأجسام من غير لحوق بعالم النور وهو باطل أيضاً إذ العناية الإلهية ، تقتضي إيصال كل ذي كمال إلى كماله ، وكما النفس العلمي يتحقق بصيرورتها عقلاً مُستفاداً[1] ، فيه صور جميع الموجودات ، وكمال العقل العملي يتحقق بالتخلية عن رذائل الأخلاق ، والتحلية بمكارمها . فلو كانت دائمة الإنتقال ، كانت ممنوعة عن كمالها ، أزلاً وأبداً ، والعناية الأزلية تأبى ذلك[2] .

وبعبارة أخرى : إنّ النفس الإنسانية مستعدة لإفاضة الكمالات عليها ، فحبسها في الصياصي البدنية في هذه النشأة ، وإيقافها عن الصعود إلى النشأة الأخرى ، يخالف الحكمة الإلهية المتعلقة بإبلاغ كل ممكن إلى غايته الممكنة .

* * *

---

(١) العقل المستفاد أحد مراتب العقل الأربعة المصطلح عليها في الحكمة النظرية : وهي عبارة عن : ١ ـ العقل الهيولاني ، ٢ ـ العقل بالمَلَكة ، ٣ ـ العقل بالفعل ، ٤ ـ العقل المستفاد ، راجع في توضيحها شرح المنظومة للحكيم السبزواري ، قسم الطبيعيات ، مباحث النفس ، ص ٣٠٦-٣٠٧ .

(٢) شرح حكمة الإشراق المقالة الخامسة ، الفصل الأول ، ص ٤٧٦ . والأسفار ، ج ٩ ، الباب الثامن ، الفصل الثاني .

* الحركة الرجعية والتناسخ النزولي

والـذي يُبطل هـذا النوع الثـاني من التناسـخ ، إستلزامه الحـركة الـرجعيـة للنفس من الأشـد إلى الأنقص ، ومن الأقوى إلى الأضعف بحسب الـذات ، وهو أمر محال . وتوضيحه :

إنّ حقيقة التناسـخ النزولي تتحقق بتعلق روح الإنسـان بعد مفـارقة البـدن بـالموت ، بجنـين إنسـان أو حيـوان أو خليـة نبـاتيـة ، والكـل دونها في الكـمال . فأصحاب هـذا القول يتصـورون أن النفوس المتـوسطة تنتقـل بعد فنـاء أبدانها إلى أجنة الإنسان أو الحيوان ، وتعود إلى الدنيا لمتابعة مسيرة الاستكمال ، والإرتقاء إلى درجة النفوس الكاملة .

ولكنه خيال بـاطل ، لأن تعلق تلك النفـوس بأجنـة الإنسان أو الحيـوان لا يخلو من صورتين :

الأولى : أنْ تتعلق النفس بـالجنين الإنسـاني أو الحيـواني بمـا لهـا من الكـمال المناسب لمقامـه . وهذا غـير ممكن عقلاً ، لأن النفس مـا دامت في البدن تـزداد في فعليتها شيئاً فشيئاً حتى تصير أقوى وجوداً وأشـد تحصُّلاً . ومثـل هذا لا يمكنـه أن يتعلق بالموجـود الأدنى منه ، الـذي لا يتحمل ذلـك الكمال وتلك الفعليّـة ، لعدم تحقق التعاضد والأنسجام بينهما .

وبعبارة أخرى : إنّ واقعية النفس التي عاشت مع البدن أربعين سنة مثلاً ، واقعية تَفَتُّح القوى وبلوغها مقام الفعلية . وأما واقعية النفس التي تتعلق بالأجنة ، فهي فقدان كلّ فعلية ، وانتسابها إلى جميع الكـمالات بالقـوة ، فحسب . فالقـول بتعلق تلك الفعليـة بالجنـين ، جمع بـين النقيضين . لأنها ـ عـلى الفرض ـ بمـا أنّها نفس إنسان مرّت عليه أربعون سنة ، مستجمعة لجميـع الكمالات بـالفعل . وبما أنها تعلقت بالجنين ، مستجمعة لها بالقوة فحسب . فتكون الكمالات في محل واحد وزمان واحد ، بالفعل وبالقوة معاً ، وهذا محال .

الثانية : أنْ تتعلق تلك النفـوس بالأجنـة ، لكن بعد تنـزّلها عن فعليّـاتها ، وانسـلاخها عن كـمالاتها . وهـذا النحو من التعلّق ، وإن كـان يوجـد بين البـدن

والنفس تعاضداً وانسجاماً ، لكن ذاك الإنسلاخ إما ناشيء من ذات النفس ونابع من صميمها ، وإما قد حصل بقهر من الله سبحانه . والأول لا يتصور ، لأن الحركة الذاتية من الكمال إلى النقص غير معقولة ، والثاني ينافي الحكمة الإلهية التي تقتضي بلوغ كل ممكن إلى كماله الممكن[1] .

وبما أن القائلين بهذا النوع من التناسخ يخصّونه بالمتوسطين في الكمال والناقصين فيه ، دون الكاملين في مجالي العلم والعمل ، فهو على طرف النقيض من المعاد في الصنفين الأوّلَيْن ، دون الصنف الثالث الذين لهم الحشر والإنتقال إلى النشأة الأُخرى دون التناسخ .

نعم ، المتوسطون والناقصون ـ بعد انتهاء دورة التناسخ وزمنها ـ ينتقلون إلى عالم النور فيكون لهم من الحشر ما للكاملين من أفراد الإنسان .

* * *

التناسخ الصعودي وانتقال النفس

ذكرنا أنّ أصحاب التناسخ الصعودي يقولون بأنّ تكامل النفس من بدء حدوثها يتوقف على ظهور الحياة في النبات لتكون نفساً نباتية إلى أن تنتقل إلى بدن الحيوان فتصير نفساً حيوانية ، ثم نفساً إنسانية ، وعندئذٍ يقع السؤال في حقيقة هذه النفس ، فنقول :

إن النفس الموجودة في الحيوان مثلاً ، إما منطبعة إنطباع النقوش في الحجر ، والأعراض في موضوعاتها ، والصور في محالّها ، فيكون انتقالها مستحيلاً على ما مرّ ، أعني استلزامه أنْ تكون في آن الانتقال بلا موضوع ومحل .

وإمّا مجرّدة ، لها من الخصوصيات ما للنفوس الحيوانية ، فمن المعلوم أنّ النفس الحيوانية بما لها من الخصوصية يمتنع أن تتحول إلى النفس الإنسانية ، فإنّ كمال النفس الأُولى عبارة عن القوة الشهوية وحسّ الانتقام ، وهما يعدّان كمالاً

(١) ما ذكرناه تقريراً واضح لما أفاده صدر المتألهين ، في أسفاره . لاحظ الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٦ .

لنفوس الدواب والأنعام وأصلا عظيماً للجسمانية والإخلاد إلى الأجساد . فلو تعلقت هذه النفس ـ بهذه الخصوصية ـ بالإنسان ، لوجب أن تنحط درجة إلى نوع نازل من الحيوان المناسب لهذه السجايا والغرائز . فإذا كان مقتضى الشهوة الغالبة أو الغضب الغالب ، شقاء النفس ونزولها إلى مراتب الحيوانات الصامتة ، التي كمالها في كمال إحدى هاتين القوتين ، فيمتنع أن يكون وجود هاتين القوتين وأفعالهما منشأً لارتفاع النفوس من درجتها البهيمية والسبعية إلى درجة الإنسان الذي كمال نفسه كسر هاتين القوتين . فتعلق النفس الحيوانية بما لها من الخصوصيات والغرائز بالإنسان ، لا يرفعه بل ينزله إلى درجة تناسب درجة الحيوانات[1] .

وعلى الجملة فالنفس الحيوانية متشخصة بغرائز خاصة هي التمايلات الشهوية والسبعية والإخلاد إلى الأرض والمادة ، فكيف يمكن أن تكون مثل هذه أساساً لتكامل الإنسان وتعاليه ، الذي لا يتحقق له التكامل إلا بتحطيم هذه الغرائز وكسر ثورتها فإن هذا أشبه بجعل وجود الضد شرطاً لوجود ضد آخر .

نعم ، هذا الإشكال إنما يتصور في التكامل الصعودي المنفصل المراتب والدرجات دون متصلها كما في تكامل الإنسان في رحم أُمه من الجمادية إلى النفس الإنسانية ، في ظل صور متوالية متتالية دون أن يقع بينها انفصال .

وعلى كل تقدير فهذا القسم من التناسخ باطل في نفسه ، وإن كان لا يصادم القول بالمعاد وحشر الإنسان في النشأة الأخرى، بخلاف القسمين السابقين ، فإن الأول منهما على طرف النقيض من المعاد مطلقاً والقسم الثاني على طرف النقيض منه في مورد غير الكاملين من النفوس الإنسانية .

* * * * *

تحليل جامع للقول بالتناسخ

قد تعرفت على أقسام التناسخ والبراهين التي تهدم أساس كل واحد منها ،

---

(١) لاحظ الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٣ .

وهناك برهانان آخران على بطلان التناسخ على وجه الإطلاق ، من دون أن يختصا بقسم دون قسم ، وإليك بيانهما :

الأول : اجتماع نفسين في بدن واحد

وهذا البرهان مبنى على أمرين :

أ ـ إنّ كل جسم نباتاً كان أو حيواناً أو إنساناً ، إذا بلغ من الكمال إلى درجة يصير فيها صالحاً لتعلُّق النفس به ، تتعلق به . وبعبارة أخرى : متى حصل في البدن مزاج صالح لقبول تعلق النفس المدبرة به ، فبالضرورة تفاض عليه من الواهب من غير مهلة ولا تراخٍ ، وذلك مقتضى الحكمة الإلهية التي شاءت إبلاغ كل ممكن إلى كماله الممكن .

ب ـ إن القول بالتناسخ يستلزم تعلّق النفس المستنسخة المفارقة للبدن ، ببدن نوع من الأنواع من نبات أو حيوان أو إنسان ، بحيث يتقوم ذلك البدن بالنفس المستنسخة المتعلقة به .

ولازم تسليم هذين الأمرين ، تعلُّق نفسين ببدنٍ واحد : إحداهما النفس المفاضة على البدن لأجل صلاحيته للإفاضة ، وثانيتهما النفس المستنسخة المتعلقة بعد المفارقة بمثل هذا البدن .

ومن المعلوم بطلانه وذلك لأن تشخص كل فرد من الأنواع بنفسه وروحه ، وفرض نفسين وروحين مساوق لفرض ذاتين ووجودين لوجود واحد وذات واحدة .

أضف إلى ذلك : أنه ما من شخص إلا ويشعر بنفس وذات واحدة . قال التفتازاني : إنّ كلّ نفس تعلم بالضرورة أن ليس معها في هذا البدن نفس أخرى تدبر أمره وأن ليس لها تدبير وتصرُّف في بدن آخر ، فالنفس مع البدن على التساوي ، ليس لبدن واحد إلا نفس واحدة ، ولا تتعلق نفس واحدة إلا ببدن واحد[1] .

---

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٣٨ . ولاحظ كشف المراد ، ص ١١٣ ، ط صيدا . ويضيف الأخير : =

سـؤال وجـواب :

أما السؤال فهو أنّ هذا إنما يتم إذا كان هناك فصـل زمني بين صلوح البـدن لإفاضة الحياة ، وتعلّق النفس المستنسخة . وأما إذا كان صلوحه وقابليته ، مقارنـاً لتعلق النفس المستنسخة ، فلا يلزم اجتـماع نفسين في بـدن واحد ، لأنها تمنـع عن إفاضة الحياة عليه ، فلا تكون له نفسان ولا حياتان .

والجـواب : إن كون النفس المستنسخـة مانعـة من حدوث النفس الأخـرى ليس بأولى من منع الأخرى من التعلّق بالبدن .

أضف إلى ذلك أنّ استعداد المادة البدنية لقبول النفس من الواهب للصور ، يجـري مجرى استعـداد الجـدار لقبـول نـور الشمس مبـاشرة أو انعكـاسـاً إذا رفـع الحجاب من أمامـه . فإن كـان عند ارتفـاع الحجاب جسم ثقيـل ينعكس فيه نـور الشمس الواقع عليه إلى ذلك الجـدار ، أشرق عليه النـوران الشمسيان المبـاشري والإنعكاسي ، ولا يمنع من وقوع الإنعكاسي ، وقوع النور المباشري عليه . ومثـل ذلـك ما نحن فيـه ، غير أن اجتـماع النفسين ممتنـع ، ومانعيـه أحداهمـا عن طروء الأخرى غير صحيحة . فينتج أنّ التناسخ المبتني على أحد الأمرين (اجتماع نفسين أو مانعية إحداهما من طروء الأخرى) باطل[1] .

الثاني : عدم التناسخ بين النفس والبدن

قـد ثبت في محله أنّ تـركيب البـدن والنفس ، تـركيب طبيعي إتحـادي ، لا تركيب إنضمامي ، فليس تركيبهما كـتركيب السرير من الأخشـاب والمسامـير ، ولا كتركيب العناصر الكيميائية وتأثير بعضها في بعض .

والنفس في أول حدوثها متسمة بالقـوة ، في كل مـا لها من الأحـوال ، وكذا البدن ، ولها في كل وقت شأن آخر من الشؤون الذاتيـة بإزاء سن الـطفولـة والصبا

= أنه لو تعلقت نفس واحدة ببدنين لزم أن يكون معلوم أحدهما معلوماً للآخر وبالعكس ، وكذا باقي الصفات النفسانية ، وهو باطل بالضرورة .

(١) لاحظ الأسفار ، ج ٩ ، ص ١٠ ، وهذا البرهـان يختص المشائيين وقَبلَه صدر المتألهين أيضاً .

والشباب والشيخوخة والهرم . وهما معا يخرجان من القوة إلى الفعل ، ودرجات القوة والفعل في كل نفس معينة بإزاء درجات القوة والفعل في بدنها الخاص بها ما دامت متعلقة به . فإذا صارت بالفعل في نوع من الأنواع استحال صيرورتها تارة أخرى في حد القوة المحضة ، كما استحال صيرورة الحيوان بعد بلوغه تمام الخلقة ، نطفة وعلقة .

فلو تعلقت نفس منسلخة ببدن آخر عند كونه جنيناً أو غير ذلك ، يلزم كون أحدهما بالقوة والآخر بالفعل ، وذلك ممتنع . لأن التركيب بينهما طبيعي إتحادي ، والتركيب الطبيعي يستحيل بين أمرين ، أحدهما بالفعل والآخر بالقوة[1] .

نعم ، هذا البرهان إنما يتم لو تعلقت النفس ببدن أدون من حيث الدرجات الفعلية من النفس ، كما إذا تعلقت بالجنين على مراتبه وأما لو تعلقت ببدن له من الفعلية ما للنفس منها ، فالبرهان غير جارٍ فيه .

وهذا البرهان يغاير البرهان الذي ذكرناه ، عند إبطال التناسخ النزولي فإن محور البرهان هنا لزوم التناسق بين البدن والنفس من حيث القوة والفعل ، وهذا الشرط مفقود في أكثر موارد التناسخ ، كما إذا تعلقت بالجنين .

وأما ما ذكرناه في إبطال التناسخ النزولي فإن محوره هو لزوم الحركة الرجعية في عالم الكون ، ورجوع ما بالفعل إلى ما بالقوة ، فلا يختلط عليك الأمران .

* * * *

سؤالان وجوابان

قد فرغنا من أقسام التناسخ وأنواعه وما يمكن أن يستدل به على إبطالها . وبقى هنا سؤالان يجب طرحهما والإجابة عنهما :

---

(١) الأسفار ، ج٩ ، ص ٢ـ٣ .

السؤال الأول : التناسخ ووقوع المسخ في الأُمم السالفة

لـو كان تعلق النفس الإنسـانية ببـدن الحيوان بعـد مفارقـة البدن الإنسـاني تناسخاً ممتنعـاً ، فكيف وقع المسـخ في الأُمم السالفـة ، حيث مسخوا إلى القـردة والخنازير كما يقول سبحـانه : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾[1] .

ويقـول سبحـانـه : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾[2] .

فإن صريح هذه الآيات تَحَوُّلُ جماعـة من البشر إلى قردة وخنـازير ، وهـو لا ينفك عن تعلق نفوسهم البشريـة بأبـدان الحيوانـات . فما هـو الفرق بينـه والقول بالتناسخ ؟ .

الجواب : إنّ مقوم التناسخ أمران :

١ ـ تعدد البدن ، فإن في التناسخ بدنين : أحدهما البدن الـذي تنسلخ عنه الروح ، والثاني : البدن الذي تتعلق به ثانياً بعد المفارقة سواء كان نباتـاً أو حيـواناً أو جنيناً .

٢ ـ تراجع النفس الإنسانية من كمالها إلى الحد الذي يناسب بدنها المتعلقة به من نبات أو حيوان أو جنين أو إنسان .

وكلا الشرطين مفقود في المقام ، فـإن الأُمة الملعـونة والمغضـوبة مسخت إلى القردة والخنازير بنفس أبدانها الأولية ، فخرجت عن الصورة الإنسانية إلى الصورة القردية والخنزيرية من دون أن يكون هناك بدنـان . كما أن نفـوسها السـابقة بقيت

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٠ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٦٦ . والاستدلال مبني على أن المراد من النكالة هو العقوبة كما أن المراد من الموصول في « لما بين يديها وما خلفها » ، الذنوب المتقدمة عـلى الإصطيـاد والمتأخـرة عنه . فتكـون اللام في قوله : « لما » ، سببيّة . (لاحظ مجمع البيان ، ج ١ ، ص ١٣٠) .

على الحد الذي كانت عليه ، وذلك لتنظر إلى الصورة الجديدة التي عرضت عليها ، فتعاقب وتنزجر . وإلا ، لو انقلبت نفوسها من الحد الذي كانت عليه إلى حد النفس الحيوانية ، فلا شك أنّها ستكون قردة بالحقيقة ، وعندئذ لا يترتب عليه عقاب ولا يصدق عليه النكال ، مع أنه سبحانه يصفه نكالاً ، ويقول : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

وهذان الأمران يفصلان المسخ في الأمم السالفة عن القول بالتناسخ .

وبالجملة : فقد تجلت الروحيات الخبيثة التي كانت عليها تلك الأمة ، على ظواهر أبدانها ، فلبست لباس الخنازير والقردة المعروفة بالحرص الشديد ، ومثل هذا ـ مع وحدة البدن وعدم نزول النفس عن درجتها السابقة ـ لا يعدّ تناسخاً .

قال التفتازاني : « إن المتنازع هو أن النفوس بعد مفارقتها الأبدان ، تتعلق في الدنيا بأبدان أخر للتدبير والتصرف والإكتساب ، لا أن تتبدل صور الأبدان ، كما في المسخ . أو أن تجتمع أجزاؤها الأصلية بعد التفرق ، فترد إليها النفوس ، كما في المعاد على الإطلاق ، وكما في إحياء عيسى بعد الأشخاص »[2] .

وقال العلامة المجلسي : « إن امتياز نوع الإنسان ، إذا كان بهذا الهيكل المخصوص ، فلا يكون إنساناً بل قرداً . وإن كان امتيازه بالروح المجردة ، كانت الإنسانية باقية غير ذاهبة ، وكان إنساناً في صورة حيوان ، ولم يخرج من نوع الإنسان ولم يدخل في نوع آخر »[3] .

يقول العلامة الطباطبائي : لو فرضنا إنساناً تغيّرت صورته إلى صورة نوع آخر من أنواع الحيوان كالقرد والخنزير ، فإنما هي صورة على صورة ، فهو إنسانٌ خنزيرٌ ، أو إنسان قِردٌ ، لا إنسانٌ بطلت إنسانيته وحلّت الصورة الخنزيرية أو القردية محلها ، فالإنسان إذا اكتسب صورةً من صور الملكات ، تصورت نفسه

---

(1) سورة البقرة : الآية ٦٦ .

(2) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(3) البحار ، ج ٥٨ ، طبعة بيروت ، ص ١١٣ .

بها ، ولا دليل على استحالة خروجها في هذه الدنيا من الكمون إلى البروز على حد ما ستظهر في الآخرة بعد الموت .

فالممسوخ من الإنسان ، إنسانٌ ممسوخ ، لا أنّه ممسوخٌ فاقد للإنسانية .

وبذلك يظهر الفرق بين المقام والتناسخ ، فإن التناسخ هو تعلق النفس المستكملة بنوع كمالها بعد مفارقتها البدن ، ببدن آخر ، بخلاف المقام[1] .

السؤال الثاني : التناسخ والرجعة

ما هو الفرق بين التناسخ الباطل بالأدلة السابقة ، والقول بالرجعة على ما عليه الإمامية ، فإن رجوع بعض النفوس بعد مفارقتها أبدانها ، إليها في هذه النشأة ، أشبه بالتناسخ .

والجواب : قد عرفت عند البحث عن المسخ ، أن مجوز التناسخ أمران : تعدد البدن وتراجع النفس عن الحد الذي كانت عليه ، وكلاهما مفقودان في الرجعة ، فإن النفس ترجع إلى البدن الذي فارقته من دون أن تمس كمال النفس ، وتحطها من مقامها ، بل هي على ما هي عليه من الكمال عند المفارقة ، فتتعلق أخرى بالبدن الذي فارقته .

ومن هنا يظهر أن القول بالحشر في النشأة الأُخرى ، على طرف النقيض من التناسخ .

خاتمة المطاف

إن الذكر الحكيم ينصّ على عدم رجوع نفس الإنسان إلى هذه الدنيا بعد مفارقتها البدن (خرج ما خرج بالدليل كما في إحياء الأموات بيد الأنبياء العظام وغيره) يقول سبحانه : ﴿ **حتّىٰ إذا جاءَ أَحَدَهُمُ الموتُ قال ربِّ ارجعونِ * لعلّي أعْمَلُ صالحاً فيما تَرَكْتُ ، كلّا إنّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها ، ومِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوْم**

(١) الميزان ، ج ١ ، ص ٢١٠ بتلخيص .

يُبْعَثُونَ ﴾[1] .

إن قوله سبحانه :﴿ كلاّ ﴾، رَدْعٌ لطلب الرجوع إلى الدنيا ، فيفيد أنه على خلاف السنة الإلهية ، ومع ذلك فهو كسائر السنن التي ربما يخرج عنها بدليل .

وبذلك تعرف قيمة كلمة أحمد أمين المصري ذلك الكاتب المستهتر حيث يقول : « وتَحْتَ التشيُّع ظَهَرَ القوْلُ بتناسخ الأرواح »[2] . والمسكين لا يفرق بين المَسْخ والتناسخ ، كما لا يفرق بين التناسخ والرجعة ، بل بين التناسخ والمعاد .

* * *

(١) سورة المؤمنون : الآيتان ٩٩و١٠٠ .

(٢) فجر الإسلام ، ص ٢٧٧ وقد افترى على الشيعة في كتابه هـذا ما افـترى ، وندم عليـه في أخريـات عمره حيث لا ينفع الندم .

مباحث المعاد

(١٣)

الإيمان وأحكامه

الإيمان ، من الأمن ، وله في اللغة معنيان متقاربان ، أحدهما : الأمانة ، التي هي ضِدّ الخيانة ، ومعناها سكون القلب . والآخر : التصديق ، والمعنيان متدانيان[١] .

والمراد هنا هو المعنى الثاني ، فيقال : آمن به ، إذا أذعن به وسكنت نفسه واطمأنّت بقوله ، وهو تارة يتعدى بالباء كما في قوله تعالى : ﴿ آمَنّا بما أنْزَلْتَ ﴾[٢] وأخرى باللام ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أنْتَ بِمُؤْمِنٍ لنا ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ فآمَنَ لَهُ لُوط ﴾[٤] .

وهذه الآيات تدل على أنّ الإيمان هو التصديق القلبي ، ويؤكّده قوله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ في قُلوبِهِم الإيمان ﴾[٥]، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَمّا يَدْخُل الإيمان في قُلوبِكُمْ ﴾[٦] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَقَلْبُهُ مُطمَئِنٌّ بالإيمانِ ﴾[٧] .

---

(١) مقاييس اللغة ، ج ١ ، ص ١٣٣ . ولو جعل سكون القلب تفسيراً للمعنى الثاني أي التصديق لكان أحسن .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٥٣ .

(٣) سورة يوسف : الآية ١٧ .

(٤) سورة العنكبوت : الآية ٢٦ .

(٥) سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

(٦) سورة الحجرات : الآية ١٤ .

(٧) سورة النحل الآية ١٠٦ .

وتؤكّده آيات الطبع والختم ، فإنه تعرب عن كون محل الإيمان هـو القلب ، كما يقول سبحانه : ﴿ أُولئِكَ الَّذينَ طَبَـعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وَسَمعِهِمْ وأَبْصَـارِهِمْ ، وأُولَئِكَ هُمُ الغافِلونَ ﴾[1] ويقـول سبحانـه : ﴿ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِـهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَـلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرونَ ﴾[2] . والختم على السمـع والبصر لأجل كونهما من أدوات المعرفة التي يستخدمها القلب . والمآل هو القلب .

فالإمعان في هذه الآيات يثبت أنّ الإيمان هو التصديق القلبي ، وأما أنّ هذا المقدار من الإيمان يكفي في نجـاة الإنسان أو لا ، فهـو بحث آخر ، إذ من الممكن أن يكون للإيمان في مجال النجاة شروط أُخر .

*** سـؤال :**

لو كان الإذعان القلبي كافياً في صدق الإيمان ، فلماذا يندد سبحـانه بجـماعة من الكفار بأنّهم جحدوا الحقيقة بألسنتهم وإن استيقنوهـا بقلوبهم ، مع أنّهم عـلى التعريف الذي ذكـرناه ، مؤمنـين . يقول سبحـانه : ﴿ وَجَحَـدُوا بِها وَآسْتَيْقَنَتْهَـا أَنْفُسُهُمْ ظُلماً وَعُلُوّاً ، فانْظُرْ كيفَ كَانَ عاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ﴾[3] . ويقول سبحـانه : ﴿ فَلَمّا جـاءَهم ما عَـرَفُوا كَفَـروا به ﴾[4] . ويقـول سبحانـه : ﴿ الَّذينَ آتَيْنَـاهُمُ الكِتَـابَ يَعْرِفُـونَـهُ كـما يَعْـرِفُـونَ أَبْنـاءَهُمْ وإِنَّ فَـريقـاً منهم لَيَكْتُمـونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُـونَ ﴾[5] . فهذه الآيـات تدلّ عـلى عدم كفـاية التصـديق القلبي في صـدق الإيمان .

جوابه :

إن الإيمـان هو التصـديق ، وأما التنـديـد ، فـلأنّ ظـاهـرهم كـان مخـالفـاً لباطنهم ، فكانوا يتظاهرون بالنفاق ، ولولا التظاهر بالخلاف ، بأن لا يجحدوا بعد

(١) سورة النحل : الآية ١٠٨ .

(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٣ .

(٣) سورة النمل : الآية ١٤ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٨٩ .

(٥) سورة البقرة : الآية ١٤٦ .

الإستيقان ، ولا يكفروا باللسان ما عرفوه قبلاً ، لكانوا مؤمنين حقاً .

نعم ، لا يمكن الحكم بـإيمـانهم في مجـال الإثبـات إلا إذا دلّ الـدليـل عـلى إذعانهم قلباً ، وهذا خارج عن موضوع البحث .

*** سـؤال :**

ما هو الأثر المترتب على التصديق القلبي ؟ .

جوابه :

الإيمان بهذا المعنى، موضوع للأثر في الدنيا والآخر . أما في الدنيا ، فحرمة دمه وعرضه وماله ، إلا أن يرتكب قتلاً أو يأتي بفاحشة .

وأما في الآخرة ، فصحة أعماله ، واستحقاق الثـواب عليها ، وعـدم الخلود في النار ، واستحقاق العفو والشفاعة في بعض المراحل .

*** سـؤال :**

إنّ التصـديق اللساني ، أيضـاً له أثـره الدنيـوي من حرمـة الدم والعـرض والمال .

جوابه :

إن التصديق اللساني بما أنّه كاشف عن التصديق القلبي ، يترتب عليه ذلك الأثر ، فالأثر للمكشوف عنه لا للكاشف ، وإلا فلو تبين نفاقـه ، وأنّه يتـظاهر بمـا ليس في القلب ، فلا حرمة لدمه وماله وعرضه في الواقع .

نعم ، يجب علينا مجازاته حسب إقراره واعترافه إلا إذا كشف بقوله وإقـراره عن سريرته ، هذا .

وإن السعـادة الأُخرويـة رهن العمل ، لا يشـك فيه من لـه إلمام بـالشريعة

والآيات والروايات الواردة حول العمل ، والتصديق القلبي إذا لم يقترن بالعمل ، لا ينجو الإنسان من عذاب الآخرة .

* * *

هذا هو الحق في الايمان ، وها هنا أقوال أُخر ، نشير إليها :

الأول : إن الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان معاً ، ولا يكفي التصديق القلبي وحده ، وهذا القول للمحقق الطوسي مستدلاً بما مضى من قوله سبحانه : ﴿ **وَجَحَدوا بها واسْتَيْقَنَتْها أنْفُسُهم** ﴾[1] .

يلاحظ عليه : إنّ التنديد بهم سببه نفاقهم ، وعدم مطابقة لسانهم لما في قلوبهم . فلوكانوا مستيقنين غير منكرين بألسنتهم لكانوا مستحقين للثناء .

الثاني : إنّ الإيمان هو الإقرار باللسان . واستدل القائل به بأنّ من أعلن بلسانه شهادة الإسلام فهو مسلم محكوم له بحكم الإسلام .

أضف إليه قول رسول الله صلى الله عليه وآله في السوداء : « اعتقها فإنها مؤمنة »[2] .

يلاحظ عليه : إنّ الحكم لهم بالإسلام أو بالإيمان إنما هو بحسب الظاهر ، وليس هو حكماً بحسب الواقع ، ففي هذا المقام يجعل الإعتراف اللساني طريقاً إلى التصديق الجنائي ، ولو علم خلافه ، لحكم بالنفاق . قال سبحانه : ﴿ **وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا باللهِ وباليَومِ الآخِرِ ومَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾[3] .

فإنّ الرسول وأصحابه كانوا مكلفين بالحكم حسب المعايير الظاهرية التي تكشف عادة عن الإيمان القلبي ، قال رسول الله : أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله ، ويؤمنوا بما أُرسِلْت به ، فإذا فعلوا ذلك ، عَصَمُوا مني

---

(١) كشف المراد ، ص ٢٧٠ ، ط صيدا .

(٢) الفِصَل ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٨ .

دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها ، وحسابهم على الله »[1] .

وبذلك يظهر وجه حكمه صلى الله عليه وآله في السوداء بأنها مؤمنة . روى ابن حزم عن خالد بن الوليد أنّه قال : رُبَّ رجل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، فقال صلى الله عليه وآله : « إنّي لم أُبْعَثْ لأشُقّ عن قلوب الناس »[2] .

وكيف يكتفي القائل بالتصديق اللساني ، مع أنّ صريح الكتاب على خلافه ، قال سبحانه : ﴿ **قالَتِ الأعْرابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولَكِنْ قُولوا أسْلَمْنا وَلَمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِكُمْ** ﴾[3] والأعراب صدّقوا بألسنتهم ، وأنكروا بقلوبهم ، فرد الله عليهم بأنكم لستم مؤمنين لأنّكم مصدّقون بألسنتكم لا بقلوبكم .

الثالث : إنّ الإيمان هو التصديق بالقلب واللسان مع العمل ، فالعمل عنصر حقيقي مقوِّم للإيمان ، والفاقد له ليس بمؤمن بتاتاً والقائلون بهذا هم الخوارج والمعتزلة[4] ، غير أنّ بينهما فرقاً في المقام .

فالخوارج يَرَوْن العمل مقوِّماً للإيمان ، فالمقرُّ قلباً ولساناً إذا فقد العمل ، إرتكب الكبيرة ، فقد صار كافراً ، ولأجل ذلك يُكفِّرون مرتكب الكبيرة ، ويحكمون عليه بالخلود في النار ، إذا لم يتب .

والمعتزلة ، مع أنهم يرون العمل مقوِّماً للإيمان ، غير أنّهم لا يُكَفِّرون تارك العمل ، ومرتكب الكبيرة ، بل يجعلونه في منزلة بين الإيمان والكفر ، والمكلف عندهم على ثلاثة حالات :

إيمان ، إذا قام بالتصديقين ، وعمل بالوظائف .

وكُفْر ، إذا فقد التصديق القلبي ، أو هو واللساني .

ومنزلة بين المنزلتين ، إذا قام بالتصديقين ، ولكن فقد العمل .

---

(١) الفِصَلْ ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) سورة الحجرات : الآية ١٤ .

(٤) شرح الأصول الخمسة ، ص ١٣٩ .

والكلام مع هؤلاء في مقامين :

١ ـ نقد هذا المذهب عن طريق الكتاب والسنة .

٢ ـ تحليل ما تمسكوا به في إثبات عقيدتهم .

أما الأول ، فالآيات الدالة على أنّ العمل ليس عنصراً مقوّماً للإيمان (وإن كان مؤثراً في النجاة) كثيرة نشير إلى بعضها :

قوله تعالى : ﴿ **إنّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات** ﴾ ، فالعطف يقتضي المغايرة ، ولو كان العمل داخلاً في الإيمان للزم التكرار . واحتمال كون المقام من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، يحتاج إلى نكتة ومسوغ له .

قوله تعالى : ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وهو مُؤْمِنٌ**﴾[1] فالجملة حالية ، المقصود منها : « من عمل حال كونه مؤمناً » ، وهذا يقتضي المغايرة .

قوله تعالى : ﴿ **وَإنْ طائِفَتَانِ مِنَ المؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ، فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما ، فإنْ بَغَتْ إحداهما على الأُخرى ، فقاتِلوا الَّتي تَبْغي حتّىٰ تَفِيء إلى أمْرِ الله** ﴾[2] .

فأطلق المؤمن على الطائفة العاصية ، وقال ما هذا معناه : فإن بغت إحدى الطائفتين من المؤمنين على الطائفة الأُخرى منهم » .

نعم ، يحتمل أن يكون إطلاق المؤمن عليهم باعتبار حال التلبس ، أي باعتبار كونهم مؤمنين قبل القتال ، لا بلحاظ حال صدور الحكم .

قوله تعالى : ﴿ **يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا اتَّقوا الله وكونوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾[3] .

فأمر الموصوفين بالإيمان ، بتقوى الله ، وهو الإتيان بالطاعات والاجتناب عن المحرمات ، فدلّ على أنّ الإيمان يجتمع مع عدم التقوى ، وإلا كان الأمر به لغواً وتحصيلاً للحاصل .

---

(١) سورة طه : الآية ١١٢ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ٩ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١١٩ .

واحتمال أنّ الآية أمرٌ على الإستدامة ، خلاف الظاهر .

. .

هذا حسب الآيات ، وأمّا السنة فهناك روايات تدل على أنّ الإقرار المقترن بالعرفان ، إيمان . منها ما رواه الصدوق بسند صحيح عن جعفر الكناسي قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : ما أدنى ما يكون به العبد مؤمناً ، قال : يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، ويقرّ بالطاعة ، ويعرف إمام زمانه ، فإذا فعل ذلك فهو مؤمن »[1] .

وأما الثاني : وهو تحليل ما استدلوا به على أنّ العمل عنصر مقوم للإيمان بحيث لولاه فهو إما كافر أو في منزلة بين المنزلتين . فقد استدلوا بآيات :

١ ـ قوله سبحانه : ﴿ **هُوَ الَّذي أَنْزَلَ السَّكينةَ في قلوب المؤْمنين ليزدادُوا إيماناً مع إيمانِهِمْ** ﴾[2] ، فلو كان الإيمان هو التصديق ، لما قبل الزيادة والنقيصة ، لأن التصديق أمره دائر بين الوجود والعدم ، وهذا بخلاف ما لو كان العمل جزءً من الإيمان ، فإنه عندئذٍ يزيد وينقص حسب زيادة العمل ونقيصته ، والزيادة لا تكون إلا في كمية عدد لا فيما سواها ، ولا عدد في الاعتقاد[3] .

يلاحظ عليه ، إنّ الإيمان ـ بمعنى الإذعان ـ أمرٌ مقول بالتشكيك ، ولليقين مراتب بشهادة أنّ يقين الإنسان بأنّ الإثنين نصف الأربعة ، يفارق يقينه في الشدة والظهور بأنّ نور القمر مستفاد من الشمس ، كما أنّ يقينه الثاني يفارق يقينه بأن كل ممكن فهو زوج تركيبي من ماهية ووجود ، وهكذا يتنزل اليقين من القوة إلى الضعف إلى أن يصل إلى أضعف المراتب التي لو تجاوز عنها لزال وصف اليقين وانقلب إلى الظن أو الشك . فمن ادعى بأنّ أمر الإيمان ـ بمعنى التصديق والإذعان ـ دائر بين الوجود والعدم ، فقد غفل عن حقيقته ومراتبه ، فهل يصح لنا أن ندعي أنّ إيمان الأنبياء ، كإيمان سائر الناس ، كلا ، لأنّ الأنبياء معصومون ، وعصمتهم ناشئة من يقينهم بآثار المعاصي ، الذي يصدهم عن

---

(١) البحار ، ج ٦٦ ، ص ١٦ ، نقلاً عن معاني الأخبار للصدوق .

(٢) سورة الفتح : الآية ٤ .

(٣) الفصل ، لابن حزم الظاهري ، ج ٣ ، ص ١٩٤ .

اقترافها ، فلو كان إذعانهم كإذعان سائر الناس ، لما امتازوا عنهم بالعصمة عن المعصية .

وما ذكروه من أنّ الزيادة تستعمل في الكمية العددية ، فهو منقوض بآيات كثيرة استعملت فيها الزيادة في غيرها ، قال سبحانه : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ ، وَيَزِيدُهُم خُشوعاً ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنا في هذا القُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إلاّ نُفوراً ﴾[2] والمراد شدة خشوعهم ، وشدة نفورهم ، لا كثرة عددهما . وغير ذلك من الآيات التي استعمل فيها ذلك اللفظ فيما يرجع إلى الكيفية لا الكمية .

٢ ـ قوله سبحانه : ﴿ وَما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُمْ ﴾[3] . والمراد من الإيمان ، صلاتهم إلى بيت المَقْدس قبل أن يُنسخ بالأمر باستقبال الكعبة[4] .

يلاحظ عليه : إنّه لو أخذ بظاهر الآية ، فيجب أن يكون الإيمان نفس العمل ، وهو مجمع على خلافه .

أضف إلى ذلك أنّه استعمل الإيمان وأريد منه العمل في المقام ، والاستعمال أعم من الحقيقة ، ولا شك أنّ العمل أثر الإيمان ورد فعل له ، فمن الشائع إطلاق السبب وإرادة المسبب .

٣ ـ قوله سبحانه : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنونَ حتىّٰ يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثم لا يَجِدوا في أنْفُسِهِم حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّموا تَسْليماً ﴾[5] .

أقسم سبحانه بنفسه أنّهم لا يُؤْمنون إلا بتحكيم النبي والتسليم بحكمه ، وعدم وجدان الحرج في قضائه . والتحكيم غير التصديق ، بل هو عمل خارجي[6] .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٠٩ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٤١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

(٤) البحار ، ج ٦٦ ، ص ١٨ .

(٥) سورة النساء : الآية ٦٥ .

(٦) الفصل ، ج ٣ ، ص ١٩٥ .

يلاحظ عليه : إنّ الآية وردت في شأن المنافقين ، فإنهم كانوا يتركون النبي ويرجعون في دعاويهم إلى الأحبار ، وهم مع ذلك يدّعون الإيمان والإذعان والتسليم للنبي . فنزلت الآية بأنه لا يقبل منهم ذلك الإدعاء حتى يرى أثر الإيمان في حياتهم ، وهو تحكيم النبي في المرافعات ، والتسليم العملي أمام قضائه ، وعدم إحساسهم بالحرج ، وهذا هو الظاهر من الآية ، لا أنّ التحكيم بما أنّه عمل ، جزء من الإيمان . وهذا نظير ما إذا ادّعى إنسان حبّاً لرجل فيقال له : إنْ كنت صادقاً فيجب أنْ يُرى أثر الحب في حياتك ، فاعمل له كذا وكذا .

٤ ـ قوله سبحانه : ﴿ وللهِ علَى النَّاس حِجُّ البَيْتِ مَنِ آسْتَطَاعَ إلَيْـه سبيلا ومن كَفَرَ فَإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عن العالَمِينَ ﴾[١] . فسمى سبحانه تارك الحج كافراً[٢] .

يلاحظ عليه : إنّ المراد كفران النعمة ، حيث إن ترك فريضة الحج مع الإستطاعة ، كفران لنعمته سبحانه ، وقد استعمل الكفر في مقابل شكر النعم ، قال سبحانه : ﴿ وإذْ تَأذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ ﴾[٣] .

كما ربما يكون المراد من الكفر جَحْدَ وجوب الحج .

وغير ذلك مما استدلوا به من الآيات . وأنْتَ إذا احطت بما ذكرنا ، تقدر على الإجابة عن استدلالهم بها[٤] .

نعم ، هناك روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تعرب عن كون العمل جزءً من الإيمان ، نظير قول الصادق عليه السلام : « ملعونٌ ، ملعونٌ مَنْ

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٩٧ .

(٢) البحار ، ج ٦٦ ، ص ١٩ .

(٣) سورة إبراهيم : الآية ٧ .

(٤) مثل قوله سبحانه : ﴿ وما أُمروا إلّا لِيَعبُدوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيموا الصَّلاةَ وَيُؤْتوا الزَّكاةَ وَذَلِكَ دينُ القَيِّمَةِ ﴾ (البينة : ٥) . مستدلين بأنّ المشار إليه بلفظة « ذلك » ، جميع ما ورد بعد الأمر ، من عبادة الله سبحانه بالإخلاص وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، استدل به ابن حزم في الفِصَل ، ج ٣ ، ص ١٩٤ . وقد أجاب عنه الأستاذ دام ظله في الجزء الثالث من بحوثه في الملل والنحل ، فلاحظ .

قال : الإيمان قول بلا عمل »[1] . والظاهر أنّ هذه الروايات وردت لرد المرجئة التي تكتفي في الحياة الدينية بالقول والمعرفة ، وتؤخر العمل ، وترجو رحمته وغفرانه ، مع عدم القيام بالوظائف . وقد تضافرت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام لعن المرجئة[2] .

سؤال :

لو كان الإيمان هو التصديق ، فهل هو يزيد وينقص .

الجواب :

قد علم هذا مما ذكرنا من كون الإيمان ذا مراتب ، وأن نفس الإذعان ، له درجات . وليس القول بزيادة الإيمان ونقصانه مختصاً بمن جعل العمل عنصراً مقوّماً للإيمان ، بل هو يتحقق أيضاً عند من يقول بأنّ الإيمان هو التصديق القلبي ، وليس العمل جزء منه .

إلى هنا تبيّنت حقيقة الأقوال الأربعة في بيان حقيقة الإيمان ، وقد عرفت أنّ الصواب هو الأوّل منها ، وهو التصديق القلبي[3] .

* * *

(١) البحار ، ج ٦٦ ، باب أنّ الإيمان مبثوث على الجوارح ، الحديث ١ ، ص ١٩ ، ولاحظ سائر الروايات في هذا الكتاب .

(٢) لاحظ الوافي ، للفيض الكاشاني ، ج ٣ ، أبواب الكفر ، والشرك ، باب أصناف الناس ، ص ٤٦ .

(٣) بقي هنا قول المرجئة ، وهو لا يفترق كثيراً عن القول الثالث من الإكتفاء بالتصديق اللساني ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الجزء الثالث من أبحاث الشيخ الأستاذ حفظه الله في الملل والنحل .

مباحث المعاد

(١٤)

التوبة وشرائطها

إن التوبة من المكفِّرات التي نص الكتاب والحديث على تكفير الذنوب بها ، تحت شرائط خاصة ، وإشباع الكلام فيها يتم بالبحث في أُمور :

الأمر الأول ـ فلسفة التوبة

ربما يتوهّم أنّ في تشريع التوبة والدعوة إليها إغراءً بالمعصية وتحريضاً على ترك الطاعة ، بدعوى أنّ الإنسان إذا أيْقَنَ أنّه سبحانه يقبل توبته رغم اقترافه المعاصي ، تزيد جرأته على هتك الحرمات ، والإنهماك في الذنوب ، فيدقّ باب كل قبيح ، معتمداً على التوبة .

ولكنه توهم ساقط من أصله ، فإنه لو كان باب التوبة موصداً في وجه العصاة ، واعتقد المجرم بأنّ العصيان مَرّة واحدة ، يُدخله في عذاب الله ، فلا شكّ أنّه سيتمادى في اقتراف السيئات وارتكاب الذنوب ، معتقداً بأنه لو غيّر حاله إلى الأحسن ، لما كان له تأثير في تغيير مصيره ، فلأي وجه يترك لذات المحرمات في ما يأتي من أيام عمره . وهذا بخلاف ما لو اعتقد بأنّ الطريق مفتوح والنوافذ مشرعة ، وأنّه لو تاب توبة نصوحاً ينقذ من عذابه سبحانه ، فهذا يعطيه الأمل برحمة الله تعالى ويترك العصيان في مستقبل أيامه . وكم وكم من الشباب عادوا إلى الصلاح بعد الفساد في ظل الإعتقاد بالتوبة ، بحيث لولا ذلك الإعتقاد لأسهروا لياليهم في المعاصي ، بدل الطاعات .

ولأجل ذلك نرى في التشريعات الجنائية العـالمية قـوانين للعفـو عن السجناء المؤبّـدين ، إذا شوهـدت منهم الندامـة والتوبـة ، وتغيير السلوك ، فتشريـع هـذا القانون يكون موجباً لإصلاح السجناء ، لا تقوية روح الطغيان فيهم . فالإنسـان حيٌّ برجائه ، ولو ساد عليه اليـأس والقنوت من عفـوه ورحمته سبحـانه ، لـزاد في طغيانه في عامة أدوار عمره .

الأمر الثاني ـ حقيقة التوبة

إنّ التوبة كـما يستفاد من الآيـات والروايـات حالـة نفسانيـة مؤثّر في النفس فتصلحها وتعدها للصلاح الذي فيه سعادة الدنيـا والآخرة . ومن المعلوم أنّ هـذه الغاية لا تحصل إلا بتحقق أمرين :

١ ـ الندم على ما مضى .

٢ ـ العزم على عدم العودة إليه إذا قدر .

فلو انتفى الأمران أو أحدهما لما حصلت تلك الحالة المؤثـرة في صلاح النفس وإعدادها لكمالات أخرى ، فيلزم في التوبة وجود هذين الأمـرين ، سواء أقلنـا:إنّ التوبة مركبة منهما وأنّ كل واحد منهما جزء لهـا ، كـما نقل عن أبي هـاشم الجبائي ، أو قلنا:إنّ التوبة أمر بسيط هـو الندم عـلى ما مضى ، وأمـا العزم فهـو من شروطها ولوازمها ، كما عليه الشيخ المفيد[1] ، فإن هذا نزاع لفظي لا ثمرة له إلا في مـوارد نادرة ، كما إذا ندم على ما سلف من القبيح ومنع من العزم ، فعـلى القول الأوّل لم تتحقق التوبة دون الثاني .

وهنـاك كلام لـلإمام أمـير المؤمنين حـول التوبـة ، وقد سمـع من بحضرتـه يقول : أستغفر الله ، فقال : أتدري مـا الإستغفار ؟ الإستغفـار درجة العلّيّـين ، وهو إسم واقع على ستة معان :

أوّلها : الندم على ما مضى .

---

(١) أوائل المقالات ، ص ٦١ .

والثاني : العزم على ترك العود إليه أبداً .

والثـالث : أن تؤدّي إلى المخلوقين حقـوقهم حتى تلقى الله أملس ليست عليك تبعة .

والرابع : أن تعمد إلى كل فريضة ضيّعتها فتُؤدّي حقها .

والخامس : أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت[1] فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد .

والسادس : أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية .

فعند ذلك تقول : « أستغفر الله »[2] .

وبالجملة : إنّ التوبة لغاية إزالة السيئات النفسانية التي تجر إلى الإنسان كل شقاء في حياته الأُولى والأُخرى ، و تمنعه من الاستقرار على أريكة السعادة . وهذه الغاية لا تحصل إلا بحصول أمرين : الندم والعزم .

وأما باقي الأمور الأربعة الواردة في كلام الإمام عليه السلام ، فسيوافيك الكلام فيها .

الأمر الثالث ـ وجوب التوبة

اتفقت العدلية على وجوب التوبة واستدلوا على ذلك بأمرين :

أ ـ إنها دافعة للضرر الذي هو العقاب ، ودفع الضرر الأُخروي واجب عقلاً .

ب ـ إن العزم على ارتكاب القبائح وترك الفرائض قبيح عقلاً فيجب اجتنابه ، وهو لا يحصل إلا بالتوبة .

---

(١) السحت : المال من كسبٍ حرام .

(٢) نهج البلاغة : قسم الحكم ، الرقم ٤١٧ ، وسنرجع إلى هذا الحديث عند استعراض أحكام التوبة ، وإنما أوردناه هنا جملة واحدة ليسهل الرجوع إليه .

والدليل الثاني لا يفيد إلّا وجوب العزم وهو أحد جزئي التوبة أو شرْطها .

وكيف كان ، فكل من قال بالحسن والقبح العقليين ، لا مناص له عن القول بوجوب التوبة وجوباً عقلياً ، وما جاء من طريق السمع يكون مرشداً إلى هذا الحكم العقلي .

وأما المنكرون لهما ، فيذهبون إلى وجوبها شرعاً ، قال سبحانه : ﴿ **يا أيُّها الذين آمنوا توبوا إلى الله تَوْبَةً نصوحاً** ﴾[1] .

الأمر الرابع ـ هل تجب التوبة من الصغائر ؟

إنّ ارتكاب أي معصية ، صغيرة كانت أو كبيرة ، جرأة على الله وخروج عن رسم العبودية وزيّ الرّقيّة ، وهي تترك أثراً سيئاً في النفس بلا ريب ، فيجب التوبة منها لإزالة أثرها من النفس . وإليه ذهب أبو علي الجبائي ، من المعتزلة ، ولكن الظاهر من ابنه أبي هاشم ، عدم وجوب التوبة من الصغائر إلّا سمعاً ، واختاره القاضي عبد الجبار ، قائلاً بأنّ التوبة إنّما تجب لدفع الضرر عن النفس ، ولا ضرر في المعصية ، فلا تجب التوبة منها ، غاية الأمر أنّ للصغيرة تأثير في تقليل الثواب ، ولا ضرر في ذلك[2] .

يلاحظ عليه : إنّ ما ذكر مبني على أمرين غير ثابتين :

أ ـ أنَّ المعاصي بالذات تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وأنّ صِغَر المعاصي وكبرها ليس من الأمور الإضافية النسبية ، بل هناك صنفان من المعاصي لا يتداخل أحدهما في الآخر .

ب ـ أنّ المعاصي الصغيرة لا يعاقب عليها ما لم يكن عليها إصرار .

وكل ذلك مورد تأمّل وتردد .

---

(١) سورة التحريم : الآية ٨ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٨٩ .

أضف إلى ذلك : أنّ وجه تشريع التوبة ليس منحصراً بالإجتناب عن العذاب حتى يقال:إنّه لا عقاب على الصغيرة ، بل قد عرفت أنّ الوجه فيها ـ مضافاً إلى الخلاص من العذاب ـ حسن الندم على كل قبيح أو إخلال بالواجب ، وقبح العزم على الإستدامة ، وهذا مشترك بين الصغيرة والكبيرة .

وبذلك يظهر الجواب عما ربما يقال من أنّ عقاب الصغيرة مكفّر باجتناب الكبيرة إذا لم يصر عليها ، لقوله سبحانه :

﴿ إنْ تَجْتَنِبوا كبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّر عنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ ﴾[1] .

وعندئذٍ ، لا يحتاج إلى التوبة منها ، لما عرفت من أنّ وجه التوبة لا ينحصر بالخلاص من العذاب .

الأمر الخامس ـ التوبة واجب فوري

يحكم العقل بوجوب التوبة فوراً ، لأنها اجتناب عن القبيح بقاءً ، وترك للعدوان استدامة ، ومثل ذلك لا يصح فيه التأخير والتراخي .

أضف إلى ذلك أنّ العقل يُحَرِّضُ على التوبة فَوْراً ففوراً ، لئلا يفوت أوانها ويكون ممّن لا تقبل توبته قال سبحانه :

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ للَّذينَ يَعمَلونَ السَّيِّئاتِ ، حتّىٰ إذا حَضرَ أحَدَهُمُ المَوْتُ قال إنّي تُبْتُ الآنَ ولا الَّذينَ يموتونَ وهم كُفّارٌ ، أُولَئِكَ أعْتَدْنا لَهُمْ عذاباً أليماً ﴾[2] .

وما ذكرناه هو خيرة المعتزلة أيضاً حيث قالوا بفورية الوجوب وأنّه يلزم بتأخيرها ساعة إثم آخر يجب التوبة منه أيضاً ، حتى أن من أخّر التوبة عن الكبيرة ساعة واحدة ، فقد فعل كبيرتين ، وساعتين أربع كبائر ، الأُوليان ، وترك التوبة

---

(١) سورة النساء : الآية ٣١ . وقد نقله العلامة المجلسي عن الشيخ البهائي ، لاحظ البحار ، ج ٦ ، ص ٤٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٨ .

عن كل منهما ، وثلاث ساعات ، ثمان وهكذا[1] .

ولكن لا دليل على هذا التفصيل .

الأمر السادس ـ أثر التوبة

إن أثَرَ التوبة هو إزالة السيئات النفسانية التي تجر إلى الإنسان كل شقاء في حياته الأولى والأخرى ، فيرجع التائب بعد ندمه وعزمه على الترك في المستقبل ، أبيض السريرة ، كيوم ولدته أمُّهُ ، وبالتالي يسقط عنه العقاب .

وأما الأحكام الشرعية المترتبة على الأعمال السابقة فتبقى على حالها ، إذ ليس للتوبة تأثير إلا في إصلاح النفس وإعدادها للسعادة الأخروية ، ولذلك يجب الخروج عن مظالم العباد أوّلاً ، وتدارك ما فات من الفرائض ثانياً ، فإنّ السيئة العارضة على النفس بسبب هضم حقوق الناس لا ترتفع إلا برضاهم ، لأنّه سبحانه احترم حقوقهم في أموالهم وأعراضهم ونفوسهم ، وعدّ التعدي على واحد منها ظلماً ، وعدواناً ، وحاشاه أنْ يسلبهم شيئاً مما جعله لهم من غير جرم صدر منهم وقد قال عز من قائل : ﴿ إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النّاسَ شَيْئاً ﴾[2] .

قال المفيد رحمه الله : «إنّ من شرط التوبة إلى الله سبحانه من مظالم العباد الخروج إلى المظلومين من حقوقهم بأدائها إليهم أو باستحلالهم منها على طيبة النفس بذلك ، والإختيار له ، فمن عدم منهم صاحب المظلمة وفقده خرج إلى أوليائه من ظلامته أوْ استحلهم منها »[3] .

ولأجل ذلك قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « والثالث : أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع : أن تعمد إلى كل فريضة ضيّعتها فتؤدّي حقها »[4] .

---

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٢) سورة يونس : الآية ٤٤ .

(٣) أوائل المقالات ، ص ٦٢ .

(٤) نهج البلاغة ، قسم الحِكَمْ ، الرقم ٤١٧ .

هـذا ، وإنّ المتبـادر من الآيـات والـروايـات أنّ التـوبـة بنفسهـا مسقـطة للعقـاب ، يقول سبحـانه : ﴿ كَتَبَ رَبُّكم عـلى نَفْسِهِ الـرَّحْمَةَ أنَّـهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سوءاًبِجَهالَةٍ ثُمّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وأصْلَحَ فَأنَّـهُ غفورٌ رحيمٌ ﴾[1] فـإنّ الظاهـر منه أنّ نفس التوبة تجرّ الغفران ، وغير ذلك من الآيات ، وهذا الأمر من المسائل القرآنيـة الواضحة .

وأما حقوق الله ، فيتبع هناك لسـان الدليـل الشـرعي ، فـربما تكـون التوبـة مسقطة للحدّ كما في قوله سبحانه :

﴿ إنَّمـا جزاءُ الَّـذينَ يُحارِبـونَ اللهَ ورسولَـهُ وَيَسْعَوْنَ في الأرْضِ فسـاداً أنْ يُقَتَّلوا أوْ يُصَلَّبُوا أوْ تُقَطَّعَ أيْـدِيهِمْ وأرْجُلُهُمْ من خِلافٍ أوْ يُنْفَـوْا من الأرْضِ ذلك لَهُمْ خِزْيٌ في الدُّنيـا وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَـذابٌ عَظِيمٌ * إلاّ الَّـذينَ تابُـوا مِنْ قَبْلِ أنْ تَقْدِروا عَلَيهِمْ فاعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[2] . فالإستثناء صريح في أنّ التوبـة تُسْقِط الحَدّ الوارد في الآية .

قـال المحقق الحلّي : « إنّ شـارب الخمر إذا تـاب قبل قيـام البينـة ، يَسقط الحد ، وإنْ تاب بعدها لم يسقط »[3] .

وقـال : « إذا تاب الـلائط قبل قيـام البيّنة سقط الحـدّ ، ولـو تـاب بعـده لم يسقط »[4] .

الأمر السابع ـ قبول التوبة واجب على الله أولاً ؟

لا شكّ أنّ التوبة تسقط العقاب ، وهو مما أجمع عليه أهـل الإسلام . وإنما الخلاف في أنّه هل يجب على الله قبولها بحيث لو عاقب بعـد التوبـة كان ظـالماً ، أو هو تفضل منه سبحانه ، وكرم ورحمة منه بعباده ؟

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٥٤ .

(٢) سورة المائدة : الآيتان ٣٣و٣٤ .

(٣) شرائع الإسلام ، كتاب الحدود ، الباب الرابع في حدّ المسكر .

(٤) المصدر السابق ، الباب الثاني ، في أحكام اللواط .

فالمعتزلة على الأوّل ، والأشاعرة والإمامية على الثاني .

استدل المعتزلة بوجهين :

١ ـ إنّ العاصي قد بذل وسعه في التلافي ، فيسقط عقابه ، كمن بالغ في الإعتذار إلى من أساء إليه ، فإنه يسقط ذمه بالضرورة(١) .

وبعبارة أُخرى : إن من أساء إلى غيره واعتذر إليه بأنواع الإعتذارات ، وعرف منه الإقلاع عن تلك الإساءة بالكلية فالعقلاء يذمون المظلوم ، إذا ذمّه بعد ذلك(٢) .

٢ ـ لو لم يجب إسقاط العقاب لم يحسن تكليف العاصي ، والتالي باطل إجماعاً ، فالمقدَّم مثله .

بيان الشرطية : إن التكليف إنما يحسن للتعريض للنفع . وبوجوب العقاب قطعاً لا يحصل الثواب ، وبغير التوبة لا يسقط العقاب ، فلا يبقى للعاصي طريق إلى إسقاط العقاب عنه ، ويستحيل اجتماع الثواب والعقاب فيكون التكليف قبيحاً(٣) .

يلاحظ على الأول ، بأنه لا يجب في منطق العقل قبول المعذرة ، بل المظلوم في خيرة بين القبول والصفح ، وليس رفض المعذرة مخالفاً للحكمة والعدل حتى يجب على الله سبحانه .

وأما الثاني ، فيلاحظ عليه أنّه مبنيٌّ على الأصل الذي اختاره المعتزلة من أنّ مرتكب الكبيرة مخلَّدٌ في النار ، وهو لا يجتمع مع الثواب المترتب على التكليف ، فاستدلوا بأنّه لو لم تقبل توبته لوجب أن يخلد في النار (ولو بمعصية واحدة) وهو لا يجتمع مع الثواب ، فيلزم سقوط تكليف العاصي . ولكنّ الأصل مردود لما قلنا من

---

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٢) كشف المراد ، ص ٢٦٨ . ولاحظ شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٩٨ .

(٣) كشف المراد ، ص ٢٦٨ ط صيدا . ولاحظ شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

أنّ المؤمن لا يخلد في النار وإنما كتب الخلود على الكافر ، فلا مانع من أنّ يعاقب مدّة ثم يخرج فيثاب .

وعلى هذا فلا دليل على وجوب قبول التوبة على الله سبحانه ، بل قبولها تفضّل وكرم منه سبحانه .

قال الطبرسي في تفسير قوله سبحانه : ﴿ إلاّ الذينَ تابوا وأصلحوا وَبَيّنوا فأُولئِكَ أتوبُ عَلَيْهِمْ وأنا التّواب الرحيم ﴾[1] . قال : « ووصفُه بالرحيم عقيب التوّاب يدل على أنّ إسقاط العقاب بعد التوبة تفضُّل منه سبحانه ورحمة من جهته ، على ما قاله أصحابنا ، وإنّه غير واجب عقلاً على خلاف ما ذهب إليه المعتزلة »[2] .

نعم ، هذا إذا لوحظ قبول التوبة من حيث هو هو ، وأما إذا لوحظ بعدما وعده سبحانه بقبول توبة التائب ، فالوجوب لا محيص عنه ، لأنّ خلف الوعد قبيح ، من غير فرق بين الواجب والممكن ، وقد أوضحنا لك معنى كون شيءٍ واجباً على الله سبحانه ، وأنّه لا يراد منه تكليف الله سبحانه ، بل أنّ العقل يكشف حكماً عاماً سائداً على الواجب والممكن ، وهو أنّ الحكيم لا يفعل القبيح ، لما فيه من المبادىء الرافضة لارتكابه فيكون وجوب قبول التوبة سمعياً لا عقلياً .

الأمر الثامن ـ هل يجب في التوبة ، الندم على القبيح ؟

الظاهر من غير واحد من المحققين أنّ التوبة تتقوم بالندم على القبيح لقبحه ، وإلا فلو ندم لأجل إضرارها بالبدن أو إخلالها بعرضه أو ماله أو لغرض آخر ، لا يكون تائباً .

وهذا كلام متين ، فإنّ التوبة عبارة عن رجوع العبد إلى الله سبحانه ، وهذا لا يتحقق إلا بأن يكون رجوعه لاستشعاره قُبح عمله ، وأنّه كان عدواناً على الله

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٦٠ .

(٢) مجمع البيان ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

وجرأة على المولى ، وأما من ترك شرب الخمر لا بهذا الإعتقاد بل لأجل صيانة بدنه عن مضارها ، فلا تكون توبة منه إلى الله .

إنما الكلام إذا تاب عن عمله لأجل الخوف من عقابه سبحانه ، فقد ذهب المحقق الطوسي وتبعه العلامة الحلّي ، إلى أنّه لو كانت الغاية من التوبة هي الخوف من النار بحيث لولا خوف النار لم يتب ، فلا يصدق عليها أنّها توبة .

قال العلامة الحلي : « فإن كانت التوبة خوفاً من النار أو من فوات الجنة ، لم تصح توبته ، وهذا نظير ما لو اعتذر المسيء إلى المظلوم لا لأجل إساءته بل لخوفه من عقوبة السلطان ، فإن العقلاء لا يقبلون عذره »[1] .

يلاحظ عليه : إنّ التكاليف الإلهية متوجهة إلى عموم الناس، من غير فرق بين التكليف بالصلاة والصوم أو التكليف بالتوبة . ومن المعلوم أنّ الأكثرية الساحقة لا يقومون بالفعل لحسنه بالذات ، ولا يتركونه لكونه قبيحاً كذلك ، بل الفعل والترك يقومان على أساس الرغب والرهب ، والطمع بالجنّة والخوف من النار . وعلى ذلك فالآيات الواردة حول التوبة المقترنة بالثواب تارة والخلاص من النار أخرى ، تعرب عن أنّ التوبة إذا حصلت لإحدى هاتين الغايتين ، كفى ذلك في سقوط العقاب ، يقول سبحانه ـ حاكياً قول هود عليه السلام ـ : ﴿وَيا قَوْمِ ٱسْتَغْفِروا رَبَّكُمْ ثم توبوا إليه يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مدْراراً ﴾[2] .

ويقول تعالى : ﴿ وَأنِ اسْتَغْفِروا رَبَّكُمْ ثمَّ تُوبوا إلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ متاعاً حَسَناً إلى أجَلٍ مُسَمىً ، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وإن تَوَلَّوا فَإنِّي أخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَومٍ كبيرٍ ﴾[3] .

وفي الدعاء الذي علمه علي عليه السلام كميل بن زياد ، إيعاز ، إلى ذلك : يقول : « اللّهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم ، اللّهم اغفر لي

---

(١) كشف المراد ، ص ٢٤٦ ، ط صيدا ، بتصرف .

(٢) سورة هود : الآية ٥٢ .

(٣) سورة هود : الآية ٣ .

الذنوب التي تُنزِلُ النقم ، أللّهُمّ اغفر لي الذنوب التي تُغَيّر النِّعَمْ ، اللهم اغفِر لي الذنوب التي تُنْزِلُ البلاء » .

وإنْ شئت قلت : إنّ التوبة خوفاً من النار ، لا تنفك عن الإعتقاد بكون ما فعل أمراً قبيحاً شرعاً .

وبالجملة ، فالآيات والروايات الواردة حول التوبة مطلقة ، تعم كل توبة يصدق عليها أنها رجوع إلى الله . وفي حديث يبين علي عليه السلام موقف العباد في عبادة الله تعالى ، ويقسمهم إلى ثلاثة أقسام ، يقول :

« إن قوماً عبدوا الله رغبةً ، فتلك عبادة التجار ، وإنّ قوماً عبدوالله رهبة ، فتلك عبادة العبيد ، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً ، فتلك عبادة الأحرار »[1] .

وحينئذ ، فكما أنّه تقبل عبادة العباد ، رغبة ورهبة ، تقبل توبتهم أيضاً إذا كانت كذلك .

ولا معنى للتفكيك بين قبول عبادتهم وقبول توبتهم ، ولا أجد فقيهاً يفتي ببطلان عبادة من عبده سبحانه لإحدى الغايتين ، أو كليهما . كيف وهو سبحانه يصف أنبياءه العظام بقوله : **﴿ إنَّهُمْ كانوا يُسارِعونَ في الخَيراتِ وَيَدْعونَنا رَغَباً وَرَهَباً وكانوا لنا خاشعين ﴾**[2] .

وأما الإستدلال على أنّ المسقط ليس هو نفس التوبة ، بل كثرة الثواب بعدها بأنها لو أسقطت العقاب بذاتها ، لأسقطته في حال المعاينة ، وفي الدار الآخرة[3] ؛ **فيلاحظ عليه** أنّ التوبة إنما تقبل لأنها تؤثر في النفس الإنسانية ، فتصلحها ، أو تعدّها للصلاح ، وهذا إنما يتصور فيما إذا كان الإنسان قادراً على الفعل والترك ، وأما في حال المعاينة أو دار الآخرة ، فالقدرة مسلوبة عن الإنسان هذا .

---

(١) نهج البلاغة : قسم الحكم ، الرقم ٢٣٧ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٩٠ .

(٣) كشف المراد ، ص ٢٦٨ .

مع أنّك قد عرفت عند البحث عن أثر التوبة أنّ التوبة بنفسها هي المسقطة للعقاب ، فلاحظ .

الأمر التاسع ـ هل تصحّ التوبة من قبيح دون قبيح ؟

اختلفت كلمتهم في أنه هل يصح الندم من قبيح دون قبيح ؟

فقال أبو علي : إنّه تصح ما لم يصر على شيء من ذلك الجنس ، فلو أنّه تاب من شرب الخمر وأصرّ على الزنا كانت توبته عن الأول توبة نصوحاً صحيحة ، وأما إذا أصرّ على شيء من ذلك الجنس لم تصح توبته . وذلك كما أنّه لو تاب عن شرب هذا القدح من الخمر مع إصراره على شرب قدح آخر ، فلا إشكال في أنْ لا تصح توبته هذه[1] .

وقال أبو هاشم : إنّه لا تصح التوبة عن بعض القبائح مع الإصرار على بعض ، واختاره القاضي عبد الجبار ، واستدل عليه بأنّ التوبة عن القبيح يجب أنْ يكون ندماً عليه لقبحه ، وعزماً على أنْ لا يعود إلى أمثاله في القبح . وإذا كان هذا كذلك ، فليس تصح توبته عن بعض القبائح مع الإصرار على البعض ، إذ ليس يصح أنْ يترك أحدنا بعض الأفعال لوجه ، ثم لا يترك ما سواه في ذلك الوجه ، ألا ترى أنه لا يصح أنْ يَتَجَنّب سلوك طريق لأن فيها سبعاً ، ثم لا يتجنب سلوك طريق أخرى فيها سبع . وكذلك لا يصح أنْ لا يتناول طعاماً لأنّ فيه سماً ، ثم يتناول طعاماً آخر مع أنّ فيه سماً[2] .

يلاحظ عليه : إنّ الأفعال القبيحة تختلف شدة وضعفاً ، وإنْ كانت تشترك في كونها عدواناً على الله وخرقاً لحدوده ، ولكنها مع ذلك تختلف في جهات القبح ، وعلى ذلك فربما يوجد داعٍ إلى الندم في بعض القبائح دون الأخرى ، وذلك بأن يقترن ببعض القبائح قرائنُ زائدة كعظم الذنب ، أو كثرة الزواجر عنه ، أو الشناعة على فعله عند العقلاء ، دون قبائح أخرى ، فعندئذ ربما يرجح الندم

(١) شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٩٥ .
(٢) شرح الأصول الخمسة : ص ٧٩٥ .

على القبائح المحتفة بما يوجد الندم في النفس دون الأُخرى . ولو اشتركت جميع القبائح في قوة الدواعي اشتركت في وقوع الندم علنيها جميعاً ، ولم يصح الندم على البعض دون الآخر[1] .

وهذا مما يلمسه الإنسان في حياة المجرمين ، فربما يحضر عاص أنديه الوعظ والإرشاد ، فيستمع إلى الخطيب ، يندد ببعض المعاصي كشرب الخمر ، وأكل الربا ، ويذكر قبحهما وشناعتهما ، وما يترتب عليهما من إشاعة البغضاء في المجتمع ، فيحصل في نفسه داع قوي يدفعه إلى ترك هذين القبيحين ، وفي الوقت نفسه قد لا يجد داعياً لترك غيرهما من المعاصي التي اعتاد عليها ، كالغيبة لا لأنه لا يراها قبيحة ، بل لأنها لم تحتف بما يوجد داعي الندم في نفسه ، بخلاف الأولين . فجميعها ، إذن ، تشترك في القبح والشناعة ، غير أنّ الأوّلين يتميزان بوجود الداعي إلى التوبة عنهما فتاب ، دون الآخر .

وبذلك يظهر الجواب عما ذكره أبو هاشم من أنّه إذا كانت توبته عن بعض القبائح لأجل قبحها ، فهو موجود في البعض الآخر أيضاً ، فلم تاب عن الأُولى دون الأُخرى ؟ .

وجه الجواب أنّ الكل يشترك في القبح ، لكن ترك البعض دون الآخر ، لا لأجل اعتقاده أنّ واحداً قبيح دون الآخر، بل إنه يعتقد بقبحهما ، ولكن الداعي للتوبة موجود في أحدهما دون الآخر .

ولقد أحسن المحقق الطوسي ، حيث قال : التحقيق أنّ ترجيح الداعي إلى الندم على البعض يبعث عليه خاصة ، وإن اشترك الداعي في الندم على القبيح لقبحه ، كما في الدواعي إلى الفعل . ولو اشترك الترجيح ، اشترك وقوع الندم ، فلا يصح الندم[2] .

ومما يوضح ذلك أنّه لو أسلم يهودي ورجع عن كفره ، نادماً على ما مضى من عمره ، ولكنه بقي مصراً على صغيرة من الصغائر ، فلو قلنا بأنّ التوبة من

---

(١) لاحظ كشف المراد ، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ ط صيدا .

(٢) كشف المراد ، ص ٢٦٥ ، ط صيدا .

القبائح لا تتبعض لـزم أنّ لا تكون تـوبته مقبـولة ، وهـو خرق للإجماع ،وإلى هذا ينـظر قول المحقق الـطوسي ، « وإلا لولا التبعيض ، لـزم الحكم ببقاء الكفـر عـلى التائب منه المقيم على صغيرة »[1] .

والعجب أنّ القـاضي عبد الجبـار استحسن قـول أبي هـاشم وأراد التخلص عن هـذا الإشكال فقـال : إنه لا يسقط من عقـوبتـه شيء لأنـه لم يـأت بمـا يسقط العقوبة عامة ، فبقيت عقوبته كما كانت ، نعم ، لا يجري عليه أحكام اليهود[2] .

كيف يقـول لا يسقط من عقوبتـه شيء مع أنّـه كان كـافـراً فصـار مؤمنـاً ، والإيمان يكفر الشرك وعقوبته باتفاق المسلمين ، فالقول ببقاء عقوبة الشرك مـع أنّه صـار مؤمنـاً بحجـة أنّـه لم يـزل يـرتكب صغـيرة ، مخـالف لنص الآيـات واتفـاق المسلمين ، ومعاملة النبي للمشركين الذين آمنوا ، ولو كـان رفع العقـوبة مقـيّداً بعدم الإصرار على صغـيرة ، من الذنـوب التي كان يـرتكبها المشرك ، لأصحـر به النبي وبيّنـه .

بقي هنا أبحاث طفيفة في التوبـة ، يظهـر حالهـا مما أوضحنـاه[3] . نسـأله سبحانه أن يتوب علينا ، ويكتب الغفران في صحائف أعمالنا ، بفضله وكرمه .

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٧٩٧ .

(٣) مثل ما إذا اغتاب إنسان رجـلاً ، فهل يجب عليـه الإعتذار منـه ، خاصـة إذا بلغتـه الغيبـة ـ أو لا ؟ وهذه مسألة فقهية .

وإذا كان التائب عالماً بذنوبه على التفصيل فهل يجب التـوبة عن كـل واحدة منهـا ، أو تكفي التوبـة عنها إجمالاً ؟

وهل يجب تجديد التوبة ، كلما تذكر التائب ، معصيته السابقة ؟

وغير ذلك مما ذكره المتكلمون ، لاحظ التجريد وشروحه ، في التوبة ، المسألة الحادية عشر .

مباحث المعاد

(١٥)

الشفاعة

الشفاعة في الآخرة بصيص من الرجاء ، ونافذة من الأمل ، فتحتها الشريعة الإسلامية في وجه العصاة حتى لا ييأسوا من روح الله ورحمته ، ولا يغلبهم الشعور بالحرمان من عفوه فيتمادوا في العصيان . فالسبب في تشريع الشفاعة هو عينه السبب في تشريع التوبة في الحياة الدنيوية . وجلاء الحقيقة في الشفاعة ، يتم بالبحث في الأمور التالية :

١ ـ تصنيف آيات الشفاعة وإرجاعها إلى معنى واحد .

٢ ـ نقل نماذج مما ورد من السنة عن النبي والعترة الطاهرة .

٣ ـ تبيين معنى الشفاعة ، وأقسامها .

٤ ـ مبررات تشريع الشفاعة .

٥ ـ شرائط شمول الشفاعة .

٦ ـ أثر الشفاعة وأنّه حطُّ الذنوب ، لا رفع الدرجة .

٧ ـ تحليل الإشكالات المثارة حول الشفاعة ، وهي خمسة .

٨ ـ جواز طلب الشفاعة من الأولياء .

وفيما يلي البحث في كل واحدة منها[1] .

* * * *

الأمر الأول : آيات الشفاعة وتصنيفها

قد ورد ذكر الشفاعة في الكتاب الحكيم في سور مختلفة ، لمناسبات شتّى . ولا يظهر المراد من المجموع إلا بعرض بعضها على بعض ، وتفسير الكل بالكل ، والآيات الواردة في الشفاعة تندرج تحت الأصناف التالية :

الصنف الأول : ما ينفي الشفاعة في بادىء الأمر .

يقول سبحانه : **﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا أنْفِقُوا ممّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتِي يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ ولا خُلَّةٌ ولا شفاعَةٌ والكافرون هُمُ الظَّالِمونَ ﴾**[2] .

وهذا الصنف من الآيات هو المستمسك لمن اعتقد بأنّ الشفاعة عقيدة إختلقها الكُهّان[3] ، وسيوافيك أنّ المنفي قسم خاص منها لا جميع أقسامها بقرينة أنّ المَنْفِي قسم من أواصر الخلة لا جميعها ، بشهادة قوله سبحانه : **﴿ الأَخِلاّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاَّ المُتَّقِينَ ﴾**[4] .

الصنف الثاني : ما يَرُدّ الشفاعة المزعومة لليهود .

يقول سبحانه : **﴿ واتَّقوا يَوماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ولا يُقْبَلُ مِنْها شَفَاعَةٌ ، ولا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ولا هُمْ يُنْصَرونَ ﴾**[5] .

والآية خطاب لليهود ، وهي تهدف إلى نفي الشفاعة المزعومة عندهم ، حيث كانوا يقولون نحن أولاد الأنبياء وأولادنا يشفعون لنا ، فصار ذلك ذريعة

---

(١) التفصيل في هذه الأمور يحوجنا إلى تأليف مفرد ، ولذ اقتصرنا في البحث على ما يناسب وضع الكتاب .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٤ .

(٣) لاحظ دائرة معارف القرن الرابع عشر ، ص ٤٠٢ ، مادة شفع .

(٤) سورة الزخرف : الآية ٦٧ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٤٨ .

لارتكاب الموبقات ، وترك الفرائض ، فآيسهم الله من ذلك .

الصنف الثالث : ما ينفي شمول الشفاعة للكفار .

يقول سبحانه ـ حاكياً عن الكفار ـ : ﴿ **وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾[1] .

وهذا الصنف ناظر إلى نفي وجود شفيع ـ يوم القيامة ـ للكفار الذين انقطعت علاقتهم بالله لكفرهم به وبرسله وكتبه كما انقطعت علاقتهم الروحية بالشفعاء الصالحين ، فلم يبق بينهم وبين الشفاعة أية صلة وعلاقة .

الصنف الرابع : ما ينفي صلاحيّة الأصنام للشّفاعة .

يقول سبحانه : ﴿ **وما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمونَ** ﴾[2] .

وهذا الصنف يرمي إلى نفي صلاحية الأصنام للشفاعة ، وذلك لأنّ العرب الجاهليين كانوا يعبدون الأصنام لاعتقادهم بشفاعتهم عند الله .

الصنف الخامس : ما يخصُّ الشفاعة بالله سبحانه .

يقول سبحانه : ﴿ **وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذينَ يَخافونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقونَ** ﴾[3] .

وكون الشفاعة مختصة بالله لا ينافي ثبوتها لغيره بإذنه كما يعرب عنه آيات الصنف السادس .

الصنف السادس : ما يثبت الشفاعة لغيره بإذنه سبحانه .

يقول سبحانه : ﴿ **يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** ﴾[4] .

---

(١) سورة المدثر : الآيات ٤٦ ـ ٤٨ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٩٤ . ولاحظ يونس : ١٨ ، الروم : ١٣ ، الزمر : ٤٣ ، يس : ٢٣ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٥١ ، ولاحظ الأنعام : ٧ ، السجدة : ٤ ، الزمر : ٤٤ .

(٤) سورة طه : الآية ١٠٩ .

ويقول سبحانه : ﴿ مَنْ ذا الذي يَشْفَعْ عِنْدَهُ إلاّ بِإذنِهِ ﴾[1] .

والجمع بين هذا الصنف وما سبقه واضح ، وقد قلنا إنّ مقتضى التوحيد في الخالقية أنّه لا مؤثّر في الكون إلا الله ، وأنّ تأثير سائر العلل إنما هو على وجه التبعية لإرادته سبحانه .

الصنف السابع : ما يسمّي من تُقْبل شفاعته .

ويتضمن هذا الصنف أسماء بعض من تُقبل شفاعتهم يوم القيامة .

يقول سبحانه ﴿**وقالوا اتّخَذَ الرَّحمٰنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بل عبادٌ مُكرَمونَ * لا يَسْبِقونَهُ بالقَوْلِ وَهُمْ بِأمْرِهِ يَعْمَلونَ * يَعْلَمُ ما بَيْنَ أيدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَعونَ إلاّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقونَ** ﴾[2] . فصرّح بأنّ الملائكة وحملة العرش تقبل شفاعتهم .

ويتحصل من جمع الآيات أنّ الشفاعة تنقسم إلى شفاعة مرفوضة ، كالشفاعة التي يعتقد بها اليهود ، وشفاعة الأصنام ، والشفاعة في حقّ الكفار ، وإلى مقبولة وهي شفاعة الله سبحانه ، وشفاعة من أذن له ، وشفاعة الملائكة وحملة العرش ، وبالإحاطة بالأصناف السبعة ، تقدر على تمييز المرفوضة عن المقبولة .

وليست آيات الشفاعة مختصة بالأصناف التي ذكرناها ، فإن هناك آيات تخرج عن إطارها مثل قوله سبحانه : ﴿ **وَمِنَ الّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ ، عسى أنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مقاماً مَحْمُوداً** ﴾[3] . وقد أطبق المفسرون على أنّ المراد من المقام المحمود ، هو مقام الشفاعة[4] .

* * *

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ ، ولاحظ يونس : ٣ ، مريم : ٨٧ ، سبأ : ٢٣ ، الزخرف : ٨٦ .
(٢) سورة الأنبياء : الآيات ٢٦ ـ ٢٨ . ولاحظ النجم : ٢٦ ، غافر : ٧ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ٧٩ . (٤) لاحظ مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٤٣٥ .

الأمر الثاني : الشفاعة في السّنّة .

لقد اهتم الحديث النبوي ، وحديث العترة الطاهرة بأمر الشفاعة وحدودها وشرائطها وأسبابها وموانعها ، اهتماماً بالغاً لا يوجد له مثيل إلا في موضوعات خاصة تتمتع بالأهمية القصوى . وإذا لاحظ المتتبع ، الصحاح والمسانيد والجوامع الحديثية فإنه يقف على جمهرة كبيرة من الأحاديث الواردة في الشفاعة ، تدفع به إلى الأذعان بأنّها من الأصول المُسَلّمة في الشريعة الإسلامية ، ونحن نذكر النذر اليسير منها .

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لكل نبي دعوة مستجابة . فَتَعَجَّلَ كُلُّ نبيٍّ دعوته ، وإنّي اختبأت دعوتي ، شفاعةً لأمتي ، وهي نائلة من مات منهم لا يشرك بالله شيئاً »[1] .

٢ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أُعطيت خمساً ، وأُعطيت الشفاعة ، فادخرتها لأمتي ، فهي لمن لا يشرك بالله »[2] .

٣ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي »[3] .

٤ ـ وقال عليٌّ عليه السلام : « ثَلاَثَةٌ يَشْفَعُونَ إلى الله عز وجل فَيُشَفَّعون : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء »[4] .

٥ ـ وقال الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام في كلام له : «اللهمّ صلّ على محمد وآل محمد ، وشرّف بنيانه ، وعَظِّم بُرهانَهُ ، وثَقِّل ميزانَهُ وتقبَّل شفاعته »[5] .

---

(١) صحيح مسلم ، ج ١ ، ص ١٣٠ . وصحيح البخاري ، ج ٨ ، ص ٣٣ ، وج ٩، ص١٧٠ . وغير ذلك من المصادر .

(٢) صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ٤٢ ، وص ١١٩ . ومسند أحمد ، ج ١ ، ص ٣٠١ .

(٣) « من لا يحضره الفقيه » للصدوق ، ج ٣ ، ص ٣٧٦

(٤) « الخصال » ، للصدوق ، ص ١٤٢ .

(٥) الصحيفة السجادية ، الدعاء الثاني والأربعون . ومن أراد التبسط فعليه الرجوع إلى المصادر التالية :

الأمر الثالث : حقيقة الشفاعة وأقسامها

للشفاعة أصل واحد يدل على مقارنة الشيئين ، من ذلك الشفع ، خلاف الوتر ، تقول كان فرداً فشفّعته[1] .

فإذا كان مقوِّم الشفاعة ، إنضمام شيء إلى شيء في مقام التأثير ، فهي تنقسم الى الأقسام التالية :

شفاعة تكوينية ، شفاعة قيادية ، وشفاعة مصطلحة بين الناس .

١ ـ الشفاعة التكوينية

قد عرفت في مباحث التوحيد أنّ المظاهر الكونية ، بحكم أنّها ممكنة الوجود ، غير مستقلة في ذاتها ، ولكنها مع ذلك قائمة على أساس علل ومعاليل سائدة فيها .

وعلى ضوء ذلك فتأثير كل ظاهرة كونية في أثرها ، ومعلولها ، بإذنه سبحانه ، ولا يتحقق إلاّ مقترناً به ، ولأجل ذلك سمّى سبحانه السبب الكوني ، شفيعاً ، لأنّ تأثيره مشروط بأن يكون إذنه سبحانه منضماً إليه ، فيؤثّران معاً . يقول سبحانه : ﴿ إنَّ ربَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيّام ثُمَّ استوى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ما مِنْ شَفيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمُ الله رَبُّكُمْ فَاعْبُدوهُ أَفَلا تَذَكَّرونَ ﴾[2] والمراد من الشفيع هو الأسباب والعلل المادية الواقعة في طريق وجود الأشياء وتحقّقها . وإنما سميت العلة شفيعاً ، لأجل أنّ تأثيرها يتوقف على إذنه سبحانه ، فهي مشفوعة إلى إذنه ، حتى تؤثّر وتعطي ما تعطي .

كنز العمال ، ج ٤ ، ص ٦٣٨ ـ ٦٤٠ . التاج الجامع للأصول ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ ـ ٣٦٠. بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ٢٩ ـ ٦٣ ، وقد أورد أحاديث الشفاعة في غير هذا الجزء أيضاً . وقد جمع الأستاذ دام ظله القسط الأوفر من أحاديث الشفاعة في موسوعته القرآنية : « مفاهيم القرآن » ج ٤ ، ص ٢٨٧ ـ ٣١١ .

(١) المقاييس ، ج ٣ ، ص ٢٠١ .

(٢) سورة يونس : الآية ٣ .

فالآية خارجة عن الشفاعة المصطلحة بين علماء الكلام ، والقرائن الموجودة في نفس الآية تصدُّنا عن حملها إلا على هذا القسم من الشفاعة ، وقد عرفت أنّ الشفاعة خلاف الوتر ، وأنّه يصح في صدقها ، إنضمام شيء إلى شيء .

٢ ـ الشفاعة القيادية

والمراد من هذا الصنف هو قيام الأنبياء والأولياء والأئمة والعلماء ، والكتب السماوية مقام الشفيع ، والشفاعة للبشر لتخليصهم من عواقب أعمالهم وسيئات أفعالهم .

والفرق بين هذه الشفاعة والشفاعة المصطلحة أنّ الثانية توجب رفع العذاب عن العبد بعد استحقاقه له ، وهذه توجب أن لا يقع العبد في عداد العصاة ، حتى يستحق العقاب . فالأُولى من قبيل الرفع ، والثانية من قبيل الدفع . وعلى ذلك فقيادة الأنبياء والأئمة ، تقوم مقام الشفيع والشفاعة في تجنيب العبد من الوقوع في المعاصي والمهالك .

فالشفاعة بهذا المعنى ، مثلها مثل الوقاية في الطبابة ، كما أنّ الشفاعة المصطلحة مثلها مثل المداواة بعد إصابة المرض .

وليس إطلاق الشفاعة بهذا المعنى إطلاقاً مجازياً ، كيف وقد شهد بذلك القرآن والأخبار .

قال سبحانه : **﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذين يخافونَ أنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِّهِمْ ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دونه وَلِيٌّ ولا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقونَ ﴾**[1] .

والضمير المجرور في ﴿به﴾ يرجع إلى القرآن ، ومن المعلوم أنّ ظرف شفاعة القرآن ، هو الحياة الدنيوية . فإن هدايته تتحقق فيها ، وإن كانت نتائجها تظهر في الحياة الأُخروية ، فمن عمل بالقرآن قاده إلى الجنة .

(١) سورة الأنعام : الآية ٥١ .

يقــول صــلى الله عليــه وآلــه : « إذا التبست عليكم الفِتَنُ كَقِطَع الليل المظلم ، فعليكم بالقرآن ، فإنه شافع مُشَفَّع »[1] .

فالشفاعة هنا بنفس معناها اللغوي ، وذلك أنّ المكلّف يضم هداية القرآن وتوجيهات الأنبياء والأئمة ، إلى إرادته وسعيه ، فيفوز بالسعادة الأُخروية .

وهـذا غير الشفـاعة المصـطلحة فـإنّ ظرفهـا هو الحيـاة الأُخـرويـة ، فبـين الشفاعتين بون بعيد .

٣ ـ الشفاعة المصطلحة

حقيقة هذه الشفاعة لا تعني إلا أنْ تصل رحمته سبحانه ومغفرته وفيضه إلى عباده عن طريق أوليـائه وصفـوة عباده ، وليس هـذا بأمـر غريب فكـما أنّ الهدايـة الإلهيـة التي هي من فيوضـه سبحانـه ، تصل إلى عبـاده في هذه الـدنيا عن طـريق أنبيائه وكتبه ، فهكذا تصل مغفرته سبحانـه إلى المذنبـين والعصاة من عبـاده ، يوم القيـامة ، عن ذلـك الطريق ولا بُعْـد في أن يصل غفـرانه سبحـانه إلى عبـاده يـوم القيامة ، عن طريق عباده ، فإنه سبحانه قد جعل دعاءهم في الحياة الدنيويـة سبباً لذلك وقال :

﴿ وَلَو أنّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَروا الله واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الـرَّسُولُ لَوَجَدُوا الله تَوّاباً رَحيماً ﴾[2] .

وتتضح هذه الحقيقة إذا وقفنا على أنّ الدعاء بقول مـطلق ، وبخاصـة دعاء الصـالحين ، من المؤثـرات الـواقعـة في سلسلة نـظام العلة والمعلول ، ولا تنحصر العلة في المحسوس منها ، فإنّ في الكون مؤثرات خارجة عن إحساسنا وحواسنـا ، بـل قد تكـون بعيدة عن تفكـيرنا ، وإليـه يشير قـوله سبحـانـه : **﴿ فـالمُـدَبِّـراتِ أمْراً ﴾**[3] .

---

(١) الكافي ، ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) سورة النساء : الآية ٦٤ ولاحظ يوسف : الآية ٩٧و٩٨ ، التوبة : الآية ١٠٣ .

(٣) سورة النازعات : الآية ٥ .

وبالإمعان فيما ذكرنا من وقوع الدعاء في سلسلة العلل ، تقدر على إرجاع الشفاعة المصطلحة إلى قسم من الشفاعة التكوينية بمعنى تأثير دعاء النبي في جلب المغفرة .

* * *

الأمر الزابع ـ مبررات الشفاعة

ربما يقال : إذا كان المنقذ الوحيد للإنسان يوم القيامة ، هو عمله الصالح ، كما هو صريح قوله سبحانه : ﴿ وأَمّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جزاءً الحُسْنَىٰ ﴾[1] ، فلماذا جعلت الشفاعة وسيلة للمغفرة ؟ .

والجواب عن ذلك : إنّ لتشريع الشفاعة مبررات عدة ، نذكر منها اثنتين :

الأول ـ الحاجة إلى رحمة الله الواسعة حتى مع العمل

إنّ الفوز بالسعادة وإن كان يعتمد على العمل أشد الإعتماد، غير أنّ صريح الآيات هو أنّ العمل ما لم تنضم إليه رحمة الله الواسعة ، غير كاف في إنقاذ الإنسان من تبعات تقصيره .

قال سبحانه : ﴿ ولَوْ يُؤاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عليها من دابَّةٍ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أجَلٍ مُسمّى ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ يُؤاخذ الله النَّاسَ بما كَسَبوا ما تَرَكَ على ظَهْرِها من دابّةٍ ﴾[3] .

---

(١) سورة الكهف : الآية ٨٨ .

(٢) سورة النحل : الآية ٦١ .

(٣) سورة فاطر : الآية ٤٥ .

الثاني ـ الآثار التربوية للشفاعة

بالرغم مما اعترض على الشفاعة من كونها توجب الجرأة ، وتحيي روح التمرد في العصاة والمجرمين، فإنّ الشفاعة تتسبب في إصلاح سلوك المجرم وإنابته والتخلّي عن التمادي في الطغيان . وتَظْهر حقيقة الحال إذا لاحظنا مسألة التوبة التي اتفقت الأمة على صحتها ، فإنه لو كان باب التوبة موصداً في وجه العصاة والمذنبين ، واعتقد المجرم بأنّ عصيانه مرة واحدة يخلّده في عذاب الله ، فلا شكّ أنّه يتمادى في اقتراف السيئات باعتقاد أنّ تغييره للوضع الذي هو عليه لن يكون مفيداً في إنقاذه من عذاب الله ، فلا وجه لأن يترك لذات المعاصي . وهذا بخلاف ما إذا وجد الجو مشرقاً ، والطريق مفتوحاً ، وأيقن أنّ رجوعه يغير مصيره في الآخرة ، فيترك العصيان ويرجع إلى الطاعة .

ومثل التوبة الإعتقاد بالشفاعة المحدودة (أي مع شروط خاصة في المشفوع له) فإذا اعتقد العاصي بأن أولياء الله قد يشفعون في حقه إذا لم يهتك الستر ، ولم يبلغ إلى الحد الذي لا تكون فيه الشفاعة نافعة ، فعند ذلك ، ربما يعيد النظر في مسيره ، ويحاول تطبيق حياته على شرائط الشفاعة ، حتى لا يُحْرَمها .

نعم ، الإعتقاد بالشفاعة المطلقة المحررة من كل قيد ، مرفوض في منطق العقل والقرآن . والمراد من المطلقة هو أنّ الأنبياء يشفعون للإنسان يوم القيامة ، وإن فَعَلَ ما فَعَل ، إذ عند ذلك يستمر ويتمادى في أعماله الإجرامية . وأما الشفاعة المحدودة بشرائط في المشفوع له والشافع ، فلا توجب ذلك .

ومجمل هذه الشروط أنْ لا يقطع الإنسان جميع علاقاته العبودية مع الله ، ووشائجه الروحية مع الشافعين ، ولا يصل تمرده إلى حد نسف جسور الإرتباط بهم .

* * *

الأمر الخامس ـ شرائط شمول الشفاعة

قد تعرفت على أنّ الشفاعة المشروعة ، هي الشفاعة المحدودة بحدود ،

وليس أمر الشفاعة فوضى بلا قيد وشرط ، ونحن نذكر بعض شرائطها كما وردت في الروايات .

١ ـ عدم الشرك بالله شيئاً

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « شفاعتي نائلة إنْ شاء الله من مات ولا يشرك بالله شيئاً »[١] .

٢ ـ شهادة الشهادتين بإخلاص

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « شفاعتي لِمَنْ شهد أنْ لا إله إلاّ الله ، مخلصاً ، يصدق قلبه لسانه ، ولسانه قلبه »[٢] .

٣ ـ عدم الغشّ

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من غشّ العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي »[٣] .

٤ ـ عدم نصب العداء لأهل البيت عليهم السلام

قال الإمام الصادق عليه السلام : « إنّ المؤمن ليشفع لحميمه ، إلا أن يكون ناصباً ، ولو أنّ ناصباً شفع له كل نبي مرسل وملك مقرب ما شفعوا »[٤] .

---

(١) مسند أحمد : ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

(٢) مسند أحمد ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ ، و٥١٨ ، ولاحظ صحيح البخاري ، ج١ ، ص ٣٦ .

(٣) مسند أحمد ، ج ١ ، ص ٧٢ ، المراد من العرب المسلمون ، لأن المسلمين يوم ذاك كانوا منحصرين في العرب .

(٤) ثواب الأعمال ، للصدوق ، ص ٢٥١ .

٥ ـ عدم الإستخفاف بالصلاة

قال الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام : « لما حُضِر أبي (الإمام الصادق) قال لي : يا بُنيّ ، إنه لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة »[١] .

٦ ـ عدم التكذيب بشفاعة رسول الله

قال علي بن موسى الرضا عليه السلام : « قال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام : من كذّب بشفاعة رسول الله لم تنله »[٢] .

وغير ذلك من الشرائط التي يجدها المتتبع في أحاديث الشفاعة من الفريقين .

الأمر السادس ـ ما هو أثر الشفاعة : إسقاط العقاب أو زيادة الثواب ؟

لم تكن مسألة الشفاعة فكرة جديدة إبتكرها الإسلام وانفرد بها ، بل كانت فكرة رائجة بين أُمم العالم من قبل ، وخاصة بين الوثنيين واليهود .

نعم ، هذّبها الإسلام من الخرافات ، وقررها على أُصول توافق أُصول العدل والعقل ، وصحَّحها تحت شرائط في الشافع والمشفوع له ، تجر العُصاة إلى الطهارة من الذنوب ، ولا توجب فيهم جرأة وجسارة . وغير خفي على من وقف على آراء اليهود والوثنيين في أمر الشفاعة ، وأنّ الشفاعة بينهم كانت رجاء في حط الذنوب وغفران الآثام ، ولأجل ذلك كانوا يقترفون الكبائر ، تعويلاً على ذلك الرجاء . وجاء القرآن يرد تلك العقيدة الباعثة إلى الجرأة ، فقال:إنه لا يشفع إنسان إلا بإذنه تعالى وفي حق من ارتضاه سبحانه ، فليس لكم أن تقترفوا الذنوب تعويلاً على شفاعة الشفيع ، لأن الأمر ليس في أيديهم بل في ملكه سبحانه وقدرته .

---

(١) الكافي ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ . وج ٦ ، ص ٤٠١ . والتهذيب ، للطوسي ، ج ٩ ، ص ١٠٧ .
(٢) عيون أخبار الرضا ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

وعلى ضوء هذا ، إن الشفاعة عند الأُمم ، مرفوضها ، ومقبولها ، يراد منها حط الذنوب ، ورفع العقاب ، وهي كذلك في الإسلام ، بلا فرق ، كما يوضحه قوله صلى الله عليه وآله : « إدّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »[1] .

وفي المقابل ذهبت المعتزلة إلى تخصيص آيات الشفاعة بأهل الطاعة ، دون العصاة ، وأن أثرها ينحصر في رفع الدرجة وزيادة الثواب. وما هذا التأويل في آيات الشفاعة إلا لأجل موقف مسبق لهم في مرتكب الكبيرة ، حيث حكموا بخلوده في النار إذا مات بلا توبة ، فلما رأوا أن القول بالشفاعة التي أثرها هو إسقاط العقاب ، ينافي ذلك المبنى ، أوّلوا آيات الله ، فقالوا إنّ أثر الشفاعة إنما هو زيادة الثواب ، ورفع الدرجة . وهذا المقام أحد المقامات التي يؤخذ المعتزلة فيها بالعتاب ، حيث قدّموا النهج على النقل الصريح ، وخالفوا في ذلك جميع المسلمين .

قال القاضي عبد الجبار ، منكراً شمول الشفاعة للعصاة : « إنّ شفاعة الفساق الذين ماتوا على الفسوق ولم يتوبوا تتنزل منزلة الشفاعة لمن قتل ولد الغير وترصد للآخر حتى يقتله، فكما أنّ ذلك يقبح فكذلك ها هنا »[2] .

وما ذكره القاضي ، غفلة منه عن شروط الشفاعة ، فإنّ بعض الذنوب الكبيرة ، تقطع العلائق الإيمانية بالله سبحانه ، كما تقطع الأواصر الروحية مع النبي الأكرم ، فأمثال هؤلاء العصاة لا تشملهم الشفاعة ، وقد تقدم ذكر النصوص الدالة على حرمان طوائف منها .

والعجب أنّ القاضي إستدل على أنّ الفاسق لا يخرج من النار بشفاعة النبي ، بقوله تعالى : ﴿ واتّقوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ﴾[3] . وقوله تعالى : ﴿ ما لِلظالِمِينَ مِنْ حَميمٍ ولا شفيعٍ يُطاعُ ﴾[4] .

---

(١) سنن أبي داود ، ج ٢ ، ص ٥٣٧ ، وصحيح الترمذي ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، صحيح إبن ماجة ، ج ٢ ، ص ١٤٤١ . مسند أحمد ، ج ٣ ، ص ٢١٣ .

(٢) شرح الأُصول الخمسة ، ص ٦٨٨ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٤٨ .

(٤) سورة غافر : الآية ١٨ .

فيلاحظ عليه : أنّ الآيتين راجعتان إلى الكفار ، فالآية الأُولى ناظرة إلى نفي الشفاعة التي كان اليهود يتنبونها ، كما هو صريح سياقها ، والآية الثانية ناظرة إلى نفي الشفاعة التي كان المشركون يرجونها من معبوداتهم ، يقول سبحانه : ﴿ قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ * تَاللهِ إنْ كُنّا لفي ضَلالٍ مُبِينٍ * إذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالَمِينَ * وما أضَلَّنا إلاّ المُجْرِمون * فَما لَنا مِنْ شافِعينَ * ولا صَديقٍ حَميمٍ ﴾[1] .

وقال سبحانه : ـ حاكياً قول المجرمين في سقر ـ ﴿ وَكُنّا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدِّينِ * حتّىٰ أتانا اليَقِينُ * فَما تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشّافِعِينَ ﴾[2] .

* * *

الأمر السابع ـ الإشكالات المثارة حول الشفاعة

هناك إشكالات مثارة حول الشفاعة ، ناشئة من قياس الشفاعة الواردة في الشريعة الإسلامية ، بالشفاعة الرائجة بين الناس ، ولو عرف المستشكلون الإختلاف الماهوي بين الشفاعتين ، لما اجترؤا على إلقاء هذه الشبهات .

* الإشكال الأول :

إنّ جميع المعاصي تشترك في هدم الحدود والجرأة على المولى ، فأي معنى لشمول الشفاعة لبعض ألوان الجرائم والمعاصي دون البعض الآخر ؟ .

والجواب :

إن للجُرْم مراتب ، كما أنّ المجرمين ، على درجات من النفسيات والروحيات ، فلا يستوي من أحرق مِنْديل أحدٍ عُدواناً بمن أحرق مصنعاً كبيراً له . وَفَرْقٌ بين شاب ينظر إلى المرأة الأجنبية نظراً ممزوجاً بالسوء ، وآخر يعتدي

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ٩٦ـ١٠١ .

(٢) سورة المدثر : الآيات ٤٦ـ٤٨ .

عليها بالعنف . فإذا اختلف الجرمان ، اختلف المجرمان من حيث النفسانيات والروحيات . وهناك مجرم قد حافظ على روابطه الإيمانيّة مع الله ، وعلى علاقاته الروحية مع الشفيع ، بحيث لا يعد المجرم غريباً عن كلا المقامين ، ومجرمٌ قد قطع كلتا العلاقتين ، وصار أجنبياً عنهما ، فتشريع الشفاعة في حقّ الأول دون الثاني ، لا يعدّ تفريقاً في القانون .

والذي يوضح ذلك أنّ الله سبحانه فرّق بين الذنوب ، فقال بأنّ الشرك لا يغفر ، إلاّ مع التوبة ، وأما غيره فيغفر وإن لم تقع التوبة .

قال سبحانه : ﴿ **إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دونَ ذَلِكَ لِمَنْ يشاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَقَدِ افْتَرَى إثماً عظيماً** ﴾[1] .

وأنت إذا أحَطْت بما ورد حول الذنوب من العقوبات المختلفة وتقسيمها إلى كبائر وصغائر ، تقف على أنّ قبول الشفاعة ، في حق بعضٍ دون بعضٍ ، ليس ترجيحاً بلا مرَجّح .

* **الإشكال الثاني :**

إنّ تشريع الشفاعة يَجُرّ إلى التمادي في العصيان ، واستمرار المجرم في عدوانه ، رجاء غفران ذنوبه بالشفاعة[2] .

والجواب ، أما نقضاً :

فبالوعد بالمغفرة ، مع التوبة ، بل حتى مع عدمها ، قال سبحانه : ﴿ **إنَّ اللَّه لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دونَ ذلك** ﴾ ، فلو كانت الشفاعة موجبة للتمادي ، فليكن الوعد بالمغفرة مع التوبة بل مع عدمها في غير الشرك موجباً للتمادي ، أيضاً . فالجواب هنا ، هو الجواب هناك .

---

(١) سورة النساء : الآية ٤٨ .

(٢) دائرة المعارف ، لفريد وجدي ، ج ٥ ، ص ٤٠٢ .

وأما حلاً

فالإشكال ينبع من تصوّر خاطىء وهو اعتقاد كون الشفاعة مطلقة غير مشروطة بشيء ، فيكون للإنسان عند ذاك أنْ يفعل ما يريد تعويلاً عليها. ولكنك عرفت أنّ الشفاعة محدودة ، وتشمل بعض العباد ،وهم الذين لم تنقطع علاقاتهم بالله سبحانه وبأوليائه ، ومثل هذه الشفاعة لا تبعث على الجرأة ، بل تبعث عملاً في نفس العاصي ، وتدفعه إلى الإحتفاظ بعلاقته ولا ينسفها من رأس .

إن الشفاعة التي نطق لها القرآن ، ليست أمراً مطلقاً من كل قيد وشرط ، فإنّ الشفاعة مقيّدة بإذنه سبحانه أوّلاً ، وكون المشفوع لـه مَرْضياً عند الله ثانياً ، وليس من الممكن أنْ يُذْعن المجرم بأنّه ممن يشمله أذنه سبحانه ورضاه .

قال سبحانه : ﴿ مَنْ ذا الّذي يَشْفَعْ عنْدَهُ إلاّ بإذنِهِ ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ ولا يَشْفَعونَ إلاّ لِمَنِ ارْتَضى ﴾[2] .

فليس في وسع أحد أن يدّعي أنّه من العباد المرضيين ، ثم يعتمد على ادّعائه ويتمادى في العصيان .

وهناك وجه آخر لكون الشفاعة محدودة ، وهو إبهامها من حيث الجرم ، فلا يعلم أي جرم تشمله الشفاعة وأيُّهُ لا تشمله . كما أنها مبهمة من حيث وقت القيامة ، فللعُصاة والطغاة مواقف مختلفة ، وهي مواقف رهيبة ومخيفة تهز القلوب ، ولم يعين وقت الشفاعة .

وهذا الإبهامات الثلاثة ، تصد المجرم عن الإعتماد على الشفاعة ليتمادى في المعصية ، وغاية ما يمكن أنْ يقال في الشفاعة أنّها بصيص من الرجاء ، ونافذة من الأمل فتحها القرآن في وجه العصاة حتى لا ييأسوا من روح الله .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٨ .

* الإشكال الثالث :

إنّ الشفاعة لا تتحقق إلا بترك الإرادة وفسخها لطلب الشفيع رفع العقاب عن المشفوع له ، من غير فرق بين الحاكم العادل والحاكم الظالم ، غاية الأمر أنّ الحاكم العادل لا يقبل الشفاعة إلا إذا تغيّر علمه بما كان أراده أو حكم به ، كأن أخطأ ثم عرف الصواب ، ورأى العدل في خلاف ما أراده أو حكم به . وأما الحاكم الظالم ، فهو يقبل الشهادة لكن مع العلم بصواب الحكم الأول وكونه عدلاً ، لكنه يفضل مصلحة ارتباطه بالشافع المقرّب عنده على العدالة ، وكلا النوعين محال على الله ، لأن إرادته تعالى على حسب علمه ، وعلمُه أزلي لا يتغير[1] .

والجواب :

إن المستشكل لو أمعن في حقيقة الشفاعة التي نطق بها القرآن والأحاديث لما جعل الشفاعة من هذا الباب . بل هي من واد آخر ، ومن باب تغيير الحكم لأجل تغيّر الموضوع . فالخمر ما دام خمراً حرام ، فإذا تبدّل إلى الخل يكون حلالاً ، ولا يُعَدّ الحكم الثاني ناقضاً للحكم الأول .

ونظير ذلك العاصي والتائب ، فإن العصيان حالة نفسانية في الإنسان ، فله حكمه الخاص ، كما أنّ التوبة حاكية عن حالة نفسانية مغايرة للحالة الأُولى ، فلها حكمها الخاص ، والإختلاف في الحكمين لأجل الإختلاف في الموضوعين ، ولا يعد ذلك تبدّلاً في العلم ، بل تبدّلاً في المعلوم .

وعلى هذا الأساس ، فالعاصي ـ مجرداً عن انضمام الشفاعة إليه ـ محكوم بالعقاب ، ولكنه ـ منضمّةً إليه الشفاعة ـ محكوم بحكم آخر من أول الأمر ، واختلاف الحكمين ، لأجل اختلاف الموضوعين في الإطلاق والتقييد .

وإن شئت قلت : إنّ العاصي مجرداً عما يمر عليه في البرزخ من العذاب ،

---

(1) المنار ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، وقد تبنى مؤلّفه هذا الإشكال وما يليه !! .

وما يستتبع ذلك العذاب من الصفاء في روحه ، ومجرداً عن دعاء الشفيع في حقه ، محكوم بالعقاب . ولكنه ـ منضماً إلى الضمائم الثلاث ـ محكوم بالمغفرة .

وعلى ضوء هذا ، يتبين أنّ الشفاعة لا توجب اختلافاً في علمه وتغييراً في إرادته ، كما لا توجب أنْ يكون أحد الحكمين مطابقاً للعدل والآخر مطابقاً للجور ، بل الحكمان صدرا من الأزل ، على موضوعين مختلفين ، من مصدر العدل ، تبارك وتعالى .

*** الإشكال الرابع :**

ليس في القرآن نص قطعي على وقوع الشفاعة وإنما ورد الحديث بإثباتها[1] .

ولعل نظر المستشكل إلى أنّ الشفاعة مقيدة بإذنه سبحانه وارتضائه ، ولا دليل على أنه يأذن ويرتضي ، فهو ممكن لا دليل على وقوعه .

والجواب :

إن البحث عن الإمكان والإمتناع يناسب المسائل الفلسفية والكلامية البحتة ، وأما المسائل التربوية ، كالشفاعة ، فالوعد بها ، مقيّداً بالإذن ، والإرتضاء ، لا يهدف إلا إلى وقوعها في ذلك الإطار ، لا إمكانها فيه ، وذلك مثل قوله سبحانه : **﴿ وما كانَ لِنَفْسٍ أنْ تُؤْمِنَ إلاّ بِإذنِ الله ﴾**[2] وقوله : **﴿ وَمَا كانَ لِنَفْسٍ أنْ تموتَ إلاّ بإذْنِ الله ﴾**[3] .

على أن هناك قرائن تدل على وقوع الإستثناء وتحققه ، منها :

١ ـ أنّه سبحانه عبّر عن رضاه ، بالجملة الماضية ، وقال : **﴿ ولا يَشْفَعُونَ**

---

(١) المنار ، ج ٧ ، ص ٣٧٠ .

(٢) سورة يونس : الآية ١٠٠ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٤٥ .

إلاّ لِمَنْ ارتَضَى ﴾ ، وهو يدل على تحقق الرضا منه سبحانه في حقّ المشفوع له ، ورضاه له لا ينفك عن تحقق إذنه للشفعاء .

٢ ـ وأنّه سبحانه أخبر بخبرٍ قطعيٍّ عن شهادة من شهد بالحق ، قال : ﴿ ولا يَمْلِكُ الَّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دونِهِ الشَّفَاعَةَ إلاّ مَنْ شَهِدَ بالحَقِّ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وهذا يكشف عن تحقق المراتب المتقدمة عليه ، من إذنه سبحانه له وارتضائه لمن يستحقها .

وغير ذلك من القرائن التي يستكشف منها كون الشفاعة وعداً مقطوعاً وقوعه .

* الإشكال الخامس :

الذي ورد في إثبات الشفاعة ، من الآيات المتشابهات ، وفيه يقضى بمذهب السلف ، بالتفويض والتسليم ، ولا نحيط بحقيقتها ، مع تنزيه الله تعالى جل جلاله عن المعنى المعروف للشفاعة في لسان التخاطب العرفي[2] .

والجواب :

قد تعرفت على أصناف الآيات الواردة في الشفاعة ، وليس فيها آية مبهمة مستعصية على الفهم . وعلى فرض وجودها ، يرفع إبهامها بآية أختها ، أو بالأحاديث الواردة حولها .

على أنّ ما ذكره المستشكل من أنّ مذهب السلف في المتشابهات هو التفويض والتسليم ، مردود من رأس فإنّ القرآن كتاب الهداية والتربية ، نزل للفهم

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٨٦ .

(٢) المنار ، ج ١ ، ص ٣٠٧ـ ٣٠٨ .

والعبرة ، فلا معنى لقراءة الآيات وتفويض مفاهيمها التصديقيّة إلى الله ، بل يجب رفع إبهام المتشابهات عن طريق المحكمات .

نعم ، هناك مفاهيم تصورية مبهمة ، كحقيقة ذاته تعالى ، وصفاته ، وحقيقة الميزان والحساب والجنة والنار ، ولكنها مفاهيم تصورية خارجة عن موضوع البحث .

* * *

هذه جملة من الإشكالات ، وبالإحاطة بها وبأجوبتها ، تقدر على دفع ما لم نورده مما ذكروه[1] .

وفي الختام ، نشير إلى أن مسألة الشفاعة مسألة إجماعية ، اتفق عليها الفريقان ، فلا تجد في كتاب كلامي إلّا التصديق بها .

قال القاضي عيّاض : « مذهب أهل السنة هو جواز الشفاعة عقلاً ، ووجوبها سمعاً بصريح الآيات ، وبخبر الصادق ، وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر ، بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين ، وأجمع السلف الصالح ومن بعدهم من أهل السنة ، عليها »[2] .

وقال الإمام أبو حفص النسفي : « والشفاعة ثابتة للرسل والأخيار في حق أهل الكبائر ، بالمستفيض من الأخبار »[3] .

* * *

---

(١) راجع في الوقوف على سائر الإشكالات وأجوبتها ، مفاهيم القرآن ، ج ٤ ، ص ٢٤٦ـ ٢٥٦ .

(٢) بحار الأنوار ، ج ٨ ، ص ٦٢ .

(٣) شرح العقائد النسفية ، ص ١٤٨ . ولاحظ أنوار التنزيل للبيضاوي ، ج ١ ، ص ١٥٢ . ومفاتيح الغيب ، للرازي ، ج ٣ ، ص ٥٦ . ومجموعة الرسائل الكبرى ، لابن تيمية ، ج ١ ، ص ٤٠٣ . وتفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٣٠٩ . وغير ذلك من المصادر .

الأمر الثامن : هل يجوز طلب الشفاعة ؟

قد تعرفت على أنّ أصل الشفاعة أمْر مفروغ عنه ، وأنّ المخلصين من عباده يشفعون يوم القيامة بعد إذنه وارتضائه ، لكن يقع الكلام في جواز طلب الشفاعة من الأولياء في هذه النشأة .

فذهب إبن تيمية وتبعه محمد بن عبد الوهاب ـ مخالفين الأُمة الإسلامية جمعاء ـ إلى أنّه لا يجوز طلب الشفاعة من الأولياء في هذه النشأة ولا يجوز للمؤمن إلاّ أنْ يقول : أللّهم شَفّع نبيَّنا محمداً فينا يوم القيامة ، ولا يجوز أنْ يقول : يا رسول الله ، إشفع لي يوم القيامة .

واستدلا على ذلك بوجوه ، لا بأس بذكرها والإجابة عنها على وجه الإجمال .

الوجه الأول : إنّه من أقسام الشرك ، أي الشرك بالعبادة ، والقائل بهذا الكلام ، يعبد الولي[1] .

والجواب ، أما نقضاً

فبأنّه لو كان طلب الشفاعة في هذه النشأة من الأنبياء والأولياء شركاً ، لوجب أنْ لا يكون هناك فرق بين حياتهم ومماتهم ، مع أنّ القرآن يدعو المؤمنين إلى أن يلجأوا إلى حضرة الرسول في حال حياته ويطلبوا منه أن يستغفر لهم ، يقول سبحانه : **﴿وَلَوْ أَنَّهمْ إذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوك فاسْتَغْفرُوا اللهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحيماً ﴾**[2] . وليس طلب الإستغفار من النبي إلاّ طلباً للشفاعة ، إذ ليس معنى قولنا : يا رسول الله إشفع لنا عند الله ، إلاّ أُدع لنا عند ربك بالخير والمغفرة .

---

(١) الهدية السنية ، ص ٤٢ .

(٢) سورة النساء : الآية ٦٤ .

وأمّا حلاً :

فقد عرفت أنّ طلب شيء من أي شخص كان ، إنما يعد عبادة ، إذا اعتقد أنّه إله أو رَبٌّ ، أو أنّه مفوّضٌ إليه فعل الخالق وتدبيره وشؤونه . وأما طلب من الشخص بما أنّه عبد صالح محبوب عند الله ، فلا يعدّ عبادة للمدعو سواء أكان نافعاً أو لا . وقد أوضحنا معنى العبادة عند البحث عن التوحيد في العبادة[1] .

الوجه الثاني :

إنّ طلب الشفاعة من النبي يشبه عمل عبدة الأصنام في طلبهم الشفاعة من آلهتهم الكاذبة ، وقد حكى القرآن ذاك العمل منهم ، وقال .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ ويقولون هؤلاء شُفَعاؤُنَا عِنْدَ اللّهِ ﴾[2] .

وعلى ذلك فالإستشفاع من غيره سبحانه ، عبادة لهذا الغير[3] .

والجواب :

إنّ المعيار في القضاء ليس هو التشابه الصوري ، بل المعيار هو البواطن والعزائم ولو صحّ ما ذكره لوجب أنْ يكون السعي بين الصفا والمروة ، والطواف حول البيت ، شركاً ، لقيام المشركين به في الجاهلية ، وقد عرفت أنّهم كانوا يطلبون الشفاعة من الأوثان باعتقاد أنّها آلهة أو أشياء فوّض إليها أفعال الله سبحانه من المغفرة والشفاعة .

وأين هذا من طلب الشفاعة من الأنبياء والأولياء بما أنّهم عباد الله

---

(١) لاحظ الجزء الأول من الكتاب ، ص ٤٢٩-٤٤٧ .

(٢) سورة يونس : الآية ١٨ .

(٣) كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب ، ص ٦ .

الصالحون . فعَطْفُ هذا على ذلك ، جَوْرٌ في القضاء ، وعناد في الإستدلال .

وأما الإستدلال بالآية الثانية ، فهو ضعيف من وجهين :

الأول : إنّ الآية على خلاف ما يدّعيه أدلّ ، لأنّ عطف ﴿ **وَيَقولـون** ﴾ ، على قوله : ﴿ **وَيَعْبُدونَ** ﴾ ، دليل على أنّ العمل الثاني ليس عبادة ، أخذاً بحكم العطف الدال على المغايرة . وبعبارة أخرى : إنّ المشركين كانوا يقومون بعملين ، العبادة أوّلاً ، وقولهم هم شفعاؤنا ، وطلب الشفاعة منهم ثانياً ، وعلة اتّصافهم بالشرك هو الأوّل لا الثاني .

الثاني : لو فرضنا أنّ الجملة الثانية ، جملةً تفسيرية للأولى ، فنقول : إنّ توصيف طلب الشفاعة من الأوثان بالعبادة لا يستلزم توصيف طلب الشفاعة من الأولياء بها أيضاً ، لما عرفت من الإختلاف في العقيدة ، وأنّ الشافعين كانوا عند عَبَدَةِ الأصنام آلهة ، وعند المؤمنين عباداً صالحين ، وأين هذا من ذاك ؟! .

الوجه الثالث :

إن طلب الحاجة من غيره سبحانه حرام ، فإن ذلك دعاء لغير الله ، وهو حرام .

قال سبحانه : ﴿ **فلا تَدْعُوا مع الله أَحَداً** ﴾[1] .

ويدل على أنّ الدعاء في الآية عبادة ، قوله سبحانه : ﴿ **أُدْعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إنَّ الَّذين يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عبادتي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّم داخِرينَ** ﴾[2] . فقد عبّر عن العبادة في الآية بلفظ « الدعوة » في صدرها ، وبلفظ العبادة في ذيلها ، وهذا يكشف عن وحدة التعبيرين في المعنى . وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله : « الدعاء مخ العبادة » .

---

(١) سورة الجن : الآية ١٨ .

(٢) سورة غافر الآية ٦٠ .

والجواب

إنّ القول بأنّ دعاء الغير في جميع الظروف مساوق للعبادة ، شيء لا أساس له ، وإلا يلزم أنْ لا يُسَجَّل إسم أحد في سجل الموحدين ، فإنّ الناس لا ينفكّون عن التعاون ، واستعانة بعضهم ببعض ، ودعوة الواحد منهم الآخر . وعلى ذلك فيجب أن يقال إنّ قسماً ـ فحسب ـ من الدعاء مساوق للعبادة ، وهو دعاء الشخص بما أنّه إله ، وبما أنه رب ، أوْ بما أنّه مفوّض إليه أفعاله سبحانه . فدعاؤه بهذه الخصوصيات ، مساوق لعبادته .

والآية ناظرة إلى هذ القسم من الدعاء بقرينة قوله ﴿ مَعَ اللّهِ ﴾ ، معرباً عن أنّ الداعي يرى المدعو مشاركاً لله سبحانه في مقام أو مقامات ، ومن المعلوم أنّ الدعاء بهذه الخصوصية شرك بلا إشكال ، والمشركون في الجاهلية ، كانوا يسوون بين الأوثان ورب العالمين ، ويدل عليه قوله سبحانه ـ حاكياً قولهم يوم القيامة ـ : ﴿ تاللّهِ إنْ كُنّا لَفي ضَلالٍ مُبِينٍ * إذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالَمِينَ ﴾[1] .

فأي كلمة أظهر من التعبير عن عقيدة المشركين في حق الأوثان بأنها كانت عندهم ورب العالمين ، سواسية .

فقياس دعوة الصالحين من الأنبياء والأولياء ، بدعوة الأصنام والأوثان ، قياس مع الفارق البالغ ، لا يعتمد عليه إلا من سبق له الرأي في هذا المجال ، ويريد التمسك بالطحلب والحشيش .

الوجه الرابع :

إنّ الشفاعة حق مختص بالله لا يملكه غيره ، وعلى ذلك فطلبها من غير مالكها أمر غير صحيح ، قال سبحانه : ﴿ أَمِ اتَّخَذوا مِنْ دونِ الله شُفَعاءَ ، قُلْ أَوَلَو كانوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً ولا يعقلون * قُلْ لِلّهِ الشَّفاعَةُ جميعاً . . . ﴾[2] .

---

(١) سورة الشعراء : الآيتان ٩٧و٩٨ .

(٢) سورة الزمر : الآيتان ٤٣ و ٤٤ .

والجواب : إنّ المراد من قولـه سبحانه : ﴿قل لله الشفاعـةُ جميعاً﴾ ، ليس أنّه هو الشفيع دون غيره ، إذ من الواضح أنّه سبحانه لا يشفع لأحـد عند الغـير ، بل المراد أنّه المالـك لمقام الشفـاعة دون غـيره ، فليس في الوجـود من يملك المغفرة والشفاعة وغيرهما مما هو من شؤونه سبحانه ، غيره .

ولكن هذا لا ينافي أنْ يملكها الغير بتـمليك منه سبحانه ، وفي طول ملكه ، كما هو صريح قوله سبحانه : ﴿ولا يَمْلِكُ الّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دونِهِ الشَّفـاعَةَ إلاّ مَنْ شَهِـدَ بالحقِ وَهُمْ يَعْلَمُـونَ﴾[1] ، فإن الإستثنـاء في قولـه : ﴿إلاّ﴾ يـرجـع إلى قوله : ﴿لا يَمْلِكُ﴾ . فتكون النتيجة أنّه يملك من شهد بالحق ، الشفاعة ، لكن بتمليك منه سبحانه : فهو المالك بالأصالة ، وغيره مالك بالتمليك والعَرَض .

وليس هذا مختصاً بالشفاعة المصطلحة بل الشفاعة التكوينية أيضاً كذلـك ، لأن الأثـر الطبيعي لجميـع الأسباب التكـوينيـة ، يـرجـع إليهـا لكن بتسبيب منـه سبحانه ، فلولا أنّـه جعل النـار حارة ، والشمس مضيئـة ، والقمر نـوراً ، لا تجد فيها تلك الآثار .

الـوجه الـخامس :

إنّ طلب الشفاعة من الميت أمر باطلٌ .

والجواب : إنّ هذا آخر سهم في كنانـة القائلين بحـرمة طلب الشفـاعة من أولياء الله الصالحين ، والإشكال ناجم من عدم التعرف على مقام الأولياء في كتاب الله الحكيم . وقـد عـرفت أنّ القـرآن يصرّح بحيـاة جمـوع كثـيرة من الشهـداء وغيرهم ، كما عـرفت أنّه يصرح بكون النبي شهيداً على الأمة في قـوله سبحـانه : ﴿فَكَيْفَ إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّـةٍ بشهيدٍ وجِئْنـا بِكَ عـلى هؤلاء شهيداً﴾[2] . فهـل تعقل الشهادة بـدون الحياة ، والإطـلاع على مـا يجري بينهم من الأمـور ، من كفرٍ وإيمان وطاعة وعصيان؟ . فلو كـان النبي ميّتاً كسـائر الأمـوات ، فما معنى التسليم

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٨٦ .

(٢) سورة النساء : الآية ٤١ .

عليه في كل صباح ومساء ، وفي تشهد كل صلاة : « السلام عليكَ أيها النبي ورحمة الله وبركاته » ؟ وما معنى خطابه بـ« عليك »؟ . وحمل ذلك على الشعار الخالي والتحية الجوفاء ، تأويل بلا دليل .

وأما قوله سبحانه في حقّ الموتى : ﴿ **إنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتى ولا تُسْمِعُ الصُمَّ الدُّعاء إذا وَلَّوا مُدْبرينَ** ﴾[1] فهو لا يدلّ إلا على أنّ الأموات المدفونين في القبور ، لا يسمعوه ولا يفهموه ، وأنّهم كالجماد ، ولذلك شبّه المشركين بهم في عدم التعقل ، وهو أمر غير منازع فيه ، فإنّ الأبدان بعد الموت ، جمادات محضة ، من غير فرق بين جسد النبي وغيره .

غير أنّ المؤمنين لا يطلبون الشفاعة من أجساد الصالحين وأبدانهم ، بل يطلبونها من أرواحهم المقدسة الحية عند الله سبحانه ، بأبدان برزخية .

فالزائر القائل : « يا مُحمّد إشفع لي عند الله » ، لا يشير إلى جسده ، بل إلى روحه الزكية ، غير أنّ الوقوف عند قبره الشريف يدفع له استعداداً لأن يتصل بروحه ويخاطبها .

إلى هنا تم عرض الإشكالات الضئيلة التي أُستدل بها على تحريم طلب الشفاعة من الأولياء ، والإجابة عليها بما لا يدع مجالاً بعدها للشك في الجواز .

* * *

---

(١) سورة النمل : الآية ٨٠ .

مباحث المعاد

(١٦)

الإحباط والتكفير

الإحباط في اللغة ، بمعنى الإبطال ، يقال : أَحْبَطَ عَمَلَ الكافر ، أي أبطله[١] .

والكفر بمعنى الستر والتغطية ، يقال لمن غطّى درعه بثوب : قد كفّر درعه ، والمكفّر ، الرجل المتغطّي بسلاحه ، ويقال للزارع كافر ، لأنه يغطي الحب بتراب الأرض . قال الله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُه ﴾[٢] . والكفر ضد الإيمان ، سمي بذلك لأنه تغطية الحق[٣] .

والمراد من الحبط هو سقوط ثواب العمل الصالح بالمعصية المتأخرة ، كما أنّ المراد من التكفير هو سقوط الذنوب المتقدمة ، بالطاعة المتأخرة .

وبعبارة أخرى : إنّ الإحباط في عرف المتكلمين عبارة عن إبطال الحسنة بعدم ترتب ما يُتوقع منها عليها ، ويقال التكفير وهو إسقاط السيّئة بعدم جريان مقتضاها عليها ، فهو في المعصية نقيض الإحباط في الطاعة . ولنقدّم الكلام في الإحباط أوّلاً .

---

(١) المقاييس ، ج ٢ ، مادة حبط ، ص ١٢٩ .

(٢) سورة الحديد : الآية ٢٠ .

(٣) المقاييس ، ج ٥ ، مادة كفر ، ص ١٩١ .

أولاً : الإحباط

المعروف عن الإمامية ، والأشاعرة هو أنّه لا تحابط بين المعاصي والطاعات والثواب والعقاب ، والمعروف عن جماعة من المعتزلة ، كالجبائِيَّيْن وغيرهما هو التحابط[1] .

قال التفتازاني : « لا خلاف في أنّ مَنْ آمَنَ بعد الكفر والمعاصي فهو من أهل الجنة بمنزلة من لا معصية له ، ومن كفر بعد الإيمان والعمل الصالح ، فهو من أهل النار بمنزلة من لا حسنة له ، وإنما الكلام فيمن آمن وعمل صالحاً وآخَرَ سيئاً ، واستمرّ على الطاعات والكبائر ، كما يشاهد من الناس ، فعندنا مآله إلى الجنة ولو بعد النار ، واستحقاقه للثواب والعقاب ، بمقتضى الوعد والوعيد ، من غير حبوط . والمشهور من مذهب المعتزلة أنّه من أهل الخلود في النار إذا مات قبل التوبة ، فأَشْكَلَ عليهم الأمْرُ في إيمانه وطاعته وما يثبت من استحقاقاته ، أين طارت ؟ وكيف زالت ؟ فقالوا بحبوط الطاعات ، ومالوا إلى أنّ السيئات يُذهبن الحسنات »[2] .

أقول : اشتهر بين المتكلمين أنّ المعتزلة يقولون بالإحباط والتكفير ، وأما الأشاعرة والإمامية فهم يذهبون إلى خلافهم . غير أنّ هنا مشكلة ، وهي أن نفيهما على الإطلاق يخالف ما هو مُسلّم عند المسلمين ، من أنّ الإيمان يكفّر الكفر ، ويدخل المؤمن الجنّة خالداً فيها ، وأنّ الكفر يحبط الإيمان ويخلد الكافر في النار . وهذا النوع من الإحباط والتكفير مما أصفقت عليه الأُمّة ، ومع ذلك كيف يمكن نفيهما في مذهب الأشاعرة والإمامية ؟ ولأجل ذلك ، يجب الدقة في فهم مرادهما من نفيهما على الإطلاق ، وسوف يتبين الحال في هذين المجالين ، وأنّ ما ينفونه منهما لا ينافي ظواهر الآيات والأخبار .

---

(١) أوائل المقالات ، ص ٥٧ .

(٢) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ ، ويظهر من القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٢٤ ، أن القول بالإحباط والتكفير خيرة مشايخ المعتزلة ، وإنما خالف منهم القليل مثل عبّاد بن سليمان الصيمري .

هذا ، وإنّ القائلين بالإحباط اختلفوا في كيفيته ، فمنهم من قال بأن الإساءة الكثيرة تسقط الحسنات القليلة ، وتمحوها بالكليّة ، من دون أن يكون لها تأثير في تقليل الإساءة ، وهو المحكي عن أبي علي الجُبائي .

ومنهم من قال بأن الإحسان القليل يسقط بالإساءة الكثيرة ولكنه يؤثر في تقليل الإساءة ، فَيُنْقِصُ الإحسان من الإساءة ، فيُجزَى العبد بالمقدار الباقي بعد التنقيص ، وهو المنسوب إلى أبي هاشم .

وهناك قول آخر في الإحباط ، وهو عجيب جداً حكاه التفتازاني في شرح المقاصد ، وهو أنّ الإساءة المتأخرة تحبط جميع الطاعات وإن كانت الإساءة أقل منها ، قال : حتى ذهب الجمهور منهم إلى أنّ الكبيرة الواحدة تحبط ثواب جميع العبادات[1] .

وعلى هذا ففي الإحباط أقوال ثلاثة :

١ ـ الإساءة الكثيرة تسقط الحسنة القليلة من دون تأثير في تقليل الإساءة .

٢ ـ الإساءة الكثيرة تسقط الحسنة القليلة ، مع تأثير الإحسان في تقليل الإساءة .

٣ ـ أنّ الإساءة المتأخرة عن الطاعات ، تبطل جميع الطاعات من دون ملاحظة القلّة والكثرة .

إذا عرفت موضع النزاع في كلام القوم ، فلننقل أدلة الطرفين :

أدلة نفاة الإحباط

استدل النافون بوجهين : عقلي ونقلي .

أما الوجه العقلي ، فهو أنّ القول بالإحباط يستلزم الظلم ، لأن من أساء وأطاع وكانت إساءته أكثر ، يكون بمنزلة من لم يُحسن . وإنْ كان إحسانه أكثر ،

---

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ .

يكون بمنزلة من لم يسيء . وإن تساويا يكون مساوياً لمن يصدر عنه أحدهما ، وهو نفس الظلم[1] .

يلاحظ عليه : إنّ الإحباط إنما يعدّ ظلماً ، ويشمُلُه هذا الدليل ، إذا كان الأكثر من الإساءة مؤثراً في سقوط الأقل من الطاعة بالكلية ، من دون أن تؤثر الطاعة القليلة في تقليل الإساءة الكثيرة ، كما عليه أبو علي الجبائي . وأما على القول بالموازنة ، كما هو المحكي عن ابنه أبي هاشم ، فلا يلزم الظلم ، وصورته أنْ يأتي المكلَّف بطاعةٍ استحق عليها عشرة أجزاء من الثواب ، وبمعصية استحق عليها عشرين جزءً من العقاب ، فلو قلنا بأنّه يَحْسُن من الله سبحانه أنْ يفعل به عشرين جزءً من العقاب ، ولا يكون لما استحقه من الطاعة أيّ تأثير ، للزم منه الظلم . وأما إذا قلنا بأنه يقبح من الله تعالى ذلك ، ولا يحسن منه أن يفعل به من العقاب إلا عشرة أجزاء ، وأما العشرة الأُخرى فإنها تسقط بالثواب الذي استحقه على ما أتي به من الطاعة ، فلا يلزم ذلك .

يقول القاضي عبد الجبار ، بعد نقل مذهب أبي هاشم : « وَلَعَمْرِي إنه القول اللائق بالله تعالى ، دون ما يقوله أبو علي ، والذي يدل على صحته هو أنّ المكلّف أتى بالطاعات على الحد الذي أُمر به ، وعلى الحد الذي لو أتى به منفرداً عن المعصية لكان يستحق عليها الثواب ، فيجب أن يستحق عليها الثواب ، وإن دَنّسها بالمعصية ، إلا أنّه لا يمكن والحالة هذه أن يوفر عليه ، على الحد الذي يستحقه ، لاستحالته ، فلا مانع من أن يزول من العقاب بمقداره ، لأنّ دفع الضرر كالنفع في أنّه مما يعد في المنافع » .

ثم قال : «فأمّا على مذهب أبي علي فيلزم أنْ لايكون قد رأى صاحب الكبيرة ، شيئاً مما أتى به من الطاعات ، وقد نصّ الله تعالى على خلافه »[2] .

والأولى أنْ يُسْتَدَلّ على بطلان الإحباط بأنه يستلزم خُلف الوعد إذا كان الوعد منجزاً ، كما هو في محل النزاع ، وأما إذا كان مشروطاً بعدم لحوق العصيان

---

(١) كشف المراد ، ص ٢٦٠ .

(٢) شرح الأُصول الخمسة ، ص ٦٢٩ .

به ، فهو خارج عن محل البحث . هذا ، من غير فرق بين قول الوالد والولد ، والقول الثالث الذي هو في غاية الإفراط .

وأما الوجه النقلي ، فقوله سبحانه : ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً ، يَرَهُ** ﴾[1] .

يلاحظ عليه : إنّ الإستدلال بالآية إنما يتم على القولين الأول والثالث حيث لا يكون للإحسان القليل دور ، وأما على القول الثاني ، فالآية قابلة للإنطباق عليه ، لأنه إذا كان للإحسان القليل تأثير في تقليل الإساءة الكثيرة ، فهو نحو رؤية له ، لأن دفع المضرة كالنّفع في أنّه مما يُعدّ منفعة . وهذا كما إذا ربح إنسان في تجارة ، قليلاً ، وخسر في تجارة أخرى أكثر ، فأدّى بعض ديونه من الربح القليل .

نعم ، الظاهر من الآية ، رؤية جزاء الخير ، وهو بالقول بعدم الإحباط ، ألصق وأطبق .

سؤال وجوابه

السؤال : لو كان القول بالإحباط مستلزماً للظلم ، أو كان مستلزماً لخلف الوعد ، فما هو المخلص فيما يدل على حبط العمل ، في غير مورد من الآيات التي ورد فيها أنّ الكفر والإرتداد ، والشرك والإساءة إلى النبي وغيرها مما يحبط الحسنات[2] . ما هو الجواب عن هذه الآيات ؟ وما هو تفسيرها ؟ .

الجواب : إنّ القائلين ببطلان الإحباط يفسرون الآيات بأن الإستحقاق في مواردها كان مشروطاً بعدم لحوق العصيان بالطاعات ، فإذا عصى الإنسان ولم يحقق الشرط ، إنكشف عدم الإستحقاق .

ويمكن أن يقال بأن الإستحقاق في بدء صدور الطاعات لم يكن مشروطاً

---

(١) سورة الزلزلة : الآية ٧ .

(٢) سنذكرها في آخر البحث .

بعدم لحوق العصيان ، بل كان استقرار الإستحقاق في مستقبل الأيام ، هو المشروط بعدم لحوق المعصية ، فإذا فُقِدَ الشَرْطُ ، فُقِدَ استقرارُ الإستحقاق واستمراره .

يقول الشيخ الطوسي في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكم عَنْ دينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ ، فأولئِكَ حَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ في الدُّنيا والآخرةِ وأولئِكَ أصحَابُ النّارِ هُمْ فيها خَالِدُونَ ﴾[1] : « معناه أنّها صارت بمنزلة ما لم يكن ، لإيقاعهم إياها على خلاف الوجه المأمور به ، وليس المراد أنّهم استحقوا عليها الثواب ثم انحبطت ، لأن الإحباطَ ـ عندنا ـ باطِلٌ على هذا الوجه »[2] .

ويقول الطَّبَرسي في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بالإيمان فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ في الآخرةِ مِنَ الخاسِرِينَ ﴾[3] : « وفي قوله : ﴿ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ ، هنا دلالة على أن حبوط الأعمال لا يترتب على ثبوت الثواب ، فإن الكافر لا يكون له عمل قد ثبت عليه ثواب ، وإنما يكون له عمل في الظاهر لولا كفره لكان يستحق الثواب عليه ، فعبّر سبحانه عن هذا العمل بأنّه حبط ، فهو حقيقة معناه »[4] .

ويقول في تفسير قوله سبحانه : ﴿ وَيَقولُ الَّذين آمنوا أهؤلاءِ الَّذينَ أقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيمانِهِم إنَّهم لَمَعَكمْ ، حَبِطَتْ أعْمَالُهُم فَأصْبَحُوا خاسِرينَ ﴾[5] .
« أي ضاعت أعمالهم التي عملوها لأنّهم أوقعوها على خلاف الوجه المأمور به ، وَبَطَلَ ما أظهروه من الإيمان ، لأنّه لم يوافق باطنُهم ظاهرَهُم ، فلم يستحقوا به الثواب »[6] .

وبما ذكره الطبرسي يظهر جواب سؤال آخر ، وهو أنه إذا كان الإستحقاق

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٧ .
(٢) التبيان ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ ، ولاحظ مجمع البيان ، ج ١ ، ص ٣١٣ .
(٣) سورة المائدة : الآية ٥ .
(٤) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .
(٥) سورة المائدة : الآية ٥٣ .
(٦) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ .

مشروطاً بعدم صدور العصيان ، فإذا صدر يكشف عن عدم الإستحقاق أبداً ، فكيف يطلق عليه الإحباط ، وما الإحباط إلا الإبطال والإسقاط ، ولم يكن هناك شيء حتى يبطل أو يسقط ؟

وذلك لأن نفس العمل في الظاهر سبب ومقتضٍ ، فالإبطال والإسقاط كما يصدقان مع وجود العلة التامة ، فهكذا يصدقان مع وجود جزء العلة وسببها ومقتضيها ، وهذا كمن ملك أرضاً صالحة للزراعة فأحدث فيها ما أفقدها هذه الصلاحية .

وبعبارة أُخرى : إنّ الموت على الكفر ، وإن كان يُبطل ثواب جميع الأعمال ، لكن ليس هذا بالإحباط ، بل باشتراط الموافاة على الإيمان في استحقاق الثواب على القول بالاستحقاق ، وفي الوعد بالثواب على القول بعدم الإستحقاق . وهكذا القول في المعاصي التي ورد أنها حابطة لبعض الحسنات من غير قول بالحبط ، بل يكون الإستحقاق أو الوعد مشروطاً بعدم صدور تلك المعصية .

نعم ، هذا التفسير إنما نحتاج إليه في جانب الإحباط ، وأما في جانب التكفير فلا حاجة إليه ، بل لنا أنْ نقول إنّ التوبة والأعمال المكفِّرة يذهبان العقاب المكتوب على المعاصي من دون حاجة إلى القول بكون الإستحقاق مشروطاً بالموافاة على الكفر ، لجواز تفضّله سبحانه بالعفو .

هذا ، ولا يصح القول بالإحباط والتكفير في كل المعاصي ، بل يجب علينا تَتَبُّعُ النصوص ، فكلّ معصية وردت في الكتاب أو في الآثار الصحيحة أنها ذاهبة أو منقصة لثواب جميع الحسنات أو بعضها ، نقول بالإحباط فيها على التفسير الذي ذكرناه . وهكذا في جانب التكفير فلا يمكن لنا أن نقول إنّ كل حسنة تُذهب السيئة إلاّ بالنص .

إلى هنا تم بيان دليل النافين للإحباط على الوجه اللائق بكلامهم ، والإجابة عليه .

أدلة مُثْبِتي الإحباط

استدل القاضي على ثبوت الإحباط بوجه عقلي فقال : « قد ثبت أنّ الثواب والعقاب يستحقان على طريق الدوام ، فلا يخلو المكلّف إما أنْ يستحق الثواب فيثاب ، أو يستحق العقاب فيعاقب ، أو لا يستحق الثواب ولا العقاب ، فلا يثاب ولا يعاقب ، أو يستحق الثواب والعقاب ، فيثاب ويعاقب دفعة واحدة ، أو يؤثر الأكثر في الأقل على ما نقوله .

ولا يجوز أن لا يستحق الثواب ولا العقاب ، فإن ذلك خلاف ما اتفقت عليه الأُمّة . ولا أنْ يستحق الثواب والعقاب معاً فيكون مثاباً ومعاقباً دفعة واحدة، لأن ذلك مستحيل ، والمستحيل مما لا يستحق . . .

فلا يصح إلا ما ذكرناه من أن الأقل يسقط بالأكثر . وهذا هو الذي يقوله الشيخان أبو علي وأبو هاشم ولا يختلفان فيه ، وإنّما الخلاف بينهما في كيفية ذلك[1] .

يلاحظ عليه : إنّه مبني على أنّ استحقاق العقاب على وجه الدوام ، وهو مبني على أنّ مرتكب الكبيرة مُخلّد في النار ، وبما أنّ الأساس باطل ، فيبطل ما بني عليه ، فلا دليل على دوام استحقاق العقاب . وعلى ذلك فالحصر غير حاصر ، وإنّ هنا شقا سادساً ترك في كلامه ، وهو أنّه يستحق الثواب والعقاب معاً لكن لا دفعة واحدة ، بل يعاقب مدة ثم يخرج من النار فيثاب بالجنة على ما عليه جمهور المسلمين .

وقد نقل القاضي عبد الجبار ، وجهاً عقلياً آخر للإحباط عن الشيخ أبي علي وأجاب عنه ، فلاحظ[2] .

---

(١) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٢٥ . وترك تعليل الوجه الأول (وهو أن يستحق الثواب فقط) والثاني (وهو أن يستحق العقاب فقط) ، لوضوحه .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٣٠ ـ ٦٣١ ، وحاصل هذا الدليل أنّ المكلّف ، بارتكاب الكبيرة تخرج نفسه من صلاحية استحقاق الثواب . وهو كما ترى دعوى بلا دليل ، إذ لا دليل على أنّ كل معصية لها هذا الشأن ، وليست كل معصية كالكفر والإرتداد والنفاق .

تحليل لمسألة الإحباط

وها هنا تحليل آخر للمسألة وهو أنّ في الثواب والعقاب أقوال :

١ ـ الثواب والعقاب في الآخـرة من قبيل الأُمـور الوضعيـة الجعلية كجعـل الأُجرة للعامل ، والعقاب للمتخلّف في هذه النشأة .

٢ ـ الثواب والعقاب في الآخرة مخلوقان لنفس الإنســان حسب الملكات التي اكتسبها في هذه الدنيا ، بحيث لا يمكن لصـاحب هذه الملكـة ، السكون والهـدوء إلا بفعل ما يناسبها .

٣ ـ الثواب والعقاب في الآخرة عبارة عن تمثّل العمل في الآخرة وتجلّيه فيهـا بـوجوده الأُخـروي من دون أنْ يكـون للنفس دور في تلك الحيـاة ، في تحـلي هـذه الأعمال بتلك الصور ، بل هي من ملازمات وجود الإنسان المحشور .

فلو قلنا بالوجه الأول ، كان لما نقلناه من نفاة الحبط (من أنّ الإستحقاق أو استمراره مشروط بعدم الإتيـان بالمعصيـة) وجه حسن ، لأن الأُمـور الوضعيـة ، رفعها ووضعها ، وتبسيـطها ، وتضييقها، بيد المقنِّن والمشرِّع . وعنـدئذ يُجمـع بين حكم العقل ، بلزوم الوفاء بالـوعد ، ومـا دَلّ من الآيات عـلى وجود الإحبـاط في موارد مختلفة ، كما سيوافيك .

وقد عرفت حاصل الجمع ، وهو أن إطلاق الإحباط ليس لإبطال استحقاق الإنســان الثواب ، بـل لم يكن مستحقاً من رأس، لعدم تحقق شرط الثواب . وأمـا مصحح تسميته بالإحباط فقد عرفته أيضاً ، وهو أن ظاهـر العمل كـان يحكي عن الثواب وكان جزء علة له .

ولـو قلنا بـالوجـه الثاني ، وحـاصله أن الملكات الحسنـة والسيّئـة التي تعـدّ فعليات للنفس ، تحصل بسبب الحسنات والسيّئات التي كانت تصدر من النفس . فإذا قامت بفعل الحسنات ، تحصل فيها صورة معنويـة ، مقتضية لخلق الثـواب . كما أنّه إذا صدر منها سيئـة ، تقوم بهـا صورة معنـوية تصلح لأن تكـون مبدءً لخلق العقــاب . وبمـا أنّ الإنســان في معـرض التحـول والتغيـير من حيث الملكــات النفســانية ، حسب مـا يفعل من الحسنـات والسيئـات ، فـإنّ من الممكن بُـطلان

صورة موجودة في النفس وتبدُّلها إلى صورة غيرها ما دامت تعيش في هذه النشأة الدنيوية .

نعم ، تقف الحركة ويبطل التحول عند موافاة الموت ، فعند ذلك تثبت لها الصور بلا تغيير أصلاً .

فلو قلنا بهذا الوجه ، كان الإحباط على وفق القاعدة ، لأنّ الجزاء في الآخرة ، إذا كان فعل النفس وإيجادها ، فهو يتبع الصورة الأخيرة للنفس ، التي اكتسبتها قبل الموت . فإن كانت صورة معنوية مناسبة للثواب فالنفس منعّمة في الثواب من دون مقابلة بالعقاب ، لأن الصورة المناسبة للعقاب قد بطلت بصورة أُخرى . وإذا انعكست الصورة ، إنعكس الحُكْم .

وأما لو قلنا بالوجه الثالث ، وهو تَجَسُّم الأعمال وتمثلها في الآخرة بالوجود المماثل لها ، فالقول بعدم الإحباط هو الموافق للقاعدة ، إذ لا معنى للإبطال ، في النشأة الأُخرى .

غير أن الكلام كلّه في انحصار الثواب والعقاب بهذين الوجهين الأخيرين ، وقد عرفت في الجزء الأول أنّ المتشرع لا يتجرأ على القول بذلك[1] .

عوامل الإحباط وأسبابه

البحث عن عوامل الإحباط وأسبابه ، بحثٌ نقلي يتوقف على السبر والفحص في الكتاب والسنة ، ونكتفي في المقام بما جاء في الكتاب العزيز .

١ ـ الإرتداد بعد الإسلام

قال سبحانه : **﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِه فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ ، فأُولٰئِكَ حَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، وأُولٰئِكَ أصحابُ النَّارِ هُمْ فيها خالِدُونَ ﴾**[2] .

---

(١) لاحظ « الإلهيات » ج ١ ، ص ٢٩٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢١٧ .

٢ ـ الشرك المقارَن بالعمل

يقول سبحانه : ﴿ ما كانَ للمُشْرِكِينَ أنْ يَعْمُروا مساجِدَ اللهِ شاهِدينَ علىٰ أنْفُسِهِمْ بالكُفْرِ أُولٰئِكَ حَبِطَتْ أعْمالُهُمْ وفي النّارِ هُمْ خالِدُونَ ﴾[1] .

وقد كان المشركون يزعمون أنّ العمل الصالح بنفسه موجب للثواب ، غير أنّ القرآن شطب على هذه العقيدة ، وصرّح بأن الثواب يترتب على العمل الصالح ، إذا صدر من فاعل مؤمن .

ولأجل ذلك أتبع الآية السابقة بقوله : ﴿ إنَّما يَعْمُرُ مساجِدَ الله مَنْ آمَنَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ ﴾[2] .

٣ ـ كراهة ما أنزل الله

قال سبحانه : ﴿ وَالَّذينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وأضَلَّ أعْمالَهُمْ * ذَلِكَ بأنَّهُمْ كَرِهُوا ما أنْزَلَ اللهُ فَأحْبَطَ أعْمالَهُمْ ﴾[3] .

٤ ـ الكُفر

٥ ـ الصّدُّ عن سبيل الله

٦ ـ مجادلة الرسول ومشاقّته

وقد جاءت هذه العوامل الثلاثة في قوله سبحانه : ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عن سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أعْمَالَهُمْ ﴾[4] .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٧ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٨ .

(٣) سورة محمد : الآيتان ٨و٩ .

(٤) سورة محمد : الآية ٣٢ . ولاحظ في عامل الكفر ، سورة التوبة : الآية ٦٩ .

وهل كل منها عاملٌ مستقلٌ ، أو أنّ هنا عاملاً واحداً هو الكفر ، ويكون حينئذٍ الصَّدُّ عن سبيل الله ومشاقّة الرسول من آثار الكفر ، فهم كفروا ، فصدوا وشاقوا ؟ .

تظهر الثمرة فيما لو صَدّ إنسانٌ عن سبيل الله لأغراض دنيوية ، أو شاقّ الرسولَ لحالةٍ نفسانية مع اعتقاده التام بنبوة ذاك الرسول وقبح عمل نفسه. فلو قلنا باستقلال كل منهما في الحبط ، يحبط عمله ، وإلا فلا . وبما أن الآية ليست في مقام البيان ، بل تحكي عمل قوم كانت لهم هذه الشؤون فلا يمكن استظهار استقلال كل منهما في الحبط . نعم ، يمكن القول بالإستقلال من باب الأولوية ، وذلك أنّه إذا كان رفع الصوت فوق صوت النبي من عوامل الإحباط كما سيأتي ، فكيف لا يكون الصّدّ والقتل من عوامله ؟ .

٧ ـ قتل الأنبياء

٨ ـ قتل الآمرين بالقِسْط من الناس

قال سبحانه : ﴿ إنَّ الّذينَ يَكْفُرون بآياتِ اللهِ ، ويَقْتُلونَ النَّبِيِّينَ بغير حقٍّ ، وَيَقْتُلونَ الّذِين يأمُرونَ بالقِسْطِ مِنَ النّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعذابٍ أليمٍ * أُولئِكَ الّذِينَ حَبِطَتْ أعمالُهُمْ في الدُّنيا والآخِرَةِ وما لَهُمْ من ناصِرينَ ﴾[1] .

٩ ـ إساءة الأدب مع النبي

قال سبحانه : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أصواتَكُم فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وأَنْتُمْ لا تَشْعُرونَ ﴾[2] .

وربما يُتصور أنّ رفع الصوت ليس عاملاً مستقلاً في الإحباط ، بل هو

---

(١) آل عمران : الآيتان ٢١ و ٢٢ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ٢ .

كاشف عن كفر الرافع . ولكنه احتمال ضعيف ، لأنَّ الآية تخاطب المؤمنين به بقولها : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا ﴾ .

نعم ، لا يمكن الإلتزام بأنّ كل إساءة بالنسبة إلى النبي تُحبط الأعمال الصالحة[1] ، إلا إذا كانت هتكاً في نظر العامة ، وتحقيراً له في أوساط المسلمين ، كما هو الظاهر من أسباب نزول الآية .

١٠ ـ الإقبال على الدُنيا والإعراض عن الآخرة

قال سبحانه : **﴿ مَنْ كانَ يُريدُ الحَياةَ الدُّنيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إليهِمْ أعْمَالَهُمْ فِيها وهُمْ فِيها لا يُبْخَسونَ * أُولَئِكَ الَّذينَ ليسَ لَهُمْ في الآخرةِ إلّا النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعوا فيها وباطِلٌ ما كانوا يَعْمَلونَ ﴾**[2] .

ويمكن أن يقال إنّ الإقبال على الدنيا بهذا النحو الذي جاء في الآية ، يساوق الكفر ، أو يساوق ترك الفرائض ، والتوغل في الموبقات ، فتكون إرادة الحياة الدنيا وزينتها إشارة إلى العامل الواقعي .

١١ ـ إنكار الآخـرة

قال سبحانه : **﴿ والَّذينَ كَذَّبُوا بآياتِنا ولِقاءِ الآخرةِ ، حَبِطَتْ أعمالُهُم ﴾**[3] .

وهو فرع من فروع الكفر وليس عاملاً مستقلاً .

١٢ ـ النفـاق

قال سبحانه : **﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعَوِّقينَ مِنْكُمْ والقائِلينَ لإخوانِهم هَلُمَّ إلينَا ولا يَأتونَ البأسَ إلّا قليلاً * . . . . أُولئِكَ لَمْ يُؤمِنوا فَأحْبَطَ اللهُ أعْمَالَهُمْ وكانَ ذَلِكَ**

---

(١) كالغضب في محضره صلوات الله عليه وآله .

(٢) سورة هود : الآيتان ١٥و١٦ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٤٧ . ولاحظ سورة الكهف : الآية ١٠٥ .

على اللهِ يَسيراً ﴾[1] .

وقوله : ﴿ لإخوانهم ﴾ ، يدل على أنّهم لم يكونوا مؤمنين بل كانوا منافقين . ويصرّح به قوله :﴿ أُولئك لم يُؤمِنوا ﴾. وعلى ذلك فيرجع النفاق إلى عامل الكفر وعدم الإيمان ، وليس سببا مستقلاً .

هذه هي أبرز أسباب الإحباط في الذكر الحكيم ، وقد عرفت إمكان إدغام البعض في البعض . وعلى كل تقدير فالإحباط هنا هو بطلان أثر المقتضى ، لا إبطال أثرٍ ثابتٍ بالفعل ، كما تقدم .

* * *

ثانياً : التكفير

التكفير هو إسقاط ذنوب المعاصي المتقدمة بثواب الطاعات المتأخرة ، وهو لا يعدّ ظلماً ، لأن العقاب حق للمولى ، وإسقاط الحق ليس ظلماً بل إحسان ، وقد عرفت أنّ خُلْفَ الوعيد ليس بقبيح وإنما القبيح خلف الوعد . فلأجل ذلك لا حاجة إلى تقييد استحقاق العقاب أو استمرار استحقاقه ، بعدم تعقّب الطاعات . بل الإستحقاق واستمراره ثابتان ، غير أنّ المولى سبحانه ، تَفَضُّلاً منه ، عفى عن عبده لفعله الطاعات .

قال سبحانه : ﴿ إنْ تَجْتَنِبوا كبائِرَ ما تُنْهَونَ عَنْهُ نُكَفِّر عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَريماً ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ يا أَيُّها الَّذين آمَنوا إنْ تَتَّقوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ ذو الفَضْلِ العظيمِ ﴾[3] .

وقال سبحانه : ﴿ والَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وآمَنُوا بما نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ

---

(١) سورة الأحزاب : الآيتان ١٨و١٩ .

(٢) سورة النساء : الآية ٣١ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٢٩ .

وَهُوَ الحَقُّ من رَبِّهِم كَفَّرَ عنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وأَصْلَحَ بالَهُمْ ﴾[1] .

ولا يمكن استفادة الإطلاق من هذه الآيات ، وأنّ كـل معصية تُكَفَّـر ، لأنها بصدد بيان تشريع التكفير ، وأما شروطه وبيـان المعاصي التي تكفَّـر دون غيرهـا ، فلا يستفاد منها . وإنما الظاهر من الآية الأولى هو اشتراط تكفير الـذنوب الصغـيرة باجتناب الكبيرة منها ، ومن الآية الثانية ، اشتراط تكفير السيئات بـالتقوى ، ومن الثالثة ، تكفير السيئات للذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزِّل على الرسـول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم .

روى الكراجكي ، بسنده عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال : « وإنْ كان عليه فضل ، وهو من أهل التقوى ، ولم يشرك بالله تعالى ، واتقى الشرك به ، فهو من أهل المغفرة ، يغفر الله له برحمته إن شاء ويتفضل عليه بعفوه »[2] .

* * *

(١) سورة محمد (ص) : الآية ٢ .

(٢) البحار ، ج ٥ ، ص ٣٣٤، ح ٢ .

مباحث المعاد

(١٧)

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١]

لا خلاف بين الأمة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، غير أنّ القاضي عبد الجبار ، نسب إلى شرذمة من الإمامية عدم وجوبهما[٢] . والنسبة في غير محلها ، فإنهم عن بكرة أبيهم ، مقتفون للكتاب والسنة . وصريح الآيات وأحاديث العترة الطاهرة على الوجوب .

روى جابر بن عبد الله الأنصاري ، عن أبي جعفر الباقر ، أنه قال :

« إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ، ومنهاج الصلحاء ، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن المذاهب ، وتحل المكاسب ، وترد المظالم ، وتعمر الأرض وينتصف من الأعداء ، ويستقيم الأمر »[٣] .

وأما كلمة المحققين ، فيكفي في ذلك مراجعة كتبهم الكلامية والفقهية[٤] .

---

(١) وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأحكام الفرعية الفقهية ، غير أنّ القوم بحثوا عنه في الكتب الكلامية لأنه من الأحكام الإجتماعية التي لها دور أساسي في تطوير المجتمع وسوقه إلى الصلاح ، ونحن اقتفينا أثرهم في هذا المقام .

(٢) شرح الأصول الخمسة : ص ٧٤١ .

(٣) وسائل الشيعة ، ج ١١ ، الباب الأول ، من أبواب الأمر بالمعروف ، الحديث ٧ ، ص ٣٩٣ .

(٤) لاحظ أوائل المقالات ، ص ٩٨ وكشف المراد ، ص ٢٧١ ، ط صيدا .

١ ـ وجوبهما عقلي أو شرعي

هل يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عقلاً ، أو لا يجبان إلا شرعاً ؟

القائلون بوجوب اللطف المقرِّب يلزمهما القول بوجوبهما عقلاً ، لأنّ اللطف ليس إلا تقريب العباد إلى الطاعة وإبعادهم عن المعصية . ومن أوضح ما يحقّق تلك الغاية هو الأمر بالمعروف بعامة مراتبه .

وأورد عليه المحقق الطوسي ما هذا توضيحه :

لو وجبا عقلاً على الله تعالى ، فإنّ كل واجب عقلي ، يجب على كل من حصل في حقه وجه الوجوب ، ولو وجب عليه تعالى لكان إما فاعلاً لهما ، فكان يلزم وقوع المعروف قطعاً ، لأنه تعالى يحمل المكلفين عليه ، وانتفاء المنكر لأنه تعالى يمنع المكلفين عنه ، وهذا خلاف ما هو الواقع في الخارج ، وإما غير فاعل لهما ، فيكون مخلاً بالواجب ، وذلك محال ، لما ثبت من حكمته تعالى .

وإلى هذا المعنى أشار هذا المحقق بقوله : « لو كانا واجبين عقلاً لزم ما هو خلاف الواقع ، أو الإخلال بحكمته سبحانه »[١] .

يلاحظ عليه : إنّ وجوبهما عقلاً لا يلازم وجوبهما على الله سبحانه بعامة مراتبهما ، لأنه لو وجب عليه كذلك يلزم الإخلال بالغرض وإبطال التكليف ، وهذا يصد العقل عن إيجابهما على الله سبحانه فيما لو استلزم الإلجاء ، فيُكتفى فيهما ببعض المراتب ، كالتبليغ والإنذار مما لا ينافي حرية التكليف ، وهما متحققان .

وإلى ما ذكرنا يشير شيخنا الشهيد الثاني بقوله : « لاستلزام القيام به على هذا الوجه (من وجوبه قولاً وفعلاً) الإلجاء الممتنع في التكليف ، ويجوز اختلاف الواجب باختلاف محالّه ، خصوصاً مع ظهور المانع ، فيكون الواجب في حقه تعالى الإنذار والتخويف بالمخالفة لئلا يبطل التكليف . والمفروض أنّه قد فعل »[٢] .

---

(١) كشف المراد ، ص ٢٧١ ، ط صيدا .

(٢) الروضة البهية ، ج ١ ، كتاب الجهاد ، الفصل الخامس ، ص ٢٦٢ ، الطبعة الحجرية .

وهذا صحيح لو كان اللطف المقرب واجباً ، ولكنك عرفت أنّ وجوبه غير ثابت ، وإنما الثابت هو اللطف المحصِّل للغرض[١] .

٢ ـ شرائط وجوبها

قد فصّل الفقهاء والمتكلمون الكلام في شرائط وجوبها ، وإليك بيانها .

أ ـ عِلْم فاعلها بالمعروف والمنكر .

ب ـ تجويز التأثير ، فلو علم أنهما لا يؤثران لم يجبا .

ج ـ انتفاء المضرّة ، فلو علم أو غلب على ظنه حصول مفسدة له أو لبعض إخوانه في أمره ونهيه ، سقط وجوبها دفعاً للضرر .

د ـ تنجّز التكليف في حق المأمور والمنهي ، فلو كان مضطراً إلى أكل الميتة ، لا تكون الحرمة في حقه منجّزة ، فلا يكون فعله حراماً ولا منكراً ، وإن كان الحكم في حق الآمر والناهي منجزاً .

نعم ، إنّ الشرط الثالث ، أي عدم المضرة ، شرط في موارد خاصة لا مطلقاً ، فربما يجب على الآمر والناهي تحمل الضرر وعدم ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك فيما إذا كانت المصلحة مهمة ، كما لو استلزم سكوته خروج الناس عن الدين ، وتزلزلهم في العقيدة ، فيحرم عليه السكوت ، بل يجب عليه الإصحار بالحقيقة وإن بلغ ما بلغ من ضرب أو شتم أو حبس ، حتى القتل .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا ظهرت البدع في أُمتي ، فليظهر العالم علمه وإلا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[٢] .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : « وما أخذ الله على العلماء أنْ لا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سَغَب مظلوم »[٣] .

---

(١) راجع الدليل الخامس من أدلة وجوب بعثة الأنبياء .

(٢) سفينة البحار ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة الثالثة .

وبذلك يعلم أنّ التقية مشروعة ، ولكن لها حدود ولها أحكام ، فكما أنّها تجب ، فربما تحرم ، والتفصيل موكول إلى محله[1] .

٣ ـ وجوبهما عيني أو كفائي ؟

الظاهر ، كما هو المعروف ، كون وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كفائياً ، لأنّ الغرض شرعاً هو وقوع المعروف وارتفاع المنكر ، من غير اعتبار مباشر معين ، وهذا آية كون الوجوب كفائياً ، فإذا حصلا ، ارتفع الوجوب .

والإستدلال على وجوبهما عيناً بالعمومات، مثل قوله سبحانه : ﴿ **كُنْتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ تأْمُرونَ بالمعروفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر** ﴾[2] ، غير كافٍ ، لأنّ الواجب الكفائي ، يشترك مع الواجب العيني في كون الشيء واجباً على العموم ، إلا أنه يسقط بفعل واحد من المكلفين ، بخلاف العيني . فتوجه الخطاب إلى العموم ، مشترك بين العيني والكفائي .

٤ ـ مراتبهما

إنّ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب تبتديء بالقلب فاللسان فاليد ، وتنتهي بإجراء الحدود والتعزيرات والجهاد .

قال الإمام الباقر عليه السلام : « فأنْكِروا بقلوبكم ، والفُظوا بألسنتكم ، وصكوا بها جباههم ، ولا تخافوا في الله لومة لائم »[3] .

وبهذا يصبح الأمر بالمعروف على قسمين : قسم لا يحتاج إلى جهاز وقدرة ، وهذا ما يرجع إلى عامة الناس ، وهو كالإنكار بالقلب ، والتذكير أو النهي باللفظ . وقسم يحتاج إلى الجهاز والقوة ، ويتوقف على صدور الحكم من المحاكم

---

(١) لاحظ رسالة الأُستاذ الفقهية في التقية ، فقد أثبت أنّ التقية ربما تحرم إذا كان الفساد في تركها أوسع وسيوافيك بحث التقية في الخاتمة .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

(٣) الوسائل ، ج ١١ ، كتاب الجهاد ، الباب الثالث من أبواب الأمر بالمعروف ، الحديث ٢ .

القضائية وهـذا يرجـع إجراؤه إلى السلطة التنفيـذية القـائمة في الـدولة الإسـلامية بأركانها الثلاثة[1] .

هذا ، وقد كان على القـاضي أن يؤاخذ الحنـابلة والأشاعـرة ، حيث إنهم لا يرون الخروج على أئمة الجور ، ويرون إطـاعتهم واجبة ، مـا لم يأمـروا بمعصية ، وقد تقدّم نقل نُبَذٍ من نصوصهم في ذلك .

* * *

---

(١)لاحظ جواهر الكلام ، ج ٢١ ، ص ١٣ .

* أسئـلة حول المعاد

١ ـ نشور الإنسان دفعي أو تدريجي ؟ .
٢ ـ ما هو المحشور من الأبدان المتعددة ؟ .
٣ ـ هل المعاد إعادة للمعدوم ؟ .
٤ ـ شبهة عدم كفاية المواد الأرضية .
٥ ـ شبهة الآكل والمأكول .
٦ ـ مكان بعث النفوس وحشرها .
٧ ـ كيف يخلد الإنسان مع أنّ المادة تفنى ؟ .
٨ ـ ما هو الغرض من عقاب المجرم وتنعيم المسيء ؟ .
٩ ـ من هم المخلّدون في النار ؟ .
١٠ ـ هل يجوز العفو عن المسيء ؟ .
١١ ـ هل الجنّة والنار مخلوقتان ؟ .

أسئلة المعاد

(١)

نشور الإنسان دفعي أو تدريجي ؟

إن تكامل الإنسان من خلية إلى أن يصير بدناً متكاملاً ، رهن تفاعلات تدريجية ، معلومة لكلّ منّا ، فهل عَوْد الإنسان إلى الحياة من جديد رهن هذا الناموس التدريجي أو لا ؟

الجواب

كل من أراد تفسير المعاد من هذا الطريق ، يريد إخضاع المسائل الغيبية ، للقوانين الطبيعية المحسوسة ، ولكن السمع يرد هذا الفرض ، ويعرّف المعاد بأنّه يحصل دفعة ، والآيات في هذا المجال متعددة ، منها قوله سبحانه :

﴿ ثُمَّ إذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إذا أَنْتُمْ تَخْرُجونَ ﴾[١] .

والآية ظاهرة في أنّ الدعوة تكوينية متعلقة بإعادة خلق الإنسان من جديد ، وأن تلك الدعوة التكوينية الملازمة لخلق الإنسان ، مقارنة لخروجه ، فالدعوة والخروج يتحققان في زمن واحد .

ويؤيد ذلك الآيات الكثيرة التي تصرح بأن القيامة ، تحدث بغتة وفجأةً وهم لا يشعرون ، كقوله سبحانه :

---

(١) سورة الروم : الآية ٢٥ .

﴿ حتّىٰ إذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالوا يا حَسْرَتَنا على ما فَرَّطْنَا فيها ﴾[1] .
وهذه الآية وإن كانت واردة في الموجودين زمن حدوث القيامة ، ولكن لو كان تَكَوُّنُ الأموات تحت التراب أمراً تدريجياً ، لَعَلِمَ به الأحياء قبيل حصول القيامة ، لفحصهم الدائم في الأرض .

* * *

(١) سورة الأنعام : الآية ٣١ ، ولاحظ في ذلك الأعراف : الآية ١٨٧ ، الأنبياء : ٤٠ ، الحج : ٥٥ ، الشعراء : ٢٠٢ ، العنكبوت : ٥٣ ، الزمر : ٥٥ ، الزخرف : ٦٦ ، محمد : ١٨ ، والكلّ يدل على أنّ تكوّن الإنسان عند بعثه ، يحصل دفعةً واحدة .

أسئلة المعاد

(٢)

ما هو المحشور من الأبدان المتعددة ؟

أثبت العلم أنّ بدن الإنسان وخلاياه في مهب التغيّر والتبدل ، وأنّه يأخذ لنفسه في كل عشرة أعوام بدناً ، فلو عاش إنسان ثمانين سنة ، فإنّه سيكون له ثمانية أبدان ، ومن المعلوم أنّ الإطاعة والعصيان يقعان في جميع فترات عمر الإنسان ، والجزاء والثواب على مجموع الأعمال .

وعندئذ يتساءل ، هل المحشور جميع أطوار بدن الإنسان الواحد ، فهو غير معقول ، أو واحد من هذه الأبدان ، وهو يستلزم نقض قانون الجزاء والثواب ، وأن يكون بدن واحد حاملاً لأوزار الأبدان الأُخر .

والجـــواب :

إنّ هذا السؤال نابع من إنكار الروح والإعتقاد بأصالة المادة وأمّا على ما ذكرنا من أنّ البدن ليس إلاّ أداة لتنعيم الإنسان وتعذيبه ، وأن الأمور الروحية من الفرح والحزن واللذة والألم ، كلها أُمور مربوطة بالروح ، ويتوصل إليها الروح بالبدن والأجهزة الظاهرية ، فالنعمة الملذة ، إنما يصل إليها الإنسان من طريق الجهاز السمعي ، فإنه آلة ، والملتذ هو الروح ، والمَناظر الخلابة إنما تصل إليها النفس عن طريق العين ، وهكذا سائر اللذات ، والآلام الروحية ، وعلى ذلك فالحافظ للعدالة هو أن ترد اللذة والألم على روح واحدة ، من غير فرق بين الأبدان .

وهـذا نظير تعـذيب بعض المجرمـين بإكسـائهم ثوبـاً ليمسهم العـذاب من طريقه ، فالمضروب ظاهراً هو اللباس، ولكن المتألم هو الإنسان .

وبعبـارة أخرى ، إن الـروح هي الرابط الـوثيق بين جميـع الأبـدان ، فهي تضفي عليها جميعها وصف الـوحدة ، وتعـرّفها جميعهـا بأنها فـلان بن فلان ، من دون أن يضر اختلافها في الهيئة والشكل والحجم بوحدة الإنسان ، هذا .

وربما يتخيّل أنّ المعـاد هو البـدن الأخير ، الـذي هو عصـارة جميع الأبـدان الماضية ، والجامع لعامة خصوصياتها .

ولكن ، غَـيْرُ خَفِيّ أنّ هذا الأصـل المزعـوم (وهـو كـون البـدن الأخـير ، عصارة الأبدان المتقدمة) ، مما لا أصل له ، لأنّ الأبدان في الفـترات المتوسـطة من العمـر ، لها من القـوة والنشاط مـا تفقده الأبـدان الواقعـة في العقـود الأخـيرة من العمر .

أضف إلى ذلـك أن الجـواب مبني عـلى إعـطاء الأصـالـة للمادة ، وزعم أنّ الإنسان هو نفس الجلود واللحوم والعظام وأن البدن الأخير عصارة كلّ ما تقدّم .

نعم ، ربما يستظهر من قوله سبحانـه : ﴿ وإذا نُفِخَ في الصُّورِ فـإذا هُمْ مِنَ الأجداثِ إلىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلونَ ﴾[1] ، أنّ المعاد هو البدن الأخير ، ولكنّ الاستظهـار في غير محله فإنّ الآية كناية عن خروج النـاس من التراب للحسـاب والجزاء نـظير قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفيها نُعِيـدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْـرِجُكُمْ تارَةً أُخـرى ﴾[2] . وأما كون الخارج هو البدن الأخير فليست الآية بصدد بيانه .

والشاهد على ذلك أنّ من الناس من يخطفـه الطير ، أو تفترسه السبـاع ، أو يحيط بـه الموج فتـأكله حيتان البحـر ، أو تصيبه نـار فتحـرقـه ، والآيـة تعم هـذه الأصناف أيضاً ، مع أنهم لم يقبروا في الأجداث .

* * *

(١) سورة يس : الآية ٥١ .

(٢) سورة طه : الآية ٥٥ .

هل المعاد إعادة للمعدوم ؟

إذا كان الموت إفناء للإنسان أو لبعضه ، فكيف يمكن إعادة ما بطل وانعدم ؟ فإنه لا يكون إلا خلقاً جديداً لا إعادة له خصوصاً إذا لم يكن بين المبتدأ والمعاد رابطة وصلة .

والجواب :

إنّ هذا السؤال نابع ممّا يزعمه السذج من الناس من أنّ الموت إعدام لجثة الإنسان وبدنه نظير إحراق الحطب ، فإنّ قسماً منه يتبدل إلى الدخان وينعدم ، ولا يبقى منه إلا شيء ضئيل نسميه بالرماد ، فلو كان الموت بهذا المعنى فيكون المعاد إعادة للإنسان المعدوم .

ولكن قانون بقاء المادة ، يبطل هذا الزعم ، فإنّه ينص على أنّ المادة لا تنعدم ، بل تتحول من صورة إلى صورة أُخرى[1] .

وعلى ضوء هذا ، فالتفاعلات الحاصلة في المادة الحيّة ، أو غير الحية ، لا تنقص من وزن المادة شيئاً ، فالعالم من حيث الوزن ثابت ، وإنّما الإختلاف في الصور والأنواع ، وهذا القانون دَعَمَ دعوة الأنبياء بأنّ البشر خلقوا للبقاء لا

---

(١) وهو قانون لا فوازييه ، (١٧٤٣-١٧٩٤) .

للفناء ، كما دَفَعَ توهم كـون الموت إعـدام لقسم من مادة البشر ، وأثبت أنّ هنـاك مادة واحدة ثابتة في مهب التفاعلات الفيزيائية والكيميائية والحيويـة ، وإنما التغـير في الصور الطارئة عليها .

نعم ، سبقه علماء الإسلام ، في تأسيس هذا الأصـل لكن بصورة أوسـع ، وهو أنّ الوجود لا يتطرق إليه العدم .

* * *

أسئلـة المـعاد

(٤)

شبهة عَدَم كِفَايَة الموادّ الأرضية لإحياء الناس

قـد كشفت التنقيبات الجيـولوجيـة والأتربـة على أن الإنسـان يعيش في هذا الكوكب منذ قرابة مليـوني سنة ، وعـلى هذا فلو كـان المعاد عـاماً لجيمـع الناس ، الذين عاشوا على هـذه الكرة ، فكيف يكـون ترابهـا كافيـاً لإحيائهم ، فـإن المعاد حسب ما مرّ معاد عنصري ، يعود كل إنسان إلى بدنه العنصري ، فالمعادون كثر ، مع أن ما يعادون به ، وهو المواد العنصرية الأرضية قليل لا يكفيهم .

قال صدر المتألهين في بيـان هذه الشبهـة : « إن جرم الأرض مقـدور محصور ممسـوح بالفـراسخ والأميـال والأذرعة ، وعـدد النفوس غير متناه فلا يفي مقـدار الأرض ، ولا يسع لأن تحصل منه الأبدان غير المتناهية »[١] .

والجواب عن هذا السؤال من جهات ثلاث ، عقلية وعلمية وسمعية :

الجهة الأولى : الجواب العقلي ، وهو أمور :

أولاً : إن ما تنقله لنا هذه التنقيبات والحفريات التاريخية والطبيعية ليس على درجة يفيد القطع واليقين ، حتى نرفع باقوالهم اليـد عن الوحي الإلهي أو نـتردد في صحة المعاد .

---

(١) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٠٠ .

وثانياً : لم يدل دليل على أن بدن الإنسـان كنفس البدن الـدنيوي في الحجم والوزن وسائر الجهات المادية ، بل يكفي أن يصدق على المعاد أنه نفس المبتدأ وأما المطابقة في سائر الجهات فلم يدل عليها دليل .

وثـالثاً : لـو فرض عـدم كفايـة المواد الـترابية لإحيـاء جميع من قـطنوا هـذا الكوكب ، فلا مانع من تكميلها بتراب الكرات الأُخرى ، وليس ذلك على خلاف العـدل ، لمـا عـرفت من أنّ الثـواب والعقـاب بمـلاك الـروح والنفس ، فـالنفس الإنسانية إذا أدخلت في أي بدن كان ، وحُشِرَت مع أي جسم إنساني ، فهو هو ، وليس غـيره ، وإنما يكـون البدن أداة ووسيلة لتعـذيبـه ، وتنعيمـه ، ولـولا دلالـة القـرآن على أنّ المُعـاد في الآخرة عنصري ، لكـان العقـل مكتفيـاً بـإعـادة الـروح والنفس غـير أنّ إصرار الذكـر الحكيم ، عـلى كـون المعـاد عنصريـاً ، يصـده عن الإكتفاء بالمعاد الروحاني .

وعلى ضوء ذلك ، فلو كانت المواد الأرضية غير كافيـة لإحياء كـل من سكن هذا الكوكب ، فلا مانع من تكميل بدن كل إنسان بمواد من كواكب أُخرى .

هذه الأجوبـة ، أجوبـة عقلية ، وهنـاك أجوبـة أُخرى تعتمـد على التجـربة والدليل العلمي .

الجهة الثانية : الجواب العلمي ، وهو أمور :

إن ما ذكروه من عدم كفايـة تراب الأرض لإحيـاء الناس بـاطل بـالنظر إلى حجم المـواد الأرضية وذلـك لأن حجم الكرة الأرضيـة يبلغ ألفا وثـلاثـة وثـمانـين ملياراً ، وثلاثمائة وعشرين مليون كيلو متر مكعب[1] ، هذا من جهة .

ومن جهـة أُخرى إنّ صنـدوقاً بحجم كيلو مـتر مكعب ، بمعنى أنّ كـلا من طوله وعرضه وارتفاعه يبلغ كيلو متراً واحداً ، إنّ مثـل هذا الصنـدوق يسع داخله لأضعاف عدد سكان الأرض الحاليين[2] .

---

(١) ١,٠٨٣,٣٢٠,٠٠٠,٠٠٠ .

(٢) دلّت الإحصاءات الأخيرة أنّ عدد سكان الأرض حالياً يبلغ قرابة خمسة مليارات إنسان .

وذلك أنّ كل كيلو متر في الطول يسع خمسة آلاف إنسان ، يقف كل منهم إلى جانب الآخر ، وكل كيلو متر في الارتفاع يسع سبعمائة وخمسين إنساناً متوسط طول الواحد منهم متراً ونصف المتر ، يقف كل منهم على رأس الآخر ، فإذا أردنا حساب من يمكن أن يحويه ذاك الصندوق ، فما علينا إلا أن نضرب الطول بالعرض بالإرتفاع[1] ، فتكون النتيجة اتساع هذا الصندوق لثمانية عشر مليار ، وسبعمائة وخمسين مليون إنسان .

هذه سعة الكيلو متر المكعب الواحد ، فما ظنك بسعة ألف وثلاثة وثمانين مليار ، وثلاثمائة وعشرين مليون كيلو متر مكعب ؟ إنها بالتأكيد تكفي لأضعاف ـ لا تحصى ـ ممن قطن هذه الكرة الأرضية .

فمسألة قلة المواد الأرضية لإحياء الناس ، مسألة ذهنية طرحت من غير تدبر في حجم العالم .

٢ ـ إنّ بدن الإنسان لا يتشكل من التراب فحسب ، بل الماء والغازات من العناصر الرئيسية التي يتكون منها بدن الإنسان . ويحيط بالأرض طبقة من الغازات تسمى بالغلاف الجوي ، تبلغ في الإرتفاع والسماكة ألف كيلو متر ، وتبلغ في الوزن خمسة ملايين مليار طن[2] هذا في جانب الغازات .

وأما في جانب المياه المتواجدة على سطح الكرة الأرضية فيكفينا أن نعرف أنّ إلقاء حجر في إناءٍ مملوء من الماء ، يوجب ارتفاع سطح الماء بما يساوي حجم هذا الحجر ، هذا من جهة .

ومن جهة أُخرى ، أثبت العلم الحديث أننا لو جمعنا كل البشر الذي يقطنون الكرة الأرضية[3] وألقيناهم في بحيرة قزوين ، فسوف لن يصل ارتفاع الماء في البحيرة إلى سنتيمتر واحد بل يكون أقلّ منه ، بمعنى أنّ ارتفاع المياه لن يكون محسوساً لنا .

---

(١) ٥٠٠٠×٥٠٠٠×٧٥٠=١٨,٧٥٠,٠٠٠,٠٠٠ إنسان .

(٢) ٥٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ .

(٣) وهم عند إجراء هذا الحساب ، ملياري إنسان .

هذا وليست هي إلا بحيرة[1] فما ظنّك ببحار الدنيا ومحيطاتها .

٣ ـ إن النيازك المشاهدة في الليالي هي نتيجة وصول أحجار وأتربة وأجسام ثقيلة من الفضاء الخارجي إلى الغلاف الجوي ، فيوجب احتكاكها الشديد به احتراقها وتناثرها ، وهبوطها على الأرض ذرات خفيفة لا تزعج الحياة عليها وهذه الأحجار توجب ازدياد المواد الأرضية زيادة مطّردة بشكل يومي ، وقال العلماء إنّ عشرين مليون حجراً فضائياً يصطدم يومياً بالغلاف الجوي وهي تسير بسرعة خمسين كيلو متراً في الثانية ، فتتلاشى وتتناثر وتهبط بلا إزعاج على القشرة الأرضية[2] .

وعلى هذا ، فالمواد الأرضية لم تزل في حال التوفر والازدياد ، والله يعلم إلى أي حد يصل حجمها إلى يوم البعث .

٤ ـ وصل العلم إلى أنّه لو كانت هناك قدرة على إزالة الفراغات المتخللة بين ذرّات المواد الأرضية لبلغت هذه الكرة العظيمة الهائلة في الحجم ، مقدار جوزة صغيرة . ولو فرض إفراغ فواصل ذرّات المنظومة الشمسية ، بشمسها وسيّاراتها الكبيرة والصغيرة ، لبلغ حجمها مقدار فاكهة كبيرة كالبطيخ هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، لو ازدادت الفراغات بين الذرات ، لازداد حجم العالم ازدياداً كبيراً ، فليس الحجم تابعاً لكثرة الذرات وقلتها ففي وسع المولى سبحانه ـ وهو على كل شيء قدير ـ أنْ يبسط فراغ المواد الأرضية فيزداد حجمها ، و تكفي لإحياء الموتى مهما بلغوا .

وليس هذا الأمر بعيداً عن الحس ، فإنا نرى أنّ حجم الماء يتفاوت في حالاته الثلاث التجمد والسيلان والتبخر ، وعليه فلا مانع من امتداد المادة الأرضية يوم القيامة إمتداداً هائلاً بحيث يصبح ما كان لا يكفي لإحياء أكثر من إنسان واحدٍ كافياً لإحياء الكثير من الناس ، هذا ما كشف عنه العلم .

---

(١) تبلغ مساحة بحيرة قزوين ٤٢٠,٠٠٠ كلم مربع .

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ، ص ٢٠ .

الجهة الثالثة : الجواب السمعي

قد أعرب الوحي عن كفاية مواد الأرض لإحياء الموتى بوجه خاص ، يفهمه المتدبّر في القرآن الكريم .

يقول سبحانه : ﴿ وإذا الأرْضُ مُدَّتْ ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرْضُ والجِبالُ ، فدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً ﴾[2] .

ومن المحتمل جداً أنْ يكون مد الأرض في ظل الاندكاك ، بكسر الذرّات الموجودة فيها ، فيبلغ حجم حجر يقدر بمتر مكعب إلى ملايين الكيلو مترات المكعبة .

فخرجنا بهذه النتيجة ، وهي أنّ تصور عدم كفاية المادة الأرضية لإحياء الناس ، باطل في العقل ، والعلم والوحي .

* * *

(١) سورة الإنشقاق : الآية ٣ .

(٢) سورة الحاقة : الآية ١٤ .

أسئلة المعاد

(٥)

شُبْهَةُ الآكل والمَأكُول

إنّ هذه الشبهة من أقدم الشبهات التي وردت في الكتب الكلامية حول المعاد الجسماني ، وقد أعتنى بدفعها المتكلمون والفلاسفة عناية بالغة ، والإشكال يقرر بصورتين :

الصورة الأولى : إذا أكل إنسانٌ إنساناً بحيث عاد بدن الثاني جزءً من بدن الإنسان الأول ، فالأجزاء التي كانت للمأكول ثم صارت للآكل ، إمّا أن تعاد في كل واحد منهما ، أو تعاد في أحدهما ، أو لا تعاد أصلاً . والأول محال ، لاستحالة أن يكون جزءٌ واحدٌ بعينه ، في آن واحد ، في شخصين متبائنين . والثاني خلاف المفروض ، لأنّ لازمه أنْ لا يعاد الآخر بعينه .

والثالث أسوأ حالاً من الثاني ، إذ يلزم أنْ لا يكون أي من الإنسانين معاداً بعينه . فينتج أنّه لا يمكن إعادة جميع الأبدان بأعيانها .

الصورة الثانية : لو أكل إنسان كافر ، إنساناً مؤمناً ، وقلنا بأنّ المراد من المَعاد هو حشر الأبدان الدنيوية في الآخرة ، فيلزم تعذيب المؤمن ، لأنّ المفروض أنّ بدنه أو جزءً منه ، صار جزء من بدن الكافر ، والكافر يُعَذَّب ، فيلزم تعذيب المؤمن[1] .

---

(١) لاحظ شرح المواقف للسيد شريف ، ج ٨ ، ص ٢٤٥ ، شرح المقاصد ، للتفتازاني ، ج ٤

وقبل الورود في الجواب نعلّق على هذا السؤال بأنه لا يختص بما ورد فيه من أكل إنسانٍ إنساناً، الذي لا يتفق حصوله إلاّ في أعماق الأدغال، والمجتمعات الوحشية ، بل السؤال يرجع إلى أمر يومي ملموس في المجتمعات المتحضرة ، وذلك أنّ النباتات والثمار والحُبوب التي يتغذّى عليها الإنسان تنبت من تراب الأرض ، الذي هو مزيح رفات الأموات الذين قضوا عبر الدهور ، والذي هو عصارة الأبدان وخلاصتها .

ونحن نرى أنّ المقابر الواقعة في أكناف البلاد تتبدل إلى حدائق للتفرج والتنزه أو إلى مزارع للاستثمار ، فيتغذى منها الحيوان والإنسان ، فيؤول بدن الإنسان الميت ، جزءً من الإنسان الحي ، فعندئذ يطرح السؤال المتقدم .

الجواب :

إن هذه أقوى شبهة تعترض القول بالمعاد الجسماني ، ونحن نذكر أولاً ما هو الحق عندنا في الإجابة ، ثم نشير إلى ما ذكره المتكلمون في ذلك :

أما الصورة الأُولى من الإشكال ، فبعض احتمالاتها ساقط جداً ، وهو عود المأكول جزء لكلا الإنسانين ، فيبقى الإحتمالان الآخران ، وبأي واحد منها أخذنا يندفع الإشكال ، وذلك بالبيان التالي :

إنّ الإنسان من لدن تكوّنه وتولده إلى يوم وفاته واقع في مهب التغير وخضم التبدل ، فليس وجوده جامداً خالياً عن التبدل . فبدن الإنسان ليس إلا خلايا لا يحصيها إلا الله سبحانه ، وكل منها يحمل مسؤوليته في دعم حياة البدن ، والخلايا

= ص ٢١٦ . والإشكال الثاني وارد فيه دون الأول . وكشف المراد ، ص ٢٥٥ ، ط صيدا . والأسفار ، ج ٩ ، ص ١٩٩ .

والفرق بين الصورتين هو أنّ الإشكال بالتقرير الأول يركز على نقص الإنسان المُعاد من حيث البدن ، ولكنه في التقرير الثاني يركز على أنّ المَعاد الجسماني في المقام يستلزم خلاف العدل الإلهي ، فالأساس في الإشكال في الصورتين واحد ، وهو كون بدن إنسان جزءً من بدن إنسان آخر ، ولكن المترتب على الصورة الأولى هو عدم صدق كون المُعاد هو المُنشأ في الدنيا ، وعلى الصورة الثانية هو تعذيب البريء مكان المجرم .

في حال تغير وتبدل مستمر ، تموت ويخلفها خلايا أُخرى ، وبهذا يتهيّء للبدن استمرار حياته ، من غير فرق بين الخلايا الدماغية وغيرها ، غاية الأمر أنّ الخلايا الدماغية ، ثابتة من حيث العدد دون غيرها .

وقد قال الأخصائيون بأن مجموع خلايا البدن تتبدل إلى خلايا أُخرى كل عشر سنوات ، فبدن الإنسان بعد عشر سنين من عمره يغاير بدنه الموجود قبل عشر سنين وعلى هذا فالإنسان الذي يبلغ عمره ثمانين سنة قد عاش في ثمانية أبدان مختلفة ، وهو يحسبها بدناً واحداً .

إذا عرفت ذلك ، فنقول : إن هناك فروضاً :

١ ـ فلو فرض أنّ بدن إنسان صار جزءً من بدن إنسان آخر ، فبما أنّ للمأكول أبداناً متعددة على مدى حياته ، فواحد منها مقرون بالمانع ، والأبدان الأُخر خالية منه فيحشر مع الخالي .

٢ ـ ولو فرض أنّ جميع أبدانه اقترنت بالمانع ، فإنه أيضاً لا يصد عن القول بالمعاد الجسماني ، لأنّ الناموس السائد في التغذية ، هو أنّ ما يستفيده الإنسان من الغذاء لا يتعدى ثلاثة بالمائة من المأكول والباقي يدفعه .

فإذاً لا مانع من أنْ تتعلق الروح بأحد هذه الأبدان التي تتفاوت عن البدن الدنيوي من حيث الوزن والحجم ، ولم يدل على أنّ المحشور في النشأة الأُخروية يتحد مع الموجود في النشأة الدنيوية في جميع الجهات وعامة الخصوصيات .

٣ ـ ولو فرض أنّ قانون التحول ساد على أبدان المأكول ، فلم يبق من كل بدن إلا النذر اليسير الذي لا يتشكل منه بدن إنسان كامل ، فلا مانع في هذا الفرض النادر من تكميل خلقته بالمواد الأرضية الأُخرى حتى يكون إنساناً قابلاً لتعلق الروح به ، وليس لنا دليل على أنّ المُعاد في الآخرة يتحد مع الموجود في الدنيا في جميع الجهات حتى المادة التي يتكون منها البدن .

نعم ، إنْ كانت المادة الترابية التي تكوّن منها البدن الدنيوي موجودة ، فلا وجه للعدول عنها إلى تراب آخر ، وأما إذا كانت مقرونة بالمانع ، فلم يبق إلا جزء

يسير لا يكفي لتكوّن البدن ، فلا غرو في أن يُتَسَبَّب في تكميل خلقته بالأخذ من المواد الترابية غير المقرونة بالمانع .

والذي يدل على ذلك أنه سبحانه في مقام التنديد بالمنكرين ، يعبر بلفظ المثل ، ويقول : ﴿ أَوَ لَيْسَ الذي خَلَقَ السَّموات والأَرْضَ بِقادِرٍ على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وهو الخَلّاقُ العليمُ ﴾[1] . الضمير في ﴿ مِثْلَهُمْ ﴾ يعود إلى المشركين المنكرين للمعاد ، وهذا يعرب عن كفاية المثل من غير حاجة إلى صدق العينية ، بالوحدة في المادة الترابية .

ويؤيد ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام : « فإذا قبضه الله إليه ، صيّر تلك الروح إلى الجنة في صورةٍ كصورته ، فيأكلون ويشربون ، فإذا قدم عليهم القادم عرفهم بتلك الصورة التي كانت في الدنيا »[2] .

فترى أنّ الإمام عليه السلام يذكر كلمة الصورة ، ولعلّ فيه تذكير بأنّه يكفي في المعاد الجسماني كون المُعاد متحداً مع المبتدأ في الصورة من غير حاجة إلى أنْ يكون هناك وحدة في المادة الترابية بحيث إذا طرأ مانع من خلق الإنسان منه ، فشل المعاد الجسماني ولم يتحقق .

والتركيز على وحدة المادة ، يبتني على تحليل وجود الإنسان تحليلاً مادياً وأنه ليس وراء المادة شيء آخر ، وأما على القول بأنّ واقعية الإنسان بروحه ونفسه ، وأنّ جميع خصوصياته وملكاته موجودة في نفسه ، فالمعاد الجسماني لا يتوقف على كون البدن المحشور نفس البدن الدنيوي حتى في المادة الترابية ، بل لو تكوّن بدن الإنسان المُعاد من أيّة مادة ترابية كانت ، وتعلقت به الروح ، وكان من حيث الصورة متحداً مع البدن الدنيوي ، يصدق على المُعاد أنه هو المُنشأ في الدنيا .

قال صدر المتألهين : « إن تشخّص كلّ إنسان إنما يكون بنفسه لا ببدنه ، وإنّ البدن المعتبر فيه ، أمر مُبْهَم ، لا تحصّل له إلا بنفسه ، وليس له من هذه

---

(١) سورة يس : الآية ٨١ .

(٢) البحار ، ج ٦ ، باب أحوال البرزخ ، الحديث ٣٢ ، ص ٢٢٩ .

الحيثية تعيّن ، ولا يلزم من كون بدن زيد مثلاً محشوراً أنْ يكون الجسم الذي منه صار مأكولاً لسبع أو إنسان آخر ، محشوراً ، بل كلّ ما يتعلّق به نفسه هو بعينه بدنه الذي كان . فالإعتقاد بحشر الأبدان يوم القيامة هو أنْ تُبْعَثَ أبدانٌ من القبور إذا رأى أحد كلّ واحدٍ منها يقول هذا فلان بعينه ، أو هذا بدن فلان ، ولا يلزم من ذلك أن يكون غير مبدّل الوجود والهوية . كما لا يلزم أن يكون مشوَّه الخَلْق وأن يكون الأقْطع والأعمى والهَرِم محشوراً على ما كانوا عليه من نقصان الخلقة وتشويه البنية »[١] .

ثم إن للمتكلمين جواباً آخر في الذب عن هذه الصورة من الإشكال حاصله أنّ المُعاد ، إنما هو الأجزاء الأصلية ، وهي الباقية من أول العمر إلى آخره ، لا جميع الأجزاء على الإطلاق ، وهذه الأجزاء الأصلية ، التي كانت للإنسان المأكول ، هي في الآكل فضلات ، فإنا نعلم أنّ الإنسان يبقى مدة عمره وأجزاء الغذاء تتوارد عليه وتزول عنه ، فإذا كانت فضلات فيه ، لم يجب إعادتها في الآكل بل في المأكول[٢] .

ويظهر من المحقق الطوسي ارتضاؤه حيث يقول : « ولا يجب إعادة فواضل المكلف » . وأوضحه العلامة الحلي بقوله : « إن لكلّ مكلف أجزاء أصلية لا يمكن أنْ تصير جزءً من غيره ، بل تكون فواضل من غيره لو اغتذى بها »[٣] .

وما ذكروه خال عن الدليل ، إذ لم يدلّ دليل على أنّ لكل مكلف أجزاء أصلية لا تكون جزءً لبدن غيره .

نعم ، ورد في بعض الروايات ، ولكنها روايات آحاد ، لا توجب علماً ، فلو ثبت صدورها ، فَلْيُقْبَل تعبداً[٤] .

إلى هنا تم الجواب عن الصورة الأُولى من الإشكال .

---

(١) الأسفار ، ج ٩ ، ص ٢٠٠ .
(٢) شرح المواقف ، ج ٨ ، ص ٢٩٦ .
(٣) كشف المراد ، ص ٢٥٦ ، ط صيدا .
(٤) لاحظ بحار الأنوار ، ج ٧ ، باب إثبات الحشر ، الحديث ٢١ ، ص ٤٣ .

وأما الصورة الثانية من الإشكال : فقد عرفت أنها تركز على العدل الإلهي ، وأن كون بدن المؤمن جزءً من بدن الكافر يستلزم تعذيب المجرم ، ولكنه مبنى على إعطاء الأصالة في الحياة للبدن وهي نظرية خاطئة ، فإن اللذائذ والآلام ترجع إلى الروح ، والبدن وسيلة لتعذيبه وتنعيمه .

فصيرورة بدن المسلم جزءً من بدن الكافر ، لا يلازم تعذيب المؤمن ، لأنّ المُعَذّب بتعذيب البدن ، هو روح الكافر ونفسه ، لا روح المؤمن . وهذا نظير أخذ كليةٍ من إنسان حيّ ووصلها بإنسان يعاني من ضعفها وعلّتها ، فإذا نجحت عملية الوصل وصارت الكلية الموصولة ، جزء من بدن المريض ، ثم عُذّب هذا المريض ، فالمعذب هو هو ، ولو نُعّم ، فالمُنَعَّم هو هو ، ولا صلة بينه وبين من وَهَب كليته وأهداها إليه .

وقد عرفت في كلام صدر المتألهين ما يفيدك في المقام .

* * *

(٦)

مكان بعث النفوس وحشرها

أثبتت البحوث الجيولـوجية والتنقيبات الأثـريـة أنّ الإنسـان يعيش في هـذا الكوكب منذ أكثر من مليوني سنـة ، ويستدل عـلى ذلك بـالمستندات الحفـرية التي تؤلف سجلات الخليقة . فعنـدئذٍ يـطرح هذا السؤال : هـل يكفي سطح الأرض لاستقرار جميع الخلائق التي لا يحصي عددها إلا خالقهـا ، في يوم واحـد ، كما هـو صريح قوله سبحانـه : ﴿ هذا يَـوْمُ الفَصْلِ جَمَعْنَـاكُمْ والأوّلِين ﴾[1] ، مـع أنّ مساحة الأرض لا تتجاوز (٥٠٩,٩٥٠,٧١٥) كيلو متر مربع ؟

والجـــــواب :

إنّ السؤال مبني عـلى حـفظ النـظام يـوم الـقيـامـة ، مـع أنّ صريـح الآيات على تبدّل النظام ، وحدوث نظام أوسع وأكبر ، وقد عرفت أنّ الـديناميكـا الحرارية تثبت اتجاه المواد الكـونية إلى الفنـاء بمرور الـزمن ، فلا تقـوم القيامـة على صعيد هذا النظام . والآيات في هذا المجال كثيرة .

يقول سبحانـه : ﴿ **يَوْمَ تُبَـدَّلُ الأرْضُ غَيْرَ الأرْضِ والسَّمٰـواتُ وَبَرَزوا للهِ الواحِدِ القَهّار** ﴾[2] .

---

(١) سورة المرسلات : الآية ٣٨ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٤٨ .

والذكر الحكيم يصرح بأنّ الشمس والقمر يجريان إلى أجلٍ مسمى . يقول سبحانه : ﴿ **وَسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأجَلٍ مُسَمّىً** ﴾[1] ، بل جميع العوالم المحسوسة من الأرض والسموات ، كلّها تجري إلى أجَلٍ مسمىً ، يقول سبحانه : ﴿ **أوَلَمْ يَتفكَّروا في أنْفُسِهِمْ ، ما خَلَقَ الله السَّمٰواتِ والأَرْضَ وما بَيْنَهُما إلّا بالحَقِ وأجَلٍ مُسمّىً وإنّ كثيراً من النّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لكافرونَ** ﴾[2] .

والآيات التي ننقلها في كيفيّة حدوث القيامة ، تكشف عن تدمير النظام بأسره ، وانقلابه إلى نظام آخر ، يقول سبحانه : ﴿ **إذا رُجَّتِ الأرْضُ رَجّاً * وبُسَّتِ الجبالُ بَسّاً** ﴾[3] . ويقول سبحانه : ﴿ **يَوْمَ تَمورُ السَّماءُ مَوْراً * وتَسيرُ الجِبالُ سيراً** ﴾[4] . وغير ذلك مما سيوافيك بيانه .

فالنّاس يحشرون على صعيدٍ واحد ، في يوم واحد ، لكن في نظام آخر ، عظيم هائل يسع لجمع جميع العباد ، ومحاسبتهم فيه .

* * *

(١) سورة الرعد : الآية ٢ .

(٢) سورة الروم : الآية ٨ . ونظيره الأحقاف : ٣ .

(٣) سورة الواقعة : الآيتان ٤ و ٥ .

(٤) سورة الطور : الآيتان ٩ و ١٠ .

أسئلة المعاد

(٧)

كيف يخلد الإنسان ، مع أنّ المادة تفنى ؟

دلّت الآيات والروايات على خلود الإنسان في الآخرة ، إما في جنتها ونعيمها ، أو في جحيمها وعذابها ، هذا من جانب .

ومن جانب آخر ، دلت القوانين العلمية على أنّ المادة ، حسب تفجر طاقاتها ، على مدى أزمنة طويلة ، تبلغ إلى حد تنفذ طاقتها فلا يمكن أنْ يكون للجنة والنار بقاء ، كما لا يكون للإنسان خلود كذلك ، لأنّ مكونات الكون تفقد حرارتها تدريجياً ، وتصير الأجسام على درجة بالغة الإنخفاض[١] ، وبالتالي تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة .

الجـــواب

إنّ السؤال ناشٍ من مقايسة الآخرة بالدنيا ، وهو خطأ فادح ، لأنّ التجارب العلمية لا تتجاوز نتائجها المادة الدنيوية . وإسراء حكم هذا العالم إلى العالم الآخر ، وإن كان مادياً وعنصرياً مثلها ، قياس لا دليل عليه . كيف ، وقد تعلقت قدرتها سبحانه على إخلاد الجنة والنار ، وله إفاضة الطاقة ، إفاضة بعد إفاضة ، على العالم الأُخروي بجحيمه وجنته ، ومؤمنه وكافره . ويعرب عن ذلك

---

(١) هي درجة الصفر المطلق البالغة (٢٦٩) درجة مئوية تحت الصفر ، وهي درجة سيلان غاز الهيليوم .

قوله سبحانه : ﴿ كُلّما نَضِجَتْ جلودُهُم بَدّلْناهُمْ جلوداً غيرها لِيَذوقوا العذابَ إنّ الله كان عزيزاً حكيماً ﴾[1]

ويعزز ذلك ما جاء في آخر الآية من الإتكاء على كونه عزيزاً ، فإنّ معناه : مقتدراً على إمداد المادة . فلأجل ذلك لو كانت الحركة والعمل مفنيين لطاقات المادة الدنيوية ، فليسا كذلك في المادة الأخروية ، لدعمها بطاقات جديدة ، فلو نضج جلد يأتي مكانه جلد آخر ، وهكذا .

وهذا السؤال من أوضح موارد قياس الغيب على الحس أوّلاً ، وعدم التعرف على قدرته سبحانه ثانياً ، يقول تعالى :

﴿ ما قَدَروا الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾[2] .

* * *

---

(١) سورة النساء : الآية ٥٦ .

(٢) سورة الحج : الآية ٧٤ .

أسئلة المعاد

(٨)

ما هو الغرض من عقاب المجرم أو تنعيم المحسن ؟

إنّ الحكيم لا يعاقب إلا لغاية وغاية العقوبة إما التشفي كما في قصاص المجرم ، وهو محال على الله ، أو إيجاد الإعتبار في غير المعاقب ، أو تأديب المجرم ، وكلاهما يتحققان في النشأة الدنيوية لا الأخروية ، فيكون تعذيب المجرم في الآخرة عبثاً لا غاية فيه .

بل ربما يقال إنّ تنعيم المؤمن أيضاً بلا وجه ، لأن اللذة الجسمانية لا حقيقة لها وإنما هي دفع الألم ، فلو ترك الميت على حاله ولم يعد ، لم يكن متألماً . فالغرض حاصل بدون الإعادة ، فلا فائدة فيها[١] .

الجواب

إنّ السائل قد فرض أنّ المعاد أمر ممكن في ذاته ولم يدل دليل على ضرورة وقوعه ، فسأل عن الغاية الموجبة له ، ولكنه لو وقف على ما ذكرنا من الأدلة التي تحتم المعاد ، وتجعل وجوده ضرورياً ، لترك السؤال . فقد عرفت أنّ هناك وجوهاً ستة تُعرِّف المعاد أمراً ضرورياً لا مناص عنه ، منها كون المعاد مجلّى للعدل الإلهي ، فإذا كان وجود المعاد ، أمراً ضرورياً ، فالسؤال عن غاية وهدف

(١) لاحظ شرح المواقف ، ج ٨ ، ص ٢٩٦ ، والجزء الأول من كتابنا هذا ، وقد جاء السؤال فيه أبسط مما ذكر هنا .

أمـر ضروري الوقـوع ، ساقط . وذلـك لأن بين تلك الأدلـة التي تـوجب ضرورة المعاد ، عللاً غائية ، كتجلّي عدله سبحانه في المعاد ، أو كمال الإنسـان ، ومعها لا معنى للسؤال عن غاية المعاد .

ومن العجب أنّ السائل يجعل اللذة الجسمانيـة شيئاً لا حقيقـة له ، وأنها مـا هي إلا دفع الألم . ولا أظن أنّه نفسه يقدر على تطبيقه على جميع موارد اللذة ، فهل في اللذة الجسمانية الحاصلة من التأمل في روضة غنّاء ، دفعاً للألم ، بحيث لـولاه لكـان غارقـاً في الآلام والأوجاع ، أو أنها لـذة واقعيـة منـاسبـة للنفس في مقـامهـا المادي ، وقس على ذلك غيره .

وهنـاك جـوابـان آخـران تقـدّمـا في الجـزء الأول عنـد البحث عن ثمـرات التحسين والتقبيح العقليين ، فلا نعيدهما[1] .

* * *

(١) لاحظ الإلهيات ، ج ١ ص ٢٩٣ـ٣٠٠ .

(٩)

من هم المخلدون في النار ؟

اختلفت كلمة المتكلمين في المخلّدين في النار ، فذهب جمهور المسلمين إلى أن الخلود يختص بالكافر ، دون المسلم وإن كان فاسقاً . وذهبت الخوارج والمعتزلة إلى خلود مرتكب الكبائر في النار إذا مات بلا توبة .

قال الشيخ المفيد : « إتفقت الإمامية على أن الوعيد بالخلود في النار متوجه إلى الكفار خاصّة دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى والإقرار بفرائضه من أهل الصلاة »[١] .

وقال في شرح عقائد الصدوق : « أما النار فهي دار من جهل الله سبحانه ، وقد يدخلها بعض من عرفه ، بمعصية الله ، غير أنه لا يخلد فيها بل يخرج منها إلى النعيم المقيم ، وليس يخلد فيها إلا الكافرون » . . . . إلى أن قال : « وكل آية تتضمن ذكر الخلود في النار فإنما هي في الكفار دون أهل المعرفة بالله تعالى ، بدلائل العقول والكتاب المسطور ، والخبر الظاهر المشهور[٢] ، والإجماع ، والرأي السابق لأهل البدع من أصحاب الوعيد »[٣] .

---

(١) أوائل المقالات ، ص ١٤ .

(٢) يريد من الخبر ، ما تضافر عن النبي من أنه قال : إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي . راجع البحار ، ج ٨ ، ص ٣٥١ .

(٣) شرح عقائد الصدوق ، ص ٥٥ .

وقال العلامة الحلّي : « أجمع المسلمون كافة على أن عذاب الكافر مؤبد لا ينقطع ، وأما أصحاب الكبائر من المسلمين ، فالوعيدية على أنه كذلك . وذهبت الإمامية وطائفة كثيرة من المعتزلة والأشاعرة إلى أن عذابه منقطع »[1] .

واستدل القائلون بالإنقطاع بآيات ، منها قوله سبحانه : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ** ﴾[2] ، والإيمان أعظم أفعال الخير . فإذا استحق العقاب بالمعصية ، فإما أن يقدّم الثواب على العقاب ، فهو باطل بالإجماع ، لأن الأثابة لا تكون إلا بدخول الجنة ، والداخل فيها مخلّد لا يخرج منها أبداً ، فلا يبقى مجال لعقوبته ، أو بالعكس وهو المراد .

أضف إلى ذلك أنّه يلزم أنْ يكون مَنْ عَبَدَ الله تعالى مدةَ عمره بأنواع القربات إليه ، ثم عصى في آخر عمره معصية واحدة ، مع حفظ إيمانه ، مخلداً في النار ، ويكون نظير من أشرك بالله تعالى مدة عمره ، وهذا عند العقل قبيح ومحال[3]» .

واستدلت المعتزلة على خلود الفاسق في النار ، بالسمع وهو عدة آيات ، استظهرت من إطلاقها أن الخلود يعم الكافر والمنافق والفاسق . وإليك هذه الآيات واحدة بعد الأخرى .

الآية الأولى ـ قوله سبحانه : ﴿ **وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدودَه يُدْخِلْهُ ناراً خالداً فيها وَلَه عَذابٌ مُهينٌ** ﴾[4] . ولا شكّ أن الفاسق ممن عصى الله ورسوله بترك الفرائض وارتكاب المعاصي .

يلاحظ عليه : أولاً ـ إن دلالة الآية على خلود الفاسق في النار لا يتجاوز حد الإطلاق ، والمطلق قابل للتقييد . وقد خرج عن هذه الآية باتفاق المسلمين

---

(١) كشف المراد ، ص ٢٦١ ، ط صيدا .

(٢) سورة الزلزلة : الآية ٧ .

(٣) لاحظ كشف المراد ، ص ١٦١ ، ط صيدا .

(٤) سورة النساء : الآية ١٤ . وأما قوله سبحانه : ﴿ **وَمن يعصِ الله ورسولَهُ فإنّ له نار جهنم خالدين فيها** ﴾(الجن : الآية ٢٣) فهو راجع إلى الكفار ، كما هو واضح لمن لاحظ آيات السورة .

الفاسق التائب ، فلو دلّ دليل هنا على أنّ المسلم الفاسق ربما تشمله عناية الله ورحمته ، ويخرج عن العذاب ، لكان المطلق مقيداً بقيْدٍ آخر وراء التائب ، فيبقى تحت الآية المشرك والمنافق .

وثانياً : إن الموضوع في الآية ليس مطلق العصيان ، بل العصيان المنضم إليه تعدّي حدود الله ومن المحتمل جداً أن يكون المراد من التعدّي هو رفض أحكامه سبحانه ، وطردها ، وعدم قبولها . كيف ، وقد وردت الآية بعد بيان أحكام الفرائض .

يقول سبحانه : ﴿ يُوصيكُمُ اللهُ في أولادكُمْ للذَّكَرِ مثلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ . . . ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أزْواجُكُمْ . . ﴾[2] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ . . . ﴾[3] .

ويقول : ﴿ ومن يَعْصِ اللهَ ورَسولَهُ وَيَتَعَدَّ حدُودَهُ . . . ﴾[4] .

وقوله : ﴿ وَيَتَعَدَّ حدودَه ﴾ ، وإنْ لم يكن ظاهراً في رفض التشريع ، لكنه يحتمله . بل ليس الحَمْل عليه بعيداً بشهادة الآيات الأخر الدالة على شمول غفرانه لكل ذنب دون الشرك ، أو شمول رحمته للناس على ظلمهم وغير ذلك من الآيات الواردة في حق الإنسان غير التائب كما سيوافيك .

يقول الطبرسي : « إنّ قوله : ﴿ وَيَتَعَدَّ حُدودَهُ ﴾ ، ظاهر في تعدّي جميع حدود الله ، وهذه صفة الكفار ، ولأنّ صاحب الصغيرة بلا خلاف خارج عن عموم الآية وإن كان فاعلاً للمعصية ، ومتعدياً حدّاً من حدود الله ، وإذا جاز إخراجه بدليل ، جاز لغيره أن يخرج من عمومها ، كمن يشفع له النبي أو يتفضّل

---

(١) سورة النساء : الآية ١١ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٢ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٣ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٤ .

الله عليه بالعفو ، بدليل آخر ، وأيضاً فإنّ التائب لا بدّ من إخراجه من عموم الآية ، لقيام الدليل على وجوب قبول التوبة ، وكذلك يجب إخراج من يتفضّل الله بإسقاط عقابه ، منها ، لقيام الدلالة على جواز وقوع التفضّل بالعفو »[1] .

الآية الثانية : قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً متعمِّداً فَجَزاؤه جَهَنَّم خالِداً فيها ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ ، وَلَعَنَهُ ، وأَعَدَّ لَهُ عذاباً عظيماً ﴾[2] .

قال القاضي : وجه الإستدلال هو أنه تعالى بَيَّنَ أنّ من قَتَلَ مؤمناً عمداً جازاه ، وعاقبه وغضب عليه ، ولعنه (وأخلده في جهنم)[3] .

يلاحظ عليه : أولاً ـ إن دلالة الآية دلالة إطلاقية ، فكما خرج منها القاتل المشرك إذا أسلم ، والمسلم القاتل إذا تاب ، **فليكن كذلك من مات بلاتوبة ولكن** اقتضت الحكمة الإلهية ، **أن يتفضّل عليه بالعفو ، فليس التخصيص أمراً** مشكلاً .

وثانياً : إنّ من المحتمل أنْ يكون المراد القاتل المستحل لقتل المؤمن ، **أو** قَتَلَهُ لإيمانه ، وهذا غير بعيد لمن لاحظ سياق الآيات .

لاحظ قوله سبحانه : **﴿ سَتَجِدونَ آخرينَ يُريدون أن يَأمَنوكم ويَأمَنُوا قَوْمَهُم ، كُلّما رُدُّوا إلَى الفِتْنَةِ أُركسوا فيها فإنْ لم يَعْتَزِلوكُم وَيُلْقوا إليكمُ السَّلَمَ ويكُفُّوا أيْديَهُمْ فَخُذُوهُمْ واقتلوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُموهُمْ وَأولٰئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبيناً ﴾**[4] .

ثم ذكر سبحانه بعد هذه الآية حكم قتل المؤمن خطأً وتعمداً . **وفي ضوء** هذا يمكن أن يستظهر أنّ الآية ناظرة إلى القتل العمدي ، الذي يقوم به القاتل لعداء ديني لا غير ، فيكون ناظراً إلى غير المسلم .

الآية الثالثة : قوله سبحانه : **﴿ بلى من كَسَبَ سَيِّئَةً وأحاطَتْ بِـ خَطِيئَتُهُ**

(١) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٠ ، طبعة صيدا .

(٢) سورة النساء : الآية ٩٣ .

(٣) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٥٩ .

(٤) سورة النساء : الآية ٩١ .

فأُولئِكَ أصحابُ النّارِ هُمْ فيها خالدون﴾[1] .

والاستدلال بهذه الآية إنما يصح مع غَضّ النظر عن سياقها ، وأما معه فإنها واردة في حق اليهود .

أضف إليه أنّ قوله سبحانه : **﴿ وأحاطتْ به خَطِيئتُه ﴾** ، لا يهدف إلا إلى الكافر ، فإنّ المسلم المؤمن مهما كان عاصياً لا تحيط به خطيئته ، فإنّ في قلبه نقاط بيضاء يشع عليها إيمانه واعتقاده بالله سبحانه وأنبيائه وكتبه . على أن دلالة الآية بالإطلاق ، فلو ثبت ما يقوله جمهرة المسلمين ، يخرج الفاسق من الآية بالدليل .

الآية الرابعة : قوله سبحانه : **﴿ إنَّ المجرمينَ في عذابِ جَهَنَّمَ خالدون * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وهَمْ فيه مُبْلِسون * وما ظلمناهُمْ وَلَكِنْ كانوا هُمُ الظّالمين ﴾**[2]

إن دلالة الآية إطلاقية ، قابلة للتقييد ، **أوّلاً** . وسياق الآية في حق الكفار ، بشهادة قوله سبحانه قبل هذه الآية : **﴿ الّذين آمنوا بآياتنا وكانوا مُسْلمين * أدخلوا الجَنَّةَ أنتمْ وأزواجُكُمْ تُحْبَرون ﴾**[3] ، ثم يقول : **﴿ إنَّ المجرِمينَ في عذابِ جهنَّمَ خالِدون ﴾** . فـ **﴿ المجرمين ﴾** ، في مقابل **﴿ الّذين آمنوا ﴾** ، فلا يعم المسلم ، **ثانياً** .

هذه هي الآيات التي استدلت بها المعتزلة على تخليد الفاسق في النار ، وقد عرفت أن دلالتها بالإطلاق لا بالصراحة . وتقييد المطلق أمر سهل مثل تخصيص العام . مضافاً إلى انصراف أكثرها أو جميعها إلى الكافر والمنافق .

وهناك آيات أظهر مما سبق[4] تدل على شمول الرحمة الإلهية للفساق غير التائبين نكتفي باثنتين منها :

---

(١) سورة البقرة : الآية ٨١ .

(٢) سورة الزخرف : الآيات ٧٤ـ ٧٦ .

(٣) سورة الزخرف : الآيتان ٦٩و٧٠ .

(٤) كما تدل هذه الآيات على عدم الخلود في النار ، تدل على جواز العفو عن الفاسق من بدء الأمر ، وأنه يعفى عنه ولا يعذب من رأس ، فهذا الصنف من الآيات كما يحتج به في هذه مسألة ، يحتج به في المسألة السالفة أيضاً فلاحظ .

١ ـ قوله سبحانه : ﴿ **ويستعجلونك بالسَّيِّئةِ قبل الحسنةِ وقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ المَثُلاتُ وإنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ للنّاسِ على ظُلْمِهِمْ وإنَّ ربَّك لَشَدِيدُ العِقاب** ﴾[1] :

قال الشريف المرتضى : « في هذه الآية دلالة على جواز المغفرة للمذنبين من أهل القبلة لأنه سبحانه دلّنا على أنه يغفر لهم مع كونهم ظالمين ، لأن قوله ﴿ **على ظلمهم** ﴾(جملة حالية) ، إشارة إلى الحال التي يكونون عليها ظالمين ، ويجري ذلك مجرى قول القائل : أنا أودّ فلاناً على غدره ، وأَصِلُهُ على هجره »[2] .

وقد قرر القاضي دلالة الآية وأجاب عنها بأن الأخذ بظاهر الآية مما لا يجوز بالإتفاق ، لأنّه يقتضي الإغراء على الظلم ، وذلك ممّا لا يجوز على الله تعالى ، فلا بد من أن يؤوّل ، وتأويله هو أنه يغفر للظالم على ظلمه إذا تاب[3] .

يلاحظ عليه : إنّ ما ذكره من الإشكال ، جارٍ في صورة التوبة أيضاً ، فإن الوعد بالمغفرة مع التوبة يوجب تمادي العاصي في المعصية ، برجاء أنه يتوب . فلو كان القول بعدم خلود المؤمن موجباً للإغراء ، فليكن الوعد بالغفران مع التوبة كذلك .

والذي يدل على أن الحكم عام للتائب وغيره هو التعبير بلفظ « الناس » مكان « المؤمنين » فلو كان المراد هو التائب ، لكان المناسب أن يقول سبحانه : « وإنّ ربَّك لذو مغفرة للمؤمنين على ظلمهم » ، مكان قوله : « للناس » . وهذا يدل على أن الحكم عام يعم التائب وغيره .

إن هذه الآية تَعِدُ الناس بالمغفرة ، ولا تذكر حدودها وشرائطها فلا يصح عند العقل الإعتماد على هذا الوعد وارتكاب الكبائر ، فإنه وعد إجمالي غير مبين من حيث الشروط والقيود .

٢ ـ قوله سبحانه : ﴿ **إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دونَ ذَلِكَ لِمَنْ**

---

(١) سورة الرعد : الآية ٦ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ .

(٣) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٨٤ .

يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَقَدِ افْتَرَى إثماً عظيماً ﴾[1] .

وجه الإستدلال بهذه الآية على أن رحمته تشمل غير التائب من الذنوب ، أنه سبحانه نفى غفران الشرك دون غيره من الذنوب . وبما أن الشرك يغفر مع التوبة ، فتكون الجملتان ناظرتين إلى غير التائب . فمعنى قوله : ﴿ إنّ الله لا يغفر أن يُشرَكَ به ﴾ ، أنّه لايغفر إذا مات من أشرك بلا توبة . كما أن معنى قوله : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ، أنه يغفر ما دون الشرك من الذنوب بغير توبة لمن يشاء من المذنبين ، ولو كانت سائر الذنوب ، مثل الشرك ، غير مغفورة إلا بالتوبة ، لما حسن التفصيل بينهما ، مع وضوح الآية في التفصيل[2] .

وقد أوضح القاضي دلالة الآية على ما يتبناه الجمهور بوجه رائع ، ولكنه ـ تأثراً بعقيدته الخاصة في الفاسق ـ قال : « إنّ الآية مجملة مفتقرة إلى البيان ، لأنّه قال : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، ولم يبين من الذي يغفر له . فاحتُمل أن يكون المراد به أصحاب الصغائر ، واحتُمل أن يكون المراد أصحاب الكبائر ، فسقط احتجاجهم بالآية »[3] .

أقول : عزب عن القاضي أن الآية مطلقة ، تعم كلا القسمين ، فأيّ إجمال في الآية حتى نتوقف . والعجب أنه يتمسك بإطلاق الطائفة الأولى من الآيات ، ولكنه يتوقف في إطلاق هذا الصنف .

نعم ، دفعا للإغراء ، وقطعا لعذر الجاهل ، قيّد سبحانه غفرانه بقوله : ﴿ لمن يشاء ﴾، حتى يصد العبد عن الارتماء في أحضان المعصية بحجة أنه سبحانه وعده بالمغفرة .

ثم إنّ القاسم بن محمد بن علي الزيدي العلوي المعتزلي ، تبع القاضي في تحديد مداليل هذه الآيات وقال : « آيات الوعيد لا إجمال فيها ، وهذه الآيات ونحوها مجملة ، فيجب حملها على قوله تعالى : ﴿ وإنّي لَغَفّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ

---

(١) سورة النساء : الآية ٤٨ .

(٢) مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٥٧ بتلخيص .

(٣) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٧٨ .

صالحاً ثمّ اهتدىٰ﴾[1]. » ثم ساق بعض الآيات الواردة في غفران العباد في مجال التوبة [2].

ويظهر النظر في كلامه مما قدمناه في نقد كلام القاضي فلا نعيد.

هذا، والبحث أشبه بالبحث التفسيري منه بالكلامي، ومن أراد الإستقصاء في هذا المجال فعليه بجمع الآيات الواردة حول الذنوب والغفران حتى يتضح الحال فيها، ويتخذ موضعاً حاسماً بإزاء اختلافاتها الأوليّة.

* * *

(1) سورة طه: الآية ٨٢.

(2) الأساس لعقائد الأكياس، ص ١٩٨.

أسئلة المعاد

(١٠)

هل يجوز العفو عن المُسيء ؟

هل يجوز العفو عن العصاة في الآخرة أوْ لا ؟ وهل في الحكم بجواز العفو ، إغراء للعصاة على إدامة العصيان ، أوْ لا ؟ أوَلَيس العفو عن العاصي ، خلفاً للوعيد ، وهو قبيح ؟

الجـــواب

إنّ التعذيب حق للمولى سبحانه وله إسقاط حقّه ، وهو إحسان منه سبحانه على العبد : ﴿ ما على المُحْسِنِينَ مِنْ سَبيلٍ ﴾[1] ، فلا مانع ، إذا اقتضت الحكمة ، من العفو عن العاصي في ظروف خاصة ، إما بالشفاعة ، أو بدونها .

وقد خالف معتزلة بغداد في ذلك ، فلم يجوزوا العفو عن العصاة عقلاً ، واستدلوا على ذلك بوجهين :

الوجه الأوّل - إنّ العقاب لطف من الله تعالى ، واللطف يجب أنْ يكون مفعولاً بالمكلف على أبلغ الوجوه ، ولن يكون كذلك إلا والعقاب واجب على الله تعالى . ومن المعلوم أنّ المكلف متى علم أنّه يُفْعَل به ما يستحقه من العقوبة على كل وجه ، كان أقرب إلى أداء الواجبات واجتناب الكبائر[2] .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٩١ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ، ص ٦٤٦ .

يلاحظ عليه : إنّ اللطف عبارة عما يقرب الإنسان من الطاعة ، ويبعده عن المعصية ، وهذا لا يتصور إلا في دار التكليف لا دار الجزاء ، فالدار الأولى ، دار العمل والسعي ، والآخرة دار الحساب والإجتناء .

وأما ما ذكروه أخيراً من أنه لو علم أنّه يفعل ما يستحقه من العقوبة على كل وجه ، كان أقرب إلى أداء الواجبات واجتناب الكبائر ، فهو لو تم ، لوجب سد باب التوبة ، لإمكان أن يقال إن المكلّف لو علم أنّه لا تقبل توبته كان أقرب إلى الطاعة وأبعد من المعصية .

أضف إلى ذلك أنّ للرجاء آثاراً بنّاءة في حياة الإنسان ، ولليأس آثاراً سلبية في الإدامة على الموبقات ، ولأجل ذلك جاء الذكر الحكيم ، بالترغيب والترهيب معاً .

ثم إنّ الكلام في جواز العفو لا في حتميته ، والأثر السلبي ـ لو سلّمناه ـ يترتب على الثاني دون الأول .

الوجه الثاني ـ أنّ الله أوْعد مرتكب الكبيرة بالعقاب ، فلو لم يعاقب ، للزم الخلف في وعيده ، والكذب في خبره[1] ، وهما محالان[2] .

الجواب : إنّ الخُلف في الوعد قبيح ، وليس كذلك في الوعيد ، والدليل على ذلك أنّ كل عاقل يستحسن العفو بعد الوعيد في ظروف خاصة ، فلو كان العفو من الله تعالى مع الوعيد قبيحاً ، لوجب أنْ يكون كذلك عند كل عاقل . ولعل الوجه في عدم كونه قبيحاً هو أنّ الوعيد حق ، والعفو إسقاط ، ومثل ذلك يعد مستحسناً لا قبيحاً ، إذا وقع العفو في موقعه ، ولأجل ذلك يقول الشيخ الصدوق : اعتقادنا في الوعد والوعيد هو أنّ من وعده الله على عمل ثواباً ، فهو منجزه ، ومن وعده على عمل عقاباً فهو بالخيار إنْ عَذّبَه فَبِعَدْلِه وإن عفا عنه

---

(١) أخطأ المستدل في هذا ، فإن الوعد إنشاء وليس بإخبار حتى يلزم فيه الكذب .

(٢) شرح العقائد العضدية ، لجلال الدين الدواني (م٩٠٨) ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

فبفضله ، ﴿ وماربُّك بظلّام للعبيـد ﴾[1]، ﴿ إنّ الله لا يغفر أنْ يُشْـرَكَ بِهِ وَيَغْفِـرُ ما دونَ ذلك ﴾[2] [3].

هـذا كله حول العفـو عن الوعيـد عقلاً . وأمـا سمعـاً ، أي حسب الأدلـة النقلية فسيوافيك الكلام فيه عند البحث عن عدم خلود غير الكافر في النار .

* * *

---

(1) سورة فصلت : الآية ٤٦ .

(2) سورة النساء : الآية ٤٨ .

(3) عقائد الصدوق ، ص ٨٦ من النسخة الحجرية الملحقة بشرح الباب الحادي عشر .

أسئلـة المـعاد

(١١)

هل الجنة والنار مخلوقتان ؟

إنّ الله سبحانه وعد المتقين بالجنة وأوْعد العاصين بالنار ، فهل همـا مخلوقتان الآن ، أم لا ؟ .

الجـواب : ذهبت المعتزلـة ـ غير أبي عـلى الجبّـائي ـ والخـوارج وطـائفـة من الزيدية ، إلى الثاني وذهبت الإمامية والأشاعرة إلى أنّهما مخلوقتان .

قال الشيخ المفيد : « إنّ الجنة والنّار في هذا الوقت مخلوقتان وبذلك جـاءت الأخبار ، وعليه إجماع أهل الشرع والآثار »[١] .

وقال التفتازاني : « جمهور المسلمين على أنّ الجنة والنار مخلوقتان الآن خـلافاً لأبي هاشم والقاضي عبد الجبار ، ومن يجري مجراهمـا من المعتزلـة حيث زعموا أنّهما إنّما يُخْلَقان يوم الجزاء »[٢] .

والظاهر من السيد الرضي ، أنّهما غير مخلوقتين الآن ، قال : والصحيح أنّهما تخلقان بعد »[٣] .

---

(١) أوائل المقالات ، ص ١٠٢ .

(٢) شرح المقـاصد ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ، ولاحظ شرح التجـريد للقـوشجي ، ص ٥٠٧ ، والعبارتـان متحدتان .

(٣) حقائق التأويل ، ص ٢٤٥ .

أدلة القائلين بخلقهما

أُستدل على كون الجنة والنار مخلوقتان ، بوجوه :

الوجه الأول : قصة آدم وحواء ، وإسكانهما الجنة ، وأكلهما من الشجرة ، وخصفهما عليهما من ورق الجنة ، ثم إخراجهما منها ، على ما نطق به الكتاب والسنة ، وانعقد عليه الإجماع قبل ظهور المخالفين . وحملهما على بستان من بساتين الدنيا ، ليس عليه دليل(١) .

يلاحظ عليه : إنّ حمله على غير جنة الخلد التي هي قرار المآب وجنة الثواب ، ليس أمراً بعيداً ، والجنة في أصل اللغة يعبر بها عن الرياض ، والمنابت ، والأشجار ، والحدائق ، والكروم المعروشة ، والنخيل .

وعلى هذا قوله سبحانه : ﴿ **وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ الله** ﴾(٢) . وقوله سبحانه : ﴿ **لَقَدْ كان لِسَبَإٍ في مَسْكَنِهِم آيَةٌ ، جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وشمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ واشْكُروا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** ﴾(٣) .

ويمكن أنْ يؤيِّد ذلك بأنه لو كانت جنّة الخلد ، لما خرج منها ، قال سبحانه : ﴿ **أُولٰئِكَ هُمُ الوارِثُونَ * الَّذينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فيها خالِدُونَ** ﴾(٤) .

وهذا ، وإنْ كان يُمكن حَمْلُه على مَنْ دَخَلَها بَعْدَ دارِ الدنيا ، وهو غَيْرُ متحقق في آدم ، ولكنه إحتمال في مقابل إحتمال . وكما لا يمكن الاحتجاج على كونهما مخلوقين بما ورد في جنة آدم ، كذلك لا يمكن الإحتجاج عليه بما ورد من كون الشهداء أحياءً عند ربهم يرزقون(٥) ، أو بما وَرَدَ من أنّ آل فرعون يُعْرَضون على

---

(١) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢١٨ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٣٩ .

(٣) سورة سبأ : الآية ١٥ .

(٤) سورة المؤمنين : الآيتان ١٠و١١ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ١٦٩ .

النار غُدُوّاً وعشياً[1] ، لأنهما راجعان إلى الحياة البرزخية . والتنعيم اوالتعذيب فيهما ، غيرُهما في الآخرة .

الوجه الثاني : الآيات الصريحة في كونهما مخلوقين ، كقوله سبحانه : ﴿ **وَلَقَدْ رآهُ نَزْلَةً أُخرى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ المأوىٰ** ﴾[2] وكقوله في حقّ الجنة : ﴿ **أُعِدَّتْ لِلمُتَّقِينَ** ﴾[3] ، و﴿ **أُعِدَّت لِلَّذِينَ آمنوا بالله ورُسُلِهِ** ﴾[4] ، و﴿ **وأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[5] وفي حق النار : ﴿ **أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ** ﴾[6] و﴿ **بُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلغاوينَ** ﴾[7] . وحملها على التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي مبالغةً في تحققه ، مثل : ﴿ **وَنُفِخَ في الصُّورِ** ﴾[8] و﴿ **ونادىٰ أصحابُ الجَنّةِ أصْحابَ النّارِ** ﴾[9] ، يحتاج إلى دليل[10] .

وهذا الإستدلال أمتن من سابقه ، ومع ذلك فالإعتقاد بكونهما مخلوقتين الآن يتوقف على كون دلالتها على المقصود قطعية ، وهو غير حاصل ، لما عرفت من الإحتمال الآخر[11] .

نعم ، بعض هذه الآيات لا يحتمل إلا المعنى الأول ، مثل قوله : ﴿ **عِنْدَها جَنَّةُ المأوىٰ** ﴾ ، إذ لم يـر التعبير عن الشيء الذي سيتحقق غداً ، بالجملة الإسمية .

---

(١) سورة غافر : الآية ٤٦ .

(٢) سورة النجم : الآيات ١٣ـ١٥ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٣٣ .

(٤) سورة الحديد : الآية ٢١ .

(٥) سورة الشعراء : الآية ٩٠ .

(٦) سورة آل عمران : الآية ١٣١ .

(٧) سورة الشعراء : الآية ٩١ .

(٨) سورة الكهف : الآية ٩٩ .

(٩) سورة الأعراف : الآية ٤٤ .

(١٠) شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢١٨و٢١٩ .

(١١) وقد اعتمد على هذا الإحتمال السيد الرضى في حقائق التأويل ص ٢٤٧ ، وقال : إنّ التعبير بالفعل الماضي ، لصحته وتحقق وقوعه ، وكأنه قد كان ، فعبّر عنه بعبارة الكائن الواقع .

الوجه الثالث : إنّ الله تعالى رَغّب المُكَلّفين بالجنة ، ورهّبهم بالنار ، فكيف يصح الترغيب بجنة لم يخلقها ، والترهيب بنار لم يخلقها[1] .

وهذا الوجه ضعيف جداً ، لأنّ الجنّة الموصوفة ، لمّا كانت مقدورة له تعالى ، ومثلها النار ، صحّ الترغيب والترهيب ، كما رغب المكلفين في ثواب لم يوجد بعد ، لأنّ وعده صادق وأمره واقع[2] .

نعم ، هناك روايات لا يمكن العدول عنها ، لتضافرها روى الصدوق في الأمالي والتوحيد عن الهَرِوي ، قال : قلت : للرضا عليه السلام : يا بن رسول الله ، أخبرني عن الجنّة والنار أهما اليوم مخلوقتان ؟ فقال : نعم ، وإنّ رسول الله قد دخل الجنة ورأى النار ، لما عرج به إلى السماء . قال : فقلت له : فإنّ قوماً يقولون إنّهما اليوم مقدّرتان غير مخلوقتين . فقال عليه السلام : ما أُولئك منّا ولا نحن منهم ، من أنْكر خلق الجنة والنار ، فقد كذّب النبي صلى الله عليه وآله وكذّبنا[3] .

أدلة النافين لخلقهما

استدل النافون لخلقهما بوجوه :

١ ـ إنّ خلق الجنة والنار قبل يوم الجزاء ، عبث ، لا يليق بالحكيم تعالى .

٢ ـ إنّهما لو خلقتا لهلكتا ، لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ شيءٍ هالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ ﴾[4] واللازم باطل ، للإجماع على دوامهما ، وللنصوص الشاهدة بدوام أُكُل الجنة وظلّها .

٣ ـ إنّهما لو وجدتا الآن فإما في هذا العالم ، أو في عالم آخر ، وكلاهما باطل ، أمّا الأوّل فلأنه لا يتصور في أفلاكه ، لامتناع الخرق والالتئام عليها ،

---

(١) حقائق التأويل ، ص ٢٤٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) حق اليقين ، للسيد شبر ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

(٤) سورة القصص : الآية ٨٨ .

ولامتناع حصول العنصريات فيها ، ولأنّها لا تسع جنّة عرضها كعرض السماء والأرض .

وأما الثاني ، بأن يكونا فوق محدد الجهات[1] ، فلأنّه يلزم أن يكون في اللامكان مكان ، وفي اللاجهةٍ جهةٌ[2] .

يلاحظ على الأول أنّ الحكم بالعبثية يتوقف على العلم القطعي بعدم ترتب غرض عليه ، ومن أين لنا بهذا العلم ؟ .

ويلاحظ على الثاني أنّه ليس المراد من ﴿ **هالك** ﴾ هو تحقق انعدامه وبطلان وجوده ، بل المراد أنّ كل شيء هالك في نفسه ، باطل في ذاته ، لا حقيقة له إلا ما كان عنده مما أفاضه الله عليه. والحقيقة الثابتة في الواقع التي ليست هالكة باطلة من الأشياء هي صفاته الكريمة ، وآياته الدالة عليها فيهما جميعها ثابتة بثبوت الذات المقدسة ، هذا بناء على كون المراد بالهالك في الآية ، الهالك بالفعل .

وأما إذا أُريد من الهالك ما يستقبله الهلاك والفناء ، بناء على ما قيل من أنّ اسم الفاعل ظاهر في الإستقبال ، فهلاك الأشياء ليس بمعنى البطلان المطلق بعد الوجود ، بأنْ لا يبقى منها أثر ، فإنّ صريح كتاب الله ينفيه ، فإن آياته تدل على أنّ كل شيء مرجعه إلى الله وأنّه المنتهى وإليه الرجعى ، وهو الذي يُبدىءُ الخلق ثم يعيده .

وإنّما المراد بالهلاك على هذا الوجه، تَبَدُّل نشأة الوجود ، والرجوع إلى الله ، المعبر عنه بالإنتقال من الدنيا إلى الآخرة ، والتلبس بالعود بعد البدء ، وهذا إنما يشمل ما كان موجوداً بوجود بدني دنيوي ، وأما نفس الدار الآخرة ، وما هو موجود بوجود أُخروي كالجنة والنار ، فلا يتصف بالهلاك بهذا المعنى . قال سبحانه : ﴿ **ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وما عِنْدَ الله باقٍ** ﴾[3] .

---

(١) محدّد الجهات عبارة عن الفَلَك التاسع ، وهو الفلك الأطلس الذي كان يعتقد به بطلميوس ويقول ليس فوقه خلاء ولا ملاء .

(٢) لاحظ هذه الوجوه الثلاثة في شرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

(٣) سورة النحل : الآية ٩٦ .

وقال سبحانه : ﴿ **وما عِنْدَ اللهِ خَيرٌ للأبرار** ﴾[1] . وقال سبحانـه : ﴿ **وإنْ مِنْ شيءٍ إلّا عِنْـدَنَا خـزائِنُهُ** ﴾[2] . وكـذا اللوح المحفوظ ، كـما قـال سبحـانـه : ﴿ **وَعِنْدَنا كِتابٌ حفيظٌ** ﴾[3] . فهذه الآيات تعرب عن عدم شمول الآية إلا لما له وجود دنيوي ، فيتبدل إلى وجود أُخروي ، لا ما كان موجـوداً بوجـود أُخروي من بدء الأمر .

ويلاحظ على الثالث أنّه مبني على التصويـر البَطْلَمْيوسي للعالم ، وقـد أبطل العلم أصله ، فيبطل ما فرع عليه ، فإن الكون وسيـع إلى حد لا تحيط بـه الأرقام والأعداد النجومية .

وعلى ذلك يمكن أنْ تكون الجنة والنار في ذلك الفضاء الواسع الذي لا يحيط بسعته إلا الله سبحانـه ، وليس علينا تعيـين مكانها بـالدقـة ، كيف والله سبحانـه يقول : ﴿ **عِنْدَ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهى * عِنْدَها جَنَّةُ المَأْوى** ﴾[4] ، فلمّا كان المـراد من جنة المأوى ، الجنة الموعودة ، فهي عند سدرة المنتهى ، وقد سئل ابن عباس عن سدرة المنتهى ، فقال : « إليها ينتهي علم كل عالم ، وما وراءها لا يعلمـه إلّا الله »[5] . فـإذا كـانت سـدرة المنتهى هي منتهى علم البشر ، فلن يصـل علمهم إلى الجنــة الموعودة التي هي عندها ، ولا يمكن لأحد تعيين مكانها ، بل غاية ما يمكن قوله هو أنّهما مخلوقتان موجودتان في هذا الكون غير المتناهي طولاً وعرضاً .

وأما قوله سبحانه : ﴿ **سابِقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّـةٍ عَرْضُهـا كعرْضِ السَّـماء والأرْضِ ، أُعِـدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنـوا بـاللهِ وَ رُسُلِهِ** ﴾[6] ، فليس المـراد من العَرْض فيه ما يضاد الطول ، بل هو بمعنى السعة ، والآيـة بصدد بيـان سعة الجنـة كما لا يخفى .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩٨ .

(٢) سورة الحِجْر : الآية ٢١ .

(٣) سورة ق : الآية ٤ .

(٤) سورة النجم : الآيتـان ١٤ ـ ١٥ .

(٥) الدر المنثور ، ج ٦ ، ص ١٢٥ .

(٦) سورة الحديد : الآية ٢١ .

نعم ، يستفاد من ظاهرها أنّها ليست في السماء التي يراد منها السيارات والكواكب والمجرّات الظاهرة . وممّا يؤيد ذلك أنّ النظام السمائي السائد على الكون المشاهد ، يتلاشى عند قيام القيامة لقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَطوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كما بَدَأْنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إنّا كُنّا فاعِلينَ ﴾[1] فلو كانت الجنة والنار فيها ، للزم تلاشيهما واندثارهما عند قيام القيامة .

ويمكن أن يقال إنّ الجنة والنار كسائر الموجودات الإمكانية ، تتكاملان وتتسعان ، ويؤيّده ما رُوِيَ عن النبي أنّه قال : « ليلةَ أُسرِيَ بي ، مَرّ بي إبراهيم ، فقال : مُرْ أُمَّتَكَ أنْ يُكْثِروا من غرس الجنة ، فإن أرضها واسعة وتربتها طيبة ، قلت : وما غرس الجنة قال : لا حول ولا قوة إلا بالله »[2] .

هذا كله على القول بأنّ الجنة والنار حسب ظواهر الكتاب ، موجودتان في الخارج ، مع قطع النظر عن أعمال المكلف ، وأنّهما معدّتان للمطيع والعاصي ، وأما على القول بأنّه ليس لهما وراء عمل الإنسان حقيقة ، وأن الجنة والنار عبارة عن تجسم عملِ الإنسان بصورة حسنة وبَهِيّة ، أو قبيحة ومرعبة ، فالجنة والنار موجودتان واقعاً بوجودهما المناسب في الدار الآخرة ، وإن كان الإنسان ، لأجل كونه محاطاً بهذه الظروف الدنيوية ، غير قادر على رؤيتهما ، وإلا فالعمل ، سواء كان صالحاً أو طالحاً ، قد تحقق وله وجودان وتمثّلان ، وكلٌّ موجود في ظرفه .

* * *

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٠٤ .

(٢) سفينة البحار ، مادة غرس ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .



الخـــاتمــة

* التَّقيّة في الكتاب والسُّنّة
* عدالة الصحابة في الكتاب والسُّنّة
* الشيعة واتهامهم بالقول بتحريف القرآن
* المتعة في الكتاب والسُّنّة

الـخاتمة

قـد تعرفت فيـما تقدم عـلى المسـائـل الـرئيسيـة المـطروحـة في علم الكـلام الإسلامي ، ووقفت على الحق القراح الذي يـدعمه العقـل ويثبته الكتـاب والسنة المطهرة ، وهناك بعض المسائل التي لم تزل الشيعة الإمامية، تُزْدَرى بها ، وتُهاجَم أوْ تُتّهَم بالإعتقاد بها ، وهي :

١ ـ البَداء .

٢ ـ الـرجعة .

٣ ـ التقـية .

٤ ـ عدم الإعتراف بعدالة جميع الصحابة .

٥ ـ الإتهام بالقول بتحريف القرآن .

٦ ـ المتعـة .

وقد قدّمنا البحث عن البداء في الجـزء الأول من الكتاب[١] ، وعن الـرجعة في مباحث المعـاد [٢] ، وفيما يلي نتعرض إلى بقية هذه المسائل ، وإن كـان بعضها (المتعـة) من المسائـل الفقهيـة التي لا تمت إلى المسـائـل الكـلاميـة بصلة ، ولكن نذكرها رجاء الستر عن وجه الحق ، وتقريب الخطى بين المسلمين .

---

(١) الإلهيات ، ج ١ ، الفصل الخامس ، ص ٥٦٣-٥٩٣ .

(٢) لاحظ ص ٢٨٩ من هذا الجزء .

(١)

التقيّة في الكتاب وَالسُّنة

إنّ مما يشنع به على الشيعة ويُزدرى به عليهم ، قولهم بالتقية وعملهم بها في أحايين وظروف خاصة . ولكن المشنِّعين لم يقفوا على مغزاها . ولو تثبّتوا في الأمر ، وتريثوا في الحكم ، ورجعوا إلى كتاب الله وسنّة رسوله ، وسألوا أهل الذكر ، لوقفوا على أنها مما تحكم به ضرورة العقل ونص الكتاب والسنة .

إنّ ها هنا أمرين مختلفين ربما يخلط الجاهل أحدهما بالآخر ، وهما :

١ ـ النِفاق .

٢ ـ التقية .

وقد ضربوهما بسهم واحد ، وأعطوهما حكماً واحداً فقالوا إن التقية فرع من النفاق تجلّى في الشيعة باسم التقية . ولو رجعوا إلى الكتاب العزيز لعرفوا أنّه بينما يندد بالنفاق والمنافقين ويقول : ﴿ **الأعرَابُ أشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً** ﴾[1] ، ويقول : ﴿ **إنَّ المنافِقينَ في الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النّارِ** ﴾[2] ، يحرّض على التقية في ظروف خاصة ويقول : ﴿ **لا يَتَّخِذِ المُؤمِنُونَ الكافرينَ أوْلياءَ مِنْ دونِ المُؤمنينَ وَمَنْ يَفْعَلْ**

(١) سورة التوبة : الآية ٩٧ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٤٥ .

ذلكَ فلَيْسَ مِنْ اللهِ في شيَءٍ ، إلّا أنْ تَتَّقوا مِنْهُمْ تُقاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وإلى اللهِ المَصيرُ ﴾[1] .

فقوله : ﴿ إلّا أنْ تَتَّقوا ﴾ ، إستثناء من أهم الأحوال ، أي إنّ ترك موالات الكافرين حتم على المؤمنين في كل حال ، إلا في حال الخوف من شيءٍ يتّقونه منهم ، فللمؤمنين حينئذٍ أنْ يوالوهم بقدر ما يُتّقى به ذلك الشيء ، لأنّ درء المفاسد مُقَدّم على جلب المصالح .

والإستثناء منقطع ، فإنّ التقرب من الغير خوفاً بإظهار آثار التولّي ظاهراً ، من غير عقد القلب على الحب والولاية ، ليس من التولّي في شيء . لأنّ الخوف والحُبّ أمران قلبيّان ، ومتنافيان أثراً في القلب ، فكيف يمكن اجتماعهما. فاستثناء الإتقاء إستثناء منقطع .

فلو كانت التقية من فروع النفاق ، فلماذا دعا إليها الكتاب الحكيم ؟ .

روى السيوطي في الدرّ المنثور قال : أخرج إبن إسحاق وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن إبن عباس ، قال : كان الحَجّاج بن عمرو ، حليف كعب الأشرف ، ابن أبي الحقيق ، وقيس بن زيد ، وقد بطنوا بنفر من الأنصار ، ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير ، وسعد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء النفر من اليهود ، واحذروا مباطنتهم لا يفتنونكم عن دينكم . فأبى أولئك النفر ، فأنزل الله فيهم : ﴿ لا يَتَّخِذِ المُؤْمنونَ الكافرينَ ﴾ إلى قوله ﴿ واللهُ علىٰ كُلِّ شيَءٍ قَديرٌ ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ مَنْ كفَرَ باللهِ مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ ، إلّا من أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بالإيمان ، ولكن مَنْ شَرَحَ بالكُفْرِ صَدْراً ، فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ منَ اللهِ ولَهُمْ عذابٌ عَظيمٌ ﴾[3] . فترى أنّه سبحانه يجوّز إظهار الكفر كُرْهاً ، ومجاراة الكافرين خوفاً

---

(١) سورة آل عمران : الاية ٢٨ .

(٢) الدرّ المنثور ، ج ٢ ، ص١٦ .

(٣) سورة النحل : الآية ١٠٦ .

منهم بشرط أنْ يكون القلب مطمئناً بالإيمان . فلو كانت مداراة الكافرين في بعض الظروف نفاقاً ، فلم رخّصه الإسلام وأباحه ، وقد اتفق المفسرون على أنّ الآية نزلت في جماعة أُكرهوا على الكفر، وهم عمّار وأبوه ياسر وأُمُّه سُميّة، وقتل أبو عمار وأُمُّه ، وأعطاهم عمّار بلسانه ما أرادوا منه . ثم أخبر سبحانه بذلك رسول الله ، فقال قومٌ كَفَرَ عمار ، فقال صلوات الله عليه وآله : « كلاّ ، إنّ عماراً مُلىء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه » . وجاء عمار إلى رسول الله وهو يبكي ، فقال : « ما وراءَكَ » ؟ فقال : « شرٌّ يا رسول الله ، ما تُركْتُ حتى نِلْتُ مِنْكَ ، وذكرت آلهتهم بخير » . فجعل رسول الله يمسح عينيه ويقول : « إنْ عادوا لك فَعُدْ لَهُمْ بما قُلْتَ » فنزلت الآية[1] .

نعم ، شذت عن المسلمين جماعة الخوارج فمنعوا التقية في الدين مطلقاً ، وإن أُكره المؤمن وخاف القتل ، زاعمين أنّ الدين لا يُقدّم عليه شيء[2] .

وماذكروه إجتهاد في مقابل النص ، فإنّ الآية تصرح بأنّ من نطق بكلمة الكفر مُكْرَهاً ، وقايةً لنفسه من الهلاك ، لا شارحاً بالكفر صدراً ، ولا مستحسناً للحياة الدنيا على الآخرة ، لا يكون كافر بل يُعذّر ، كما عُذّر الصحابي الذي قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أنّي رسول الله ، قال : نعم ، فتركه ، وقَتَلَ رفيقه الذي سأله هذا السؤال ورفضه[3] .

كيف ، وربما يترتب على التقية ومجاراة أعداء الدين ومخالفي الحق ، حفظ مصالح الإسلام والمسلمين . وبذلك يظهر الفرق بين النفاق والتقية ، فإن بين الأمرين فرقاً جوهرياً لا يخلط أحدهما بالآخر .

إنّ التقية والنفاق يختلفان من وجهين ، وربما يكون الفرق أكثر من ذلك ، ولكن نكتفي بهما :

---

(١) مجمع البيان ، ج٣ ، ص ٣٨٨ ، ونقله غير واحد من المفسرين .

(٢) المنار ، ج٣ ، ص٢٨٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص٢٨١ .

١ ـ اختلافهما من حيث المبادىء النفسية

إنّ المتقي مؤمن بالله سبحانه وكتبه ورسله ، غير أنّه يـرى صلاح دينـه ودنياه في عدم التظاهر بما آمن به ، والتظاهر بخلافه في بعض الأحـايـين . ولكن المنافق هو من يُبْطن الكفر ، وعدم الإيمـان بالله سبحـانه ، وكتبـه ، ورسله ، أو ما دونها من المبادىء الدينية ، ولكنه يتظاهر بالإيمان حتى يتخيّل المؤمنون أنّه منهم .

وهذا مؤمن آل فرعون ، يكتم إيمانه ، تقية من قومه ، وربما يتظاهر بأنّه على دين قومه ، ولكنه بهذا الغطاء يخدم دينـه ونبيّه ، فيُـرشِدُ قـومه إلى رصـانة دينـه ، ببيانٍ بليغٍ صادرٍ عن رجل محايد ، كما يخدم نبي زمانه بإبلاغه مؤامرة قومه للفتـك به ، وتظهر تلك الحقيقة في الآيتين التاليتين :

قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ من آل فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أنْ يقولَ رَبِّيَ اللّهُ ، وَقَدْ جاءَكُمْ بالبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وإنْ يَكُ كاذباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وإنْ يَـكُ صادِقـاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذي يَعِـدُكُمْ ، إنَّ اللهَ لا يَهْـدِي مَنْ هُـوَ مُسْـرِفٌ كَذّابٌ** ﴾[1] .

ويقول أيضاً : ﴿ **وَجَـاءَ رَجُلٌ مِنْ أقصَى المـدينةِ يَسْعَىٰ ، قـالَ يا مُـوسَىٰ إنَّ المَلأَ يَأْتَمِرونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخرُجْ إنِّي لَكَ مِنَ النّاصِحينَ** ﴾[2] .

٢ ـ اختلافهما من حيث الغايات والأغراض

إنّ مستعمـل التقية لا يهـدف من استعمالهـا ، إلا صيـانـة نَفْسِهِ عن الأذى والقتل ، وعِرْضِهِ عن الهَتْك ، ومالِهِ عن النَّهْب ، أو مـا يؤول إليها بالنتيجة . فلو كان هناك طمأنينة بالنسبة إلى ما يرجع إليه من هذه الأمور ، لمـا استعمل التقيـة ، ولا لجأ إليها . حتى أنّ التقية لأجل التحابب والتوادد ، ترجع غـايتها إلى درء الشر عن النفس والنفيس .

---

(١) سورة غافر : الآية ٢٨ .

(٢) سورة القصص : الآية ٢٠ . وهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون على ما في التفاسير .

وأما المنافق فإنما يلجأ إلى النفاق ، لا لتلك الغايات المقدّسة ، وإنما يريد أنْ يتدخل في شؤون المسلمين ، ويقلب ظهر المجن عليهمْ في الظروف القاسية أو يشترك معهم في المناصب ، والمقامات والغنائم والأموال وغير ذلك مما تلتذ به النفوس الحريصة ، ولأجل ذلك يعدّ سبحانه عبد الله بن أُبَيّ وأنصار حزبه من المنافقين وإنْ تظاهروا بالإيمان . يقول سبحانه : ﴿ **إذا جاءَكَ المُنافِقونَ قالوا نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسولُ اللهِ ، واللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ ، إنَّ المنافِقِين لكاذِبونَ** ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ **وَمِنَ الأعرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوءِ واللهُ سَميعٌ عليمٌ** ﴾[2] .

سؤال وجواب

أما السؤال ، فهو : إنّ الآيتين راجعتان إلى تقيّة المسلم من الكافر ، ولكن الشيعة تتقي إخوانهم المسلمين ، فكيف يستدل بهما على صحة عملهم ؟ .

وأما الجواب ، فهو : إنّ الآيتين وإن كانتا لا تشملان تقية المسلم من أخيه المسلم بالدلالة اللفظية ، ولكنهما تشملان غير موردهما بنفس الملاك الذي سوّغ تقية المسلم من الكافر فإن وجه تشريع التقية هو صيانة النفس والعرض والمال من الهلاك والدمار ، فإن كان هذا الملاك موجوداً في غير مورد الآية ، فيجوز ، أخذاً بوحدة المناط . وقد كان عمل الشيعة على التقية منذ تغلّب معاوية على الأمة ، وابتزازه الإمرة عليها بغير رضاً منها ، وصار يتلاعب بالشريعة الإسلامية حسب أهوائه ، وجعل يتتبع شيعة علي ويقتلهم تحت كل حجر ومدر ، ويأخذ على الظنة والتهمة . وسارت على طريقته العوجاء الدولة المروانية ، ثم العباسية ، فزادتا في الطين بلة ، وفي الطنبور نغمة . هذا وذاك ، اضطر الشيعة إلى كتمان أمرها تارة ، والتظاهر به أُخرى ، زنة ما تقتضيه مناصرة الحق ، ومكافحة الضلال ، وما يحصل به إتمام الحجة .

---

(١) سورة المنافقون : الآية ١ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٩٨ .

التقية المُحَرّمة

إن التقيـة تنقسم حسب الأحكام الخمسـة ، فكـما أنّها تجب لحفظ النفـوس والأعـراض والأموال ، ربـما تحرم إذا تـرتب عليها مفسـدة أعظم ، كهـدم الـدين وخفاء الحقيقة عن الأجيال الآتية ، وتسلط الأعداء على شؤون المسلمين وحرماتهم ومعابدهم . ولأجل ذلك نرى أنّ كثيراً من عظماء الشيعة وأكـابرهم رفضـوا التقية في بعض الأحـايـين وتهيؤا للشّـنق عـلى حبـال الجـور ، والصلب عـلى أخشـاب الظلم . وكلٌ ممن استعمل التقية ورفضها ، له الحُسنى ، وكـلٌ عمل بـوظيفته التي عينتها ظروفه .

إنّ التاريخ يحكي لنـا عن الكثير من رجـالات الشيعة الـذين سحقوا التقيـة تحت أقـدامهم ، وقدّمـوا هياكلهم المقـدسـة قـرابـين للحق ، منهم شهـداء مـرج عذراء ، وقائدهم الصحابي العظيم الذي أنهكته العبادة والورع ، حِجْر بن عُـدي الكِنْدي ، الذي كان من قادة الجيوش الإسلامية الفاتحة للشام .

ومنهم ميثم التـمار ، ورشيد الهجـري ، وعبد الله بن يقـطر ، الذين شنقهم ابن زيـاد في كناسـة الكوفـة ، هؤلاء والمئـات من أمثـالهم هـانت عليهم نفـوسهم العزيزة في سبيل الحق،ونطحـوا صخرة البـاطـل ،وما عرفوا أين زرعت التقية وأين واديها ، بل وجدوا العمل بها حراماً ، ولو سكتوا وعملوا بالتقية ، لضاعت التقيـة من الدين ، وأصبح دين الإسلام دين معاويـة ويـزيـد ، وزياد وابن زيـاد ، دين المَكْر ، ودين الغدر ، ودين النفاق ، ودين الخداع ، دين كل رذيلة ، وأيْنَ هو من دين الإسـلام الحق ، الذي هـو دين كـل فضيلة ، أُولئـك هم أضـاحي الإسـلام وقرابين الحق .

وفوق أُولئك ، إمام الشيعة ، أبو الشهداء الحسين وأصحابه الذي هم سادة الشهداء ، وقادة أهل الإباء .

خزايـة الـتاريخ

كيف لا يتّقي شيعة عليٍّ في أيام حكومـة الأُمويـين ، وهذا معـاوية كتب إلى

عماله في جميع الآفاق : « أنظروا إلى من أُقيمت عليه البيّنة أنّه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه » . وشفع ذلك بنسخة أُخرى فيها : « من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره » . فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق ولا سيما بالكوفة .

روى أبو الحسن علي بن محمد المدائني قال : قامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر، يلعنون علياً ويبرؤون منه ، ويقعون فيه وفي أهل بيته ، وكان أشد الناس بلاء حينئذٍ أهل الكوفة ، لكثرة مَنْ بها مِن شيعة عليّ ، فاستعمل عليهم زياد بن سمية ، وضم إليه البصرة ، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف ، لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام ، فقتلهم تحت كل حجر ومدر ، وأخافهم ، وقطع الأيدي والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشرّدهم عن العراق ، فلم يبق بها معروف منهم »[1] .

وهناك رسالة قيّمة لأبي الشهداء ، الحسين بن علي عليه السلام حول الدماء الجارية والنفوس المقتولة بيد ابن أبي سفيان ، بذنب أنّهم شيعة علي ومحبوه ، رسالة تُعدّ من أوثق المصادر التاريخية ومما جاء فيها :

« أَلَسْت قاتلَ حِجْر وأصحابه العابدين المخبتين الذين كانوا يستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ،فقتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكّدة ، جرأةً على الله واستخفافاً بعهده » ؟

« أوَلَسْتَ بقاتل عمرو بن الحمق الذي أخْلَقَت وأبْلَتْ وجهه العبادة ، فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم نزلت من سقف الجبال »؟

«أولست قاتل الحضرمي[2] الذي كتب إليك فيه زياد: إنّه على دين عليّ كرم الله وجهه ، ودين علي هو دين ابن عمه صلى الله عليه وآله الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه ، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشّم الرحلتين :

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج٣ ، ص١٥ .

(٢) يعني شريك بن شداد الحضرمي ، كان من أصحاب حجر الذين بعث بهم زياد إلى معاوية وقتل مع حجر .

رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، فوضعها الله عنكم بنا ، مِنّةً عليكم »[1] .

نعم ، الرزية كل الرزية تقية المسلم من المسلم ، وخوف الأخ من أخيه . ولولا الظلم الذي أوْرَدَتْه طائفة منهم على الأخرى ، لما احتاجت إلى التقية ، فلا ذنب للشيعة حينئذٍ . ولو سادت الحرية في العالم الإسلامي على الطوائف الإسلامية كلها ، لما كان هناك وجه لتقية الأخ من الأخ ، ولكن للأسف إنّ السلطة رأت أنّ مصالحها لا تقوم إلا بالضغط على الشيعة ليتركوا عقيدتهم وعملهم ويذوبوا في الطوائف الإسلامية الأخرى ، فما ذنب الشيعة عندئذٍ من أنْ تَتّقي السلطة وجلاوزتها وتتظاهر على خلاف ما تعتقد لئلا يقتلوا أو يصلبوا ، أو تهتك أعراضهم أو تنهب أموالهم .

وكم شهدت أوساط الشيعة من مجازر عامة بيد السلطات الغاشمة ، فقُتِل الآلاف منهم بلا ذنب إلا اتّباعهم لأئمة أهل بيت نبي الإسلام ، واقتفائهم آثارهم . ونكتفي من ذلك بكلمة موجزة ـ لكي لا نخرج عن موضوع البحث ـ تُصَوِّر جانباً من تلك الجرائم الفظيعة .

لم يفتأ شيخ الشيعة ، أبو جعفر الطوسي ، إمام عصره وعزيز مصره بغداد ، حتى ثارت القلاقل وحدثت الفتن بين الشيعة والسنة ، ولم تزل تنجم وتخبو بين الفينة والفينة ، حتى اتسع نطاقها بأمر طغرل بك أول القادة السلجوقيين ، فورد بغداد ، عام ٤٤٧ ، وشنّ على الشيعة حملة شعواء وأمر بإحراق مكتبة الشيعة التي أنشأها أبو نصر ، وزير بهاء الدولة البُوَيْهي ، وكانت من دور العلم المهمة في بغداد ، بناها هذا الوزير في محلةٍ بين السورَيْن ، في الكرخ ، عام ٣٨١ ، على مثال بيت الحكمة الذي بناه هارون الرشيد . وكانت مهمة للغاية فقد جمع فيها هذا الوزير ما تفرّق من كتب فارس والعراق واستكتب تآليف أهل الهند والصين والروم ، ونافت كتبها على عشرة آلاف من جلائل الآثار ، ومهام الأسفار ، وأكثرها نسخ الأصل بخطوط المؤلّفين قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٤٨ : « وهرب أبو جعفر الطوسي ونهبت داره » ، ثم قال في حوادث سنة ٤٤٩ : « وفي

---

(١) الغدير ،ج ١٠ ،ص١٦٠ـ١٦١ لاحظ المصدر هناك .

صفر هذه السنة كبست دارة أبي جعفر الطوسي متكلم الشيعة بالكَرْخ ، وأُخذ ما وجد من دفاتره وكرسي يجلس عليه للكلام ، وأُخرج إلى الكرخ ، وأُضيف إليه ثلاث سناجيق بيض كان الزوار من أهل الكرخ يحملونها معهم إذا قصدوا زيارة الكوفة ، وأُحرق الجميع »[1] .

هذا غيض من فيض ، ونزر من كثير ، حول اضطهاد الشيعة وقتلهم ، وهتك أعراضهم ، جئنا به ليقف القارىء على أنّ لجوء الشيعة إلى هذا الأصل لم يكن إلا لظروف قاسية مرت عليهم ، وهي بعد سائدة ، فما ذنب الشيعة إذا أرادوا صيانة أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ؟ .

بالله عليكم أيُّها الاخوان ، لو كنتم انتم مكان الشيعة ، وكنتم تواجهون هذه الأحداث المؤلمة ، هل كنتم تسلكون غير هذا المسلك ، وهل كنتم تضنون بالنفس والنفيس ، أو كنتم تهدون دماءكم وتهتكون أعراضكم وتبيدون أموالكم ؟

أظن أنّ من يملك شيئاً من العقل والإنصاف يحكم بالثاني ، إلا إذا كان هناك مصلحة أهم منها ، وتوقف إعلاء الحق وإبطال الباطل على التضحية ، وهو أمر آخر خارج عن الموضوع . وبعد هذا كله ، أفيصح أن يقال إنّ التقية نفاق ؟[2] .

* * *

(١) الحادثة مذكورة في أكثر الكتب التاريخية التي تعرضت لحوادث عامي ٤٤٧و٤٤٨ للهجرة . وقد ذكرها شيخنا الطهراني في مقدمة « التبيان » ، ص ٥ .

(٢) نعم ، هنا بحث آخر وهو أنّه إذا عمل الشيعي على مقتضى التقية ، كما إذا غسل رجليه مكان مسحهما أو سجد على غير ما يصح عليه السجود ، كالسجاجيد ، فكيف يحكم بصحة عمله مع أنّه لم يمتثل ما على ذمته . وهذه مسألة فقهية ، لها بحثها ، وإجمال الجواب أنّ أدلة التقية حاكمة على الأدلة الواقعية ، موسعة لها في ظروفها كالتيمم في مواقع فقد الماء ، فإجزاؤهما من باب واحد ، والتفصيل يطلب من محله .

مباحث الخاتمة

(٢)

عدالة الصحابة في الكتاب والسنة

المشهور بين أهل السنة عدالة الصحابة جميعاً ، قال إبن عبد البر : « تثبت عدالة جميعهم »[١] .

وقال إبن الأثير : « والصحابة يشاركون سائر الرواة في جميع ذلك إلا في الجرح والتعديل ، فإنّهم كلّهم عدول لا يتطرق إليهم الجرح »[٢] .

وقال الحافظ إبن حجر : « إتفق أهل السنة على أنّ الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة »[٣] .

هذه بعض كلمات القوم ، وقد زعموا أنّ من يتتبع أحوال الصحابة لجرحهم ، أو تعديلهم ، فإنما يريدوا أن يجرحوا شهود المسلمين ليُبطلوا الكتاب والسنة .

غير أنّ الشيعة الإمامية ، عن بكرة أبيهم ، على أنّ الصحابة كسائر الرواة ، فيهم العدول وغير العدول ، وأنّ كون الرجل صحابياً لا يكفي في الحكم بالعدالة ، بل يجب تتبع أحواله حتى يوقف على وثاقته .

---

(١) الإستيعاب ، ج ١ ، ص٢ ، في هامش الإصابة .
(٢) أسد الغابة ، ج١ ، ص٣ .
(٣) الإصابة ، ج١ ، ص ١٧ .

والدليل الوحيد للقوم هو ما رووه عن النبي الأكرم أنّه قال : « مَثَلُ أصحابي كالنجوم بأيّهم اهتديتم اقتديتم »[1] .

ولكن الاستدلال بالحديث باطل من وجوه :

١ ـ إنّ نصوص الكتاب تردّ صحة الإهتداء بكل صحابي أدرك النبي ، فإنّه يقسمهم إلى طائفتين ، طائفة صالحة عادلة ، مرفوعة المقام والمكانة ، وهؤلاء وصفوا بالسابقين الأوّلين ، المبايعين تحت الشجرة ، وغير ذلك[2] .

وطائفة غير صالحة ولا عادلة ، بل جامحة على النبي والمسلمين ، وهم بين منافق عرف المسلمون نفاقه[3] ؛ ومن أخفى نفاقه وتمرّن عليه إلى حد لا يعرفه المسلمون حتى النبي الأكرم[4] ؛ ومُشرفٍ على الإرتداد يوم دارت على المسلمين الدوائر ، واشتدت الحرب بينهم وبين قريش[5] ؛ وفاسق يكذب في إخباره على النبي ، يعرّفه الكتاب بأنّه فاسق لا يقبل قوله[6] ؛ ومريض القلب قد فقد الثقة بالله ورسوله فهو يؤيّد المنافقين من غير شعور[7] ؛ وسَمّاعٍ للمنافقين يقبل كل ما سمع منهم[8] ؛ ومُوَلٍّ في ميدان الحرب أمام الكفار ، لا يصغي لنداء النبي ولا يهمه إلا نفسه[9] ؛ ومسلمٍ بلسانه دون قلبه فخوطب بأنّ الإيمان لم يدخل في قلبه[10] ؛ وجماعة أُلّفت قلوبهم بإعطاء الزكاة حتى يتّقى شرهم[11] ؛ وخالطٍ عملاً صالحاً بعملٍ سيّءٍ[12] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) جامع الأصول ، ج٩ ، كتاب الفضائل ، ص ٤١٠ ، الحديث ٦٣٥٩ .

(٣) لاحظ سورة المنافقون .

(٤) لاحظ سورة التوبة: الآية ١٠٢ ، وسورة الفتح : الآية ١٦ والآية ٢٩ .

(٥) سورة التوبة : الآيتان ٤٥ و ٤٦ .

(٦) سورة الحجرات : الآية ٦ .

(٧) سورة الأحزاب : الآية ١٢ .

(٨) سورة التوبة : الآية ٤٧ .

(٩) سورة آل عمران : الآية ١٥٤ .

(١٠) سورة الحجرات : الآية ١٤ .

(١١) سورة التوبة : الآية ٦٠ .

(١٢) سورة التوبة : الآية ١٠٢ .

فهـذه طـوائف عشـر من الصحـابـة الـذين يمجـدهم أهـل السنـة بـوصف العدالة ، وأنّ في الاقتـداء بكل واحـد منهم ، الهدايـة إلى الصراط المستقيم . ولا أظن أنّ مَنْ سبر هذه الآيات وأمعن فيها يجرؤ على ذلك الإدعاء ، بل سوف يـرجع ويقـول إنّ كثيراً ممن تشرّفوا بصحبة النبي ، ما عرفوا قَدْرهـا ، وكفروا بنعمـة الله تبارك وتعالى ، فبدلاً من أنْ يستثمـروا هـذه النعمة ، فيكـونوا في الجبهـة والسنام من العدالة ، وخسروا أنفسهم وخسروا غيرهم ممن تبعهم .

إنّ التشرف بصحبـة النبي لم يكن بأشـدّ ولا أقـوى من صحبـة إمـرأة نـوح وامرأة لـوط لزوجيهما ، فما أغنتاهما عن الله شيئـاً ، قال سبحـانه : **﴿ضَـرَبَ اللّهُ مَثَلاً للَّذِينَ كَفَروا امْرأَتَ نوحٍ وَامْرَأَتَ لوطٍ كـانتا تَحْتَ عَبْـدَيْنِ مِنْ عبادَنـا صالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُما فلم يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وقيلَ ادْخلا النّارَ مع الدّاخلين﴾**[1] .

وإن التشرف بصحبة النبي لم يكن أكثـر امتيازاً وتأثيراً من التشرف بالـزواج من النبي وقـد قـال سبحـانـه في أزواج النبي : **﴿ يـا نِسـاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَـأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَها العَذابُ ضِعْفَيْنْ ، وكان ذلـكَ علَى الله يَسِيـراً ﴾**[2] . وليس الخـطاب من قبيل إيـاكَ أعني واسمعي يا جـارة ، بل الخـطاب خـاص بهنّ بشهادة قوله : **﴿ يضاعَفْ لهـا العَذابُ ضِعْفَـيْنْ ﴾** ، فإن غـيرهن لا يضاعف لهن العذاب .

إنّ تأثير الصحبة لم يكن تأثيراً كيميائياً ، كتأثير بعض المواد في تحويل عنصر كالنحاس إلى عنصر آخر كالذهب ، بل كان تأثيرها تـأثيراً شبيهـاً بتأثـير المعلم في التلميذ ، والمرشد في المسترشد ، ومن المعلوم أن مثل هذا يؤثّر في جمع من الأمّة لا في كلهم . فمن البعيـد جداً أن يكـون للصحبة ثـورة عارمـة في قَلْب شخصيـات الصحابة التي نشأت وترعـرعت في العصر الجاهـلي ، وتربت عـلى السنن السيئة ، إلى شخصيات تُعَدّ مُثُلاً للفضل والفضيلة ، من دون أن يشذّ منهم شاذ ، فتصبح الألوف المؤلّفة التي تربو على مائةِ ألف مع اختلافهم في الأعمار والقابليات ، رجالاً

---

(١) سـورة التحريم : الآية ١٠ .

(٢) سـورة الأحزاب : الآية ٣٠ .

عدولاً يستدر بهم الغمام ويؤتمر بهم في العقائد والشرائع ، وغير ذلك من مجالات الإقتداء .

٢ ـ إن السنة المتضافرة عن النبي الأكرم ، على ارتداد الصحابة بعده ، تردّ كون كل واحد منهم نجماً لامعاً يقتدى به . ومؤلفوا الصحاح ، وإن أفردوا أبواباً في فضائل الصحابة ، إلا أنّهم لم يفردوا باباً بل ولا عنواناً في مثالبهم ، وإنما لجأوا إلى إقحام ما ورد من النبي في هذا المجال ، في أبواب أُخر ستراً لمثالبهم ، فذكرها البخاري في الجزء التاسع من صحيحه في باب الفتن ، وأدرجها ابن الأثير في جامعه في أبواب القيامة عند البحث عن الحوض . كل ذلك ستراً لأفعالهم وأوصافهم غير المرضية .

ولكن الصبح لا يخفى على ذي عيني ، ففيما أوردوا من الأحاديث في هاتيك الأبواب شاهدٌ على أنّ صحابة النبي لم يكونوا مرضيين بل أنّ كثيراً منهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى .

روى البخاري ومسلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يَرِدُ عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي ـ أو قال : من أمتي ـ فيحلئون عن الحوض ، فأقول : « يا ربّ ، أصحابي » . فيقول : « إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك ، أنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى » .

وفي بعض النصوص أنّ الناجي منهم ليس إلا همل النعم ، وهو كناية عن العدد القليل .

هذا قليل من كثير ، ذكرناه ، وكفى في تنديد النبي بهم قوله : « سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي »[١] .

٣ ـ إنّ التاريخ المتواتر يشهد على ظهور الفسق من الصحابة في حياة النبي وبعده ، وهذا الوليد بن عقبة نزل في حقه قوله سبحانه : ﴿ إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنوا ﴾[٢] ويشهد التاريخ على أنّه شرب الخمر ، وقام ليصلي بالناس صلاة

---

(١) لاحظ في الوقوف على هذه الأحاديث ، جامع الأُصول ، لابن الأثير ، ج ١١ ، كتاب الحوض ، في ورود الناس عليه ، ص ١٢٠-١٢١ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ٦ .

الفجر ، فصلى أربع ركعات ، وكان يقول في ركوعه وسجوده : إشربي واسقيني . ثم قاء في المحراب ، ثم سلّم ، وقال : هل أزيدكم إلى آخر ما ذكروه[1] .

وهذا البخاري يروي مشاجرة سعد بن معاد ، سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، في قضية الإفك ، فقد قال سعد بن عبادة لابن عمه : كذبت لعمرو الله . وأجابه ابن العم بقوله : كذبت لعمرو الله ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين[2] .

أوَ لا تعجب أنّ هؤلاء يصف بعضهم بعضاً بالكذب والنفاق ، ونحن نقول إنهم عدول صلحاء . والإنسان على نفسه بصيرة .

إنّ الحروب الدائرة بين الصحابة أنفسهم لأقوى دليل على أنهم ليسوا جميعاً على الحق ، فقد ثاروا على عثمان بن عفان وأجهزوا عليه . فكيف يمكن أن يكون القاتل والمقتول كلاهما على الحق والعدالة .

وهذا هو طلحة وذاك الزبير ، جهّزا جيشاً جراراً لمحاربة الإمام ، وأعانتهما عائشة ، التي أُمرت مع سائر نساء النبي بالقرار في بيوتهن وعدم الظهور والبروز .

وهذا خال المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ، الباغي على الإمام المفترض الطاعة بالنص أوّلاً ، وبَيْعة المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ثانياً ، فاهدر دماءً كثيرة لا يحصيها إلّا الله سبحانه .

ومن العذر التافه تبرير أعمالهم الإجرامية بأنهم كانوا مجتهدين في أعمالهم وأفعالهم ، مع أنه لا قيمة للإجتهاد أمام النص وإجماع الأمة ، ولو كان لهذا الإجتهاد قيمة ، لما وجدت على أديم الأرض مجرما غير معذور ، ولا جانياً غير مجتهد ؛ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أفْواهِهِم إنْ يقولونَ إلّا كَذِباً ﴾[3].

هذا قُدامه بن مظعون ، صحابي بدري شرب الخمر ، وأقام عليه عمر

---

(١) الكامل لابن الأثير ، ج٢ ، ص٤٢ ، وأسد الغابة ، ج٥ ، ص ١٩٠ .

(٢) صحيح البخاري ، ج٥ ، ص ١١٨ في تفسير سورة النور .

(٣) سورة الكهف : الآية ٥ .

الحد[1] .

وهؤلاء الصحابة الذين خضبوا وجه الأرض بالدماء ، فاقرأ تاريخ بسر بن أرطأة ، فإنه قتل مئات من المسلمين ، وما نقم منهم إلا أنّهم كانوا يحبون علي بن أبي طالب ، ولم يكتف بذلك حتى قتل طفلين لعبيد الله بن عباس[2] .

٤ ـ أن تشبيه الصحابة بالنجوم ، وأن الاقتداء بكل واحد منهم سبب للإهتداء ، يعرب عن أنّ القائل يعتمد في ذلك على الذكر الحكيم ، فإنّه سبحانه قال : ﴿ وَبِالنَّجمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[3] ولكن شتان ما بين المشبه والمشبه به ، إذ ليس كل نجم هادياً للضالّ ، وإلا لقال تعالى : « وبِالنجومِ هُمْ يَهْتَدُونَ » . فأيّ معنى ـ عندئذٍ ـ لهذا التشبيه .

٥ ـ إنّ هذا الحديث موضوع على لسان النبي الأكرم ، وصرّح بذلك جماعة من أعلام أهل السُّنة .

قال أبو حيان الأندلسي ـ في معرض ردّه على الزمخشري الذي أورد هذا الحديث ـ وقوله : « وقد رضي رسول الله لأُمتّه إتباع أصحابه والإقتداء بآثارهم في قوله : أصحابي كالنجوم الخ » ، لم يقل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو حديث موضوع لا يصح بوجه عن رسول الله » .

ثم نقل قول الحافظ ابن حزم في رسالته في إبطال الرأي والقياس والإستحسان والتعليل والتقليد ، ما نصه : « وهذا خبر مكذوب باطل لم يصح قطّ » .

ثم نقل عن البزاز صاحب المسند قوله : وهذا كلام لم يصح عن النبي صلى الله عليه وآله ، وشرع بالطعن في سنده[4] .

ورد إبن قيم هذا الحديث وضعف أسانيده وقال رداً على من استدل في

---

(١) أسد الغابة ، ج٤ ، ص١٩٩ .

(٢) الغارات ، للثقفي ، ج٢ ، ص٥٩١ـ ٦٢٨ ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ١٨٦ـ١٨٩ ، الكامل ،ج ٣ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

(٣) سورة النحل : الآية ١٦ .

(٤) لاحظ جميع ذلك في تفسير البحر المحيط ، ج ٥ ، ص ٥٢٨ .

صحة التقليد ، بهذا الحديث : كيف استجزتم ترك تقليد النجوم التي يُهتدى بها وقلّدتم مَنْ هم دونهم بمراتب كثيرة ، فكان تقليد مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد آثر عندكم من تقليد أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي »[1] ؟ .

وقال الذهبي في جعفر بن عبد الواحد ، ومن بلاياه ، عن وهب بن جرير ، عن أبيه عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أصحابي كالنجوم من اقتدى بشيء منه اهتدى »[2] .

كلمة الإمام زين العابدين في الصحابة

إنّ الشيعة ، تبعاً للدلائل المتقدمة ، واقتداءً بأئمتهم ، يقدّسون الصحابة الذين عملوا بكتاب الله سبحانه وسنة نبيه ، ولم يتجاوزوهما ، كما أنّهم يتبرؤون ممن خالف كتاب الله وسنة رسوله ، وفي هذا المقام كلمة مباركة للإمام زين العابدين قال في دعاء له :

«أللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكاتفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته ، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته ، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته ، وانتصروا به ، ومن كانوا منطوين على محبته ، يرجون تجارة لن تبور في مودّته ، والذين هجرتهم العشائر . إذا تعلّقوا بعروته ، وانتفت منهم القربات ، إذا سكنوا في ظل قرابته ، فلا تنس اللهم ما تركوا لك وفيك ، وأرضهم من رضوانك ، وبما حاشوا الخلق عليك ، وكانوا مع رسولك ، دعاة لك إليك . واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم ، وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه ، ومن كثرت في إعزاز دينك من مظلومهم . اللّهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا »[3] .

---

(١) لاحظ أعلام الموقعين ، ج٢ ، ص٢٢٣ .

(٢) ميزان الاعتدال ، للذهبي ، ج ١ ، ص ٤١٣ .

(٣) الصحيفة السجادية الدعاء الرابع مع شرح « في ظلال الصحيفة السجادية » ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

تحليل الاستدلال بآيتين على عدالة الصحابة

وربما يستدل على عدالة الصحابة بآيتين :

الأولى : قوله سبحانه : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما في قُلوبِهِم فَأَنْزَلَ السكِينَةَ عَلَيْهِم وأَثابَهُمْ فَتْحاً قريباً** ﴾[1] فإنّ ظاهره أنّه سبحانه رضي عنهم ، والرضا آية كونهم مطيعين غير خارجين عن الطاعة ، وليس للعدالة معنى إلا ذلك .

ويلاحظ عليه : **أولاً** : إنّ الآية نزلت في حق مَنْ بايَعَ النبي تحت الشجرة في غزوة الحديبية ، لا في حق جميع الصحابة ، وقد كانوا في ذاك اليوم ألفاً وأربعمائة .

أخرج مسلم وابن جرير وابن مردوية عن جابر رضي الله عنه ، قال : « كنّا يوم الحديبية ، ألفاً وأربعمائة ، فبايعناه ، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة ، وهي سمرة ، وقال بايعناه على أنْ لا نفر ولم نبايعه على الموت »[2] . فأقصى ما يثبته الحديث هو رضاه سبحانه عن العدد المحدود . وأين هو من رضاه سبحانه عن الآلاف المؤلفة من الصحابة .

وثانياً : إنّ ظرف الرضا مذكور في الآية ، وهو وقت البيعة حيث يقول : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايعونَكَ** ﴾ ، ومن المعلوم أنّ الرضا في ظرف خاص لا يدل على الرضا بعده إلا إذا ثبت أنّهم بقوا على الحالات التي كانوا عليها ، وهو غير ثابت . وإثباته بالإستصحاب ، أوهن من بيت العنكبوت .

وليس هذا مختصاً بهؤلاء ، فإن الإيمان والأعمال الصالحة ، إنما تفيد إذا لم يرتكب الإنسان ما يبطل أثرهما ، سواء أقلنا بالإحباط أو لا .

وثالثاً : إنه سبحانه يقول في نفس السورة : ﴿ **إنَّ الّذينَ يُبايِعونَكَ إنَّما يبايعون اللّهَ ، يَدُ اللهِ فوْقَ أيْدِيهِمْ ، فمَنْ نَكَثَ فَإنَّما يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أوْفى بِما**

---

(١) سورة الفتح : الآية ١٨ .

(٢) الدر المنثور ، ج ٦ ، ص ٧٤ .

عاهدَ عَلَيْه اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أجْراً عَظيماً ﴾ [١] .

وهذا يعرب عن أنّ بعض المبايعين كانوا على مظنة النكث بما عاهدوا وبايعوا عليه ، وأن البعض الآخر كانوا على مظنة الوفاء به وإلا فلو كان الوفاء معلوماً منهم ، فما معنى هذا الترديد . وليست الآية خطاباً قانونياً حتى يقال إنها من قبيل إيّاك أعني واسْمعي يا جارة ، بل قضية خارجية مختصة بأناس معينين .

ورابعاً : إنّ السُّنّة تدل على أنّ نزول السكينة كان مختصاً بمن علم منه الوفاء ، وبالتالي يكون الرضا أيضاً مخصوصاً بهم .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فَعَلِمَ ما في قُلوبِهِمْ فَأنْزَلَ السَّكينَةَ عليْهِمْ** ﴾ ، قال : إنما أُنْزلت السكينة على من علم منه الوفاء »[٢] .

وخامساً : إنّ الرضا تعلق بالمؤمنين . ومن المعلوم أنّه بايع النبي في غزوة الحديبية جماعة من المنافقين أيضاً ، بلا خلاف . وبما أنهم كانوا مختلطين غير متميزين فلا يحكم على كل واحد بالرضا والعدالة ، إلاّ إذا ثبت أنه مؤمن غير منافق .

وكيف يمكن أنْ يكون للآية عموم أفرادي وأزماني يعمّ جميع المبايعين إلى آخر أعمالهم ، مع أنّ طلحة والزبير ممن بايعا بيعة الرضوان ، وقد وقع منهما من قتال عليٍّ ما خرجا به عن الإيمان وفسقا عند جمع من المسلمين ، كالمعتزلة ومن جرى مجراهم ، ولم يمنع وقوع الرضا في تلك الحال من وقوع المعصية فيما بعد ، فماذا الذي يمنع من مثل ذلك في غيرهم[٣] .

الآية الثانية : قوله سبحانه : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أشِدّاءُ عَلَى الكُفّارِ ، رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً سيماهُمْ في وُجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُودِ . ذلِكَ مَثَلُهُمْ في التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ في**

---

(١) سورة الفتح : الآية ١٠ .

(٢) الدر المنثور ، ج٦ ، ص٧٣ .

(٣) لاحظ التبيان ، ج٩ ، ص٣٢٩ .

الإنْجِيلِ كَزَرْعٍ أخْرَجَ شَطْأَهُ فآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفّارُ ، وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأجْراً عظيماً ﴾[1] .

والاستدلال مركّز على قوله : ﴿ والّذينَ مَعَهُ ﴾ ، وهم موصوفون بأوصاف سبعة : ١ ـ أشداء على الكفار ، ٢ ـ رحماء بينهم ، ٣ ـ تراهم ركعاً ، ٤ ـ سجداً ، ٥ ـ يبتغون فضلاً من الله ، ٦ ـ ورضواناً ، ٧ ـ سيماهم في وجوههم من أثر السجود .

وكأنّ المستدل يستظهر من الآية أنّها بصدد بيان أنّ كل من كان مع النبي كان على هذه الصفات السبع التي لا تنفك عن العدالة ، وأنّ مضمونها قضية خارجية راجعة إلى الجماعة التي كان الزمان والمكان يجمعانهم والنبي الأكرم .

يلاحظ عليه : أولاً : إنّ الآية على خلاف المقصود أدلّ ، فإنها ، وإن كانت قضية خبرية بظاهرها ، ولكنها بمعنى الإنشاء ، فهي بصدد أمر من كان معه على أن يكونوا بهذه الصفات ، وهذا نحو قولك : « ولدي يصلي » ، فهو بمعنى : « صلّ يا ولد » فالآية تُزَيّف منطق من يدّعون أن الصحابة مصونون عن كل قبيح ، فهم لصحبتهم الرسول ، نبراس منير ، لأنّ الآية تحمل صورة رائعة عن سيرة الذين كانوا مع الرسول وأنّهم يجب أن يكونوا على هذه الصفات السبع ، فيكونون في سلبيّتهم (أشداء على الكفار) مثل سلبيّته ، وإيجابيتهم بينهم أنفسهم (رحماء بينهم) كإيجابيّته ، وهكذا سائر صفاتهم من الركوع والسجود وابتغاء الفضل والرضوان . والآية وإن كانت نازلة في حق جماعة خاصة كانوا مع الرسول ، ولكنها ليست قضية خبرية ، بل تحمل قضية إنشائية ، وطلباً وإيجاباً منهم لأن يكونوا على هذه الصفات السبع .

ولأجل ذلك ترى أنّه سبحانه يخصص وعد المغفرة وإعطاء الأجر العظيم . بعدة منهم ، ويقول في آخر الآية : ﴿ وَعَدَ الله الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصّالحات مِنْهُمْ مغْفِرَةً وأجْراً اعظيماً ﴾ . وهذا التبعيض والتخصيص إيعاز إلى أنّ هذه

---

(١) سورة الفتح : الآية ٢٩ .

الصفات السبع ، ربما تتحقق في صورها وظواهرها دون حقيقتها وواقعيتها التي هي الإيمان بالله والعمل الصالح .

وثانياً : إنّه يمكن أنْ يراد من قوله : ﴿ والَّذين معه ﴾ ، غير المعية الزمانية والمكانية ، حتى يقال بأنّها مختصة بصحابته المعاصرين ، منحسرة عمن بعده من التابعين ، وأتباعهم إلى يوم الدين ، وإنّما يراد الذين معه في رسالته الإلهية تصديقاً وإيماناً وتطبيقاً ، ومعه في حملها كما حملها ، ومعه في جهاده وصبره كما جاهد وصبر .

وعند ذلك تعم الآية الأُمة الإسلامية جميعاً ، إلى يوم الدين ، وتكون أجنبية عن مسألة عدالة الصحابة ، وتعرب عن أنّ من كان مع الرسول يجب أنْ يكون بهذه الصفات والسمات ، ومع الإيمان والعمل الصالح .

وثالثاً : إنّ الإستدلال لا يكتمل إلا بجمع الآيات الواردة في شأن الصحابة حتى يستظهر من الجميع ما هو مقصوده سبحانه وقد عرفت أنّ آيات كثيرة تندد بأقسام عشرة من صحابة النبي والذين كانوا معه ، وأنّهم كانوا بين معلوم النفاق ومخفيّه ، ومشرفين على شفير هاوية الإرتداد ، إلى غير ذلك من الأقسام ، ومع ذلك كيف يمكن الإستدلال بآية وتناسي الآيات الأخر . كل ذلك يعرب عن أنّ المفسر لا يصح له اتخاذ موقف حاسم في موضوع واحد إلا بملاحظة جميع الآيات التي لها صلة به .

* * *

الشيعة وإتهامهم بتحريف القرآن

إنّ القرآن الكريم أحد الثقلين الذين تركهما النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بين الأمة الإسلامية وحث على التمسك بهما ، وأنّهما لا يفترقان حتى يردا عليه الحوض ، وقد كتب سبحانه على نفسه حفظه وصيانته وقال : ﴿ **إنّا نحنُ نَزّلْنا الذِّكر وإنّا لَهُ لحافِظونَ** ﴾[١] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم ، فعليكم بالقرآن ، فإنّه شافع مشفع ، وماحل مصدّق ، منْ جَعَلَهُ أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار »[٢] .

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام : « إنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش ، والهادي الذي لا يضلّ »[٣] .

وقال عليه السلام : « ثم أنْزَلَ عليه الكتاب نوراً لا تُطفّأ مصابيحه ، وسراجاً لا يخبو توقده ، ومنهاجاً لا يضل نهجه . . . وفرقاناً لا يخمد برهانه »[٤] .

بل إنّ أئمة الشيعة جعلوا موافقة القرآن ومخالفته ميزاناً لتمييز الحديث

(١) سورة الحجر : الآية ٩ .

(٢) الكافي ، ج٢ ، ص ٢٣٨ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ١٧٦ .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٨ .

الصحيح من الباطل ، قال الصادق عليه السلام : « ما لم يوافق من الحديث القرآن ، فهو زخرف »[1] .

ومع ذلك كله أُتهِمَتِ الشيعةُ ـ اغتراراً ببعض الروايات الواردة في جوامعهم الحديثية ـ بالقول بتحريف القرآن ونقصانه ، غير أنّ أقطاب الشيعة وأكابرهم رفضوا تلك الأحاديث كما رفضوا الأحاديث التي رواها أهل السنة في مجال تحريف القرآن ، وصرّحوا بصيانة القرآن عن كل نقصان وزيادة وتحريف . ونحن نكتفي فيما يلي بذكر بعض النصوص لأعلام الإمامية ، الواردة في هذا المجال :

١ ـ قال الصدوق (م ٣٨١) : « إعتقادنا في القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيّه ، هو ما بين الدفتين ، وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك ، ومن نسب إلينا أنّا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب »[2] .

٢ ـ وقال الشيخ المفيد (م ٤١٣) : « قد قال جماعة من أهل الإمامة إنه لم ينقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة ، ولكن حذف ما كان ثبتاً في مصحف أمير المؤمنين من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله وذلك ثابتاً منزلاً وإن لم يكن من جملة كلام الله الذي هو المعجز ، وقد يسمى تأويل القرآن قرآناً .

قال تعالى : ﴿ **ولا تَعْجَلْ بالقُرآن مِنْ قَبْلِ أنْ يُقْضىٰ إليْكَ وَحْيُهُ وقُلْ رَبِّ زِدْني علماً** ﴾[3]، فسمّى تأويل القرآن قرآناً . وعندي أنّ هذا القول أشبه بمقال من أدّعى نقصان كلم من نفس القرآن على الحقيقة دون التأويل ، وإليه أميل ، واللّهُ أسأل توفيقه للصواب وأما الزيادة فمقطوع على فسادها »[4] .

٣ ـ وقال الشيخ الطوسي (م ٤٦٠): أمّا الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به أيضاً لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها وأما النقصان منه ، فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه ، وهوالأليق بالصحيح من مذهبنا ، وهو الذي نصره المرتضى ، وهو الظاهر في الروايات . . إلى أن قال : ورواياتنا متناصرة بالحث على

---

(١) الكافي ، ج ١ ، كتاب فضل العلم ، باب الأخذ بالسنة ، الحديث ٤ .

(٢) عقائد الصدوق ، ص ٩٣ من النسخة الحجرية الملحقة بشرح الباب الحادي عشر .

(٣) سورة طه : الآية ١١٤ . (٤) أوائل المقالات ، ص ٥٥ .

قراءته والتمسك بما فيه وردّ ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع إليه ، وعرضها عليه ، فما وافقه عُمِل به ، وما خالفه تُجُنِّب ولم يُلْتَفَت إليه »[1] .

٤ ـ قال الطبرسي مؤلف مجمع البيان (م٥٤٨) : « فأما الزيادة فمجمع على بطلانها ، وأما النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشويه أهل السنة أنّ في القرآن نقصاناً والصحيح من مذهبنا خلافه وهو الذي نصره المرتضى قدس الله روحه ، واستوفى الكلام فيه غاية الإستيفاء في جواب المسائل الطرابلسيات ، وذكر في مواضع أنّ العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب ، فإن العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم تبلغه فيما ذكرناه ، لأن القرآن معجزة النبوّة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية ، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أنْ يكون مغيّراً ومنقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد[2] .

هؤلاء هم أعلام الشيعة في القرون السابقة من ثالثها إلى سادسها ، ويكفي ذلك في إثبات أنّ نسبة التحريف إلى الشيعة ظلم وعدوان .

وأما المتأخرون فحدّث عنه ولا حرج فهم بين مصرِّح بصيانة القرآن عن التحريف ، إلى باسط القول في هذا المجال ، إلى مؤلِّفٍ أفرده بالتأليف .

ونختم المقالة بكلمة قيمة للأستاذ الأكبر الإمام الخميني قال: « إنّ الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه ، قراءةً وكتابةً ، يقف على بطلان تلك المزعمة (التحريف) ، وأنّه لا ينبغي أن يركن إليها ذو مسكة ، وما ورد فيه من الأخبار ، بين ضعيف لا يستدل به ، إلى مجعول تلوح منه أمارات الجعل إلى غريب يقضي منه العجب ، إلى صحيح ، يدل على أن مضمونه تأويل الكتاب وتفسيره ، إلى غير ذلك من الأقسام التي يحتاج بيان المراد منها إلى تأليف

---

(١) التبيان ، ج١ ، ص ٣ .

(٢) مجمع البيان ، المقدمة ، الفن الخامس ، ولاحظ بقية كلامه .

كتاب حافل . ولولا خوف الخروج عن طور البحث لأوضحنا لـك أنّ الكتاب هـو عين ما بين الدفتين وأنّ الاختلاف في القراءة ليس إلاّ أمراً حديثاً لا صلة له لما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين »[1] .

تحريف القُرآن في روايات الفريقين

روى الفريقان روايـات في تحريف القـرآن ، وقد قـام أخيراً أحـد المصريين بتأليف كتاباً اسماه « الفرقان » ، ملأه بكثير من هـذه الروايـات . كما أنّ المحـدث النوري ألف كتاباً باسم « فصـل الخطاب » أودع فيـه روايات التحـريف ، وليس هـذا وذاك أوّل من نقـل روايـات التحـريف ، بـل هي مبثـوثـة في كتب التفسـير والحديث . وهذا هو القرطبي يقول في تفسير سورة الأحزاب : أخرج أبو عبيـد في الفضائل ، وابن مردويه ، وابن الأنباري عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبي ماءتي آية ، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلاّ على ما هو الآن »[2]

وهذا هو البخاري ، يروى عن عمر قوله : « لولا أنْ يقـول الناس إنّ عمـر زاد في كتاب الله ، لكتبت آية الرجم بيدي »[3] .

وغير ذلك من الروايات التي نقل قسماً منها السيوطي في الإتقان[4] .

ومع ذلك فنحن نُجِلّ علماء السنّة ومحققيهم عن نسبة التحريف إليهم ، ولا يصح الإستدلال بـالروايـة على العقيـدة ، ونقول مثـل هذا في حق الشيعـة ، وقد تعرفت على كلمات الأعاظم منهم في العصور المتقـدمة ، وعـرفت أنّ الشيخ المفيـد يحمل هذه الروايات على أنّها تفسير للقرآن ، وأنّ ما يـدلّ على التحـريف بالـدلالة المطابقية يضرب به عرض الجدار .

---

(١) تهذيب الأصول ، تقريراً لأبحـاث الإمام الخميني في أصول الفقه ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٢) تفسير القرطبي ، ج١٤ ، ص ١١٣ ، ولاحظ الدر المنثور ، ج٥ ، ص ١٨٠ .

(٣) صحيح البخاري ، ج٩ ، باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء ، ص ٦٩ ، ط مصر .

(٤) الإتقان ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

إنّ المحقق الأستاذ الشيخ جواد البلاغي تدارس الروايات ، فخرج بهذه النتيجة وهي أنّ القسم الوافر منها يرجع أسانيده إلى بضعة أشخاص وصفوا في علم الرجال بالصفات التالية :

١ ـ ضعيف القول ، فاسد المذهب ، مجفو الرواية .

٢ ـ مضطرب الحديث والمذهب ، يعرف حديثه وينكر ، ويروي عن الضعفاء .

٣ ـ كذاب متّهم ، لا تستحل رواية حديث واحد من أحاديثه .

٤ ـ غال كذّاب .

٥ ـ ضعيف لا يلتفت إليه ولا يعوّل عليه ومن الكذابين .

٦ ـ فاسد الرواية يرمى بالغلو .

ومن المعلوم أنّ رواية هؤلاء لا تجدي شيئاً ، وإن كثرت وعالت ، وأمّا المراسيل فهي مأخوذة من تلك المسانيد .

هذا بعض القول في تنزيه الشيعة بل المسلمين عامة عن وصمة التحريف ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الرسائل المؤلفة في هذا الموضوع[1] .

* * *

---

(١) لاحظ مقدمة تفسير آلاء الرحمن للعلامة البلاغي ، ج ١ ، ص ٢٦ . وتفسير الميزان ، ج ١٢ ، ص ١٠٦ ، ١٣٧ ، وتفسير البيان للمحقق الخوئي ، ص ٢١٥ ـ ٢٥٤ . وإظهار الحق للعلامة الهندي ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، فإن فيها كفاية وغنى لطالب الحق .

المتعة في الكتاب والسنة

حقيقة نكاح المتعة ، تزويج المرأة الحرة الكاملة ، إذا لم يكن بينها وبين الزوج مانع من نسب أو سبب أو رضاع أو إحصان أو عدّة أو غير ذلك من الموانع الشرعية ، بمهر مسمى ، إلى أجل مسمى ، بالرضا والإتفاق ، فإذا انتهى الأجل تَبين منه من غير طلاق . ويجب عليها مع الدخول بها ـ إذا لم تكن يائسة ـ أن تعتد عدة الطلاق إذا كانت ممن تحيض ، وإلاّ فبخمسة وأربعين يوماً . وولد المتعة ، ذكراً كان أو أنثى يلحق بالأب ، ولا يدعى إلاّ له ، وله من الإرث ، ما أوصانا الله به سبحانه في آية المواريث من أنّ للذكر مثل حظّ الأنثيين، كما يرث من الأُم ، وتشمله جميع العمومات الواردة في الأبناء والآباء والأُمهات ، وكذا العمومات الواردة في الأُخوة والأخوات ، والأعمام والعمّات .

وبالجملة المتمتع بها زوجة حقيقة ، وولدها ولد حقيقة ، ولا فرق بين هذا الزواج والزواج الدائم ، إلاّ أنّه لا توارث بين الزوجين ولا قسم ولا نفقة لها ، كما أنّ له العزل عنها ، وهذه الفوارق الجزئية ، فوارق في الأحكام لا في الماهية ، والماهية واحدة ، غير أنّ أحدهما مؤقّت والآخر غير مؤقت ، وأنّ الأول ينتهي بانتهاء الوقت ، والثاني ينفصم بالطلاق أو بالفسخ .

وقد أجمع أهل القبلة على أنّه سبحانه شرع هذا النكاح في دين الإسلام في صدره ، ولا يشك أحد ولا يتردد في أصل مشروعيته ، وإنّما وقع الكلام في نسخه أو بقاء مشروعيته .

وأوضح دليل على مشروعيته في صدر الإسلام ، نَهْي عمر عنها حيث قال : مُتْعتان كانتا على عهد رسول الله حلالاً ، وأنا أُحَرِّمُهُما ، وأعاقب عليهما : إحداهما متعة النساء . . . والأُخرى متعة الحج[1] . فإنّ النهي إمّا كان إجتهاداً من عمر كما هو ظاهر كلامه ، أو كان مستنداً إلى نصّ من رسول الله كما وُجِّه به كلامه . وعلى كلا التقديرين ، يدلّ على جوازه في فترة خاصة ، وهذا واضح لمن أَلَمّ بفقه المذاهب الإسلامية .

والأصل في ذلك قوله سبحانه : ﴿ وحلائِلُ أبنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إلَّا ما قَدْ سَلَفَ ، إنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحيماً * والمُحْصَناتُ من النِّساءِ إلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ كِتابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، وأُحِلَّ لَكُمْ ما وراءَ ذٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغوا بأموالِكُمْ مُحْصِنِينَ[2] غَيْرَ مُسافِحينَ ، فَما ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فآتوهُنَّ أُجورَهُنَّ فَريضَةً ، ولا جُناحَ عَلَيْكُمْ فيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ ٱلفَرِيضَةِ إنَّ اللهَ كان عليماً حكيماً ﴾[3] .

دلالة الآية على المُتْعَة

وقد ذَكَرَتْ أُمّةٌ كبيرةٌ من أهل الحديث والتفسير نزول الآية في مورد المتعة ، أو جعلوا نزولها فيها أقوى الإحتمالين نشير إلى بعضهم :

١ ـ إمام الحنابلة أحمد بن حنبل (م ٢٤١) في مسنده[4] .

٢ ـ أبو جعفر الطبري (م ٣١٠) في تفسيره[5] .

٣ ـ أبو بكر الجصّاص الحنفي (م ٣٧٠) في أحكام القرآن[6] .

---

(١) سنن البيهقي ، ج ٧ ، ص ٢٠٦ .

(٢) المراد من الإحصان هو إحصان التعفف لا إحصان التزوّج . أي متعففين لا متزوجين ومن فسّره بإحصان التزوُّج فقد أخطأ . ويشهد لما ذكرنا من التفسير قوله : ﴿ غَيْرَ مسافِحينَ ﴾ أي غير زانين .

(٣) سورة النساء : الآيتان ٢٣ و ٢٤ .

(٤) مسند أحمد ، ج ٤ ، ص ٤٣٦ .

(٥) تفسير الطبري ، ج ٥ ، ص ٩ .

(٦) أحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٧٨ .

٤ ـ أبو بكر البيهقي (م ٤٥٨) في السنن الكبرى[١] .

٥ ـ محمود بن عمر الزمخشري (م ٥٣٨) في الكشّاف[٢] .

٦ ـ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي (م٥٦٧) في تفسيره[٣] .

٧ ـ أبو عبد الله فخر الدين الرازي الشافعي (م ٦٠٦) في تفسيره[٤] .

٨ ـ أبو الخير القاضي البيضاوي (م ٦٨٥) في تفسيره[٥] .

٩ ـ علاء الدين البغدادي (م ٧٤١) في تفسيره[٦] .

١٠ ـ الحافظ عماد الدين إبن كثير الدمشقي (م ٧٤٥) في تفسيره[٧] .

١١ ـ جلال الدين السيوطي (م ٩١١) في الدر المنثور[٨] .

١٢ ـ أبو السعود العمادي الحنفي (م ٩٨٢) في تفسيره[٩] .

١٣ ـ القاضي الشوكاني (م ١٢٥٠) في تفسيره[١٠] .

١٤ ـ شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (م ١٢٧٠) في تفسيره[١١] .

وينتهي نقل هؤلاء إلى أُناس أمثال إبن عباس وأُبَيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود ، وعمران بن حصين ، وحبيب بن أبي ثابت وسعيد بن جبير ، وقتادة ومجاهد ، كما أنّ ناقل هذه الروايات رجال الحديث والتفسير كما عرفت ، فلا يمكن إتهامهم بالوضع والجعل ، هذا حسب أسباب النزول .

---

(١) السنن الكبرى ، ج ٧ ، ص ٢٠٥ .

(٢) الكشاف ، ج ١ ، ص ٣٦٠ .

(٣) تفسير القرطبي ، ج ٥ ، ص ١٣٠ .

(٤) مفاتيح الغيب ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ .

(٥) تفسير البيضاوي ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

(٦) تفسير الخازن ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

(٧) تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٧٧٤ .

(٨) الدر المنثور ، ج ٢ ، ص ١٤٠ .

(٩) هامش تفسير الرازي ، ج ٣ ، ص ٢٥١ .

(١٠)تفسير الشوكاني ، ج ١ ، ص ٤١٤ .

(١١)روح المعاني ، ج ٥ ، ص ٥ .

ثم إنّ هنـاك قرائن تؤيّـد كون المـراد من قولـه : ﴿ فـما ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِـهِ مِنْهُنَّ فآتوهُنَّ أُجورَهُنَّ ﴾ ، نكاح المتعة ، وهي :

١ ـ أنّ جماعة من عـظماء الصحابـة كعبد الله بن عبـاس وجابـر بن عبد الله الأنصـاري وعمـران بن حصـين ، وابن مسعـود وأُبي بن كعب ، كـانـوا يفتـون بإباحتها ، ويقرؤون الآية هكذا : ﴿ فَما ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ (إلى أَجل مُسَمّىً) ، فـآتـوهُنَّ أُجـورَهُنَّ ﴾ . وهـذا صريـح في نكـاح المتعـة ، ومن المعلوم ـ ولا يحتمل غيره ـ أن ليس مـرادهم سقوط هـذه الجملة من الذكـر الحكيم ، بل المراد بيان معنى الآية على نحو التفسـير الذي أُخـذوه من الصادع بـالوحي ، ومن أُنـزل عليـه ذلك الكتـاب صلى الله عليـه وآله . ومن زعم أنّ هـذه الجملة عند هؤلاء ، جزء القرآن فقد أخطأ .

٢ ـ إنّ الإستمتاع في الآية ظاهر في هذا النوع من الزواج ، وقد كان معروفاً في صدر الإسلام بالمتعة والتمتع ، فلا بد أن يحمل على هذا النـوع من النكاح ، لا على المعنى اللغوي الموجود في الزواج الدائم والمنقطع .

٣ ـ إنّ النكـاح الدائم قـد مرّ تشريعـه في صدر السـورة حيث قال تعـالى : ﴿ فانْكِحوا ما طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وثُلاثَ ورُبَـاعَ ﴾[١] ولا وجه لتكـراره . وتوهم أنّ وجه التكرار هو تبيين حكم صَداقِهن الوارد في قولـه : ﴿ أُجورهنَّ ﴾ ، مـدفوع بـأنه مـرّ بيانـه أيضاً ، في صـدر السورة ، عنـد قولـه : ﴿ وآتـوا النِّسـاءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾[٢] ، بل جاء بيانه أيضـاً قبل هـذه الآية بقليـل ، في قولـه تعالى : ﴿ وإنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدالَ زَوْجٍ مكانَ زَوْجٍ وآتَيْتُمْ إحداهُنَّ قِنطاراً فـلا تَأْخـذوا مِنْهُ شيئاً ﴾[٣] .

ولا يصـحّ جعـل هـذه الفقـرة تـأكيـداً لقــولـه : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُّمُ ٱسْتِبْـدالَ زَوْجٍ ﴾ ، لأنّ الآية السابقة آكد بياناً من هذه الآية .

---

(١) سورة النساء : الآية ٣ .

(٢) سورة النساء : الآية ٤ .

(٣) سورة النساء : الآية ٢٠ .

٤ـ ما نقل عن بعض الصحابة و التابعين من دعوى كون الآية منسوخة ببعض الآيات فلولم تكن الآية واردة في مورد المتعة فما معنى ادعاء النسخ فيها.

٥ـ انّ لفظ الاستمتاع و إن كان في الأصل واقعاً على الانتفاع و الالتذاذ لكنّه صار بعرف الشرع مخصوصاً بهذاا لعقد المعين لاسيما إذا أُضيف إلى النساء و المراد من قوله سبحانه: ﴿**فما استمتعتم به منهنّ**﴾ هو «متى عقدتم عليهنّ هذا العقد المسمى متعة فاتوهنّ أُجورهنّ» و ذلك لانّ المهر يجب بالعقد، لا بالجماع والاستمتاع.

ولايصحّ تفسير قوله: ﴿**فما أستمتعتم به منهنّ**﴾ بالعقد الدائم و حمله عليه و ذلك لانّه حينئذٍ إمّا أن يراد منه المعنى اللغوي أي الانتفاع و الالتذاذ و معنى ذلك انّه لا يجب شيء على الزوج إذا لم ينتفع من المرأة بشيء مع انّ الفقهاء اتّفقوا على لزوم دفع نصف المهر في العقد الدائم إذا طلقها قبل الانتفاع.

أو يراد منه العقد الدائم و لازمه وجوب دفع المهر بكماله بمجرّد العقد لانّه قال: ﴿**فآتوهنّ أُجورهنّ**﴾ أي مهورهنّ ولا خلاف في انّه غير واجب، و إنّما يجب دفع الكل إذا دخل و إلاّ فذمة الزوج مشغولة بالكل على و جه التعليق. نعم للزوجة المنع من الدخول مالم تأخذ المهر كلّه، و أين هو من وجوب دفع المهر كلّه، اليها مطلقاً، امتنعت أم لا ، أراد الدخول أم لم يرد.

نعم هذا شأن المتعة التي لم يشرع فيها الطلاق فإذا عقد، عقد متعة، لزمه المهر كلّه، دخل أم لم يدخل.

٦ـ انّ الاحصان يطلق و يراد منه تارة إحصان التزوج، كقوله سبحانه: ﴿**والمحصنات من النساء إلاّ ما ملكت أيمانكم**﴾ (النساء/ ٢٤) أي حرمت عليكم ذوات الأزواج إلاّ من سبيت في الحرب من ذوات الأزواج، و أُخرى احصان الحرية كقوله سبحانه: ﴿**من لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات**﴾ (النساء/ ٢٥) أي الحرائر المؤمنات. و ثالثة، احصان التعفف، يقال : أحصن الرجل: تعفف، وأحصنت المرأة فرجها من الفجور، أي تعففت، كقوله سبحانه: ﴿**ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً**﴾ (النور/ ٣٣) إذا أردن العفة و صيانة النفس عن الفجور.

وعلى ضوء ذلك فالمراد من قوله سبحانه **﴿محصنين غير مسافحين﴾** هو إحصان العفة لا بمعنى الاحتراز عن مباشرة النساء، بل بما يقابل السفاح الوارد في قوله: **﴿غير مسافحين﴾** و المعنى أي متعففين غير زانين و حاصرين النفس في ما أحلّ الله، و كفها عمّا حرّم الله.

٧ـ المراد من قوله: **﴿غير مسافحين﴾** غير زانين و السفح و إن كان في اللغة بمعنى صبّ الماء و إطلاقه على الزنا ، لأجل انّه لاهدف للزاني إلاّ صبّ المني لكن المقصود فيها هو المعنى الفرعي أي الزانين و قد استعمل هذه الكلمة في هذا المعنى في غير واحد من الآيات نحو قوله: **﴿وآتوهنّ أُجورهنّ بالمعروف محصنات غير مسافحات ولامتخذات أخدان﴾** (النساء/ ٢٥) ، أي فانكحوا الاماء في حال انّهن عفائف غير زانيات، ولامتخذات أخدان أي الاصدقاء و كان المراد من السفاح هوالزنا جهراً و باتخاذ الخدن، الزنا سرّاً. و جاء هذا المعنى في جانب الزوج أيضاً . قال سبحانه: **﴿إذآتيتموهنّ أُجورهنّ محصنين غير مسافحين و لامتخذي أخدان﴾** (المائدة/ ٥).

وحاصل مفاد الآية انّه سبحانه أحل لكم ما أحلّ من النساء غير المحرمات لتبتغوا بأموالكم قضاء الوطر بالنكاح أو بملك يمين في حال كونكم متعففين، غير زانين مقتصرين بما أحلّ الله و مجتنبين عمّا حرّم الله من السفاح و الزنا.

٨ـ لما بين حكم النكاح الدائم ، و الأمة المملوكة، بقي قسم منه، أعني عقد المتعة الذي كان رائجاً بينهم ، فصار بصدد بيانه و بدء كلامه بفاء النتيجة مشيره إلى نهاية الكلام في بيان أقسام النكاح و قال: «فما استمتعتم» أي إذا عقدتم عليهنّ عقد المتعة ، فادفعوا إليهنّ مهورهن بمجرّد العقد، من دون انتظار المسّ إذ ليس فيه طلاق حتى يكون للمرء امساك من دفع الكلّ لاحتمال طلاقهن قبل الدخول، فالمهر يجب بمجرّد العقد فيجب دفعها من غير فرق بين الدخول و عدمه.

و بذلك تمت رسالة الآية في بيان أحكام أقسام الالتذاذ المحلل من النساء و هي ثلاثة:

١ـ النكاح الدائم. ٢ـ قضاء الوطر بالأمة المملوكة. ٣ـ عقد المتعة بشروطها المقرّرة.

ونسأل المانعين الذين يتلقون نكاح المتعة ، مخالفاً للحكمة التي لأجلها شرع النكاح ، نسألهم عن الزوجين الذين يتزوجان نكاح دوام ، ولكن ينويان الفراق بالطلاق بعد شهرين ، فهل هذا النكاح صحيح أو لا ؟ ، لا أظن أنّ فقيهاً من فقهاء الإسلام ، يمنع ذلك ، وإلاّ فقد أفتى بغير دليل ولا برهان . فيتعين الأول ، فأي فرق يكون حينئذٍ بين المتعة وهذا النكاح الدائم سوى أنّ المدة مذكورة في الأول ، دون الثاني .

يقول صاحب المنار : « إنّ تشديد علماء السلف والخلف في منع المتعة يقتضي منع النكاح بنية الطلاق ، وإنْ كان الفقهاء يقولون:إنّ عقد النكاح يكون صحيحاً إذا نوى الزوج التوقيت ، ولم يشترطه في صيغة العقد ، ولكن كتمانه إيّاه يعد خداعاً وغشّاً وهو أجدر بالبطلان من العقد الذي يشترط فيه التوقيت »[1] .

أقول : نحن نفرض أنّ الزوجين رضيا بالتوقيت لبّاً ، حتى لا يكون هناك خداع وغشّ ، فهو صحيح بلا إشكال .

الآية غير منسوخة

ثم إنّ جماعة من المفسّرين والمحدّثين بعدما سلّموا نزول الآية في المتعة ودلالتها على مشروعيتها ، تخلّصوا عن القول بمشروعيتها الناسخة إلى أقوال :

فبين قائلٍ بأنّها منسوخة ببعض الآيات ، وقائلٍ بأنّها منسوخة بالسنة . والقائلون بكونها منسوخة بالقرآن اختلفوا بدورهم في الآيات الناسخة ، كما أنّ القائلين بأنّها نُسخت بالسنّة اختلفوا كذلك في زمن النسخ اختلافاً كثيراً.وهذه الإختلافات ، مع قرائن من التاريخ والسنّة ، تدلّ على عدم وقوع النسخ :

أ ـ الخلاف في الآيات الناسخة

ممّا يدلّ على عدم نسخ آية المتعة ، خلافهم في الآيات التي نسختها، إلى أقوال ، لا يفي أيٌّ منها بالمدّعىٰ :

---

(١) المنار ، ج ٣ ، ص ١٧ .

القول الأول : إنّ الناسخ قوله سبحانه : ﴿ والّذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظونَ * إلّا على أزْواجِهِمْ أوْ ما مَلَكَتْ أيْمانُهُم فإنَّهُمْ غيرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فأُولئِكَ هُمُ العادونَ ﴾[1] .

وقد عزب عن القائل أنّ هذه الآية مكيّة ، وآية المتعة مدنية ، ولا معنى لناسخية آية لحكم لم يُشرّع بعد .

أضف إليه أنّ نكاح المتعة داخل في الشقّ الأول . أعني قوله : ﴿ إلّا على أزواجهم ﴾ .

القول الثاني : إنّها منسوخة بآية العدة ، وهي قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النّبيُّ إذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ، فطلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾[2] حيث تدلّ على أنّ انفصال الزوجين إنّما يحصل بطلاق وعِدّة ، والمتعة ليس فيها عدّة ولا طلاق .

وهذا من غرائب الأقوال ، وذلك أنّ القول بعدم العدّة في المتعة ناش من الجهل بأحكامها ، فإنّ فيها العدة كالدائم غير أنّ عدتها حيضتان لمن تحيض وخمس وأربعين يوماً لمن لا ترى الحمرة وهي في سنّ من تحيض .

وأمّا الطلاق ، فلم يدلّ دليل على أنّه وسيلة الفراق الوحيدة لكل زواج ، وإنّما ينحصر دليل الطلاق بالنكاح الدائم .

القول الثالث : إنّها منسوخة بآية الميراث حيث لا ميراث في المتعة .

يلاحظ عليه إنّ الميراث من أحكام الزواج ، ونفي حكم في مورد ، لا يدلّ على انتفاء الموضوع ، فالمتمتع ، بها زوجة يترتب عليها آثار الزوجية إلّا ما خرج بالدليل ، وانتفاء أثرٍ ما لا يدل على فقدان الموضوع . مثلاً النفقة من أحكام الزوجية والناشزة لا نفقة لها ومع ذلك فهي زوجة . والكافرة ، والقاتلة والمعقود عليها في المرض إذا مات زوجها فيه قبل الدخول ، زوجات ، ولكن لا يرثن . بل

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات ٥ ـ ٧ .
(٢) سورة الطلاق ، الآية الأولى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ والمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأنْفُسِهِنَّ ثلاثَةَ قروءٍ ﴾ (سورة البقرة : الآية ٢٢٨) .

قد تتحقق الوراثة من دون أنْ تكون هنـاك زوجية ، كما إذا طلّق الرجـل زوجته في مرض موته ، وخرجت عن العـدة ، فمات الـزوج إلى سنة من الـطلاق ، فترثـه ، وليست بزوجة . فبين الزوجية والوراثة عموم وخصوص من وجه .

ب ـ الخلاف في زمن النسخ

وممّا يدلّ على عدم النسخ اختلافهم في زمن نسخه إلى أقوال شتّى :

١ ـ أنّها أُبيحت ثم نهي عنها عام خيبر .

٢ ـ ما حلّت إلاّ في عمرة القضاء .

٣ ـ كانت مباحة ونهي عنها في عام الفتح .

٤ ـ أُبيحت عام أوطاس ثم نهي عنها[1]

وهذه الأقوال تنفي الثقة في وقوع النسخ .

علـى أنّ القول بنسـخ الكتاب بـأخبار الآحـاد ممنوع جـداً ، وقد صـحّ عن عمران بن الحصين أنّه قال : إنّ الله أُنزل المتعة ومـا نسخها بـآية أُخـرى ، وأمرنـا رسول الله صلى الله عليه وآله بالمتعة وما نهانا عنها ، ثم قال رجل برأيـه ، يريـد به عمر بن الخطاب[2] .

ج ـ قرائن أخرى على عدم النسخ

لكن هناك قرائن قطعية تدلّ على عدم النسخ وكفى في ذلك ما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري ، قال : كنّا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق ، لأيام ، عـلى عهـد رسـول الله وأبي بكـر ، وحتى (ثم) نهى عنـه عمـر في شـأن عمـرو بن حريث[3] .

---

(١) راجع في الوقوف على مصادر هذه الأقوال : كتاب الغدير ، ج ٦ ، وأصل الشيعة وأُصولها ، ص ١٧١ . والأقوال في الثاني أكثر ممّا ذكرنا .

(٢) التفسير الكبير للرازي ، ج ١٠ ، ص ٥٣ . الإرشاد ،ج ٤ ، ص ١٦٩ فتح الباري ، ج ٤ ، ص ٣٣٩ ، وجاء في بعض نسخ البخاري ، كما نص عليه العسقلاني .

(٣) صحيح مسلم ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .

وقد تضافر عن عليّ أنّه سُئِل عن آية المتعة ، أمنسوخة ؟ قال : لا . وقال : لولا نهي عن المتعة ما زنى إلاّ شقي[1] .

أضف إلى ذلك ما تضافر من الروايات الدالّة على أنّ عُمَر هو الذي نهى عن المتعة بعد تسنمه الخلافة ، وقد أسند النهي إلى نفسه بقوله : إنّ رسول الله هذا الرسول ، وإنّ القرآن ، هذا القرآن ، وإنّهما متعتان على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهما ، وأُعاقب عليهما ، إحداهما متعة النساء ، ولا أقدر على رجل تزوج إمرأة إلى أجل إلاّ غيبته بالحجارة ، والأُخرى متعة الحج[2] .

وأقصى ما يمكن أنْ يقال إنّ الخليفة رأى مصلحة في زمانه وأيامه ، اقتضت أن يمنع من المتعة منعاً سياسياً لا دينياً ولذا قال : « وأنا أُحرّمهما وأُعاقب عليهما » ، ولم يقل : « إنّ رسول الله حرّمَهُما أو نسخهما » ، بل نسب التحريم إلى نفسه ، وجعل العقاب عليها منه لا من الله . ومن المعلوم أنّ المنع السياسي يكون منعاً مؤقّتاً تابعاً لمصلحة الزمان ، فإذا انقلبت المصلحة إلى غيرها ، يرتفع النهي .

فالحق أنّ المتعة سنّة إسلامية أمر بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم بوحي من الله سبحانه ليسدّ بذلك طريق الزنا وأنّ الحكمة الإلهية في إكمال الشريعة تقتضي تسويغ هذا النوع من الزواج، فالمسافرون مثلاً ولاسيما من تطول أسفارهم في طلب علم أو تجارة أو جهاد ، أو مرابطة في ثغر ، وهم في ميعة الشباب وريعان العمر ، وتأجج سعير الشهوة ، لا يخلو حالهم من أمرين : امّا الصبر ومجاهدة النفس الموجب للمشقة ، التي تنجر إلى الوقوع في أمراض مزمنة ، وعلل مهلكة ، وفيه إلقاء في العسر والحرج وعظيم المشقة ، ممّا تأباه شريعة الإسلام السمحة السهلة ، ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ، ولا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾[3] ، ﴿ ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾[4] .

وإمّا الوقوع في الزنا والعهر والتوغل في المفاسد .

---

(١) تفسير الطبري ، ج ٥ ، ص ٩ .

(٢) سنن البيهقي ، ج ٧ ، ص ٢٠٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٦ .

فمـا هو تكليف الشاب المغترب الـذي لا يقدر على الزواج الـدائم ، وأيُّهما يختار ، يا قادة المسلمين ويا رجال الإصلاح ؟ .

غير أنّ الشيعة الإمامية ، إقتفاء لأثر رسول الله ، وأئمتهم الأطهار ، ينـادون بملء أفواههم بأنّ هناك طريقاً ثـالثاً ، جـامعاً بـين اليُسْر والشرف ، وهو الـزواج المؤقّت ، عـلى شروط وأحكام . ولعمـري إنّ المتعة كـانت رحمة رحم الله بهـا أمـة محمد صلى الله عليه وآله ، كما قال حبر الأمّة ابن عباس[1] .

هذا ، وفيما كتبه الأعلام حول المتعة غنى وكفاية ، وما ذكرناه قبس من أنوار علومهم ، وضياءٌ من مشاعلهم ، رحم الله الماضين من علمائنـا وحفظ الله البـاقـين منهم ، وجمع بهم كلمة المسلمـين ، وأوردهم المنهل الصـافي المعين ، أعني تـوحيد الكلمة ، كما هم عليه من كلمة التوحيد ، وقد بُني الإسلام على كلمتين :

كلمة التوحيد ، وتوحيد الكلمة

بلغ القلم هـذه السطور صبيحـة يوم الإثنـين السادس عشر من شهـر شوال المكرم من شهور عام ١٤٠٩ للهجرة النبوية المباركة ، بيـد العبد الفقـير بذاتـه إلى الله سبحانه ، أبي جعفـر حسن بن محمد مكي العـاملي ، غفـر الله لي ولوالـديّ ، وجعل ما كتبته وأقدّمه إلى المجتمع الإنساني ، ومحافـل الفكر والمعـرفة ، ومـدارس الحق والهداية ، مذخوراً في خزائنه بأفضل ما يثيب تعالى عبـاده عليه ، ويُؤْجِـرُهم به ، إنّه خير مُؤَمَّلٍ ومَدْعُوٍ ومُجيبٍ .

﴿ وآخِرُ دَعْواهُم أنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ ﴾

---

(١) احكـام القـرآن ، ج ٢ . ص ١٧٩ . بـدايـة المجتهـد ، ج ٢ . ص ٥٨ الـدر المنثـور ، ج ٢ ، ص ١٤١ .

ملحـــق [1]

تعليق للمؤلف

من المفيد الإشارة إلى شبهة يطرحها بعض المتشدقين بالتجدد والعصرنة ، يقولون : إنّ بنيان الحكم في الإسلام مبني على أسس الديمقراطية ، وحرية الرأي والتعبير ، ومن هذا المنطق ، كان الطريق الذي شرعه الإسلام لانتخاب الإمام والقائد ، هو الشورى والإختيار الحر .

وهو غير صحيح من جهات عدّة :

الأولى : إنّهم أرادوا بدعوى الديموقراطية ، تصحيح خلافة الأوائل ، التي يعرف القاصي والداني أية ديموقراطية كانت سائدة فيها ، فأين الضرب بالأيدي والعصي ، والتهديد والوعيد ، وحرق الدور ، وغصب الأموال ، و. . . وبالجملة قمع المخالفين بالقهر والعنف والإذلال ؟ . ومع ذلك كلّه ، كم إنسان شارك في عملية الإنتخاب ؟ وما نسبتهم إلى المجتمع الإسلامي ؟ أم ما هي سمتهم التمثيلية لأبنائه ؟ .

الثانية : كيف يسوغ التفوه بمقولة الديموقراطية في مجتمع عشائري قبلي ، الرؤوس فيه عديدة ، والآراء فيه فريدة ، وإنّ هو إلاّ رأي صاحب العشيرة . ما بعده من رأي ، هذا . والديموقراطية تفترض الحرية في الرأي ، والإنفتاح في التعبير ، فلكلّ فردٍ من أبناء المجتمع رأيه المستقل ، ونظره الخاص ، يدلي بصوته

---

(١) راجع إلى ص ٦١ .

لمن شاء وأحب . وفرض مثل هذا في مجتمع قبلي وعشائري ، هرطقة فاضحة .

الثالثة : يقول علماء الإجتماع إنّ الديموقراطية إنّما تُفْتَرَضُ في المجتمع المترقي فكرياً وثقافياً ، وذلك لأنّ العمليات الانتخابية التي يُفترض إجراؤها تحت مظلّة الديموقراطية ، تستلزم وعياً ونظراً وإدراكاً للمصالح والمفاسد ، وتقويماً للطرق السليمة التي تفيد المجتمع في ارتقائه وتكامله ، وتجربةً في الحياة السياسية . وهذا كله يستدعي أرضية ثقافية وفكرية نشيطة ، لدى أبناء الشعب ، وفي غير تلك الصورة ، يكون فرض الديموقراطية ، لا ديموقراطية .

فإذا قست هذا الأصل الذي ذكرناه ، إلى وضع أفراد المجتمع الإسلامي حال وفاة الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله ، تدرك ما قيمة فرض مبدأ « الديموقراطية » في الإنتخاب ، آنذاك .

* * *

الفهارس العامة

فهرس الآيات

رقم الآية / الصفحة

سورة البقرة

﴿ فَلمّا جاءَهُمْ ما عَرَفوا كفروا به ﴾ ٣١٤/٨٩

﴿ قُلْ إنْ كانت لَكُمُ الدّارُ الآخِرَةُ عند اللهِ خالِصَةً من دونِ النَّاسِ فتَمَنَّوُا المَوتَ إنْ كُنْتُمْ صادقينَ ﴾ ٢٢٤/٩٤

﴿ ولن يَتَمَنَّوه أبَداً بما قدَّمت أيديهم والله عليمٌ بالظّالمين ﴾ ٢٢٤/٩٥

﴿ ودّ كثيرٌ مِنْ أهلِ الكِتابِ لو يَرِدُّونكُمْ من بَعْدِ إيمانِكُمْ كفّاراً حَسَداً من عِنْدِ أنْفُسِهِمْ منْ بَعْدِ ما تَبيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فاعفُوا واصفحُوا حتّىٰ يأتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إنّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ﴾ ٤٤/١٠٩

﴿ وإذ ابتلى ابراهيم رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنّ قالَ إنّي جاعِلُكَ للنَّاسِ إماماً قال وَمِنْ ذُرِّيَّتي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِمينَ ﴾ ١٧,٧١/١٢٤

﴿ من آمنَ منهم باللهِ واليوم الآخر ﴾ ١٦٣/١٢٦

﴿ وكذلكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهَداءَ عَلَىٰ النَّاسِ ويَكُون الرَسُولُ عَلَيْكُمْ شهيداً ... وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمانكُمْ ﴾ ٣٢٠,٢٥٨,٢٥٧/١٤٣

﴿ الَّذينَ آتيناهُمُ الكتابَ يَعرِفُونَهُ كما يعرفونَ أبناءَهُم وإنّ فريقاً منهُمْ لَيَكْتُمونَ الحقّ وهُمْ يَعْلَمونَ ﴾ ٣١٤/١٤٦

﴿ أينما تَكُونوا يَأتِ بِكُمُ اللهُ جَميعاً إنّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدير ﴾ ١٨٨/١٤٨

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللهِ أمْواتٌ بَلْ أحْياءٌ وَلٰكِنْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ ٢٢٨,٢٠٠/١٥٤

﴿إلاّ الَّذينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَبيَّنوا فَأُولَئِكَ أتوبُ عَلَيْهِمْ وأنا التَّوّابُ الرَّحيم ﴾ ٣٣١/١٦٠

﴿ وَلَكُمْ فِي القِصاصِ حَياةٌ ﴾ ٢١٦/١٧٩

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ المَوتُ إنْ تَرَكَ خَيراً الوصيّةُ ﴾ ٢٣٠/١٨٠

﴿ يُريدُ اللهُ بِكُمُ اليسْرَ وَلاَ يُريدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾ ٤٦٣/١٨٥

﴿ وَمَنْ يَرْتَددْ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فأُولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهُمْ فِي الدُّنيا والآخرةِ وأولَئِكَ أصحاب النّارِ هُمْ فيهَا خالِدونَ ﴾ ٣٧٢,٣٦٨/٢١٧

﴿ وَيَسألُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أذىً فاعتَزِلُوا النِّساءَ فِي

سورة آل عمران

سورة النساء

﴿ وَمَنْ يعَصِ اللهَ وَرَسُولَـهُ وَيتَعدَّ حُدُودهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَـالِداً فيها وَلَهُ عَذابٌ مُهينٌ ﴾ ٤١٠,٤٠٩/١٤

﴿ وَلَيْسَـتِ التَّـوبَةُ لِلَّـذيـنَ يَعْمَلُـونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إذا حَضَـرَ أَحَدَهُمُ المَـوتُ قالَ إنّي تُبتُ الآنَ ولا الَّـذينَ يَمُوتونَ وَهُـم كُفَّارٌ أُولئِكَ أعتدنا لهمْ عذاباً أليماً ﴾ ٣٢٧,٢٣٠/١٨

﴿ وَإنْ أَرَدتُـم استِبدالَ زَوجٍ مَكـانِ زَوجٍ وآتيتُمْ إحـداهُنَّ قِنطـاراً فلا تَأخُذُوا منهُ شيئاً ﴾ ٤٥٧/٢٠

﴿ وَحَلائِلُ أبنائِكُمُ الَّذينَ من أَصْلابِكُمْ وأنْ تَجمَعوا بينَ الأُختَينِ إلاّ مَا قدْسَلَفَ إنّ اللهَ كانَ غفوراً رَحيماً ﴾ ٤٥٥/٢٣

﴿والمُحصنـاتِ من النِّسـاءِ إلاّ مـا مَلَكَـتْ أَيْمانُكُـمْ كِتَـابَ اللهِ عَلَيكُمْ وَأُحِلَّ لكُمْ مَا وراءَ ذَلِكُمْ أنْ تَبتَغوا بِأَموالِكُمْ مُحصِنينَ غَيرَ مسـافِحين فمـا اسْتَمتعتم بـهِ منهنّ فـآتُوهُـنّ أجورهُـنّ فَريضَـةً وَلا جُناحَ عَليْكُـمْ فِيما تَراضَيتُمْ بِـهِ مِنْ بَعْدِ الفَريضَـةِ إنّ اللهَ كان عَليماً حَكِيماً﴾ ٣٧٦/٢٤

﴿ إنْ تَجتَنِبوا كَبائِرَ مَا تُنهَونَ عَنهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيّئاتِكُمْ وَنُدخِلْكمْ مُدخَلاً كَريماً ﴾ ٣٧٦/٣١

﴿ فكَيْفَ إِذَا جِئنـا مِنْ كُـلِّ أُمّةٍ بِشَهيْـدٍ وَجِئْنَا بِـكَ عَلَىٰ هَـؤلاءِ شِهيداً ﴾ ٣٦١,٢٥٦/٤١

﴿ إنّ اللهَ لا يغفرُ أن يُشركَ بهِ وَيَغفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ومن يُشْرِكْ بِاللهِ فقدِ افترى إثماً عظيماً ﴾ ٤١٤,٣٥١/٤٨

﴿ أم يحسدون النّـاسَ عَلَىٰ مَا آتاهـمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقـدْ آتينا آلَ إبراهيمَ الكِتابَ وَالحِكمة وآتيناهُمْ مُلكاً عظيماً ﴾ ١١٩/٥٤

﴿ كُلّما نَضِجَتْ جُلُودهُم بَدَّلْنَاهُـمْ جُلوداً غيرها ليذوقوا العذابَ إنَّ اللهَ كانَ عَزيزاً حكيماً ﴾ ٤٠٥,٢٨١/٥٦

﴿ يَا أَيُّهـا الَّذِينَ آمَنُـوا أطيعوا اللهَ وَ أَطيعـوا الرَّسولَ وَ أولـي الأمرِ مِنكُمْ﴾ ١٩/٥٩

﴿ ولو أنّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فاستغفروا اللهَ واستغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ . . . ﴾ ٦٤/٣٤٤، ٣٥٧

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يؤمِنونَ حتّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمّ لايَجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيتَ وَيُسَلّموا تَسليماً ﴾ ٦٥/٣٢٠

﴿ أينما تكونوا يُدرِككُمْ المَوتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بروجٍ مُشَيّدةٍ ﴾ ٧٨/٢٢٣

﴿ ستجدون آخرين يريدونَ أن يأمنوكُمْ ويأمنوا قَوْمَهُمْ كُلَّ ما ...﴾ ٩١/٤١١

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنّمَ خَالداً فيها وَغَضِبَ اللهُ عَلَيهِ وَلَعَنَهُ وأَعدَّ لَهُ عذاباً عظيماً ﴾ ٩٣/٤١١

﴿ وَمْن يَخرجْ مِنْ بَيتِهِ مُهاجِراً إلىٰ اللهِ ورَسولِهِ ثمّ يُدركْهُ المَوتُ فقد وَقَعَ أجْرهُ عَلَى اللهِ﴾ ١٠٠/٢٢٨

﴿ إنِ امرُؤًا هَلَكَ ليس له ولدٌ ولهُ أُختٌ فلها نِصفُ ما تركَ وهو يَرِثُها إن لم يكن لها ولدٌ فإن كانتا اثنتين فلَهُما الثلثان ممّا تَركَ﴾ ١٧٦/٣٠

سورة المائدة

﴿ فلا تخشوهم واخشونِ اليومَ أكملتُ لَكُمْ دينكُمْ وأتممتُ عليكُمْ نِعمَتي ﴾ ٣/٤٥، ٨٤، ٩٧

﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وهوَ في الآخرةِ مِن الخاسرين ﴾ ٥/٣٦٨

﴿ . . ما يُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيكُمْ مِنْ حَرَجٍ ولٰكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نعمتهُ عليكُمْ لعَلَّكُمْ تَشكرون ﴾ ٦/٢٩، ٤٦٣

﴿ وجعلكُمْ مُلوكاً ﴾ ٢٠/٢٥٧

﴿ ومن أحياها فكانّما أحيا النّاس جميعاً ﴾ ٣٢/٢١٦

﴿ إنّما جزاءُ الّذينَ يحاربون اللهَ ورسولَهُ وَيسعونَ في الأرضِ فساداً أن يُقتّلوا أوْ يُصلّبوا أوْ تُقَطَّعُ أيديهِمْ وأرجُلُهِمْ من خلافٍ أو ينفوا من الأرضِ ذلك لَهُمْ خزي في الدنيا ولهُم في الآخرةِ

عَذابٌ عظيم ﴾ ٣٢٩/٣٣
﴿ إلاَّ الذين تـابوا مِنْ قَبْلِ أنْ تَقدِروا عَلَيهِمْ فـاعلموا أنَّ اللهَ غَفورٌ
رَحيمٌ ﴾ ٣٢٩/٣٤
﴿ السارِقُ والسارِقَةُ فاقطَعوا أيدِيهُما ﴾ ٣٠/٣٨
﴿ ومنْ يـرِدِ اللهُ فتنتهُ فَلَنْ تَمْلِـكَ لَهُ مِـنَ اللهِ شيئاً أُولئِكَ الـّذينَ
لَـمْ يُرِدِ اللهُ أنْ يُطَهِّـرَ قُلـوبَهُمْ لَهُـمْ فـي الدُنيـا خِـزيٌ وَلَهُمْ فِـي
الآخرةِعذابٌ عظيم ﴾ ١٢٨/٤١
﴿ ويقول الّذين آمنوا أهؤلاء الّذين أقسموا باللهِ جهدَ أيمانهم إنّهم
لمعكم حَبِطَتْ أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾ ٣٦٨/٥٣
﴿ قُـلْ هَلْ أُنَبِّئُكُـمْ بِشـرٍّ من ذلـك مثوبـةً عنـد الله مَنْ لَعنـهُ اللهُ
وغضبَ عَليـهِ وجعلَ مِنهُـمْ القردَةَ والخَنـازيرَ وعبـدَ الطاغـوتِ
أُولئكَ شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل ﴾ ٣٠٩/٦٠
﴿ يا أيُّها الرسولُ بلِّغ ما أُنْزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ٨٣/٦٧
﴿ يا أيُّها الّذين آمنُوا شهادةُ بينكُمْ إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ الموتُ حينَ
الوصيّة اثنان ذَوا عدلٍ منكم﴾ ٢٣١/١٠٦
﴿ إذ قالَ اللهُ يـا عيسى ابـن مريمَ اُذكُـر نِعمَتي عَلَيـكَ ... وتُبرئُ
الأكْمَهَ والأبرَص بإذني وإذتُخرِجُ الموتَىٰ بِإذني ﴾ ٢١٨/١١٠
﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِـمْ شهيداً ما دُمـت فيهم فَلَمّـا تَوَفّيتِني كُنْـتَ أنتَ
الرقيبَ عليهم ﴾ ٥٤/١١٧

سورة الأنعام

﴿ هو الّذي خَلَقَكُمْ منْ طينٍ ثُمّ قضىٰ أجلاً وأجل مُسمّىٰ عنده
ثمّ أنتم تمترون ﴾ ٢٢٩/٢
﴿ قُـلْ لِمَنْ مـا فِي السّمٰـواتِ والأرضِ قُلْ للهِ كَتَـبَ عَلىٰ نَفْسِـهِ
الرَحْمَـةَ ليجمعنكُمْ إلـى يوم القيامـةِ لا ريبَ فيـه الّذيـن خسروا
أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ ١٧٥/١٢

سورة الأعراف

﴿ ومن خفّت موازينه فأولئك الّذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ ٢٦٣/٩

﴿ قالَ اهبطوا بَعضكمْ لِبَعضٍ عدوٌ وَلَكُمْ فِي الأرضِ مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين ﴾ ١٦٢/٢٤

﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ ٢٨٠/٢٥

﴿ لكلّ أُمّةٍ أجلٌ فإذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون ﴾ ٢٢٧/٣٤

﴿ يا بنِي آدمَ إمّا يأتِينّكُمْ رُسل مِنكُمْ يقصّونَ عَلَيكُمْ آياتي فَمَنْ اتَّقىٰ وَأَصلَحَ فلا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزنون ﴾ ١٦٢/٣٥

﴿ والّذينَ كَذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أُولئك أصحابُ النارِ هُمْ فيها خالدون﴾ ١٦٢/٣٦

﴿ وبينهما حجابٌ وعلى الأعرافِ رجالٌ يعرفون كلاً بسيماهم ونادوا أصحابُ الجنّةِ أن سلامٌ عليكُمْ لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ ٢٧٢/٤٦

﴿وإذا صُرِفت أبصارهُمْ تلقاء أصحابِ النارِ قالوا ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ ٢٧٢/٤٧

﴿ ونادىٰ أصحابُ الأعرافِ رجالاً يعرفونهم بسيماهُم قالوا ما أغنىٰ عنكُمْ جمعُكم وما كُنتم تستكبرون ﴾ ٢٧٢/٤٨

﴿ ألا لَهُ الخَلقُ والأمرُ تباركَ الله ربّ العالمين ﴾ ٢٣٢/٥٤

﴿ وهو الّذي يُرسِلُ الرياحَ بُشراً بين يَدَيْ رَحْمَتِهِ حتّىٰ إذا أقلّتْ سحاباً ثِقالاً سُقناهُ لِبَلَدٍ مَيّتٍ فأنزلنا بِهِ الماء فأخرجنا بِهِ من كلّ الثمراتِ كذلكَ نخرجُ الموتى لعلّكُمْ تذكّرون﴾ ١٩٠/٥٧

﴿ فعقروا الناقةَ وَعَتوا عن أمرِ رَبّهم وقالوا يا صالحُ ائتنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من المرسلين﴾ ٢٠٤/٧٧

﴿ فَأَخَذَتْهُمْ الرَجْفَةُ فأصبحوا فِي دارِهِم جاثمين ﴾ ٢٠٤/٧٨

﴿ فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتُكُمْ رسالة ربّي ونصحتُ

سورة الأنفال

سورة التوبة

﴿ ما كانَ للمشركين أن يعمروا مساجدَ الله شاهدين على أنفسهم بالكفرِ أُولئكَ حبطتْ أعمالهُمْ وفي النارِ هُمْ خالدون ﴾	٣٧٣/١٧
﴿ إنّما يَعْمُرُ مساجد الله مَنْ آمن باللهِ واليَوم الآخر﴾	٣٧٣/١٨
﴿ والّذيـن يكْنِزون الـذّهب والفضّـة ولا ينفقونهـا في سبيـل الله فبشّرهُمْ بعذابٍ أليم ﴾	٢٦٢/٣٤
﴿يومَ يُحْمىٰ عليها فـي نارِ جهنّم فتُكوىٰ بها جباهُهُـم وجُنُوبُهُمْ وظهورهُمْ هذا ما كنزتم لأنفسكُمْ فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾	٢٦٢/٣٥
﴿ لقد ابْتَغَـوُا الْفتنةَ مـن قبلُ وقلّبـوا لكَ الأمـورَ حتّىٰ جـاءَ الحقّ وظهرَ أمْرُ الله وهمْ كارهون﴾	٤٨/٤٨
﴿وعدَ اللهُ المنافقينَ والمنافقاتِ والكُفّارَ نارَ جهنّمَ خالدينَ فيها هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾	٢٨٣/٦٨
﴿وعدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنّـاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدينَ فيها ومساكنَ طيبّةً في جنّاتِ عدنٍ ورضوان من اللهِ أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾	٢٨٣,٢٨٢/٧٢
﴿الأعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقاً ﴾	٤٢٩/٩٧
﴿ومنَ الأعراب مـن يتّخذُ ما يُنفقُ مغـرَماً ويتربّص بكُـمْ الدَّوائر عليهم دائرة السَّوءِ والله سميعٌ عليمٌ ﴾	٤٣٣/٩٨
﴿ياأيّها الّذين آمنوا اتّقوا اللهَ وكونوا مع الصَّادقين ﴾	٣١٨/١١٩

سورة يونس

﴿ إنّ ربّكُمْ اللهُ الّـذي خَلَقَ السَّمٰـواتِ والأرضَ في ستّـةِ أيّام ثُـمّ استوىٰ على العرش يُدبّرُ الأمْرَ ما منْ شفيعٍ إلاّ من بعدِ إذنهِ ذَلكُمْ اللهُ ربّكُمْ فاعبدوه أفلا تذكرّون ﴾	٣٤٢/٣
﴿ إليهِ مـرجعكُمْ جميعاً وعْدَ اللهِ حقّـاً إنّهُ يبدؤُا الخلقَ ثُـمّ يُعيدهُ ليجزيَ الّذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ بالقِسطِ والّذينَ كفروا لهم	

سورة هود

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

سورة الحجر

سورة النحل

سورة الأسراء

سورة الكهف

سورة مريم

سورة طه

سورة الأنبياء

سورة الحج

﴿ إنْ هيَ إلاّ حياتُنا الدُّنيا نموتُ ونحيا وما نحنُ بمبعوثين ﴾ ١٨٢/٣٧
﴿ وإنَّكَ لَتدْعوهُمْ إلىٰ صراطٍ مُستقيم ﴾ ٢٧١/٧٣
﴿ وإنّ الّذينَ لا يؤمنونَ بالآخرَةِ عن الصِّراطِ لناكبون ﴾ ٢٧١/٧٤
﴿ قالوا أَءِذا مِتْنا وكُنّا تُراباً وَعظاماً أَءِنّا لمبعوثون ﴾ ١٨٤/٨٢
﴿ لَقدْ وعِدْنَا نَحْنُ وآباؤنا هذا من قبلُ إنْ هذا إلاّ أساطيرُ الأولين ﴾ ١٨٤/٨٣
﴿ حتّىٰ إذا جاءَ أحَدَهُمُ الموتُ قالَ ربِّ ارجعونِ ﴾ ٣١١,٢٩٦/٩٩
﴿ لَعَلّي أَعمَلُ صالحاً فيما تركتُ كلاَّ إنّها كلمةٌ هو قائلُها ومن ورائهم برزخٌ إلى يومِ يُبعثون ﴾ ٣١١,٢٩٦,٢٣٣/١٠٠
﴿ فإذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فلا أنسابَ بينَهُمْ يومَئِذٍ ولا يتساءلون ﴾ ٢٣٥,١٠٣
﴿ أفحسبتُمْ أنّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وأنَّكُمْ إلينا لاتُرجعون ﴾ ١٦٨/١١٥

سورة النور

﴿ يومَ تشهدُ عَلَيهِمْ ألسنتُهمْ وَأيدِيهمْ وأرجلُهُمْ بما كانوا يعملون ﴾ ٢٨١,٢٥٩/٢٤
﴿ وعدَ اللهُ الّذينَ آمنوا منكُمْ وَعَمَلوا الصّالحاتِ لَيستَخلِفَنَّهُمْ في الأرْضِ كما استخلفَ الّذينَ منْ قَبلهِمْ وَلَيُمَكّنَنَّ لَهُمْ دينهُمُ الّذي ارتضىٰ لهُمْ وَ لَيُبَدِّلنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خوفِهِمْ أمناً يعبدونني لايُشركونَ بِي شيئاً ومَنْ كَفرَ بعْدَ ذَلكَ فأولئكَ هُمُ الفاسِقونَ ﴾ ١٣٢/٥٥

سورة الفرقان

﴿ أرايتَ مَنِ اتَّخَذَ إلٰهَهُ هَواهُ أفأنتَ تكونُ عليهِ وكيلاً ﴾ ١٨١/٤٣

سورة الشعراء

﴿ اَضْرِبْ بِعصٰاكَ البَحْرَ فانفَلَقَ ﴾ ٢٠٩/٦٣
﴿ وَاُزْلِفتِ الجَنّةُ للمُتَّقين ﴾ ٤٢١/٩٠

سورة النمل

سورة القصص

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي الأرضِ ونجعلهُمْ أَئِمَّةً ونجعَلَهُمْ الوارثين ﴾ ١٣٢، ١٢٨/٥

﴿ وجاء رجلٌ من أقصى المدينةِ يسْعَىٰ قالَ يا مُوسىٰ إنَّ المَلَأَ يأتمرون بِكَ ليقتلُوكَ فاخرُجْ إنّي لكَ من النّاصحين ﴾ ٤٣٢/٢٠

﴿ فلمّا أتاها نودِيَ من شاطئِ الوادِ الأيمنِ في البُقعة المباركةِ من الشَّجرةِ أنْ يا موسى إنّي أنا اللهُ ربُّ العالمين ﴾ ١١٨/٣٠

﴿ ربّي أعلَمُ بِمَنْ جاءَ بالهُدىٰ من عندِهِ ومن تكونُ لهُ عاقبةُ الدّار إنّهُ لا يُفلِحُ الظّالمون ﴾ ١٦٤/٣٧

﴿ ويومَ يناديهم فيقولُ أينَ شُركائي الَّذين كُنتُمْ تَزعمون ﴾ ٢٥٦/٧٤

﴿ ونزعنا من كُلِّ أُمّةٍ شهيداً . . . ﴾ ٢٥٦/٧٥

﴿ كُلُّ شيءٍ هَالِكٌ إلاّ وجهَهُ ﴾ ٤٢٢/٨٨

سورة العنكبوت

﴿ فَلَبِثَ فيهِمْ ألفَ سَنَةٍ إلاّ خمسينَ عاماً ﴾ ١٤٨/١٤

﴿ واشكروا لهُ إليه تُرجعون ﴾ ١٦٣/١٧

﴿ فآمنَ لهُ لوط ﴾ ٣١٣/٢٦

﴿ ولا تُخزِني يَومَ يُبعثون ﴾ ١٦٣/٨٧

سورة الروم

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكّروا فِي أنْفسهُم ما خَلَقَ اللهُ السّمٰواتِ والأرضَ وما بينهما إلاّ بالحقّ وأجلٍ مُسمّىً وإنّ كثيراً من النّاسِ بلقاءِ ربِّهم لكافرون ﴾ ٤٠٣/٨

﴿ ثُمّ إذا دعاكُمْ دَعوةً من الأرضِ إذا أنتمْ تخرجون ﴾ ٣٨٥، ٢٨٠/٢٥

﴿ وهوَ الّذي يَبدأُ الخَلقَ ثُمّ يُعيدهُ وهو أهونُ عَلَيهِ ﴾ ١٨٦/٢٧

﴿ فانظرْ إلى آثارِ رَحمَتِ اللهِ كيفَ يُحيِ الأرضَ بعدَ موتها إنّ

ذلكَ لمُحيِ المَوتىٰ وهو علىٰ كُلِّ شيءٍ قدير﴾ ٥٠/١٧٥, ٢٢١

سورة لقمان

﴿ ما خَلقكُمْ ولا بَعثكُمْ إلاَّ كنفسٍ واحدةٍ إنَّ الله سميعٌ بصيرٌ ﴾ ٢٨/١٩١

﴿ ذلكَ بأنَّ اللهَ هُوَ الحقُّ وأنَّ ما يدعونَ من دونِهِ الباطِلُ ﴾ ٣٠/١٦٩

﴿ يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمْ واخشوا يوماً لا يَجزي والدٌ عن ولدِهِ... ﴾ ٣٣/١٦٩

﴿ وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ ﴾ ٣٤/٢٣١

سورة السجدة

﴿ وقالوا أءِذا ضَلَلْنا في الأرضِ أءِنّا لَفِي خَلقٍ جديدٍ بَلْ هُمْ بِلقاءِ ربّهم كافرون ﴾ ١٠/١٨٧, ١٩١

﴿ قُلْ يَتوفَّاكُمْ مَلَكُ المَوتِ الَّذي وُكِّلَ بكُمْ ثُمّ إلىٰ رَبّكُمْ ترجعون ﴾ ١١/١٩٢, ٢٠١, ٢٣٢

سورة الأحزاب

﴿ قدْ يعلَمُ اللهُ المعوِّقينَ مِنكُمْ والقائلين لإخوانهم هَلمَّ إلينا ولا يأتونَ البأسَ إلاّ قليلا﴾ ١٨/٣٧٥

﴿. . . أولئِكَ لمْ يؤمنوا فأحبَطَ اللهُ أعمالهُمْ وكانَ ذلكَ على اللهِ يسيرا ﴾ ١٩/٣٧٥

﴿ يا نساءَ النَّبيّ مَنْ يأتِ مِنكُنَّ بفاحِشَةٍ مبيّنةٍ يُضاعفُ لها العذابُ ضعفين وكان ذلكَ عَلَى اللهِ يسيراً ﴾ ٣٠/٤٤٠

﴿وقَرْنَ فِي بيوتِكُنَّ ولا تَبرَّجْنَ تَبرُّجَ الجاهلية الأُولى وأقمنَ الصَّلاةَ وآتينَ الزَّكاةَ وأطعنَ اللهَ ورسولَهُ إنّما يُريدُ اللهُ ليُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البيتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطهيراً ﴾ ٣٣/١٠٧, ١٢٥

سورة غافر

سورة فصّلت

﴿ سَنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّىٰ يتبيّنَ لهُمْ أنّهْ الحقّ أوَ لمْ يَكْفِ بِرَبّكَ أنّهُ على كُلِّ شيءٍ شهيد ﴾ ٢٤٩/٥٣

سورة الشورىٰ

﴿ اللهُ الّذِي أنزَلَ الكتابَ بالحقِّ والميزان وما يُدريكَ لَعلّ السّاعةَ قريب ﴾ ١١٢/١٧

﴿ قُلْ لا أسألكُمْ عليهِ أجراً إلاَّ المودَّةَ في القُربىٰ ﴾ ١١٢/٢٣

﴿ والَّذينَ استجابوا لِرَبّهمْ وأقـاموا الصّلاةَ وأمرهُمْ شورىٰ بينهُمْ وممّا رزقناهُمْ يُنفقون ﴾ ٥٨/٣٨

سورة الزخرف

﴿ وسْئَلْ منْ أرسَلْنا منْ قَبلِكَ مـن رُسُلِنا أَجَعَلنَا مِنْ دونِ الرّحمٰن آلهةً يُعبدون ﴾ ٢٠٤/٤٥

﴿ ولمّا ضُرِبَ ابنُ مريمَ مثلاً إذا قومُكَ منهُ يصدّون ﴾ ٢٤٦/٥٧

﴿ وقالـوا آلهتنا خيرٌ أم هُـوَ ما ضَربُوهُ لـكَ إلاّ جدلاً بل هُـمْ قومٌ خصمون ﴾ ٢٤٦/٥٨

﴿إنْ هو إلاّ عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناهُ مثلاً لبني إسرائيل ﴾ ٢٤٦/٥٩

﴿ ولو نشاءُ لجعلنا منكم ملائكة في الأرضِ يخلقون ﴾ ٢٤٦/٦٠

﴿ وإنّهُ لعلمٌ للسّاعةِ فلا تمترنَّ بها واتّبعون . . . ﴾ ٢٤٦/٦١

﴿ الأخِلاّءُ يومئذٍ بعضهُمْ لبعضٍ عدوّ إلاّ المتّقين ﴾ ٣٣٨/٦٧

﴿ الّذينَ آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ ٤١٢/٦٩

﴿ ادخلوا الجنّةأنتم وأزواجكُمْ تُحبرون ﴾ ٤١٢/٧٠

﴿ إنّ المجرمين في عذاب جهنّمَ خالدون ﴾ ٤١٢/٧٤

﴿ لا يُفتّرُ عنهم وهُمْ فيهِ مُبلِسون ﴾ ٤١٢/٧٥

﴿ وما ظلمناهُمْ ولكنْ كانوا هُمُ الظّالمين ﴾ ٤١٢/٧٦

﴿ فذرهُمْ يخوضوا ويلعبوا حتّىٰ يلاقوا يومهمُ الّذي يوعدون ﴾ ١٧٤/٨٣

سورة الدخان

سورة الجاثية

ما السَّاعةُ إنْ نظنُّ إلاّ ظنّاً وما نحن بمستيقنين ﴾ ١٨٣/٣٢

سورة الأحقاف

﴿ أوَ لَـمْ يروا أنّ الله الَّـذي خلقَ السَّمٰـواتِ والأرضَ ولَمْ يَعْـيَ بِخلقهِنَّ بقادرٍ على أنْ يُحيي المَوتىٰ ﴾ ١٨٩/٣٣

سورة محمّد

﴿ والَّذيـن آمنوا وعملوا الصّالحـاتِ وآمنوا بما نُزِّلَ علـى مُحمّدٍ وهو الحقُّ من ربِّهم كفَّر عنهُمْ سيّئاتهم وأصلحَ بالهُمْ ﴾ ٣٧٦/٢

﴿ والَّذينَ كفروا فتعساً لَهُمْ وأضلّ أعمالَهُمْ ﴾ ٣٧٣/٨

﴿ ذلكَ بأنّهم كرهوا ما أنزلَ الله فأحبط أعمالهم ﴾ ٣٧٣/٩

﴿ وسُقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءَهُمْ ﴾ ٢٨١/١٥

﴿ فَهَلْ يَنظُرونَ إلاّ السّاعةَ أنْ تأتيهم بغتةً فقدْ جاءَ أشراطُها فأنّى لَهُمْ إذاجاءَتهُمْ ذِكراهُمْ ﴾ ٢٤٢/١٨

﴿ فكيفَ إذا توفّتهُم الملائكةُ يَضربونَ وجوهَهُمْ وأدبارَهُمْ ﴾ ٢٢٦/٢٧

﴿ إنّ الّذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله وشاقّوا الرَّسول مِنْ بعدِ ما تَبينَّ لَهُمُ الهُدى . . ﴾ ٣٧٣/٣٢

سورة الفتح

﴿ هوَ الَّذي أنزلَ السَّكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ ٣١٩/٤

﴿ إنّ الَّذينَ يبايعـونكَ إنّما يبايعونَ الله يدُ الله فـوقَ أيديهم فمنْ نكثَ فإنَّمـا ينكثُ على نفسهِ ومـن أوفى بما عاهـد الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ ٤٤٥,٩٧/١٠

﴿ لقد رضي الله عـن المؤمنينَ إذ يبايعونك تحـت الشَّجرةِ فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ ٤٤٦,٤٤٥,٦٣/١٨

سورة النجم

سورة القمر

سورة الرحمٰن

سورة الواقعة

سورة الحديد

سورة المجادلة

سورة الممتحنة

سورة الجمعة

سورة المنافقون

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة الملك

سورة الدهر

سورة المرسلات

سورة النبأ

سورة النازعات

سورة عبس

سورة الإنفطار

سورة الإنشقاق

سورة الأعلى

سورة الفجر

سورة العلق

سورة الزلزلة

سورة العاديات

فهرس الأحاديث

في قصة الإفك قال النبيّ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي ، والله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً ، وما يدخل على أهليّ إلاّ معي » ٥٠

عندما انهزم النا س في وادي حنين ، انحاز رسول الله ذات اليمين وهو يقول : « أين أيّها الناس؟ هلمّوا إليّ ، أنا رسول الله» ٥٣

« ألا و إنّه يُجاء برجال من أُمّتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يارب أصحابي فيقول : إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : **﴿وكنت عليهم شهيداً ما دُمتُ فيهم فلمّا توفّيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾** . ٥٤

لما دعا الرسول الأكرم بنو عامرة إلى الإسلام وقد جاءوا في موسم الحج إلى مكة ، قال رئيسهم : « أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثمّ أظهرك الله على ما خلفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟» ، فقال النبيّ ﷺ : « الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء » ٦٦

بعث ﷺ سليط بن عمرو العامري إلى ملك اليمامة « هوزة بن حنفي » يدعوه إلى الإسلام وكان نصرانياً فكتب إلى النبي يقول : « ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله . . . فاجعل ليّ بعض الأمر اتبعك » فلمّا قُرىء كتابه على النبيّ ﷺ قال : « لو سألني سيابة من الأرض ما فعلتهُ ، باد وباد ما في يده » . ٦٧

أرسل هوزة إلى النبيّ وفداً يقول له : إن جعل له الأمر من بعده أسلم . . . وإلاّ قصد حربه ، فقال رسول الله ﷺ : « لا ، ولا كرامة ، اللّهمّ اكفنيه». ٦٧

« كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلّما هلك نبيّ خلفهُ نبيّ ، وإنّهُ لا نبيّ بعدي ، وسيكون بعدي خلفاء كثيرون» . ٧٢

عن علي (عليه السلام) قال : دعاني رسول الله ﷺ وقال لي : ياعلي إنّ الله أمرني أن أُنذر عشيرتي الأقربين فضقت

بذلك ذرعاً ، وعرفت أنّي متى أباديهم بهذا الأمر ، أرى منهم ما أكره ، فصمدت عليه حتى جاءني جبرئيل ، فقال : يا محمّد إنّك إنّ لا تفعل ما تؤمر به يعذّبك ربّك ، فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة ، واملأ لنا عسّاً من لبن ، ثمّ دعوتهم له ، وهم يومئذٍ أربعون رجلاً فيهم أعمامه . . . إلى أن قال : فأكلواحتى ما لهم بشيءٍ حاجة ثم قال النبيّ ﷺ اسقهم ، فجئتهم بذلك العس فشربوا ، ثم تكلّم رسول الله ﷺ فقال يا بني عبد المطلب إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب ، جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به ، إنّي جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه ، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟قال : فأحجم القوم عنها جميعاً ، وقلت أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه ، فأخذ برقبتي ، ثم قال : إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فأسمعوا له وأطيعوه »

٧٧

خلّف رسول الله ﷺ في غزوة تبوك عليّاً (عليه السلام) على أهله في المدينة . فقال المنافقون ما خلّفه إلاّ استثقالاً له ، فلحق عليّ (عليه السلام) برسول الله ﷺ ونقل له ما قاله المنافقون ، فقال ﷺ كذبوا ، ولكنّي خلّفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا علي أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّهُ لا نبيّ بعدي ؟

٧٩

قال معاوية بن أبي سفيان لسعد بن أبي وقاص : مامنعك أن تسبّ أبا تراب؟ فقال : أمّا ذكرت ثلاثاً قالهم له رسول الله ﷺ فلن أسبّه . . . سمعت رسول الله ﷺ يقول له وقد خلّفهُ في بعضِ مغازيه : أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّهُ لا نبوّة بعدي .

وسمعته يقول يوم خيبر: لأُعطينّ الراية رجلاً يحبّ الله

ورسولـه ، ويحبّه الله ورسولـه قال : فتطـاولنا لها ، فقـال : ادعوا عليّاً ، فأُتي بـه أرمد ، فبصق في عينه ، ودفع الـراية إليه ، ففتح الله عليه .

ولمّا نزلت هذه الآية : ﴿ فقُلْ تعالوا ندْعُ أبنـاءَنا وأبناءَكُمْ ﴾ دعا رسول الله ﷺ عليّاً وفاطمـة و حسناً وحسيناً ، فقال : « اللّهمّ هؤلاء أهلي » ٨٠و١٠٦

إنّ النبيّ سمّىٰ أبنـاء عليّ كأسماء أبناء هـارون وقال : « إنّما سمّيتهم بأسماء ولد هارون شبّر وشبير ومُشبر » ٨١

يوم آخـىٰ بين أصحابه جـاءهُ علي (عليه السـلام) وقال : آخيت بين أصحابك ، ولم تؤاخـي بيني وبين أحد؟ فقال رسول الله ﷺ : « أنت أخي في الدنيا والآخرة » ٨١

أجمع رسول الله ﷺ الخـروج إلى الحجّ في السنـة العاشرة من الهجرة ، وأذّن في الناس بذلـك ، تلك الحجة التي سمّيت بحجّة الوداع ، واشترك معه جموع لا يعلم عددها إلاّ الله ، وأقل ما قيل إنّه خرج معه تسعون ألفـاً ، فلمّا قضىٰ مناسكه وانصرف ، راجعاً إلى المدينة ، ومعه تلـك الجموع الغفيرة ، ووصل إلى غديـر « خم» من الجحفة ، التـي تتشعّب فيها طرق المـدنيين والمصريين والعـراقيين ، وذلك يوم الخميس ، الثامـن عشر من ذي الحجة نزل جبـرائيل الأمين عن الله تعالـى بقوله : ﴿ يا أيُّها الرسولُ بلّغْ ما أُنزلَ إلَيكَ مِنْ رَبّكَ ﴾ وكان أوائل القوم قريبين من الجحفة ، فـأمر رسول الله أنْ يُرد مـن تقدّم منهم ، ويُحبـس من تأخّـر عنهم ، حتّىٰ إذا أخـذ القوم منـازلهم ، نودي بـالصلاة ، صلاة الظهـر ، فصلّى بالناس ، وكـان يوماً حارّاً ، فلمّـا انصرف مـن صلاتـه ، قـام خطيباً وسـط القوم ، رافعـاً صـوته وأسمـع الجميع ، فقال :

الحمـد لله ، ونستعينـه ، ونـؤمـن بـهِ ، ونتـوكّـل عليـه ،

ونعوذبالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن أضلّ ولا مُضِلّ لمن هدىٰ، وأشهد أن لا إلٰه إلاّ الله، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، أمّا بعد:

أيُّها الناس، إنّي أُوشك أنْ أُدعىٰ فَأُجيْبَ، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟».

قالوا: «نشهد أنّك قد بلّغتْ ونصحتْ، وجهدت، فجزاك الله خيراً»

قال: «ألستم تشهدون أن لا إلٰه إلاّ الله، وأنّ محمداً عبدهُ ورسولُهُ، وأنّ جنّته حقّ ونارهُ حقّ، وأنّ الموت حقّ، وأنّ الساعَةَ آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور»؟.

قالوا: «بلىٰ، نشهد بذلك».

قال: «اللّهمّ أشهد». ثم قال: «أيُّها الناس، ألا تسمعون؟»

قالوا: نعم.

قال: «فإنّي فرطٌ على الحوضِ، فانظروني كيفَ تخلفوني في الثقلين».

فنادى مناد: «وما الثقلان يا رسول الله؟».

قال: «الثقل الأكبر، كتاب الله، والآخر الأصغر، عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبّأني انّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا عليّ الحوضِ، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا».

ثمّ أخذ بيد عليّ فرفعها، حتىٰ رؤي بياض آباطهما، وعرفه القوم أجمعون، فقال:

«أيُّها الناس، من أولىٰ الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟»

قالوا: «الله ورسوله أعلم»

قال: «إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم. فمن كنت مولاه، فعليٌ مولاه ـ يقولها ثلاث

مرّات ـ ثم قال : اللّهمّ والِ مـن والاه ، وعادِ من عاداه ، وأحبّ من أحبّه ، وأبغض من أبغضه ، وانصـر من نصره ، واخذل من خذلهُ ، وأدر الحقَّ معه حيث دار، ألا فليبلّغ الشاهد الغائب».

ثـمّ لم يتفـرّقوا حتّـىٰ نـزّل أمين وحـي الله بقولـه : ﴿ اليومَ أكْمَلتُ لكُـمْ دِينكُمْ وَأتْمَمْـتُ عَلَيكُمْ نعْمَتـي ﴾ الآيـة ، فقـال رسول الله : « الله أكبر على إكمال الـدين ، و إتمام النعمة ورضى الرب برسالتي ، والولاية لعلي من بعدي ».

ثُمّ أخذ النـاس يهنّئون علياً ، وممّن هنّأه الشيخـان أبو بكر وعمر ، كُـلّ يقول: بـخٍ بخٍ ، لـكَ يابـن أبي طـالب أصبحـت مولاي، ومولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنة.

وقال حسّان : ائذن لي يا رسول الله أنْ أقول في عليّ أبياتاً ، فقال : «قل على بركة الله » فقام حسّان ، فقال :

يناديهم يوم الغدير نبيّهم   بخُمٍّ واسمع بالرسول مناديا

الى آخر الأبيـات ، فلمّا سمع النبيّ أبياته قـال : « لا تزال يا حسّان مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك »

۸۲ـ۸٥

لما حُضِر رسـول الله ﷺ ، وفي البيت رجال فيهـم عمر بن الخطاب ، قال النبيّ : «هلمّ اكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً » فقال عمر: « إنّ النبيّ قد غلب عليه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبنـا كتاب الله » فـاختلف أهـل البيت، فـاختصموا ، فلمّـا أكثروا اللغو والاختلاف عند النبيّ ، قال لهم ﷺ: قوموا.

۱۰۰

قد اهتمّ النبيّ ببعث سرية أُسـامة بن زيد اهتماماً عظيماً ، فأمر الصحـابة بالتهيّؤ لهـا ، وحثّهم عليها ، ثُمّ عبّـأهم بنفسه الزكية ، فلم يبقَ أحداً من وجوه المهـاجرين والأنصار كأبي بكر وعمر ، وأبي عبيدة، وسعد، وأمثالهم، إلاّ وقد عبّأه بالجيش ، فلمّا كـان يوم الثـامن والعشـرين مـن صفر ، بـدأ به ﷺ مـرض الموت، ووجدهم مُتَاقلين ، خـرج إليهم فحضّهم على السير،

وعقـد اللـواء لأُسامـة بيـده الشـريفـة ، إرهـافاً لعـزيمتهـم ثـم قال : «اغز باسم الله وفي سبيل الله » .

فخـرج بلـوائه معقـوداً ، فـدفعـه إلـى بُـريـدة، وعسكـر بالجـرف، ثم تثاقلـوا هناك ، فلم يبـرحوا ، وقد أغضـب النبي تثاقلهم ، حتىٰ قال : « جهّزوا جيش أُسامة ، لعن الله من تخلّف عنه ؟ » ١٠٠

إنّ عمر قال لـرسول الله ﷺ : « أو لسنا على الحـق ، وهم على الباطل؟» قال رسول الله : « بلـىٰ» ، قال : « أو لسنا قتلانا في الجنّة وقتـلاهُم في النار؟» قال : «بلىٰ» ، قـال : «ففيم نعطي الـدنيـة في ديننـا ، ونـرجـع ولمّـا يحكم الله بيننـا وبينهـم ؟» ، فقالﷺ : «يا ابـن الخطاب ، إنّي رسول الله ، ولـن يُضيّعني الله أبداً» . ١٠٢

« يا أيُّها الناس إنّي تركتُ فيكُمْ ما إنْ أخذتم به لن تضلّوا ، كتاب الله وعترتي أهلَ بيتي» ١٠٥

« إنّي تركتُ فيكم ما إن تمسّكتُم به لن تضِلّوا ، كتاب الله ، حبلٌ ممدود مـن السماءِ إلىٰ الأرضِ ، وعترتي أهـل بيتي ، ولن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيفَ تخلفوني فيهما » ١٠٥

عن أُمّ سلمـة قالـت : إنّ آية التطهيـر نزلـت في بيتـي وأنا جالسة عند الباب فقلت : يارسول الله ، ألست من أهل البيت؟ فقال : لا إنّك على خير، أنتِ من أزواج رسول الله . قالت : وفي البيـت رسول الله وعلـيّ وفـاطمـة و حسن وحسيـن ، فجلّلهـم بكسائه ، وقال : « اللّهمّ هؤلاء أهل بيتـي ، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً » ١٠٧

عن أنس أنّ رسـول الله ﷺ كان يمرّ بباب فـاطمة إذا خرج إلى الصلاة حين نـزلت هذه الآية قريباً مـن ستّة أشهر، يقول : «الصلاة أهل البيت : ﴿ إنّما يريدُ الله ليُذهبَ عنكُمُ الرجسَ أهلَ

البيتِ وُيطهِّركُمْ تطهيراً﴾ ١٠٧

عن زيد بن الأرقم، قال : قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمّاً ، بين مكّة والمدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ و ذكّر ثم قال : « أمّا بعد ألا أيُّها الناسُ ، إنّما أنا بشرٌ ، يوشكُ أنْ يأتيني رسول ربيّ فأُجيب، وأنا تارك فيكم ثقليْن ، أوّلهُما كتاب الله فيه الهدىٰ والنور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به » . فحثّ على كتاب الله ورغّب فيه، ثم قال : «وأهل بيتي ، أذكّركم الله في أهلِ بيتي ، اذكّركم الله في أهل بيتي ، أذكّركم الله في أهلِ بيتي » ١٠٧

« إنّما مثلُ أهلُ بيتي في أُمّتي كمثَلُ سفينة نوح ، من رَكَبها نجا ، ومن تخلّف عنها غرق» ١٠٨

« يكون إثنا عشر أميراً ... كلّهم من قريش » ١٠٩, ١١١

عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى أثنى عشر خليفة » فقال كلمة صمّنيها الناس فقلت لأبيّ : ما قال؟ قال : « كُلّهُمْ من قُريش» ١١٠

عن جابر أيضاً قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يزال الدين قائماً حتّىٰ تقوم الساعة ، أو يكون عليكم إثنا عشر خليفة كلّهُمْ من قُريش » ١١٠

عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّ هذا الدين لن يزال ظاهراً على من ناواه ، لا يضرّه مخالف ولا مفارق حتّىٰ يمضي من أُمّتي إثنا عشر خليفة » ثُمّ تكلّم بشيء لم أفهمه ، فقلت لأبيّ : ما قال ؟ قال : قال : « كُلّهُمْ من قُريش » ١١٠

عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يزال هذا الأمر صالحاً ، حتّىٰ يكون إثنا عشر أميراً ... كلّهُمْ من قريش» ١١١

«لايزال الناس بخير إلى إثني عشر خليفة ... كلّهُم من قريش » ١١١

«لو لمْ يبقَ من الدنيـا إلاّ يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم ، حتىٰ يخرج رجلٌ من ولدي، فيملـؤها عدلاً وقسطاً ، كما مُلئت جوراً وظُلماً » ١٣٣

« لو لمْ يبـق من الدهر إلاّ يوم واحد ، لبعـث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما مُلئت جوراً » ١٣٤

« لا تذهـب الدنيا حتّىٰ يملـك العرب رجلٌ من أهـل بيتي يواطيء اسمُهُ اسمي » ١٣٤

« المهديّ من عترتي من ولد فاطمة » ١٣٥

« يلي رجل من أهل بيتي يواطيء اسمه اسمي » ١٣٥

« إنّه لـم تكن فتنة فـي الأرض منذ ذرأ الله ذريـة آدم اعظم من فتنـة الدجّال . . . ـ إلـى أنْ قال ـ وإمامهـم رجل صـالح ، فبينمـا إمامهـم قد تقـدّم ليصلّـي بهم الصبـح ، إذ نزل عليهـم عيسىٰ بن مـريم ، فرجع الإمام ينكص يمشـي القهقرى ، ليقدّم عيسىٰ يصلّي بالناس ، فيضع عيسىٰ يـده بين كتفيه ثم يقول له : تقدم فصلِّ فإنّها لك أُقيمت ، فيصلّي بهم إمامهم . . . » ١٣٥

« كيـف بكم إذا نـزل فيكم المسيـح ابـن مريـم وإمامكـم منكم» ١٣٧

« بعثت أنا والساعة كهاتين » ١٣٨

عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ: « أوّل الآيات الدجّال ، ونزول عيسىٰ ، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس الى المحشر ، تُقيـل معهم إذا قالـوا ، والدخـان » قال حذيفـة : يا رسول الله ، وما الدخان ؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية : ﴿ **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين** . . . ﴾ يملأ مابيـن المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أمّا المؤمن فيصيبه منهُ كهيئة الزكام ، وأمّا الكافر بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأُذنيه ودبره» ٢٤٥

عن حذيفة بن أُسيد قال : إطّلع رسول الله ﷺ علينا ونحن

نتذاكر فقال : مـا تذكرون؟ قلنا : نذكر الساعـة ، قال : « إنّها لن تقوم حتـىٰ تروا قبلهـا عشر آيـات فذكـر : الدخـان ، والدجّـال ، والدابّة ، وطلوع الشمس من مغربهـا ، ونزول عيسىٰ ا بن مريم ، ويأجوج ومـأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بـالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تطرد الناس إلى محشرهم » ٢٩٣, ٢٥٢

عـن ابـن عبـاس قال : حججنـا مـع رسـول الله ﷺ حجّـة الوداع ، فأخذ باب الكعبة ، ثـمّ أقبل علينا بوجهه ، فقال : « ألا أُخبركـم بأشراط السـاعة » وكان أدنى النـاس منه يومئـذ سلمان فقال : بلىٰ يا رسول الله ، فقال : « إنّ من أشراط القيامة : إضاعة الصـلاة ، وإتّبـاع الشهـوات ، والميـل مـع الأهـواء ، وتعظيـم أصحاب المـال ، وبيع الـدين بـالدنيـا ، فعندهـا يُذابُ قلـب المؤمن وجوفـه كما يذوب الملح في الماء ممّـا يرى من المنكر فلا يستطيع أنْ يغيره » ٢٥٢

ورد عن النبـيّ أنّه لم يرتحـل من منزل إلاّ صلّىٰ فيـه ركعتين وقال : « حتّىٰ يشهد عليّ بالصلاة » ٢٦١

« يا أبـا ذر ، مامن رجـل يجعل جبهتـه في بقعةٍ مـن بقاع الأرضِ ، إلاّ شهدت له بها يوم القيامة » ٢٦٢

« لا يبقىٰ بـرّ ولا فاجر إلاّ دخلها فتكـون على المؤمـن برداً وسلاماً ، كما كانت علىٰ إبـراهيم ، حتّىٰ أنّ للنار ضجيجاً من بردهم ، ثم ينجّي الله الذين اتّقوا ويذر الظالمين فيها جثياً » ٢٦٢

« إنّه لم يكن نبـيّ إلاّ له دعوة قد تنجّزها فـي الدنيا ، وإنيّ قد اختبأت دعوتـي ، شفاعة لأُمتي وأنا سيّد ولـد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنـا أوّل من تنشـقّ عنه الأرض ولا فخـر وبيدي لـواء الحمد ولا فخر ، آدم فمن دونه تحت لواء ولا فخر . . . » ٢٧٣

« من أراد أن يتخلّص مـن هول القيامة فليتـولّ وليي ، وليتبّع

وصيّ وخليفتي من بعـدي علي بن أبي طالب ، فـإنّه صاحب حوضـي ، يذود عنـه أعداءه ويسقـي أولياءه فمـن لم يسـق منه لم يـزل عطشاناً ولـم يروأبداً . ومـن سُقي منـه شربة ، لـم يشق ولم يظمأ » ٢٧٤

« أنا فـرطكم علـى الحوض ، مـن ورد شرب ، ومـن شرب لم يظمأ أبداً ، وليردنّ عليّ أقوام أعـرفهم ويعرفونني ، ثم يحال بينه وبينهم » ٢٧٤

« إذا دخل أهل الجنـة الجنة وأهل النار النار ، قيـل يا أهل الجنـة ، فيشرئبّـون وينظـرون ، وقيل يـا أهـل النـار ، فيشرئبّـون وينظرون ، فيجاء بالموت كأنّه كبش أملح ، فيقال لهم : تعرفون الموت ، فيقـولون : « هذا ، هذا » وكـلّ قد عرفه ، قـال : فيقدّم فيُذبح ، ثم يقـال : يا أهل الجنة خلود فلا مـوت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » ٢٨٥

«لتتبعنّ سنن من كان قبلكم ، شبراً بشبر ، وذراع بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لتبعتمـوه » قلنا : يارسول الله اليهود والنصارىٰ ؟ قال : فمن ؟ ٢٩٤

«لاتقوم الساعة حتى تؤخذ أُمتّـي بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع » فقيل : يا رسول الله كفارس والروم ، قال : ومن الناس إلاّ أُولئك ؟ ٢٩٤

«كلّ مـا كان في الأُمـم السابقة فإنّـه يكون في هـذه الأُمّة مثله ، حذو النعل بالنعل ، والقذّة بالقذّة » ٢٩٤

« أُمرت أنْ أقـاتل النـاس حتى يشهـدوا أن لا إله إلاّ الله ، ويؤمنـوا بما أُرسلت بـه ، فاذا فعلوا ذلـك عصموا منيّ دمـاءهم وأموالهم إلاّ بحقّها ، وحسابهم على الله » ٣١٧

« إنّي ابعث لأشقّ عن قلوب الناس » ٣١٧

« لكل نبيّ دعوة مستجابة ، فتعجّـل كلّ نبيّ دعوته ، وإنّي

الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)

الإمام الحسين (عليه السلام)

« صبراً بنـي الكرام ، فمـا الموت إلاّ قنطـرة تعبر بكـم عن البؤس والضراء إلـى الجنان الواسعة ، والنعيم الدائمـة ، فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر »

٢٢٢

« مخـاطباً معـاوية بـن أبي سفيـان : ألستَ قـاتِل حجـر وأصحابـه العابـدين المخبتيـن الّذيـن كانـوا يستفظعون البـدع ويأمرون بالمعروف وينهون عـن المنكر ، فقتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد مـا أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المـؤكّدة ، جرأةً على الله وإستخفافاً بعهده » ؟ « أو لست بقاتل عمرو بن الحمق الذي أخلَقَـت وأبلت وجهه العبادة ، فقتلتـه من بعد مـا أعطيته من العهـود مالو فهمته العصـم نزلت من سقـف الجبال» ؟ « أو لست قاتل الحضـرمي الذي كتب إليك فيه زيـاد : إنّه على دين علي كـرّم الله وجهه ، وديـن علي هـو دين ابـن عمه ﷺ الّـذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه ، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتيـن : رحلة الشتاء ورحلت الصيف ، فوضعها الله عنكم بنا ، منّةً عليكم »

٤٣٦

الإمام علي بن الحسين (عليهما السلام)

« إذا صار أهل الجنة ، ودخل ولي الله إلـى جنانه ومساكنه ، واتكأ كـل مؤمن منهـم على أريكته ، حفّتـه خدّامه وتهـدّلت عليه الثمار ، وتفجّرت حوله العيون ، وجرت من تحته الأنهار ، وبسطت لـه الزرابـيّ ، وصفّفت له النمـارق ، وأتته الخـدام بما شـاءت شهوتـه من قبـل أن يسألهـم ذلك ، قـال : ويخرجـون عليهم الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء الله .

ثـم إنّ الجبّار يشـرف عليهم فيقـول لهـم : أوليائي وأهـل طاعتي وسكّان جنّتي في جواري ، هل أُنبّئكم بخير ممّا أنتم فيه

فيقولون:ربّنـا وأيّ شيء خير ممّا نحن فيه ، نحـن فيما اشتهت أنفسنا ، ولذّت أعيننا من النعم فـي جوار الكريم ، قال : فيعود عليهـم القول، فيقـولون : ربّنـا نعم ، فـائتنا بخيـر ممّا نحـن فيه، فيقول لهم تبارك وتعالـى : رضائي عنكم ومحبتّي لكم خير وأعظـم ممّا أنتـم فيـه، فيقـولون : نعـم يـاربّنـا ، رضاك عنّـا ومحبّتك لنا خير لنا وأطيب لأنفسنا » ٢٨٣

« اللّهمّ صـلّ على محمّـد وآل محمّد ، وشـرّف بنيانـه ، وعظّم بُرهانه، وثقّل ميزانه، وتقبّل شفاعته » ٣٤١

« اللّهـمّ وأصحـاب محمّـد خـاصّـة الـذيـن أحسنـوا الصحبةوالّذين أبلوا البلاء الحسن فـي نصره ، وكاتفوه وأسرعوا إلى وفادته ، وسـابقوا إلى دعوته، واستجابـوا له حيث أسمعهم حجّـة رسالاتـه ، وفـارقـوا الأزواج والأولاد في إظهـار كلمتـه ، وقاتلوا الآبـاء والأبناء في تثبيت نبـوّته ، وانتصروا به ، ومـن كانوا منطوين على محبّته ، يرجون تجارة لن تبور في مودته ، والذين هجرتهم العشائر ، إذا تعلّقوا بعروتـه ، وانتفت منهم القربات ، إذا سكنوا في ظل قـرابته ، فلا تنس اللّهمّ ما تـركوا لك وفيك ، وأرضهم من رضـوانك وبما حاشـوا الخلق عليك ، وكانـوا مع رسولك ، دعاة لـك إليك ، واشكرهم على هجرهـم فيك ديار قومهم ، وخـروجهم من سعة المعاش إلى ضيقـه ، ومن كثرت في إعزاز دينك مـن مظلومهم . اللّهمّ وأوصل إلى التـابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربّنا أغفر لنا ولإخواننا» ٤٤٤

الإمام الباقر (عليه السلام)

« إنّ الله لم يدع الأرض بغيـر عالم ، ولولا ذلـك لما يعرف الحق من الباطل» ٣٨

روى زرارة قـال سمعت أبـا جعفـر البـاقر (عليـه السـلام)

يقـول : « إنّ للقـائم غيبـة قبـل أن يقـوم » قلـت : ولـم ؟ قـال : «يخاف» ، قال زرارة يعني القتل . ١٤٧

« إذا قـام قائمنـا وضـع يـده على رؤوس العبـاد ، فيجمـع عقولهم ، تكتمل به أحلامهم» ١٥٢

قال الإمـام لأحد أصحـابه : « اعرض نفسـك على مـا في كتاب الله ، فـإن كنت سالكاً سبيلـه ، زاهداً في تزهيـده ، راغباً في ترغيبه ، خائفاً من تخويفه ، فاثبت وابشر، فإنّه لا يضرّك ما قيـل فيك ، وإن كـان مبـائناً للقـرآن ، فمـاذا الـذي يغرّك مـن نفسك» ٢٦٦

« إنّ الأمر بـالمعروف والنهي عـن المنكر سبيـل الأنبياء ، ومنهـاج الصلحاء ، فـريضة عظيمـة بهـا تقام الفـرائض وتؤمّـن المذاهب ، وتحل المكاسب ، وترد المظالم ، وتعمر الأرض ، وينتصف من الأعداء ويستقيم الأمر » ٣٧٨

« فـأنكـروا بقلوبكـم ، والفظـوا بـألسنتكم ، وصكّـوا بهـا جباههم ، ولا تخافوا في الله لومة لائم » ٣٨١

الإمام الصادق (عليه السلام)

« إنّ الأرض لا تخلوإلاّ وفيهـا إمام ، كيمـا زاد المؤمنـون شيئاً ردّهم ، وإذا نقصوا شيئاً أتمّه لهم » ٣٨

« إنّ المؤمن فـي زمان القائم ، وهو بالمشـرق ، يرى أخاه الذي فـي المغرب ، وكـذا الذي فـي المغرب يـرى أخاه الـذي بالمشرق» ١٥٣

عندما سئل عن أرواح المؤمنين ، فقال : « في حجرات في الجنّة ، يأكلـون من طعامها ، ويشـربون من شرابهـا ، ويقولون ربّنا اتمم لنا الساعة وأنجز ما وعدتنا »

وسئـل عن أرواح المشـركين فقـال : « في النـار يعذّبـون ،

الإمام الكاظم (عليه السلام)

الإمام الرضا (عليه السلام)

سأل المأمون العباسي ، الإمام الرضا (عليه السلام) عن الرجعة ، فأجابه « إنّها حقّ قد كانت في الأُمم السالفة ونطق بها القرآن ، وقد قال رسول الله ﷺ : يكون في هذه الأمّة كل ما كان في الأمم السالفة حذو النعل بالنعل ، والقذّة بالقذّة » 295

عن الهروي قال : قلت للرضا (عليه السلام) : يابن رسول الله ، أخبرني عن الجنة والنار أهما اليوم مخلوقتان ؟ فقال : «نعم ، وإنّ رسول الله قد دخل الجنّة ورأىٰ النار، لما عرج به إلى السماء » قال : فقلت له : فإنّ قوماً يقولون إنّهما اليوم مقدّرتان غير مخلوقتين ، فقال (عليه السلام) : « و أُولئِكَ منّا ولا نحن منهم، من أنكر خلق الجنة والنار، فقد كذّب النبيﷺ وكذّبنا » 422

الإمام المنتظر(عجل الله فرجه الشريف)

« وأمّا وجه الانتفاع بي في غيبتي ، فكالانتفاع بالشمس إذا غيّبتها عن الأبصار السحاب » 145

فهرس الأشعار

الصفحة

هـم المـولـى وإن جَنَفـوا علينـا
وإنّـا مـن لقـائهـم لـزور ٩٢

صرت نظـرة لـو صـادف جـوز دارع
غـداً والعواصـي مـن دم الجوف تنعـر ٢٠٩

* * *

وعلـيٌ إمـامنـا وإمـام
لسـوانـا أتـى بـه التنـزيـل ٩٨

يـوم قـال النبـيّ مـن كنـت مـولاه
فهـذا مـولاه خطـب جليـل ٩٨

وفـي يـوم خـم رقـى منبـراً
وبلّـغ والصحـب لـم تـرحـل ٩٨

فـامنحـه إمـرة المـؤمنيـن
مـن الله مستخلـف المنحـل ٩٨

ليـت أشيـاخـي ببـدرٍ شهـدوا
وَقـع الخـزرج مـن وقـع الأسـل ١١٣

لعبـت هـاشـم بـالملـك فـلا
خبـرٌ جـاء ولا وحـي نـزل ١١٣

كـرة حـذفـت بصـوالجـة
فتلقّفهـا رجـل رجـل ٤٥٨

* * *

وأوْجـبَ لـيّ ولايتـه عليكـم
رسـول الله يـوم غـديـر خـمّ ٩٨

* * *

* * *

* * *

فهرس المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم

الألف

١ـ الإبانة عن أُصول الديانة ... أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري(م ٣٢٤ هـ)

٢ـ إبطال نهج الباطل ... الفضل بن روزبهان الأشعري.

٣ـ الإتقان في علوم القرآن ... السيوطي جلال الدين عبد الرحمن (م ٩١١ هـ).

٤ـ إثبات الوصية ... علي بن الحسين بن علي المسعودي (م ٣٤٥ هـ).

٥ـ الإحتجاج ... أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي(من علماء القرن السادس)

٦ـ إحقاق الحق ... السيد نور الله الحسيني التستري المرعشي(م ١٠١٩ هـ).

٧ـ الأحكام السلطانية ... أبو الحسن علي بن محمّد الماوردي (م ٤٥٠ هـ).

٨ـ أحكام القرآن ... أبو بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصّاص(م٣٧٠هـ)

٩ـ الإرشاد ... إمام الحرمين الجويني(م ٧٤٨هـ).

١٠ـ الإرشاد ... المفيد محمّد بن النعمان(م٤١٣ هـ).

١١ـ إرشاد الساري ... أبو العباس أحمد بن محمّد القسطلاني(٨٥١ـ٩٢٣هـ).

١٢ـ إرشاد الطالبين ... أبو عبد الله المقداد بن عبد الله الأسدي السيوري الحلّي(م٨٢٦هـ).

١٣ـ الأساس لعقائد الأكياس ... القاسم محمّد بن الزيدي العلوي.

١٤ـ أُسد الغابة ... ابن الأثير أبوالحسن علي بن أبي الكرم (م٦٣٠هـ).

١٥ـ الإستيعاب ... أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي المالكي(م ٤٦٣ هـ).

١٦ـ الأسفار الأربعة ... صدر المتألّهين الشيرازي(م ١٠٥٠هـ).

١٧ـ الإشارات والتنبيهات ... الشيخ الرئيس ابن سينا (م٤٢٨ أو ٤٢٧ هـ).
١٨ـ الإصابة ... أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (م ٨٥٢ هـ).
١٩ـ أُصول الدين ... أبو منصور البغدادي (م ٤٢٩ هـ).
٢٠ـ أُصول الدين ... محمّد بن عبد الكريم البزدوي (٤٢١ ـ ٤٩٣ هـ).
٢١ـ أُصول الفلسفة ... العلامة الطباطبائي (م ١٤٠٢ هـ).
٢٢ـ أعلام الورى لأعلام الهدى ... الفضل بن الحسن الطبرسي (٤٧١ـ٥٤٨هـ).
٢٣ـ الأغاني ... أبو الفرج الاصفهاني (م ٣٥٦ هـ).
٢٤ـ الإقتصاد ... السيد المرتضى علي بن الحسين الموسوي (م ٤٣٦هـ).
٢٥ـ الإقتصاد في الإعتقاد ... محمّد الغزالي (م ٥٠٥ هـ).
٢٦ـ أقرب الموارد ... العلاّمة سعيد الخوري اللبناني.
٢٧ـ الله يتجلّى في عصر العلم ... بول كلارنس ابرسوله.
٢٨ـ الأمالي ... الشيخ الصدوق محمّد بن بابويه القمي (م ٣٨١هـ).
٢٩ـ الأمالي ... القالي أبو علي البغدادي (م ٣٥٦ هـ).
٣٠ـ الأمالي ... السيد المرتضى علي بن الحسين الموسوي (م ٤٣٦هـ).
٣١ـ الإمامة والسياسة ... عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (م ٢٧٦هـ).
٣٢ـ إنجيل متى ... طبع دار الكتاب المقدس.
٣٣ـ إنجيل مرقس ... طبع دار الكتاب المقدس.
٣٤ـ إنجيل يوحنّا ... طبع دار الكتاب المقدس.
٣٥ـ أنوار التنزيل ... ناصر الدين عبد الله البيضاوي (م ٦٠٦ هـ).
٣٦ـ أنيس الأعلام ... محمّد صا دق فخر الإسلام (م ١٣٣٠م).
٣٧ـ إلهيات الشفاء ... الشيخ الرئيس ابن سينا (م ٤٢٨ أو ٤٢٧ هـ).
٣٨ـ أوائل المقالات ... الشيخ المفيد محمّد بن النعمان (٤١٣هـ).
٣٩ـ الإيقاظ من الهجعة ... محمّد بن الحسن الحر العاملي (م ١١٠٤هـ).

الباء

٤٠ـ بحار الأنوار. ... العلاّمة محمّد باقر المجلسي (م ١١١١هـ).
٤١ـ بداية المجتهد ... محمد بن رُشد القرطبي (٥٢٠ـ٥٩٥ هـ).

٤٢ـ البداية والنهاية ... الحافظ أبو الفداء ابن كثير (م ٧٧٤ هـ).
٤٣ـ البرهان على طول عمر صاحب الزّمان ... محمد بن علي بن عثمان الكراجكي(م ٤٤٩ هـ).
٤٤ـ البرهان في تفسير القرآن ... السيد هاشم التوبلي البحراني(م ١١٠٧ هـ).
٤٥ـ بيان اعجاز القرآن ... أبوسليمان حمد بن محمّد إبراهيم الخطابي(٣١٩ـ٣٨٨هـ)
٤٦ـ البيان والتبيين ... أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (م ٢٥٥ هـ).
٤٧ـ البيان في تفسير القرآن ... المحقق السيد أبو القاسم الخوئي الزعيم الديني المعاصر(تولد ١٣١٧ هـ).
٤٨ـ بين يدي الساعة ... الدكتور عبد الباقي.

التاء

٤٩ـ التاج ... عمرو بن بحر الجاحظ (م ٢٥٥ هـ).
٥٠ـ التاج الجامع للأُصول في أحاديث الرسول ... منصور بن علي ناصف(معاصر)
٥١ـ تاج العروس ... أبوالفيض السيد محمد مرتضى الواسطي الزبيدي(م١٢٠٥هـ)
٥٢ـ تاريخ الأُمم و الملوك ... أبو جعفر محمد بن جرير الطبري(م ٣١٠هـ).
٥٣ـ تاريخ بغداد ... أحمد بن علي الخطيب البغدادي(م ٤٦٣هـ).
٥٤ـ تاريخ اليعقوبي ... أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي(من علماء القرن الثالث).
٥٥ـ تذكرة الخواص ... ابن الجوزي(م ٦٥٦هـ).
٥٦ـ تذكرة الفقهاء ... الحسن بن يوسف الحلي (٦٠٢ـ٦٧٦ هـ).
٥٧ـ تصحيح الإعتقاد ... الشيخ محمد بن النعمان المفيد (م ٤١٣هـ).
٥٨ـ التصوير الفني في القرآن ... سيد قطب.
٥٩ـ التفسير ... ابن كثير إسماعيل الدمشقي(م٧٧٤ هـ).
٦٠ـ تفسير التبيان ... محمّد بن الحسن الطوسي(٣٨٣ـ٤٦٠هـ).
٦١ـ تفسير الطبري ... أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (م ٣١٠هـ).
٦٢ـ تفسير القرطبي ... أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري (م ٦٧١هـ).
٦٣ـ تفسير المنار ... محمّد رشيد رضا (م ١٣٥٤هـ).

٦٤ـ تفسير المعارف ... تقي الدين أبو الصلاح الحلبي .
٦٥ـ التمهيد ... القاضي أبوبكر الباقلاني (م ٤٠٣ هـ) .
٦٦ـ تمهيد الأُصول في علم الكلام ... الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٣ـ٤٦٠) .
٦٧ـ تنبيه الأُمّة وتنزيه الملّه ... المحقّق النائيني .
٦٨ـ التنبيه بالمعلوم من البرهان ... محمّد بن الحسن الحرّ العاملي (٩٥٣ـ١٠٣٠ هـ) .
٦٩ـ تنزيه الأنبياء ... الشريف المرتضىٰ (٣٥٥ـ٤٣٦ هـ) .
٧٠ـ التهذيب ... محمّد بن الحسن الطوسي (م ٤٦٠ هـ) .
٧١ـ التوحيد ... الشيخ الصدوق محمّد بن بابويه القمي (م ٣٨١هـ) .

الجيم

٧٢ـ جامع الأديان ... جان ناس .
٧٣ـ جامع الأُصول ... ابن الأثير الجزري (م ٦٠٦ هـ) .
٧٤ـ الجامع الصغير ... جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (م ٩١١هـ) .
٧٥ـ جواهر الكلام ... الشيخ محمّد حسن النجفي (م ١٢٦٦ هـ) .

الحاء

٧٦ـ حقائق التأويل ... الشريف الرضي (م ٤٠٦هـ) .
٧٧ـ حق اليقين ... السيد عبد الله شبّر (م ١٢٤٢هـ) .
٧٨ـ حلية الأولياء ... أبو نعيم أحمد بن عبد الله الاصبهاني (م٤٣٠هـ) .
٧٩ـ حياة محمّد ... محمّد حسنين هيكل (المعاصر) .

الخاء

٨٠ـ الخرائج والجرائح ... قطب الدين الراوندي (م٥٧٣هـ) .
٨١ـ الخصائص الكبرى ... جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (م٩١١هـ) .
٨٢ـ الخطط المقريزية ... تقي الدين أحمد المقريزي (م ٨٤٥هـ) .
٨٣ـ الخلاف ... الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي (م ٤٦٠هـ) .
٨٤ـ الخلافة والإمامة ... عبد الكريم الخطيب .

الدال

٨٥ـ دائرة المعارف ... فريد وجدي .
٨٦ـ الدر المنثور ... جلال الدين السيوطي (م٩١١هـ) .
٨٧ـ دلائل الإعجاز ... عبد القاهر الجرجاني .
٨٨ـ دلائل الصدق ... الشيخ محمّد حسن المظفر (ت ١٣٧٥هـ) .

الذال

٨٩ـ الذكرى ... محمّد بن مكي العاملي(٧٣٤ـ٧٨٦ هـ) .

الراء

٩٠ـ الرجال ... أبو العباس أحمد بن علي النجاشي (٣٧٢ـ٤٥٠هـ) .
٩١ـ رسالة التوحيد ... الشيخ محمّد عبده (م ١٣٢٣هـ) .
٩٢ـ الرسالة السعدية ... الحسن بن يوسف الحلي (٦٤٨ـ٧٢٦هـ) .
٩٣ـ الرسالة الشافية ... عبد القاهر الجرجاني .
٩٤ـ رسالة الغفران ... أبو العلاء المعرّي .
٩٥ـ الروضة البهية ... زين الدين العاملي (٩١١ـ٩٦٦ هـ) .
٩٦ـ رياض السالكين ... السيد علي المدني (م ١١١٨هـ) .

السين

٩٧ـ سر الفصاحة ... ابن سنان الخفاجي .
٩٨ـ سفينة البحار ... الشيخ عباس القمّي (١٢٩٤ـ١٣٥٩هـ) .
٩٩ـ السنة ... أحمد بن حنبل (م ٢٤١هـ) .
١٠٠ـ سنن ابن ماجة ... محمّد بن يزيد القزويني (٢٠٧ـ٢٧٥هـ) .
١٠١ـ سنن أبي داود ... سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢ـ٢٧٥هـ) .
١٠٢ـ سنن الترمذي ... أبو عيسىٰ محمّد بن عيسى الترمذي(٢٠٩ـ٢٧٩هـ) .
١٠٣ـ السنن الكبرى ... أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (م ٤٥٨هـ) .
١٠٤ـ سنن النسائي ... أبو عبد الرحمان بن شعيب النسائي (٢١٤ـ٣٠٣هـ) .
١٠٥ـ السيرة الحلبية ... علي بن برهان الدين الحلبي(م ١٠٤٤هـ) .
١٠٦ـ السيرة الدحلانية ... السيد أحمد زيني دحلان .

١٠٧ـ السيرة النبوية ... ابن هشام أبـو محمّد عبد الملك بن أيّوب الحميري(م ٢١٣ أو ٢١٨ هـ).

الشين

١٠٨ـ شرائع الإسلام ... المحقق الحلّي أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن(٦٠٢ـ٦٧٦هـ).

١٠٩ـ الشخصية الدولية ... محمّد كامل ياقوت.

١١٠ـ شرح الأُصول الخمسة .... القاضي عبد الجبار (م ٤١٥ هـ).

١١١ـ شرح التجريد ... نصير الدين محمّد بن محمّد الحسن الطوسي (٥٩٧ـ٦٧٢هـ).

١١٢ـ شرح صحيح مسلم ... يحيى بن شريف الشافعي النووي (م ٦٧٦هـ).

١١٣ـ شرح عقائد الصدوق ... الشيخ محمّد بن النعمان المفيد (م٤١٣هـ)

١١٤ـ شرح العقائد العضدية ... المحقّق الدواني.

١١٥ـ شرح العقائد النسفيّة ... سعد الدين التفتازاني (م ٧٩٢ هـ).

١١٦ـ شرح العقيدة الطحاوية ... الشيخ عبد الغني الميداني الحنفي الدمشقي(م١٣٢١هـ).

١١٧ـ شرح القوشجي ... علاء الدين علي بن محمّد (م ٨٧٩هـ).

١١٨ـ شرح المقاصد ... سعد الدين التفتازاني (م ٧٩٢ هـ).

١١٩ـ شرح المنظومة ... الحكيم السبزواري(م ١٢٨٩هـ).

١٢٠ـ شرح نهج البلاغة ... أبن أبي الحديد المعتزلي (م ٦٥٥ أو ٦٥٦هـ).

١٢١ـ شرح الياقوت ... العلامة الحسن بن يوسف الحلّي (م ٧٢٦ هـ).

١٢٢ـ شعراء النصرانية ...

الصاد

١٢٣ـ صبح الأعشى ... أحمد بن علي القلقشندي(م ٨٢١هـ).

١٢٤ـ الصحيح ... محمّد بن إسماعيل البخاري (م ٢٥٦هـ).

١٢٥ـ الصحيح ... مسلم بن الحجاج القشيري(م ٢٦١هـ).

١٢٦ـ الصحيفة السجادية ... الإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليهما السلام).

١٢٧ـ صفة الصفوة ... ابن الجوزي(م ٦٥٦هـ) .
١٢٨ـ الصواعق المحرقة ... شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي (م ٩٧٤هـ) .

الطاء

١٢٩ـ طبقات الحفاظ ... أبو عبد الله شمس الدين الذهبي (م ٧٤٨هـ) .
١٣٠ـ الطبقات الكبرى ... محمّد بن سعد (م ٣٣٠ هـ) .
١٣١ـ الطراز ... يحيى بن حمزة العلوي .

العين

١٣٢ـ العقائد النفسية ... أبو حفص عمرو بن محمّد النسفي(م ٥٣٧ هـ) .
١٣٣ـ العقد الفريد ... ابن عبد ربّه الأندلسي (٢٤٦ـ٣٢٨ هـ) .
١٣٤ـ العمدة ... يحيى بن الحسن الحلّي المعروف بابن البطريق (٥٢٣ ـ٦٠٠هـ) .
١٣٥ـ عيون أخبار الرضا ... الشيخ الصدوق محمّد بن بابويه (م ٣٨١ هـ) .

الغين

١٣٦ـ الغارات ... بن هلال الثقفي (م ٢٨٣ هـ) .
١٣٧ـ غاية المرام ... السيد هاشم بن السيد سلمان البحراني (م ١١٠٧ أو ١١٠٩هـ) .
١٣٨ـ غاية المرام في علم الكلام ... سيف الدين الآمدي (٥٥١ـ ٦٣١ هـ) .
١٣٩ـ الغدير ... عبد الحسين أحمد النجفي الأميني (١٣٢٠ـ١٣٩٠هـ) .

الفاء

١٤٠ـ فتح الباري ... ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني (٧٧٣ـ٨٥٢ هـ) .
١٤١ـ فجر الإسلام ... أحمد أمين المصري .
١٤٢ـ الفرائد ... أبو الفضل الجرفادقاني .
١٤٣ـ الفَرق بين الفِرق ... عبد القاهر بن طاهر البغدادي(م ٤٢٩هـ) .
١٤٤ـ الفِصَل ... ابن حزم الظاهري(م ٥٤٨ هـ) .
١٤٥ـ الفصول و الغايات ... أبو العلاء المعري .

القاف

١٤٦ـ القاموس المحيط ... الفيروز آبادي مجد الدين .

١٤٧ـ قضاء أمير المؤمنين ... محمّد تقي التستري .

الكاف

١٤٨ـ الكافي ... محمّد بن يعقوب الكيني(م٣٢٩ هـ) .

١٤٩ـ الكشاف ... محمود بن عمرو الزمخشري (م ٥٦٨ هـ) .

١٥٠ـ كشف الشبهات ... محمّد بن عبد الوهاب (م ١٢٠٦ هـ) .

١٥١ـ كشف الغمّة ... أبو الحسن علي بن عيسى الأربلي (م ٦٩٣هـ) .

١٥٢ـ كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد ... العلامة الحسن بن يوسف الحلّي (م٧٢٦هـ) .

١٥٣ـ كمال الدين ... الشيخ الصدوق محمّد بن بابويه القمي (م ٣٨١هـ) .

١٥٤ـ كنز العمال ... عماد الدين علي المتقي الهندي (م ٩٧٥ هـ) .

١٥٥ـ كنز الفوائد ... محمّد بن علي بن عثمان الكراجكي (م ٤٤٩ هـ) .

١٥٦ـ گوهر مراد ... عبدالرزاق اللاهيجي(م١٠٧٥هـ) .

اللام

١٥٧ـ لسان العرب ... ابن منظور محمّد بن مكرم (٦٣٠ـ٧١١هـ) .

١٥٨ـ لسان الميزان ... العسقلاني أحمد بن علي بن حجر (م ٥٨٢ هـ) .

١٥٩ـ لمع الأدلّة ... أبو الحسن علي بن أسماعيل الأشعري(م ٣٢٤ هـ) .

١٦٠ـ اللوامع الإلهية ... مقداد بن عبد الله السيوري الحلّي (م ٨٢٦ هـ) .

الميم

١٦١ـ المبدأ والمعاد ... صدر المتألّهين الشيرازي (٩٧٠ـ١٠٥٠هـ) .

١٦٢ـ المجالس والأخبار ... الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي (م ٤٦٠ هـ) .

١٦٣ـ مجمع الأمثال ... أبوالفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري (م ٥١٨هـ) .

١٦٤ـ مجمع البيان ... الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي(٤٧٠ـ٥٣٨هـ) .

١٦٥ـ مجموعة الرسائل الكبرى ... أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (٦٦١ـ ٧٢٨هـ) .
١٦٦ـ المحاسن ... أحمد بن محمّد بن خالد البرقي (م ٤٨٠ هـ) .
١٦٧ـ المراجعات ... السيد عبد الحسين شرف الدين (١٢٩٠ـ١٣٧٧ هـ) .
١٦٨ـ مروج الذهب ... علي بن الحسين بن علي المسعودي(م٣٤٥ هـ) .
١٦٩ـ مساهمة الإيرانيين في الحضارة العالمية ... حميد نير نوري .
١٧٠ـ المستدرك ... الحاكم النيسابوري محمّد بن عبد الله (م٤٠٥هـ) .
١٧١ـ مستدرك الوسائل ... ميرزا حسين النوري(١٢٥٤ـ١٣٢٠هـ) .
١٧٢ـ المسند ... أحمد بن حنبل(م٢٤١ هـ) .
١٧٣ـ مصابيح الأنوار ... عبد الله شبر (م١٢٤٢هـ) .
١٧٤ـ مطالع النور ... محمّد باقر الشفتي(م١٢٦٠هـ) .
١٧٥ـ معاني الأخبار ... الشيخ الصدوق محمّد بن بابويه القمّي(م٣٨١ هـ) .
١٧٦ـ معاني القرآن ... أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (م ٢٠٧هـ) .
١٧٧ـ المعجزة الخالدة ... محمّد بن عبد الكريم الشهرستاني (م٥٤٨ هـ) .
١٧٨ـ معجم البلدان ... ياقوت الحموي (م ٦٢٦هـ) .
١٧٩ـ معجم مقاييس اللغة ... أحمد بن فارس بن زكريا (م ٣٩٥ هـ) .
١٨٠ـ المغازي ... محمّد بن عمر الواقدي(م ٢٠٧ هـ) .
١٨١ـ المغني ... القاضي عبد الجبار الهمداني (م ٤١٥ هـ) .
١٨٢ـ مفاتيح الغيب ... فخر الدين الرازي (م ٦٠٦ هـ) .
١٨٣ـ مفاهيم القرآن ... الاستاذ جعفر السبحاني (تولد ١٣٤٧ هـ) .
١٨٤ـ مفتاح العلوم ... أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي (م ٦٢٦ هـ) .
١٨٥ـ المفردات في غريب القرآن ... الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمّد (م ٥٠٢هـ) .
١٨٦ـ مقالات الإسلاميين ... أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري (م ٣٢٤ هـ) .
١٨٧ـ مقدمة ابن خلدون ... عبد الرحمن بن خلدون (م ٨٠٨ هـ) .
١٨٨ـ مكاتيب الرسول ... علي بن حسين علي الأحمدي (المعاصر) .

١٨٩ـ الملل والنحل . . . محمّد عبد الكريم الشهرستاني (م٥٤٨ هـ) .
١٩٠ـ مناقب آل أبي طالب ... ابن شهر آشوب (٤٨٨ـ ٥٨٨ هـ) .
١٩١ـ مناهل العرفان في علوم القرآن ... محمّد عبد العظيم الزرقاني .
١٩٢ـ منتخب الأثر... لطف الله الصافي .
١٩٣ـ المنتظم ... ابن الجوزي (م ٦٥٦ هـ) .
١٩٤ـ من لا يحضره الفقيه ... الشيخ الصدوق (م ٣٨١ هـ) .
١٩٥ـ المهدي ... السيد صدر الدين الصدر (م ١٣٧٣هـ) .
١٩٦ـ المواقف ... عبد الرحمن الايجي (م ٧٥٦هـ) .
١٩٧ـ موسوعة نيقولاي لينين .
١٩٨ـ الميزان في تفسير القرآن ... السيد محمد حسين الطباطبائي (م١٤٠٢هـ) .
١٩٩ـ ميزان الحق ... القسيس الألماني فندر.

النون

٢٠٠ـ النجاة في الحكمة الإلهية ... الشيخ الرئيس ابن سينا (م ٤٢٨ أو ٤٢٧هـ) .
٢٠١ـ النكت في اعجاز القرآن ... أبو الحسن علي بن عيسىٰ (٢٩٦ـ٣٨٦هـ) .
٢٠٢ـ النهاية ... ابن الأثير الجزري (م ٦٣٠ هـ) .
٢٠٣ـ نهاية العقول : فخر الدين الرازي (م ٦٠٦ هـ) .
٢٠٤ـ نهج البلاغة ... جمع الشريف الرضي (م٤٠٦ هـ) .

الواو

٢٠٥ـ الوافي ... الفيض الكاشاني محمّد محسن (١٠٠٧ ـ ١٠٩١هـ) .
٢٠٦ـ الوحي المحمّدي ... محمّد رشيد رضا (م ١٣٥٤هـ) .
٢٠٧ـ وسائل الشيعة ... محمّد بن الحسن الحر العاملي (م ١١٠٤هـ) .
٢٠٨ـ وقعة صفين ... نصر بن مزاحم (م ٢١٢ هـ) .
٢٠٩ـ ولاية الفقيه ... الإمام الخميني (م ١٤٠٩هـ) .

الياء

٢١٠ـ ينابيع المودّة ... سليمان القندوزي (م ١٢٩٤هـ) .

فهرس الأعلام والكنى والألقاب

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الفرق والديانات والمذاهب

فهرس الشعوب والقبائل والأمم

فهرس الأماكن والوقائع



المحتويات